ماغي أوفارل

هامنت

مكتبة سر من قرأ

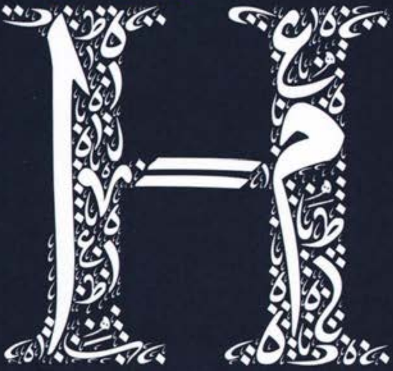

رواية

ترجمة: زوينة آل تويّه

أثر

هامنت

امسح الكود .. انضم إلى مكتبة

telegram @soramnqraa

هامنت/ رواية
ماغي أوفارل
ترجمة: زوينة آل تويّه
الطبعة الأولى 1443 / 2022
ردمك: 4-6-91810-603-978
رقم الإيداع: 7762 / 1443

Copyright © 2020 by Maggie O'Farrell

أثر

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966549966668

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

مكتبة
t.me/soramnqraa
2023 10 5

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

هامنت

رواية

ماغي أوفارل

ترجمة زوينة آل تويّه

مكتبة
t.me/soramnqraa

تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن
مبادرة ترجم

أثر

إلى وِيل

ملحوظة تاريخية

في ثمانينيات القرن السادس عشر، كان لزوجين يعيشان في شارع هنلي في ستراتفرد ثلاثةُ أبناء: سوزانا، ثم هامنت وجودِث اللذان كانا توأمين.

فارق الصبيُّ هامنت الحياةَ في عام 1596 في الحادية عشرة من عمره.

بعد أربع سنوات أو نحو ذلك، كتب الأب مسرحيةً تُدعى «هاملت».

سافر الموتُ به يا طفلتي

ونما العشبُ على أجفانه

واستراحت، في ثباتٍ، صخرةٌ

عند رجليه.[1]

مكتبة
t.me/soramnqraa

هاملت، الفصل الرابع، المشهد الخامس

هامنت وهاملت هما في الواقع الاسم نفسه، قابلان تمامًا للاستبدال في سجلات ستراتفرد في أواخر القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر.

ستيفن غرينبلات، «موت هامنت وتأليف (هاملت)»

New York Review of Books

(21 تشرين الأول 2004)

(1) ترجمة جبرا إبراهيم جبرا. (المترجمة)

I

صبيٌّ يهبط السلالم.

ممَرٌّ السلالم ضيِّق ويتلوَّى. يخطو كلَّ خطوة ببطء، منزلقًا بمحاذاة الجدار، وَطْءُ حذائه يخرج كالدَّويّ.

قريبًا من السلالم السُّفلية يقف لحظةً لينظر وراءه إلى الطريق الذي أتى منه. ثم فجأةً، يشتدُّ عزمُه فيقفز الدَّرجات الثلاث الأخيرة، كما كان دأبُه. يتعثَّر عندما يمس الأرض فيسقط على ركبتيه، على الأرض المبلَّطة بالحجارة.

إنه يوم خانقٌ بلا هواء في أواخر الصيف، وحجرة الطابق السفلي تشقُّها حُزَمٌ طويلة من الضوء. الشمس تسطع على وجهه من الخارج، والنوافذ ذات الألواح الشبكية الصفراء مثبَّتة في الجص.

ينهض، ويدْلِكُ ساقيه. ينظر إلى هذا الاتجاه، إلى أعلى السلالم، ثم إلى الاتجاه الآخر، عاجزًا عن تحديد الجهة التي ينبغي أن ينعطف إليها.

الغرفة خالية، النار تخمد في موقدها، جَمْرٌ برتقالي ينفث دخانًا لولبيًّا خفيفًا. رَضْفَتَا ركبتيه المصابتان تختلجان مع خفقان قلبه في الوقت نفسه. يقف ويده تستقر على مزلاج الباب المفضي إلى السلالم، رأس حذائه الجلدي المتآكل مرتفع، متأهِّب للحركة، للانطلاق. خُصَل شعره الفاتحة اللون، الذهبية تقريبًا، تقف على جبينه.

لا أحد هنا.

يتنهَّد، مُستنشِقًا الهواء المُغْبَرّ الدافئ، ويتحرَّك في الغرفة، ثم يخرج من الباب الأمامي إلى الشارع. لا يصله ضجيجُ عرباتِ اليد، والخيولِ، والباعةِ، والناسِ المتنادين، وضجيجُ رجلٍ يلقي جرابًا من نافذة علوية. يجول أمام واجهة المنزل ويلج البيت المجاور.

رائحة بيت جدَّيه دائمًا هي نفسها: مزيج من دخان الخشب، ومواد التلميع، والجلد، والصوف. إنه يشبه المسكن المجاور المكوَّن من غرفتين حيث يعيش مع والدته وشقيقتيه، والذي بناه جدُّه في مساحة ضيقة إلى جوار المنزل الأكبر ، لكنه مع ذلك يختلف عنه اختلافًا لا يمكن تحديده. أحيانًا لا يستطيع فهم السبب وراء ذلك. على أية حال، لا يفصل المسكنَين إلا سياجٌ رفيعٌ من الأغصان والقصب، لكنَّ الهواء في كلٍّ منهما من نوعٍ مختلف، رائحةٍ مختلفة، حرارةٍ مختلفة.

هذا البيت يضجُّ بتيارات الهواء ودُوَّامه، بالخَبْط والطَّرْق في معمل جدِّه، بقرع الزبائن على النافذة وندائهم، بضجيج الفناء وصخبه في الخلف، بأصوات أعمامه في غُدُوِّهم ورَوَاحِهم.

لكن ليس اليوم. يقف الصبي في الرُّواق مصغيًا إلى علامات تدل على الشُّغْل. يستطيع أن يرى من هنا أنَّ المعمل إلى يمينه خالٍ، المقاعد والموائد شاغرة، الأدوات عاطلة على المناضد، صحن عليه قفافيز مهملة، بدت مثل بصمات أيدٍ، تُرِكت ليراها الجميع. نافذة البيع مغلقة ومُوصَدة بإحكام. لا أحد في قاعة الطعام، إلى يساره. كُدْس من المناديل على المائدة الطويلة، شمعة غير مُوقَدة، كومة من الرِّيش. لا شيء آخر.

يهتف مُحيِّيًا، بصوتٍ يسأل. مرَّةً، مرَّتين، يرسل هذا الصياح. ثم يميل برأسه ليتسمَّع ردًّا.

لا شيء. فقط صريرُ الرَّوافد إذ تتمدَّد برفق تحت الشمس، أنينُ الهواء إذ يعبر تحت الأبواب، بين الغُرَف، حفيفُ الستائر الكتّانيَّة، فرقعة النار، جلبة منزلٍ هاجعٍ خالٍ، لا يمكن تحديدها.

تتشبَّث أصابعه بحديد مقبض الباب. حرارةُ النهار، حتى في هذا الوقت المتأخر، تجعل العرق يتصبَّب من جبينه وحتى أسفل ظهره. الألم في ركبتيه يشتد، يخِز، ثم يتلاشى مرة أخرى.

يفتح الصبيُّ فَمَه. ينادي جميع الأشخاص الذين يعيشون هنا، في هذا البيت بأسمائهم، واحدًا تلو الآخر. جدَّته. الخادمة. أعمامه. عمَّته. المتدرِّب. جدّه. يحاول الصبي مناداتهم جميعًا، واحدًا بعد الآخر. لحظةً، يخطر بباله أن ينادي باسم أبيه، أن يصيح به، لكنَّ أباه يبعد أميالًا وساعاتٍ وأيامًا، في لندن، حيث لم يذهب الصبي من قبل قطُّ.

لكنه يودُّ أن يعرف، أين أمُّه، شقيقتُه الكبرى، جدَّتُه، أعمامُه؟ أين الخادمة؟ أين جدُّه الذي لا يميل إلى مغادرة البيت في النهار، الذي عادةً ما يكون موجودًا في المعمل، إمَّا أن يضايق تلميذه المتدرِّب، وإمَّا أن يحصي عوائده في دفتر؟ أين الجميع؟ كيف يمكن أن يكون كلا البيتَين خاليَين؟

يمشي في الرُّواق. عند باب المعمل يقف. يلقي نظرة عجلى وراءه ليتيقَّن من عدم وجود أحد هناك، ثم يخطو إلى الداخل.

معمل جدِّه للقفافيز مكانٌ قلَّما يُسمَح له بدخوله. حتى الوقوف على عتبة الباب ممنوع. لا تقف هناك متبطِّلًا، سيزأر جدُّه. ألا يستطيع المرء أن يؤدي عملًا نزيهًا في النهار دون أن يكفَّ الناس عن التحديق ببلاهة إليه؟ أليس لديك ما تفعله أفضل من التسكُّع هناك لتصيُّد الذباب؟

يتمتع هامنت بعقل ذكي: ليس لديه مشكلة في فهم دروس معلِّمي

المدرسة. يمكنه أن يفهم منطق ما يُقال له ومغزاه، ويمكنه أن يستظهر الأشياء بيُسر. استحضار الأفعال والقواعد والأزمنة والبلاغة والأعداد والحساب يجيئه بسهولة يمكنها في بعض الأحيان أن تثير حسد الصِّبية الآخرين. لكنَّ عقله أيضًا يتشتَّت بسهولة. عربةُ يدٍ تمرُّ في الشارع في أثناء درس في اليونانية يمكنها أن تصرِفَ انتباهه عن لوحِهِ إلى أسئلة عن المكان الذي قد تتجه إليه، وما عساها تحمل، وماذا عن تلك المرة التي أقلَّه فيها عمُّه هو وشقيقتَيه في عربة تِبن، كم كان ذلك رائعًا، رائحةُ العشب المجزوز حديثًا ووخزُه، العجلات وهي تتبع إيقاع حوافر الفرس المتعبة. أكثر من مرتين في الأسابيع الأخيرة ضُرِبَ في المدرسة لعدم انتباهه (قالت جدَّته إنه إذا حدث ذلك مرة أخرى، مرة فحسب، سترسل إلى أبيه لتبلغه). لا يستطيع معلِّمو المدرسة فهم الأمر. هامنت يتعلَّم بسرعة، يمكنه التلاوة عن ظهر قلب، لكنَّ عقله لا يركِّز في عمله.

قد تدفعه جلبة عصفور في السماء إلى الكفِّ عن الكلام في منتصف الحديث، كأنَّ السماء نفسها تجعله أصمَّ وأبكم بضربة واحدة. وإذا رأى بمُؤخّر عينه شخصًا يدخل الغرفة، يتوقَّف عن فعل ما يقوم به -الأكل، القراءة، نسخ واجباته المدرسية- ويحدِّق إلى الشخص كأنه يحمل رسالة ما مهمة إليه فقط. لديه ميل إلى الانسلال من حدود العالم الواقعي الملموس من حوله والدخول إلى مكان آخر. يجلس في الغرفة بجسده، لكنه يكون في رأسه في مكان آخر، يكون شخصًا آخر، في مكان لا يعرفه أحد سواه. أفِق يا ولد، تصيح به جدَّته، مفرقعةً أصابعها في وجهه. عُد، تهمس سوزانا، شقيقته الكبرى ناقرة أذنه. انتبه، يصيح معلِّموه في المدرسة. أين ذهبت؟ تهمس له جودث، عندما يدخل أخيرًا مرة أخرى إلى العالم، عندما يعود، عندما ينظر حواليه ليجد نفسه قد عاد إلى منزله، جالسًا إلى طاولته، محاطًا بعائلته، ترمقه

أمُّه بنصف ابتسام، كأنها تعرف أين كان تحديدًا.

على المنوال نفسه، الآن، إذ يسير هامنت إلى ساحة معمل القفافيز المحظورة يضيِّع أثر ما كان ينبغي أن يفعله. لحظةً يفلت من عِقاله، من حقيقة أنَّ جودث ليست على ما يرام وبحاجة إلى شخص يعتني بها، وأنَّه ينبغي أن يجد أمَّهما أو جدَّتَهما أو أيَّ شخص آخر قد يعرف ما يفعل.

الجلود تتدلَّى من قضيب. يعرف هامنت ما يكفي ليميِّز جلدَ غزال أحمرَ قانيًا مرقَّطًا، جلدَ جَدْي رقيقًا ومرِنًا، فروَ سناجب صغيرة، جلدَ خنزير بري خشنًا وغليظًا. بينما يدنو من الجلود، تبدأ في الحفيف والحركة على معاليقها كأنَّ بعض حياة ما زال باقيًا فيها، قليلًا منها فقط، قليلًا بما يكفي لتسمعه قادمًا. يمدُّ هامنت إصبعه ويلمس جلد الجدي. إنه ناعم على نحوٍ غير قابل للتفسير، مثل مَسِّ الأعشاب النهرية ساقيه عندما يسبح في الأيام الحارَّة. يترجَّح الجلد برفق ذهابًا وإيابًا، القدمان منبسطتان، ممدودتان، كأن الجلد يحلِّق، مثل طائر أو غول.

يلتفت هامنت، يعاين المقعدين عند منضدة العمل: المقعد المكسوُّ بالجلد الذي تملَّس من احتكاك سروال جدِّه، والمقعد الخشبي الصلب الذي يجلس عليه نِد، المتدرِّب. يرى الأدوات تتدلى من مشاجب على الحائط فوق منضدة العمل. يستطيع تحديد تلك الأدوات الخاصة بالقَطْع، وتلك الخاصة بالتمديد، وتلك الخاصة بالتثبيت والخياطة. يرى أنَّ أداة تضييق القفافيز -المستخدمة لقفافيز النساء- في غير مكانها، تُركت على المنضدة حيث يعمل نِد برأس منكَّس وكتفَين منحنيتَين وأصابع توَّاقة ورشيقة. يعرف هامنت أنَّ جدَّه لا يحتاج إلا إلى القليل من الاستفزاز ليصيح في وجه الفتى، وربما أسوأ من ذلك، لذا يتناول أداة تضييق القفافيز، يزن ثقلها الخشبي الدافئ، ويعيد تعليقها على مِشجبها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يوشك أن يسحب الدُّرْج حيث توضع لفائفُ الخيوط وعُلَبُ الأزرار -بحذر، بحذر، لأنه يعرف أنَّ الدُّرْج سيَصُرُّ- عندما تتناهى إلى سمعه جَلَبَة، حركة طفيفة أو صرير.

في غضون ثوان، يندفع هامنت خارجًا إلى الرُّواق ثم إلى الفناء. يثوب إلى رشده. ما الذي يفعله عابثًا في المعمل؟ أخته ليست على ما يرام: ينبغي أن يجد شخصًا يساعده.

يفتح بقوة، واحدًا تلو الآخر، أبوابَ المطبخ، ومخزن الجعة، والمَغْسَل. كلُّها خالية، داخلها مظلمٌ وبارد. يصيح مناديًا مرة أخرى، بصوت أجش قليلًا هذه المرة، وقد جرَّح الصراخُ حنجرته. يتكئ على حائط المطبخ ويركل قشرة جوز فتتدحرج عبر الفناء. إنه مرتبكٌ جدًّا لأنه وحيدٌ تمامًا. شخص ما يجب أن يكون هنا، شخص ما دائمًا هنا. أين يمكن أن يكونوا؟ ماذا يجب أن يفعل؟ كيف يمكن أن يخرجوا جميعًا؟ كيف لا تكون أمُّه وجدَّتُه في البيت، كما هو الحال عادةً، تفتحان باب الفرن، تحرِّكان طعامًا في القِدْر؟ يقف في الفناء، ينظر حواليه، إلى الباب المفضي إلى الرُّواق، إلى الباب المؤدي إلى مخزن الجعة، إلى الباب المفضي إلى بيتهم. إلى أين يذهب؟ من يدعو للمساعدة؟ وأين الجميع؟

لكل حياة نواتُها، محورُها، مركزُها الذي منه يتدفَّق كلُّ شيء، وإليه يعود كلُّ شيء. هذه لحظةُ الأمِّ الغائبة: الصبي، البيت الخالي، الفناء المهجور، النداء غير المسموع. هو واقفٌ هنا، في الناحية الخلفية من البيت، ينادي الأشخاص الذين أطعموه، وقَمَطُوه، وهدْهَدوه لينام، وأخذوا بيده وهو يخطو خطواته

الأولى، وعلَّموه استخدام الملعقة، ونَفْخَ الحساء قبل أكله، والانتباه عند عبور الطريق، وعدم إثارة المتاعب، وغسلَ الكوب قبل الشرب، وتجنُّبَ المياه العميقة.

سيقبع ذلك في أعمق أعماقها، طوال ما تبقّى من حياتها.

يجرُّ هامنت حذاءه على حصباء الفناء. يمكنه أن يرى بقايا لعبة كان يلعبها هو وجودث منذ وقت ليس ببعيد: الخيوط الطويلة المربوطة إلى أكواز الصنوبر لسحبها وهزِّها لصغار قطة المطبخ. مخلوقات صغيرة هي، بوجوهٍ كزهور البنفسج المثلَّثة، وعلى مخالبها وسائد ناعمة. دخلت القطة في برميل في المخزن لتلد صغارها واختبأت هناك أسابيع. بحثت جدَّة هامنت في كل مكان عن القطط الصغيرة وقد عزمت على إغراقها جميعها، كما كان دَيْدَنُها، لكنَّ القطة خيَّبت مسعاها مبقية على صغارها في سرٍّ وأمان، وقد غدوا الآن نصف بالغين، اثنان منهم يعدوان في المكان، يتسلَّقان الأجرِبة، يطاردان الريش وبقايا الصوف وورق الأشجار المتناثر. لا تستطيع جودث أن تفارقهم طويلًا. عادة ما تضع أحدهم في جيب مئزرها، الذي ينتفخ بوضوح، فتفضحها الأذنان البارزتان، وتصرخ جدَّتها وتهدِّد ببرميل الماء. لكنَّ أمَّ هامنت تهمس لهما، بأنَّ الهررة أكبر من أن تستطيع جدَّتُهما إغراقها. «لا يمكنها فعل ذلك الآن» تقول لهما، على انفراد، وهي تكفكف الدموع على وجه جودث المذعور. «لن تجرؤ على فعل ذلك، الصغار سيقاومون، سترون، سيصارعون.»

يتقدَّم هامنت نحو أكواز الصنوبر المهجورة، خيوطها تترك آثارًا على تربة

الفناء المَدُوسَة. لا يمكن رؤية الهررة في أي مكان. يدفع كُوزَ صنوبر بمقدَّم قدمه فيتدحرج بعيدًا عنه مشكِّلًا قوسًا غير مستو.

يرفع ناظريه نحو البيتَين، نوافذ البيت الكبير العديدة ومدخل بيتهم المظلم. عادةً، يسرُّه وجودث أن يكونا وحدهما. سيحاول في هذه اللحظة بعينها إقناعها بالصعود معه إلى سطح المطبخ، حتى يتمكّنا من الوصول إلى أغصان شجرة الخوخ أعلى حائط الجيران مباشرة. إنها ملأى ومكتظة بالخوخ الذي يكاد قشرُه المُذهَّب ينفلق لفرط نضجه، وقد رآه هامنت من نافذة علوية في بيت جديّه. لو كان هذا يومًا عاديًّا، لرفع جودث إلى السطح حتى تستطيع ملء جيوبها بالفاكهة المسروقة، على الرغم من مخاوفها ومعارضتها. إنها لا تحب أن تقوم بأي شيء غير أمين أو ممنوع، فهي بريئة جدًّا بطبعها، لكن يمكن إقناعها عادة ببضع كلمات من هامنت.

لكنها اليوم، وهما يلعبان مع الهررة التي نجت من موت مبكِّر، قالت إنها تعاني صداعًا، وألمًا في حنجرتها، وتشعر ببرودة، ثم تشعر بحرارة، وقد دخلت إلى البيت لتستلقي.

يعود هامنت عبر الباب إلى البيت الكبير وعبر الرُّواق. يوشك أن يخرج إلى الشارع عندما يسمع جلبة. إنها قرقعة أو إزاحة، صوت دقيق، لكنه جلبة إنسان آخر مؤكّدة.

«مرحبًا؟» ينادي هامنت. ينتظر. لا شيء. يرجع إليه صدى الصمت من قاعة الطعام والرَّدهة من ورائها. «من هناك؟»

لحظةً، لحظةً فحسب، يسلّي نفسه بفكرة أنه قد يكون والده، عائدًا من لندن ليفاجئهم، فقد حدث هذا من قبل. سيكون أبوه هناك، خلف الباب مختبئًا، لعلّها حيلة أو خدعة. إذا دخل هامنت الغرفة سيقفز أبوه، سيكون

حاملًا هدايا مخبَّأة في حقيبته، في محفظته، ستفوح منه رائحة الخيول، والتبن، والأيام الطويلة على الطريق، سيعانق ابنه وسيضغط هامنت بخدِّه أبازيمَ سترة أبيه الخشنة الخادشة.

يعرف أنه لن يكون والده. يعرف ذلك، يعرفه. أبوه سيستجيب لنداء متكرِّر، لن يختبئ أبدًا في منزل خالٍ. ومع ذلك، عندما يدخل هامنت إلى الرَّدهة، ينتابه إحساس بخيبة الأمل مُحطِّمٌ ومتغَلغِل عندما يرى جدَّه هناك، قرب المنضدة المنخفضة.

الغرفة يكتنفها الظلام، والستائر مُسدَلة على معظم النوافذ. يقف جدُّه موليًا إيّاه ظهره في وضع منحنٍ، وهو يتلمَّس شيئًا ما: أوراقًا، جرابًا قماشيًّا، مقاييس من نوع ما. ثمَّة إبريق على المنضدة، وكأس. تتسكَّع يد جدِّه بين هذه الأشياء، منكَّس الرأس، ونَفَسُه يخرج بجهد كالصَّفير.

يسعل هامنت بتهذيب.

يلتفت جدُّه، وجهه هائج، غاضب، يده تطوِّح في الهواء، كأنما يصدُّ مهاجمًا. «مَن هناك؟» يصيح. «مَن ذاك؟»

«إنه أنا.»

«مَن؟»

«أنا.» يخطو هامنت نحو شعاع الضوء المتسلِّل من النافذة. «هامنت.»

يجلس جدُّه مُرسِلًا صوتًا مدوِّيًا. يصيح: «جعلت بدني يقشعر من الرُّعب أيها الصبي، ما الذي تعنيه بتسلُّلِك على هذا النحو؟»

«أنا آسف» يقول هامنت. «كنت أنادي وأنادي ولكن لا أحد يجيب. جودث....»

«لقد خرجن»، يقاطعه جدُّه بهزَّة سريعة بيده. «ما الذي تريده من هؤلاء النسوة كلِّهن على أية حال؟» يمسك بعنق الإبريق ويوجِّهه نحو الكأس. السائل -جِعة، يفكِّر هامنت- يندلق بشكل مائل، بعضه في الكأس، وبعضه الآخر على الأوراق فوق المنضدة، دافعًا جدَّه إلى إطلاق اللعنات، ثم مَسْح الأوراق بكُمِّه. أوَّل مرَّةٍ يخطر ببال هامنت أنَّ جدَّه قد يكون مخمورًا.

«أتعرف إلى أين ذهبن؟» يسأل هامنت.

«إه؟» يقول جدُّه، وهو ما زال يمسح أوراقه. يبدو أنَّ غضبه من تَلَفِها يستلُّ نفسه ويتمدَّد خارجه كسيف ذي حدَّين. يستطيع هامنت أن يشعر بطرفه المستدق يجول في الغرفة، باحثًا عن خصم، فيفكِّر لحظةً في غصن شجرة البندق الخاص بأمِّه والطريقة التي يتوجَّه بها نحو الماء، إلا أنَّ هامنت ليس نبعَ مياهٍ جوفية ولا غضبُ جدِّه كعصا الاستنباء[1] المرتعشة. إنه غضبٌ قاطع، باتر، لا يمكن التنبُّؤ به. ليس لدى هامنت أية فكرة عمَّا سيحدث تاليًا، أو ما ينبغي أن يفعل.

«لا تقف هناك محملقًا»، يزجره جدُّه قائلا. «ساعدني.» يخطو هامنت بتثاقل خطوة إلى الأمام، ثم أخرى. إنه حذِر، كلمات أبيه تطوف في رأسه: ابتعد عن جدِّك حينما يكون في أحد أمزجته السوداء. تأكَّد من الوقوف بعيدًا عنه. ابق بعيدًا جدًّا، أتسمع؟

قال له أبوه هذا في زيارته الأخيرة عندما كانا يساعدان على تفريغ عربة يد في المدبغة. جون، جدُّه، أسقط حزمةً من الجلود في الوحل، وفي نوبة غضب مفاجئة قذف حائطَ الفناء بسِكِّين القَشْر. فورًا سحب الأب ابنَه هامنت إلى

(1) عصا منشعبة يستعين بها بعضهم لتحديد وجود الماء أو المعادن في بقع بعينها في باطن الأرض زاعمين أنها تتلوَّى نحو الأسفل في البقعة التي توجد فيها ضالتهم المنشودة. (م)

الخلف، وراءه، بعيدًا عن الطريق، لكنَّ جون اندفع أمامهما إلى داخل المنزل دون أن ينبس بكلمة. أحاط الأب وجهَ هامنت بكلتا يديه، أصابعه تنثني على قفاه، نظرته ثابتة وفاحصة. لن يمسَّ أختيك، لكنه أنت من أقلق عليه، غمغم قائلا، وقد تغضَّنت جبهته. إنك تعرف المزاج الذي أعنيه، أليس كذلك؟ أومأ هامنت برأسه، لكنه أراد أن تطول اللحظة، ليظلَّ أبوه ممسكًا برأسه على هذا النحو: مَنَحَه ذلك إحساسًا بالخفَّة، بالأمان، بكونه مُعترفًا به ومحبوبًا تمامًا. في الوقت نفسه، شعر بقلق مروِّع يندفع بداخله، كوجبة عافتها معدتُه. فكَّر في الكلمات السريعة القصيرة التي تخرق الهواء بين أبيه وجدِّه، في الطريقة التي تمتد بها يد أبيه باستمرار إلى ياقته لإرخائها عندما يجلس إلى المائدة مع والديه. اقسم لي، قال أبوه وهما واقفان في الفناء، وكان صوته أجش. اقسم. أحتاج إلى أن أعرف أنك ستكون في مأمن عندما لا أكون هنا لأهتم بالأمر.

يحسب هامنت أنه يفي بوعده. إنه بعيد تمامًا. إنه في الجانب الآخر من المدفأة. جدُّه لا يستطيع الوصول إليه هنا، حتى لو حاول.

يجرع جدُّه ما في كأسه بيد وبالأخرى ينفض القطرات عن إحدى الأوراق. «خذ هذه»، يقول آمرًا، وهو يمسك بالصفحة.

ينحني هامنت إلى الأمام، لا يحرِّك قدميه، ويتناولها بأطراف أصابعه. عينا جدِّه تضيقان، متحفزتان، لسانه يبرز من زاوية فمه. يجلس على كرسيه منحنيًا: ضفدعٌ عجوزٌ حزينٌ جالسٌ على حصاة.

«وهذه.» يناوله جدُّه ورقةً أخرى.

ينحني هامنت إلى الأمام بالطريقة نفسها، محافظًا على المسافة الضرورية. يفكِّر في أبيه، كم سيفخر به، كم سيسعد.

سريعًا كثعلب، يندفع جدُّه. كلُّ شيء يحدث بسرعة كبيرة إلى درجة أنَّ هامنت، في ما بعد، ليس على يقين من التسلسل الذي وقع فيه كلُّ شيء: الورقة تترجَّح على الأرض بينهما، يدُ جدِّه تقبض معصمه، ثم مرفقه، ساحبةً إياه إلى الأمام، إلى الفجوة، إلى المساحة التي قال له أبوه أن يحذر منها، واليد الأخرى التي بقيت حاملةً الكأس ترتفع بسرعة. تتراءى لهامنت خطوطٌ في بصره -حمراء، وبرتقالية، لونا النار يتدفقان من زاوية عينه- قبل أن يحسَّ بالألم. إنه ألم حادٌّ، واخِزٌ، لاسع. ضربته حافةُ الكأس تحت الحاجب مباشرةً.

«هذا سيلقِّنك درسًا»، يقول جدُّه بصوت هادئ، «بألَّا تتسلَّل خلف الآخرين.»

فاضت عينا هامنت بالدموع، كلاهما، ليست المصابة فقط.

«أتبكي؟ كفتاة صغيرة؟ أنت فاسد كأبيك»، يقول جدُّه باشمئزاز مطلقًا سراحه. يثب هامنت متراجعًا، لتصطدم قصبة ساقه بطرف أريكة الرَّدهة. «دائمًا ما يبكي وينوح ويشتكي»، يغمغم جدُّه. «لا عزيمة. لا عقل. تلك كانت مشكلته دومًا. لا يستقر على حال.»

يعدو هامنت عائدًا إلى الخارج، إلى الشارع، يمسح وجهه، يُزيل الدَّمَ بكُمِّه. يدخل من باب بيتهم الأمامي، يصعد السلالم إلى الغرفة العلوية، حيث يرقد جسد جودث على الحَشِيَّة إلى جوار سرير والديهما الكبير المحاط بالستائر. الجسد عليه ثياب -قميصٌ بنِّيّ، قَلَنْسُوة بيضاء، أربطتها مفكوكة وتنسدل على عنق جودث- ويستلقي على الأغطية. ركلت نعليها اللذين يرقدان مقلوبين مثل جرابين فارغين إلى جانبها.

«جودث»، يقول الصبي لامسًا يدها. «هل تشعرين بتحسُّن؟»

يرتفع جفنا الفتاة. تحدِّق إلى شقيقها لحظةً، كأنَّما من مسافة بعيدة، ثم

تغمض عينيها مرةً أخرى. «إنني نائمة»، تغمغم.

وجهها كوجهه على شكل قلب، جبهتها العريضة كجبهته حيث شعرها الملوَّن بلون الذُّرة ينبت إلى الأعلى كشعره. العينان اللتان حدَّقتا مدَّةً وجيزة إلى وجهه لهما لون عينيه نفسه، كهرمانٌ دافئٌ منقَّط بالذهبي. ثمَّة سبب لهذا: إنهما يتشاطران يومَ ميلاد، تمامًا مثلما تشاطرا رحِمَ أمِّهما. الفتى والفتاة توأمان، بينهما دقائق في الميلاد. إنهما متشابهان، خرجا من الغشاء الجنيني نفسه.

يطوِّق أصابعها بأصابعه -الأظافر نفسها، شكل البراجم نفسه، مع أنَّ براجمه أكبر، وأعرض، وأغلظ- ويحاول التخفيف من وطأة فكرة أنَّ أصابعها زلقة وساخنة.

يقول: «كيف حالك؟ أفضل؟»

تتحرَّك. تشبك أصابعُها أصابعَه. يرتفع ذقنها، ثم ينخفض. يرى الصبي أنَّ ثمَّة انتفاخًا أسفل عنقها. وآخر حيث تلاقي كتفُها عنُقَها. يحدِّق إليهما. بيضتا سُمَانى تحت جلد جودث. شاحبتان، بيضويتان، ساكنتان هناك، كأنهما تنتظران أن تفقِسا. واحدة على عنقها، وأخرى على كتفها.

إنها تقول شيئًا، شفتاها تنفرجان، لسانها يتحرَّك داخل فمها.

«ماذا قلتِ؟» يسأل مائلًا أكثر.

تقول: «وجهك، ما الذي حلَّ بوجهك؟»

يضع يده على حاجبه، متحسِّسًا الانتفاخ هناك، دمٌ جديد رطب. يقول: «لا شيء، لم يكن شيئًا ذا بال. اسمعي»، يقول باستعجال أكبر: «سأذهب للبحث عن الطبيب. لن أتأخر.»

تقول شيئًا آخر.

يكرِّر قائلًا: «ماما؟ إنها... إنها قادمة. ليست ببعيدة.»

إنها في الواقع تبعد أكثر من ميل.

لآغنس قطعة أرض في هيولَندز، اكترتها من شقيقها، تمتد من المنزل الذي وُلِدت فيه إلى الغابة. تربِّي النَّحل هنا في قُفْر منسوجة من القِنَّب تعجُّ بحياة الكدح والانهماك. هنالك صفوف أعشاب وزهور ونبات وسيقان ينتهي بها الأمر إلى دعم الأغصان. حديقة آغنس المشعوذة، تسمِّيها زوجة أبيها مُقَلِّبَةً حدقتيها.

معظم الأسابيع يمكن رؤية آغنس وهي تتنقَّل ذهابًا وإيابًا بين صفوف النبات هذه، مزيلةً الأعشاب الضَّارَّة، واضعةً يدها على لفائف قُفْرِها، مشذِّبةً السيقان هنا وهناك، داسَّةً بعض الأزهار والأوراق والقرون والبتائل والبذور في حقيبة جلدية على خصرها.

اليوم دعاها شقيقها الذي أرسل ابن الراعي ليخبرها بأنَّ ثمَّة خطبًا ما في النَّحل، فقد غادر الخليَّة وأخذ يحتشد فوق الأشجار.

تدور آغنس حول القُفْر، مُصغيةً إلى كلِّ ما يقوله لها النحل، مراقبةً جماعة النحل في الحقل، بقعة سوداء تنتشر على الأغصان وتهتز وترتعش بغضب. شيء ما أزعجها. أهو الطقس، أم تبدُّل في درجة الحرارة، أم أنَّ شخصًا ما ضايق الخليَّة؟ أحد الأطفال، بعض الخراف الهاربة، زوجة أبيها؟

تدسُّ يدها في القفير، متجهةً إلى الأعلى وإلى الأسفل، تحت حافته، وخلال الطبقة المتبقية من النحل. إنها منتعشة في ثوبها تحت ظلال الأشجار النهرية الداكنة، ضفيرتها الكثيفة مثبَّتة أعلى رأسها، مخبَّأة تحت قلنسوة بيضاء. لا يغطي وجهها قناعُ النَّحَّال، فهي لا تضعه أبدًا. إذا دنوتَ منها على نحوٍ كافٍ، سترى أنَّ شفتيها تتحرَّكان، تغمغمان بأصوات وطقطقة خفيضة

للحشرات التي تحوم حول رأسها، وتحطُّ على رُدْنِها، وتتخبَّط أمام وجهها.

تُخرج قرصَ عسل من القفير وتقرفص لتعاينه. سطحه مغطّى، يغصُّ بشيء يبدو كأنه كيان واحد متحرِّك: بُنِّي، مرصَّع بالذهبي، والأجنحة على شكل قلوب صغيرة. إنه مئات من النحل، محتشد، متشبِّث بقرصه، بغنيمته، بعمله.

ترفع حزمة من إكليل الجبل المشتعل وتلوِّح بها برفق فوق القرص، فيخلِّف الدخان أثرًا في هواء آب الساكن. يرتفع النحل في اتِّساق ليحتشد فوق رأسها، سحابة لا حافات لها، شبكة محمولة في الهواء تتطوَّح وتتطوَّح.

يُكشَط الشمع الباهت، بحذر، بحذر، في سلَّة. يسيل العسلُ من القرص على شكل قطرة حذرة وشبه متردِّدة. بطيئة كالنُّسغ، مُذهَّبة، عبقة برائحة الزعتر الحادَّة وحلاوة الخزامى الزَّهرية، تسقط في الإناء الذي تحمله آغنس. يمتد خيط العسل من القرص إلى الإناء ويتَّسع ويلتف.

ثمَّة إحساس بتغيُّر ما، اضطراب في الهواء، كأنَّ طائرًا عبَرَ السماء بصمت. ترفع آغنس ناظريها، وهي ما زالت مقرفصة. تجعل الحركةُ يدَها تهتز، فيقطر العسل على معصمها ويسيل على أصابعها ثم إلى جانب الإناء. تعبس آغنس، تضع قرص العسل جانبًا، وتقف وهي تلعق أطراف أصابعها.

تنظر إلى أطناف هيولَندز المغطَّاة بالقش، إلى يمينها ركام الغيمة البيضاء في الأعلى وأفنان أشجار الغابة المضطربة، وإلى يسارها جماعة النحل على أشجار التفاح. من بعيد، يقود أخوها الأصغر الثاني الخراف على طريق الخيل، سوطٌ في يده، والكلب يندفع نحو القطيع ويبتعد عنه. كل شيء كما ينبغي أن يكون. تحدِّق آغنس لحظةً إلى سيل الخراف المُترجرج، إلى رشاقة أقدامها، إلى صوفها المتوحِّل المغطَّى بقشور الطين. نحلة تحطُّ على وجنتها، فتبعدها.

لاحقًا وطوال ما تبقَّى من حياتها، ستفكِّر؛ لو أنها انصرفت من فورها، لو أنها جمعت أكياسها ونباتها وعسلها واتخذت سبيلها إلى البيت، لو أنها فطنت إلى قلقها المفاجئ الذي لا اسم له، لربما غيَّرت ما حلَّ بعد ذلك. لو أنها تركت نحلها المحتشد ليتدبَّر شؤونه بنفسه، ويحقِّق مآربه بنفسه بدلًا من العمل على إغرائه للعودة إلى خلاياه، لربما تداركت ما كان قادمًا.

لكنها لم تفعل. تمسح العرق عن جبينها وعنقها، تقول لنفسها ألا تكون حمقاء. تضع غطاءً على الإناء الممتلئ، تلفُّ قرص العسل في ورقة نبات، تضغط بيدها القفير التالي، لتدرسه، لتفهمه. تميل نحوه، متحسِّسةً داخله إذ يدوِّي ويهتز، تشعر بقوته، بفعاليته، كعاصفة قادمة.

الصبي هامنت، يهرول على الطريق، قريبًا من إحدى الزوايا، يتجنب فرسًا تقف صبورةً بين أعمدة عربة يد، قريبًا من ثلَّة من الرجال تجتمع خارج مبنى البلدية، يميل بعضهم إلى بعضهم الآخر بوجوه جادَّة. يمرُّ بامرأة تحمل طفلًا بين يديها، وتناشد طفلًا أكبر سنًّا أن يسرع الخطى ليواكبها، برجلٍ يضرب كفلي حمار، بكلبٍ يرفع بصره عن ما يأكل لينظر إلى هامنت وهو يعدو. الكلب ينبح مرة واحدة بتحذير حاد، ثم يعود إلى الأكل.

يصل هامنت إلى بيت الطبيب -سأل المرأة التي تحمل الطفل عن الاتجاه- ويقرع الباب بقوة. لحظةً، يلاحظ شكل أصابعه، أظافره، فتُذَكِّره بجودث، يقرع بقوة أكبر. يخبط، يرعد، يصرخ.

يُفتَح الباب على مصراعيه، ويظهر وجه امرأة نحيل متكدِّر. «ماذا دهاك؟» تصيح ملوِّحةً بخرقة في وجهه، كأنها تدفعه بعيدًا كحشرة. «ذلك

ضجيج كافٍ لإيقاظ الموتى. اغرب من هنا.»

تهمُّ بإغلاق الباب، لكنَّ هامنت يثب إلى الأمام. يقول: «لا، أرجوكِ. أنا آسف يا سيدتي. أحتاج إلى الطبيب. نحتاج إليه. شقيقتي... ليست على ما يرام. أيمكنه المجيء إلينا؟ أيمكنه المجيء الآن؟»

تمسك المرأة الباب بقوة بيدها المحمرَّة، لكنها تنظر إلى هامنت باهتمام، بانتباه، كأنها تقرأ خطورة المشكلة في ملامحه. «إنه ليس هنا»، تقول في النهاية. «إنه مع مريض.»

على هامنت أن يبلع بصعوبة. «متى سيعود، من فضلك؟»

يخفُّ الضغط على الباب. يخطو بقدم واحدة إلى داخل البيت وتبقى الأخرى خارجه.

«لا يمكنني القول.» تنظر إليه من رأسه إلى أخمص قدميه، إلى القدم التي تتخطى عتبة بيتها. «ما عِلَّة شقيقتك؟»

«لا أعلم.» يحاول أن يستعيد التفكير في جودث، في الشاكلة التي بدت عليها وهي ترقد على الأغطية، عيناها مغمضتان، بشرتها محتقنة لكنها شاحبة. «تعاني حُمَّى. لقد لزمت فراشها.»

تتجهَّم المرأة. «حُمَّى؟ هل عليها دُبُول؟»

«دُبُول؟»

«أورام. تحت الجلد. على عنقها، تحت ذراعيها.»

يحدِّق هامنت إليها، إلى غَضَن الجلد الصغير بين حاجبيها، إلى حافة قبعتها، وكيف ترك حكُّها أثرًا غضًّا بالقرب من أذنها، إلى خُصَل شعرها السِّلكيَّة المنسدلة إلى الخلف. يفكِّر في كلمة «دُبُول»، في نغمتها النباتية

الغامضة، وكيف يحاكي وقعُ صوتها المنتفخ الشيءَ الذي تصفه. ذعرٌ باردٌ يتدفَّق في صدره، مغلِّفًا قلبه بصقيع سريع مفرقِع.

يشتد تجهُّم المرأة. تضع يدها على صدر هامنت وتدفعه إلى الخلف، خارج منزلها.

«اذهب»، تقول، وجهها شاحب. «اذهب إلى البيت. الآن. انصرف.» تهمُّ بإغلاق الباب، لكنها تقول عبر الشق الضيق، ليس بقسوة: «سأبلغ الطبيب بأن يزوركم. أعرف من تكون. أنت فتى صانع القفافيز، أليس كذلك؟ الحفيد. من شارع هِنلي. سأبلغه بأن يذهب إلى منزلكم عندما يعود. اذهب الآن. لا تقف في طريق العودة.» بعد تفكير لاحق تضيف: «حفظك الرَّبُّ.»

يعدو عائدًا. يبدو العالم أفظع، الناس أصخب، الطرقات أطول، زرقة السماء تومض بعدوانية. الفرس ما زالت واقفة عند العربة، الكلب منكمش الآن عند عتبة باب. دُبُول، يفكِّر مرةً أخرى. سمع الكلمة من قبل. يعرف ما تعنيه، ما تدل عليه.

قطعًا لا، يفكِّر، وهو ينعطف نحو شارعهم. لا يمكن. لا يمكن. ذاك الشيء –لن يسمِّيه، لن يسمح للكلمة بأن تتشكَّل حتى في رأسه– لم يُعرف في هذه البلدة منذ سنوات.

يعرف أنَّ أحدهم سيكون في البيت في الوقت الذي يبلغ فيه الباب الأمامي. في الوقت الذي يفتحه فيه. في الوقت الذي يجتاز فيه عتبة الباب. في الوقت الذي ينادي فيه أحدًا ما، أيَّ أحد. سيكون هناك رد. أحدهم سيكون هناك.

دون أن يعلم، مرَّ بالخادمة، وجدَّيه، وشقيقته الكبرى في طريقه إلى منزل الطبيب.

ماري، جدَّته، كانت قادمة عبر زقاق قرب النهر لتسليم طلبات، وهي ترفع عصاها لتبعد ديكًا صغيرًا شَكِسًا بوجه خاص يتقدَّم نحوها، وسوزانا خلفها. حضرت سوزانا لتحمل سلَّة ماري الملأى بالقفافيز: المصنوعة من جلد الغزال، وجلد الماعز، والمبطَّنة بجلد السنجاب، والصوف، ومنها ما هو مزخرف، ومنها ما هو غير مزخرف. قالت ماري حينما مرَّ هامنت سريعًا في آخر الزقاق: «مهما حاولت فلن أستطيع أن أعرف، لماذا لا يمكنكِ على الأقل النظر في عيون الناس عندما يحيُّونك. هؤلاء بعض زبائن جدِّك الذين يدفعون أكثر، وشيء من اللطف لا يضير. والآن، إنني أعتقد حقًّا...» كانت سوزانا تسير عَقِبها، تقلِّب ناظريها، وتجرُّ السَّلَّة المليئة بالقفافيز. كأيدٍ مقطوعة، فكَّرت تاركةً صوت جدَّتها يتلاشى خلف تنهُّدِها، وخلف مشهد قطعة من السماء تخترق سطوح المباني.

كان جون، جدُّ هامنت، بين الرجال المجتمعين خارج مبنى البلدية. غادر الرَّدهة وحساباته حين كان هامنت في الطابق العلوي مع جودث، ووقف موليًا هامنت ظهرَه عندما كان الصبي يعدو بحثًا عن الطبيب. لو أدار الصبي رأسه وهو يعبر، لرأى جدَّه يشقُّ طريقه إلى هذه المجموعة، مائلًا إلى الرجال الآخرين، ممسكًا بأيديهم الرافضة، مُلِحًّا، مُشاكسًا، حاثًّا إياهم على مرافقته إلى حانة ما.

لم يُدْعَ جون إلى هذا الاجتماع، لكنه سمع عنه فجاء أملًا في اللحاق بالرجال قبل أن ينفضَّ الجمع. إنه لا يريد أكثر من استرداد وضعه كرجل ذي شأن ونفوذ، لا يريد أكثر من استعادة المكانة التي تمتَّع بها يومًا. يستطيع فعل ذلك، يعلم أنه يستطيع. كلُّ ما يحتاج إليه هو آذانٌ صاغية من هؤلاء

الرجال الذين عرفهم سنوات، وعرفوه، الذين يمكنهم أن يشهدوا على جهوده وولائه لهذه البلدة. أو، إن لم يكن شيء آخر، فليكن عفوًا أو غضَّ طرْفٍ من البلدية وسلطات البلدة. كان ذات مرة مساعد عُمْدة، ثم عضوًا مرموقًا في المجلس البلدي، وكان يجلس في الصدارة في مقعد الكنيسة مرتديًا ثوبًا قرمزيًّا. هل نسي هؤلاء الرجال ذلك؟ كيف أمكنهم ألَّا يدعونه إلى هذا الاجتماع؟ كان ذا نفوذ، كان يحكمهم جميعًا. كان شخصًا ما. وأصبح الآن يعيش على ما يرسله ابنه الأكبر من نقود من لندن (وأيُّ شابٍّ مثير للغيظ كان! يتسكَّع في ساحة السوق مُبدِّدًا وقته، مَن كان يحسب أنه سيصل إلى أي شيء؟).

ما زالت تجارة جون مزدهرة، إلى حدٍّ ما، لأنَّ الناس بحاجة إلى القفافيز دومًا، وإذا كان هؤلاء الرجال يعرفون عن معاملاته السِّرِّية في تجارة الصوف، وعن استدعائه للمثول أمام المحكمة لعدم ارتياده الكنيسة، وعن الغرامات المفروضة عليه بسبب إلقاء القمامة في الشارع، فليكن. بوسع جون أن يتقبَّل رفضَهم، وفرضَهم الغرامات ومطالباتهم، وغمغمتَهم الساخرة من تدميره عائلته، واستبعادَه من اجتماعات البلدية. منزله أحد أرقى المنازل في البلدة: ثمَّةَ هذه الحقيقة دائمًا. ما لا يستطيع جون احتماله هو أنه لا أحد منهم يحتسي الشراب معه، أو يتناول الطعام على مائدته، أو يطلب الدفء أمام مدفأته. خارج مبنى البلدية، يتجنَّب الرجال نظرته، يواصلون حديثهم. لا يصغون إلى خطابه الذي أعدَّه عن تجارة القفافيز الجديرة بالثقة، وعن نجاحه، وانتصاراته، ودعواته للذهاب إلى حانة، أو لتناول العشاء في منزله. يهزُّون رؤوسهم من بعيد، ويعرضون عنه. أحدهم يربُت ذراعه قائلًا: آه يا جون آه.

لذا يقصد الحانة وحده. بعض الوقت فحسب. لا حرج في أن يكون

الرجل برفقة نفسه. سيجلس هنا، في الضوء المعتم كضوء الغسق، أمامه على المائدة عَقِبُ شمعة، ويراقب الذباب الضال حائمًا في ضوئها.

ترقد جودث على السرير، وتبدو الجدران كأنها تتراجع منتفخة إلى الداخل، ثم تتقوَّس عائدة إلى الخارج. إلى الداخل، إلى الخارج، إلى الداخل، إلى الخارج. الأعمدة حول سرير والديها في الزاوية، تتلوَّى وتلتفُّ كأفاعٍ، السقف فوقها يموج كسطح بحيرة، يداها تبدوان قريبتين جدًّا وفي الوقت نفسه بعيدتين جدًّا. الخط الذي يلاقي فيه بياضُ الجص خشبَ الروافد الأسود يتلألأ وينكسر. وجهها وصدرها ساخنان، ملتهبان، يغطيهما عرق زلق، لكنَّ قدميها باردتان كالثلج. ترتعش، مرةً، مرتين، متشنِّجةً تمامًا، وترى الجدران تميل نحوها، تطبق عليها، ثم تتراجع. لتحجب الجدران، والأعمدة الأفعوانية، والسقف المتحرِّك، تغمض عينيها.

حالما تفعل ذلك، تصبح في مكان آخر. في أماكن عديدة في آنٍ واحد. إنها تمشي في مرج ممسكةً بيدٍ بقوة. اليد يدُ شقيقتها سوزانا. أناملها طويلة وثمَّة شامة على مفصل بنصرها. لا تريد أن تُمسَك: الأصابع لا تشبك أصابعَ جودث، بل تبقى متخشِّبةً ومستقيمة. على جودث أن تتشبَّث بها بقوتها كلِّها حتى لا تفلت من يدها. تخطو سوزانا خطوات واسعة فوق أعشاب المرج الطويلة ومع كل خطوة تهتز يدها في يد جودث. إذا أفلتتها جودث، فقد تغوص تحت سطح العشب. قد تضيع، ولا يُعثر عليها أبدًا. من المهم -بل من الضروري- أن تتشبَّث بهذه اليد. يجب ألَّا تفلتها أبدًا. تعلم أنَّ شقيقها أمامهما. رأس هامنت يظهر ويختفي بين العشب. شعره بلون الحنطة الناضجة. يثب عبر المرج أمامهما، كأرنب بري، كمذنَّب.

ثم تدخل جودث في حشد. الوقت ليل، بارد، وهج الفوانيس يخترق الظلمة المتجمدة. تحسب أنه عيد تطهير العذراء. إنها في حشد وفوقه أيضًا، على كتفين قويتين، كتفي أبيها. تطوِّق ساقاها رقبته ويمسك بكاحليها، وقد دسَّت يديها في شعره. شعره كثيف أسود، كشعر سوزانا. ينقر خِنصَرُها القرط الفضي في أذنه اليسرى. يضحك من هذا -تشعر بدويٍّ ضحكه، كالرعد، ينتقل من جسده إلى جسدها- ويهز رأسه ليجعل القرط يصطدم بظفرها. أمُّها هناك، وهامنت وسوزانا، وجدَّتها. جودث هي من اختارها أبوها لتركب فوق كتفيه: فقط هي.

ثمَّة ضوء شديد السُّطوع. المجامر متوهِّجة ومضطرمة حول منصة خشبية ترتفع إلى مستوى ارتفاعها هي، هناك، على كتفي أبيها. على المنصة رجلان، يرتديان ثيابًا ذهبية وحمراء اللون بهُدُب وشرائط كثيرة، يعتمران قبعتين طويلتين، ووجهاهما أبيضان كالطباشير بحواجب سوداء وشفاه حمراء. يطلق أحدهما صياحًا عاليًا متحمِّسًا ويلقي كُرة ذهبية إلى الآخر، فينقلب هذا على يديه ويمسك بالكرة بين قدميه. يفلت أبوها كاحليها ليصفِّق فتتشبَّث جودث برأسه. تخشى أن تسقط، قد تميل إلى الوراء، وتقع من كتفيه على الحشد الهائج المائج الذي تفوح منه رائحة قشور البطاطا والتبغ والعرق والكستناء. صياح الرجل يذعرها. لا تحب المجامر، لا تحب حواجب الرجلين المتعرِّجة، لا تحب أيًّا من هذا أبدًا. تبدأ بهدوء في البكاء، فتنهمر الدموع على وجنتيها لتستقر كلآلئ على شعر أبيها.

لم تعُد سوزانا وجدَّتُها ماري إلى البيت بعد. تقف ماري للتحدُّث إلى امرأة من الأبرشية: تتبادلان عبارات الإطراء والعتاب، وتربت إحداهما

ذراع الأخرى، لكنَّ سوزانا لا تُخدَع. تعرف أنَّ المرأة لا تحب جدَّتها، أنَّ المرأة لا تكفُّ عن النظر حواليها، وراءها، متعجِّبةً إن كان ثمَّة من يراقبها وهي تكلِّم ماري، زوجة صانع القفافيز الذميم. تعرف سوزانا أنَّ من كانوا أصدقاءهم يومًا ما أصبحوا يتجنبونهم عند عبورهم الشارع. يحدث هذا منذ سنوات، ولكن منذ تغريم جدِّها لعدم ارتياده الكنيسة تخلَّى العديد من أهالي البلدة عن التظاهر بالكياسة وأخذوا يمضون في طريقهم دون الاعتراف بهم. ترى سوزانا كيف تزجُّ جدَّتها بنفسها في طريق المرأة، كي لا تستطيع العبور، كي لا تستطيع تجنُّب الحديث إليهما. ترى هذا كلَّه. معرفته تحرق رأسها من الداخل، مخلِّفةً آثار حرق سوداء.

تستلقي جودث وحيدة على فراشها، تفتح عينيها وتغمضهما. لا تستطيع إدراك ما حلَّ بهذا اليوم. في لحظة ما كانت وهامنت يسحبان أطرافًا من الخيوط لصغار القطة الجُدد -منتبهَين إلى جدَّتِهما، لأنَّ جودث أُمرت بتقطيع الحطب ومسح المائدة وهامنت يؤدي واجبه المدرسي- ثم، فجأةً، شعرت بوهن في ذراعيها، وألم في ظهرها، ووخز في حلقها. لا أشعر بأنني على ما يرام، قالت لشقيقها، ورفع نظره من الهِررة إليها، وجالت عيناه في وجهها كلِّه. وهي الآن على هذا الفراش ولا فكرة في ذهنها عن كيفية مجيئها إلى هنا، ولا عن المكان الذي ذهب إليه هامنت، ولا عن وقت عودة أمِّها، ولا عن سبب عدم وجود أحد هنا.

في السوق تنفق الخادمة وقتًا طويلًا في اختيار اللبن الذي حُلِب في وقت متأخر مغازلةً بائع اللبن خلف كشكه. حسنًا، حسنًا، يقول، ولا يفلت السَّطل. أوه، تجيب الخادمة، وهي تسحب المقبض. ألن تعطينيه؟ أعطيكِ ماذا؟ يقول بائع اللبن رافعًا حاجبيه.

تنتهي آغنس من جمع عسلها وتأخذ جرابًا وإكليل الجبل المشتعل وتتجه إلى حشد النحل. ستكنسه إلى داخل الجراب وتعيده إلى الخلية، لكن بلطف، بلطف شديد.

الأب على بعد يومين ركوبًا على الخيل، في لندن، وفي هذه اللحظة تحديدًا، يسير بخطى واسعة عبر بوابة بِشوپز غَيت صوب النهر، حيث ينوي ابتياع فطيرة من الفطائر المُحلَّاة المسطَّحة الخالية من الخميرة التي تُباع في الأكشاك هناك. به جوعٌ شديدٌ اليوم، استيقظ معه، وإفطاره من الجعة والعصيدة وغداؤه من الفطيرة لم يشبعاه. إنه حريص على ماله، يبقيه قريبًا منه، ولا ينفق أبدًا أكثر مما ينبغي. إنه أمرٌ يثير كثيرًا سخرية أولئك الذين يعمل معهم. يقول الناس عنه إنه يملك ذهبًا مخزونًا في أجْرِبة تحت ألواح مَسكنه: يسمع هذا ويبتسم. قطعًا، غير صحيح: كلُّ ما يجنيه يرسله إلى البيت في ستراتفرد، أو يأخذه معه، يغلِّفه ويخبِّئه في أخْراجِه إذا ما خرج في رحلة. لكنه مع ذلك، لا ينفق غروتًا[1] واحدًا إلا إذا كان ذلك ضروريًّا جدًّا. وفي هذا اليوم، فإنَّ

(1) الغروت: قطعة نقد بريطانية قديمة. (المورد الأكبر)

الفطيرة المُحلَّاة، في منتصف النهار، ضرورية.

إلى جانبه يسير رجل، صهر مالك المنزل. كان هذا الرجل يتحدَّث منذ مغادرتهما المنزل. والد هامنت يستمع على نحوٍ متقطِّع فقط إلى ما يقوله الرجل؛ شيء عن ضغينةٍ يضمرها لحَمِيِّه، عن مَهْرٍ لم يُوفَّ، ووعدٍ لم يُحفَظ. إنه يفكِّر بدلًا من ذلك في طريقة وصول أشعة الشمس إلى الأسفل، كسلالم، عابرةً الفجوات الضيقة في الأبنية لتنير الشارع اللامع بالمطر، يفكِّر في الفطيرة المُحلَّاة التي تنتظره قرب النهر، في خَفْق الثياب المغسولة المعلَّقة فوق رأسه والعبِقة برائحة الصابون، في زوجته على نحوٍ خاطف، في طريقة انثناء عظمتَي كتفيها عند اقترابهما وتباعدهما وهي تثبِّت شعرها في أعلى رأسها، في الرَّتق في إصبع حذائه الذي يبدو أنه أخذ ينحلّ وعليه الآن أن يزور الإسكاف، ربما بعد أن يأكل فطيرته، حالما يخلِّص نفسه من ثرثرة صهر المالك وشكواه.

وهامنت؟ يدخل من جديد إلى المنزل الضيِّق المبني في فجوة، في فراغ. إنه متيقِّن الآن من أنَّ الآخرين سيعودون. لن يكون وجودث وحدهما بعد الآن. سيكون شخص ما هنا الآن يعرف ما يفعل، شخص يتولَّى مسؤولية هذا، شخص سيقول له إنَّ كلَّ شيء على ما يرام. يخطو إلى الداخل، تاركًا الباب ينغلق خلفه. ينادي، ليقول إنه عاد، إنه في البيت. يقف منتظرًا ردًّا، لكن لا شيء هناك: الصمت فقط.

إذا وقفتَ أمام النافذة في هيولَندز ومددتَ عنقك من الجانب، سيكون ممكنًا رؤية طَرَف الغابة.

قد تجده مشهدًا مضطربًا، مخضوضرًا، متقلِّبًا: الريح تداعب أجَمَةَ الأوراق، تموِّجها، تشوِّشها؛ كلُّ شجرة تستجيب لدعوات الطقس بوتيرة تختلف قليلًا عن استجابة جارتها، تحني أغصانها وتهزُّها وتطوِّحها، كأنها تحاول التخلُّص من الهواء، من التربة نفسها التي تغذِّيها.

ذات صباح في مطلع الربيع، قبل عَدْو هامنت إلى منزل الطبيب بخمسة عشر عامًا أو نحو ذلك، يقف معلِّمٌ يدرِّس اللاتينية في هذا المكان أمام النافذة شاردًا يجذب القرط على أذنه اليسرى. يرقب الأشجار. حضورها المشترك، مصطفة كما هي، محاذية طرف المزرعة، تعيد إلى ذهنه الستارة الخلفية في مسرح، ذلك النوع من الخداع الملوَّن الذي يُسدَل بسرعة في موضعه لإخبار الجمهور بأنهم الآن في مشهد غابة، بأنَّ المدينة أو الطرقات في المشهد السابق قد ولَّت، بأنهم الآن على أرض مشجَّرة، غير محروثة، وربما غير مستقرة.

يظهر غَضَنٌ طفيف على وجهه. يبقى أمام النافذة، أطراف أصابع يده تستحيل بيضاء من الضغط على الزجاج. الصَّبيَّان خلفه، يصرِّفان الأفعال، مؤقَّتًا لا يسمعهما المعلم المُنْكَبّ على مراقبة التباين المُدهش بين زرقة سماء الربيع الصافية واخضرار الغابة الغض. يبدو اللونان كأنهما يتصارعان، يتنافسان على السيادة، على الحيوية: الأخضر مقابل الأزرق، أحدهما ضد

الآخر. الأفعال اللاتينية التي يردِّدها الصَّبيَّان تغمره، تخترقه مثلما تخترق الريحُ الأشجار. في مكان ما في بيت المزرعة يُقرَع جرس، مدةً وجيزة في البداية، ثم بإصرار. هناك وقع أقدام على الرُّواق، صوت باب يُصفَق على إطاره. أحد الصَّبيَّين -الأصغر، جيمس، المعلِّم يعرف دون أن يلتفت- يتنهَّد، يسعل، يتنحنح، ثم يعاود التَّرنُّم. يسوِّي المعلِّم ياقته، يُملِّس شعره.

تتدفَّق الأفعال اللاتينية حوله وتتدفَّق، مثل ضباب على مستنقع، خلال قدميه، فوق كتفيه، خلف أذنيه، لتتسرَّب من شقوق إطار النافذة. يسمح للكلمات المُرنَّمة بالاندماج في غشاوة سمعيَّة تملأ الغرفة، لتبلغ مباشرة روافدها السوداء العالية. تتكدَّس هناك في الأعلى، مع أمواج الدخان وسُحُبِه المتصاعدة من الموقد الذي لا مدخنة له حيث النار تشتعل. أمر الصَّبيَّين بتصريف الفعل «incarcerare»: يبدو صوت حرف c الصارم المتكرِّر كأنه يحكُّ جدران الغرفة، كأنَّ الكلمات نفسها تسعى إلى الهروب.

المعلِّم يجبره أبوه، صانعُ القفافيز، على المجيء إلى هنا مرتين في الأسبوع، فالأب مدينٌ بطريقة ما لهيولَندز، بعد تعثُّر اتفاق أو صفقة ما مع الفلاح الذي كان يملك المزرعة. كان الفلاح رجلًا عريض المَنْكِبين، يعلِّق على حزامه عصا على شكل هراوة لهش الخراف، وكان ثمَّة شيء في وجهه السَّمْح الطَّلْق المُحَيَّا أحبَّه المعلِّم بعض الشيء. لكنَّ الفلاح مات بغتةً العامَ السَّالف، تاركًا أفدِنَتَه وقُطْعَانه كلَّها، إضافة إلى زوجة وثمانية أبناء أو تسعة (المعلِّم غير متيقِّن من العدد تمامًا). كان حدثًا استقبله والده بسعادة لا تكاد تخفى. وحده فقط من يعرف طبيعة الدَّيْن: سمع المعلِّم والده يتبجَّح، في وقت متأخِّر من الليل، حين خال أن لا أحد يستطيع سماعه (المعلِّم بارع جدًّا في استراق السمع): ألا ترين؟ لن تعرف الأرملة، أو أنها إن عرفت، لن تجرؤ على المجيء وطلب الوفاء بالوعد، ولا ذلك الابن الأكبر الأبله الضخم.

يبدو، مع ذلك، أنَّ الأرملة أو الابن قد فعل ذلك تحديدًا ولهذا التدبير (فَهِمَه المعلِّم من استراقه السمع إلى الحديث الدائر وراء باب غرفة والديه) علاقة بشُحنة من جلود خراف الفلاح. أخبر أبوه الفلاحَ بأنَّ الجلود ستُرسَل للدباغة وصدَّقه الفلاح. لكنَّ أباه أصرَّ بعد ذلك على إبقاء الصوف عليها، وهو ما أثار شكوك الفلاح، فأدَّى ذلك لسبب ما إلى هذه المشكلة كلها. المعلِّم مشوَّش بشأن هذه النقطة الأخيرة، فقد صُرِفت أمُّه عن الحديث المهموس بالصياح الصارِّ النَّكِد لإدموند، أصغر أطفالها.

لدى صانع القفافيز، والدِ المعلِّم، مشروع جديد محظور بعض الشيء لا يفترض أن يعرفه أيٌّ منهم: يستطيع المعلِّم الإخبار بهذا القدْر. قال لهم والداهم أن يقولوا لمن يسأل إنَّ جلود الخراف لصنع القفافيز. وقع وأشقاؤه في حيرة من أمرهم، لأنه لم يخطر ببالهم أن تكون الجلود لأيِّ شيء آخر غير القفافيز. لأيِّ غرضٍ آخر يمكن أن يريدها والدُه، صانعُ القفافيز الأنجح في البلدة؟

ثمَّة دَين أو غرامة ووالدهما لا يستطيع دفعها (لن يدفعها؟)، وأرملة الفلاح أو ابنه لن يتنازل عنها، لذا يبدو أنه هو نفسُه المبلغَ المدفوع. وقته، قواعده اللاتينية، دماغه. مرتين كل أسبوع، قال له أبوه إنَّ عليه أن يسير ميلًا أو نحو ذلك، بمحاذاة الجدول إلى هذا البيت الريفي المنخفض، المحاط بالخراف، حيث يجب أن يدرِّس الصِّبية الصغار.

لم يتلقَّ أيَّ إنذار بهذه الخطة، بهذه الشبكة التي نُسِجت حوله. دعاه أبوه إلى المعمل ذات مساء، وأهل البيت يستعدون للنوم، ليخبره بأنه سيذهب إلى هيولَندز لـ«يحشو رؤوس الصِّبية هناك بشيء من التعليم.» وقف المعلِّم بالباب وأطال التحديق إلى والده. سأل: متى دُبِّر هذا؟ كان أبوه وأمُّه يمسحان الأدوات ويلمِّعانها استعدادًا لليوم التالي. لا تقلق، قال أبوه. كلُّ

ما تحتاج إلى معرفته هو أنك ذاهب. أجاب الابن: وماذا إن لم أكترث للأمر؟ أعاد الأب إدخال سكين طويلة في غلافها الجلدي، على ما يبدو، دون سماع هذا الرد. ألقت الأم نظرة خاطفة إلى زوجها، ثم إلى ابنها وهي تهزُّ رأسها هزًّا طفيفًا. ستذهب، قال أبوه أخيرًا، وهو يضع الخرقة، وهذه نهاية الأمر.

الرغبة في دفع نفسه بعيدًا عن هذين الشخصين، في الخروج من الغرفة، في فتح الباب الأمامي بعنف والجري إلى الشارع، تثور في الابن مثل نُسْغ في شجرة. و، بلى، الرغبة في أن يضرب أباه، في أن يُلحق شيئًا من الأذى بذلك الجسد، في أن يجمع قبضتيه ويديه وأصابعه ويردَّ إلى هذا الرجل كلَّ ما عاناه على يديه. لقد تلقَّى سِتَّتُهم جميعًا الضَّرْب والقَبْض والصَّفْع الذي سبَّبه مزاج أبيه، لكنه لا يضاهي ما تلقَّاه الابن الأكبر بانتظام ووحشيَّة. لم يعرف لماذا، لكنَّ شيئًا ما فيه طالما جذب غضبَ أبيه وإحباطَه إليه مثلما تجذب حَذْوةُ حصان مغناطيسًا. طالما حمل بداخله الإحساس بيد أبيه الغليظة وهي تقبض جلدَ عَضُده الناعمَ، قبضة لا مهرب منها تبقيه هناك حتى ينهال عليه أبوه بوابل الضَّرْب بيده الأخرى الأقوى. صدمةُ صفعةٍ تحطُّ من الأعلى مباغِتةً وحادَّة، لَسْع أداة خشبية على ظهر الساقين يشبه السَّلْخ. يا لوجع العظام بيد شخص بالغ! ما أرقَّ لحم طفل وأنعمه! ما أسهل ثني تلك العظام الصغيرة غير المكتملة وليِّها! الإحساس الطاغي والطافح بالغضب، بالذُّل العاجز، في دقائق الضرب الطويلة.

كانت ثورات الغضب تنتاب أباه فجأةً، كعاصفة، ثم يشتد عصفها سريعًا. لم يكن هناك نَسَق ما، أو تحذير ما، أو مبرِّر ما، لم يكن الشيء نفسه الذي يقلب عريكته يتكرَّر مرتين قطُّ. تعلَّم الابن منذ سنٍّ مبكرة الإحساس ببداية هذه الثورات، وسلسلةً من الخُدَع والمراوغة لتجنُّب قبضة أبيه. وكفَلَكِيّ يقرأ ما يطرأ من تحوُّل وتغيُّر طفيفين في انتظام الكواكب والنجوم

ليستكشف ما هو مخبّأ، أصبح هذا الابن الأكبر خبيرًا في قراءة أمزجة أبيه وملامحه. كان باستطاعته أن يعرف إذا ما كان سيتعرَّض للضرب من الصوت الذي يرسله الباب الأمامي حينما يدخل أبوه قادمًا من الشارع، من وقع خطاه على الأرض المبلَّطة بالحجارة. ماءٌ مُنصبٌّ من مغرفة، حذاءٌ تُرِك في المكان الخطأ على الأرض، تعبيرُ وجهٍ لا يُعَدُّ محترمًا بما فيه الكفاية، أيٌّ من هذا قد يكون عذرًا يسعى إليه الأب.

في العام الماضي أو نحو ذلك، طالت قامة الابن، أطول من الأب: إنه أقوى، أصغر، أسرع. سَيْرُه إلى الأسواق المحليَّة العديدة، إلى المزارع النائية، من المدبغة وإليها، حاملًا أجرِبَة الجلود أو القفافيز المكتملة على ظهره، منحت كتفيه ورقبته عضلات وثقلًا. لم يغِب عن انتباه الابن أنَّ ضربات أبيه قد تضاءلت في الآونة الأخيرة. كانت هناك لحظة منذ عدة أشهر خلت، عندما خرج الأب من معمله في وقت متأخِّر في المساء ليجد ابنه في الرُّواق، ودون أن ينبس بكلمة، هجم عليه رافعًا الزِّقَّ الذي كان يحمله وضرب به وجهَ الابن. كان الألم من النوع اللاسع، لم يكن موجِعًا، ولا كَدَّامًا، ولا عاجِلًا: كان له سِمة الحِدَّة، والجَلْد، والتمزيق. كان الابن يعلم أنَّ نَدَبَةً حمراء مفتوحة ستظهر على وجهه. بدا أنَّ منظر النَّدَبة زاد من غضب أبيه لأنه رفع ذراعه مرة أخرى ليسدِّد ضربة ثانية، لكنَّ الابن مدَّ ذراعه. أمسك بذراع أبيه. دفعه بكل ما أوتي من قوة، ومدهوشًا وجد أنَّ جسد أبيه قد استسلم تحت جسده. استطاع دفع هذا الرجل، هذا اللوياثان، وحش طفولته هذا، إلى الجدار بقليل جدًّا من الجهد. لقد فعل ذلك. حَصَرَ أباه هناك بكوعه. هزَّ ذراع أبيه، كأنه يهزُّ ذراع دُمْيَة، ووقع الزِّقُّ على الأرض. مال بوجهه على وجه أبيه، ملاحظًا في الوقت نفسه أنه كان ينظر إليه باحتقار. قال له: ستكون هذه المرة الأخيرة التي تضربني فيها.

وإذ يقف أمام نافذة هيولَندز، تبدو الحاجة إلى الانصراف، إلى التمرُّد، إلى الهرب، مُلِحَّةً جدًّا إلى حد أنها تملؤه حتى تتجاوز حدوده الخارجية: لا يستطيع أكل شيء من الطبق الذي تركته له أرملة الفلاح، لأنه مفعمٌ جدًّا بالرغبة في الانصراف، في الابتعاد، في نقل قدميه وساقيه إلى مكان آخر، بعيدًا جدًّا عن هنا قدر استطاعته.

تتدفَّق اللاتينية، وتعود الأفعال مرة أخرى، من صيغة الماضي التام إلى المضارع. يوشك أن يلتفت ويواجه تلميذَيه عندما يرى شخصًا يبرز من بين الأشجار.

لحظةً، خاله المعلِّم شابًّا. يعتمر قبعة، يرتدي سترة جلديَّة، وقفازين، يخرج من بين الأشجار بشيءٍ من لامبالاة ذكورية أو باستحقاق ذكوري، يطأ الأرض بخطى واسعة. ثمَّة طائر ما على قبضة يده الممدودة: صدره كستنائي اللون يشوبه بياض بلون القشدة، جناحاه منقَّطان بالأسود. يجثم محدودبًا، مكبوحًا، جسده يتمايل مع حركة رفيقه، شريكه.

يتخيَّل المعلِّم هذا الشخص، هذا الشابَّ الذي يروِّض صقرًا، أحدَ عُمَّال المزرعة. أو قريبًا للعائلة، ابن عمٍّ زائرًا ربَّما. ثم يفطن إلى الضفيرة الطويلة المتدلِّية على الكتف لتمتد متجاوزةً الخَصْر، إلى السُّترة المشدودة بإحكام حول جسد يتثنَّى على نحو مُريب عند الخَصْر. يرى التَّنُّورة التي حُزِمت إلى الأعلى سالفًا، تُسدَل الآن على عَجَل على الجوربَين. يرى وجهًا بيضويًّا شاحبًا تحت القبعة، جبهةً مقوَّسة، ثَغْرًا أحمر ممتلئًا.

يدنو من الزجاج أكثر، متكئًا على عتبة النافذة، ويراقب المرأة وهي تتنقَّل من يمين إطار النافذة إلى يساره، طائرها جاثم على قبضتها، تنُّورتها تُخَشْخِش حول حذائها. ثم تدخل فناء المزرعة متنقِّلةً بين الدجاج والإوز، ثم تتجه إلى طرف البيت، وتختفي.

يعتدل في وقفته، يتلاشى عبوسه، يتشكَّل ابتسام فوق لحيته الخفيفة. خلفه، يرين الصمت على الغرفة. يذكِّر نفسه: الدَّرس، الصَّبيَّان، تصريف الأفعال.

يستدير. يقوِّس أصابعه، متخيِّلًا ما ينبغي أن يفعله المعلِّم، مثلما فعل معلِّموه في المدرسة منذ وقت ليس ببعيد.

«عظيم»، يقول لهما.

ينظران نحوه، كنباتٍ يتجه صوب الشمس. يبتسم لوجهيهما الناعمين غير البالغين، الشاحبين كعجين غير منتفخ، في الضوء المتسلِّل من النافذة. يتظاهر بأنه لا يرى الأخ الأصغر وهو يعبث بعصا مشذَّبة تحت الطاولة، والأكبر وهو يملأ لوحه بأشكال حلقات متكرِّرة.

«والآن»، يقول لهما، «أريدكما أن تترجما العبارة الآتية: «شكرًا لك يا سيدي على رسالتك اللطيفة.»»

يبدآن بالانكباب على لوحيهما، الأكبر (والأغبى، يعرف المعلِّم) يتنفَّس من فمه، والأصغر يضع رأسه على ذراعه. وصِدقًا، ما جدوى تعليم الصبيَّين هذه الدُّروس؟ أوليس مقدَّرًا لهما أن يصبحا مزارعَين كأبيهما وإخوتهما الأكبر سنًّا؟ لكن، أيضًا، ما نفع ذلك له؟ سنواتٍ وسنوات في مدرسة القواعد وانظروا إلى أين آلت به الحال؛ في بيت ريفي مَغشِيٍّ عليه بالدُّخان، يتملَّق ابنَي راعي خراف ليتعلَّما التصريف وترتيب الكلمات.

ينتظر ريثما ينجز الولدان نصف هذا التمرين قبل أن يقول: «ما اسم تلك الفتاة الخادمة؟ تلك التي تحمل الطائر؟»

يرمقه الأخ الأصغر بنظرة مباشرة صريحة. يبتسم له المعلِّم. يفخر بنفسه بأنه بارع في الادِّعاء، في قراءة أفكار الآخرين، في تكهُّن الطريقة التي

سيقفزون بها، ما الذي سيفعلونه تاليًا. الحياة مع أبٍ حاد الطَّبْع تشحذ هذه المهارات في سنٍّ مبكرة. يعرف المعلم أنَّ الأخ الأكبر لن يخمِّن القصد من وراء سؤاله، لكنَّ الأصغر، البالغ تسع سنوات فقط، سيخمِّن.

«طائر؟» يقول الأكبر سنًّا. «ليس لديها طائر.» ينظر إلى شقيقه. «أليس كذلك؟»

«لا؟» يدرك المعلم نظراتها الخاوية. لحظةً، يرى مرة أخرى ريش الصقر الأغبر المرقَّش. «لعلَّني مخطئ.»

يقول الأخ الأصغر على عَجَل: «تلك هَيتي التي تعتني بالخنازير والدجاج.» يقطِّب ما بين حاجبيه. «الدجاج طير، أوليس كذلك؟»

يهزُّ المعلِّم رأسه. «بلى إنه كذلك حقًّا.»

يتحوَّل مرةً أخرى إلى النافذة. ينظر باحثًا. كلُّ شيء كما كان. الريح، الأشجار، الأوراق، النِّعاج القذرة المتجمهرة، الأرض المروَّضة المحروثة حيث امتدادها يلاقي طرف الغابة. ما من فتاة تُرى. أيمكن أن تكون تلك دجاجة على ذراعها الممدودة؟ يشكُّ في ذلك.

في وقت تالٍ من ذلك اليوم، بعد انتهاء الدَّرس، يسير المعلِّم حول ناحية البيت الخلفية. كان ينبغي أن يسلك الدَّرب المؤدي إلى البلدة، ليبدأ المسير الطويل عائدًا إلى البيت، لكنه يودُّ أن يرى الفتاة مرة أخرى، يودُّ أن ينظر إليها، ربما يبادلها بضع كلمات. لديه رغبة في معاينة ذلك الطائر من كَثَب، في سماع أي نوع من الأصوات يخرج من ذلك الفم. يودُّ أن يزن تلك الضفيرة في يده، أن يشعر بتعرُّجها المعقوص الحريري ينزلق بين أصابعه. يرفع نظره

إلى نوافذ البيت وهو يشقُّ طريقه سائرًا حول الجدران. قطعًا لا عذر له في أن يوجد هنا في فناء المزرعة. ستحزر أمُّ الولدين في لحظة بما يسعى إليه فتطرده. قد يفقد عمله هنا، قد يعرِّض للخطر أيَّ اتفاق هشٍّ عقده أبوه مع أرملة الفلاح. حتى هذه الفكرة لا توقف المعلِّم.

يسير عبر فناء المزرعة متجنِّبًا البِرَك وكُتَل الرَّوَث. أمطرت في وقت سالف عندما كان يحاول تعليم الصَّبيَّين الصيغةَ الشرطية، فقد سَمِع وقْعَ المطر على سطح البيت القشي العالي. الضوء يبدأ في الانحسار عن السماء، شمس اليوم تغرب، ما زال هناك شيء من برد الشتاء في الهواء. دجاجة تنبش الأرض بِدَأَب، تئنُّ بهدوء لنفسها.

يفكِّر في الفتاة، في ضفيرتها، في صقرها. هي ذي وسيلة للتخفيف من عبء هذه الزيارات الإجبارية تعرض نفسها الآن عليه. هذا العمل مع هذين الطفلين، في هذا المكان الكئيب الشنيع، قد يصبح محتملًا بعد كل شيء. يتخيَّل وَصْلًا غراميًّا بعد التدريس، نزهة في الغابة، لقاء خلف أحد هذه الحظائر أو الأكواخ.

لا يخامره الشَّك، ولو لحظة، في أنَّ تلك المرأة التي رآها هي في الحقيقة ابنة البيت الكبرى.

لها سُمْعَةٌ سيِّئة ما في هذه الأنحاء. يقال إنها غريبة الأطوار، ممسوسة، غير مألوفة، ربما معتوهة. سمع أنها تجوب الطرقات الخلفية والغابة كما تشاء، لا يرافقها أحد، تجمع النبات لتصنع أدوية مُريبة. من الحكمة ألَّا يصادفها المرء، فالناس يقولون إنها تعلَّمت حرفتها من حَيْزَبُون شمطاء كانت تصنع الأدوية وتغزِل، وإنها يمكن أن تقتل طفلًا بنظرة واحدة. يقال إنَّ زوجة الأب تعيش في ذعر من أن تسحرها الفتاة، ولا سيَّما الآن وقد مات الفلاح. ومع ذلك، لا بدَّ أنَّ أباها كان يحبُّها، لأنه ترك لها مَهْرًا ضخمًا في وصيته. وقطعًا ليس

أي شخص سيرغب في الزواج بها. يقال إنها شديدة الجموح بالنسبة إلى أي رجل. أمُّها، رحمها الرَّبُّ، كانت غجريَّةً، أو ساحرةً، أو جنيَّة غابات: سمع المعلم العديد من هذه الحكايات الوهميَّة عنها. تهزُّ أمُّه رأسها وتمتعض عندما يأتي ذكر هذه الفتاة في حديث ما.

لم يرها المعلِّم قطُّ، لكنه يتصوَّر نصفها امرأة ونصفها الآخر حيوانًا: كثيفة الحاجبين، عرجاء، شعرها مخطَّط بالرَّمادي، ثيابها متلبِّدةٌ بالطين وورق الشجر. ابنة ساحرة غابات ميِّتة. تمشي بعرج، تغمغم لنفسها متلمِّسةً ما بداخل حقيبتها المحمَّلة بلعناتها وأدويتها.

نظر حوله، إلى الظل في جانب زريبة الخنازير المُحتجِب عن الريح، إلى أغصان شجر التفاح العارية المائلة على السِّياج في محيط فناء المزرعة. لا يودُّ أن يأخذ هذه الابنة على حين غرَّة. يدخل من باب في السِّياج فيخرج سائرًا على مَسْلَك. ينظر خلفه إلى نوافذ البيت، إلى أبواب الحظيرة حيث الماشية تمضغ العشب مومئةً برؤوسها في مرابطها. أين يمكن أن تكون؟

تُشتِّتُ انتباهَه عن التفكير في الأخت الساحرة المجنونة حركةٌ إلى يساره: باب يُفتَح، خَشْخَشَة ثوب، صرير مُفَصِّلة باب. إنها الفتاة صاحبة الطائر! هي عينها. تظهر من كوخ بُنِي كيفما اتفق، وهي تغلق الباب وراءها. هنا تمامًا، أمامه، كأنه استدعى حضورها بالفكرة وحدها.

يسعل في قبضة يده.

يقول: «عِمْتِ مساءً».

تلتفت. تنظر إليه لحظةً، ترفع حاجبيها، قليلًا جدًّا، كأنها رأت بَكْرَة أفكاره، كأنَّ رأسه شفَّاف كالماء. تنظر إليه من رأسه إلى أخمص قدميه.

«سيِّدي»، تجيب بعد حين بانحناءة احترام طفيفة. «ما الذي يأتي بك إلى

هيولَندز؟»

صوتها بيِّنٌ، حَسَنُ النَّغْمَة، فصيح. له تأثير فوري فيه: تسارع في نبضه، حرارة في صدره.

«إنني أدرِّس الصَّبيَّين هنا»، يقول. «اللاتينية.»

يتوقَّع أن يثير ذلك إعجابها، أن تومئ برأسها باحترام. رجل متعلِّم هو، أديبٌ ومثقَّف. تمنَّى لو استطاع القول: ليس ريفيًّا مَن يقف أمامكِ يا سيِّدتي، ليس فلاحًا فحسب.

لكنَّ ملامح الفتاة لم تتبدَّل. «آه»، تقول. «معلِّم اللاتينية. بلا شك.»

يحيِّره فتور ردِّها. إنها كلُّها شخصٌ مُربِك: سِنُّها يصعب تخمينه، مثلما يصعب تحديد مكانتها في العائلة. لعلَّها أكبر منه سنًّا بقليل. ترتدي مثل خادمة، ثيابًا خشنة ومتَّسخة، لكنها تتحدَّث مثل سيِّدة. منتصبة القامة، طولها يوازي طوله تقريبًا، شعرها أسود كشعره. تنظر إليه كما يفعل رجل، لكنَّ جسدها وقوامها يملآن تلك السترة على نحوٍ أنثوي جليّ.

يقرِّر المعلِّم أنَّ الجرأة أفضل نَهْجٍ هنا. «هلَّا أريتِني... طائرَكِ؟»

تعبس. «طائري؟»

«رأيتكِ في وقت سالف تخرجين من الغابة، أليس كذلك؟ مع طائر على ذراعك؟ صقر. طائر آسِر...»

أوَّلَ مرةٍ تفضح وجهَها عاطفةٌ ما: همٌّ، قلق، شيء من الخوف. «لن تخبرهم»، تشير إلى المزرعة، «أتفعل؟ منعوني إخراجها اليوم، كما ترى، لكنها كانت مضطربة جدًّا، وجائعةً جدًّا، ولم أطِق حبسها طوال الأصيل. لن تقول إنك رأيتني؟ إنني خرجت؟»

يبتسم المعلِّم. يخطو نحوها. «لن أتحدَّث عن الأمر أبدًا»، يتمكَّن من القول على نحوٍ رائع ومُواسٍ. يضع يده على ذراعها. «لا تقلقي.»

ترفع نظرتها فتلاقي نظرته. ينظر أحدهما إلى الآخر عن قرب. يرى عينين ذهبيتي اللون تقريبًا، بحلقتين كهرمانيتين حول حدقتيهما. نقاط خضراء. رموش طويلة سوداء. بشرة شاحبة ونمش على الأنف وعظمتي الوجنتين. تفعل شيئًا غريبًا: تضع يدها على يده التي تستقر على ساعدها. تمسك بالجلد والعضلة اللذين بين إبهامه وسبَّابته وتضغط. القبضة ثابته، مُلِحَّة، وغريبة على نحو حميم، على حافة الألم. تجعله يتنفَّس بعمق. تجعل رأسه يطفو. يقينُ القبضة. لا يحسب أنَّ أحدًا لمسه هناك، على هذه الشاكلة من قبل أبدًا. لا يستطيع إبعاد يده دون جَذْبٍ قوي، حتى لو أراد. قوَّتها مدهشة، ويجدها مثيرة على نحوٍ غريب.

«أنا...» يبدأ دون أن تكون لديه أدنى فكرة إلى أين ستذهب هذه الجملة، وما الذي يريد قوله. «هل أنتِ...»

فجأةً، تُفلِت يده، تُبعِد يدها عنه. يدُه، حيث أمسكت به، يحسُّها ساخنة وعارية تمامًا. يفرك بها جبهته، كأنما يعيدها إلى وضعها الصحيح.

«أردت أن ترى طائري»، قالت، كلها جِدٌّ وجدارة الآن، وهي تأخذ مفتاحًا من سلسلة مخبَّأة في تنُّورتها، تفتح القفل وتدفع الباب. تخطو إلى الداخل ويتبعها مبهورًا.

إنَّه مكانٌ صغيرٌ، معتمٌ، ضيِّق، رائحته جافَّة ومألوفة. يتنشَّق رائحة خشب، ليمون، شيئًا حلوًا وذا ألياف. وأيضًا مسحة من رائحة طباشيرية، مِسْكِيَّة. والمرأة التي إلى جواره: بوسعه أن يشُمَّ شعرها وبشرتها التي تحمل نَفْحَة إكليل الجبل الرَّقيقة. يوشك أن يمدَّ يده إليها مرةً أخرى. كتفُها،

خصرُها، قريبان إليه على نحوق مُعَذِّب، ولِمَ عساها ستحضره إلى هنا، حقًّا، إن لم تكن تفكِّر هي أيضًا في...

«تلك هي»، تهمس، بصوت مُلِحٍّ وخفيض. «أيمكنك أن تراها؟»

«مَن؟» يقول، وقد شتَّته الخصر، وإكليل الجبل، والرُّفوف من حوله، التي أصبحت أوضح في العتمة إذ أخذت عيناه تألفان الظلام. «ماذا؟»

«صقري»، تقول وتتقدَّم إلى الأمام، فيرى المعلم في الطرف البعيد من الكوخ، وتدًا خشبيًّا طويلًا يجثم عليه طائر جارح.

عليه بُرْقُع، جناحاه مطويَّان، مخالبه قشريَّة مَغْرَاء تقبض الوتد. وقفته محدودبة، يهزُّ كتفيه، كأنَّ المطر انهال عليه. ريش جناحيه أسود، لكنَّ صدره شاحب ومتموِّج كلحاء شجرة. يبدو غريبًا له أن يكون قريبًا جدًّا من مخلوق يبدو أنه مُكوَّنٌ بلا شك من عنصر آخر، من الريح أو السماء أو ربما حتى الأسطورة.

«ربَّاه!» يسمع نفسه يقول، فتلتفت، وأوَّل مرةٍ تبتسم.

«إنها عوسق» تغمغم. «أحد أصدقاء أبي، كاهن، وهبني إياها وهي ما زالت فَرْخًا. أُخرجها لتطير معظم الأيام. لن أخلع برقعها الآن، لكنها تعرف أنك هنا. ستتذكَّرُك.»

لا يشكُّ المعلِّم في ذلك. مع أنَّ عيني الطائر ومنقاره يغطيهما برقع صغير مصنوع من الجلد -أجلد خروف هو أم لعلَّه جلد ماعز صغير؟ يجد نفسه يتساءل فينزعج- ينتفض رأسه ويدور مع كل كلمة يقولانها، كل حركة يأتيانها. يجد أنه يودُّ أن يرى وجه الطائر، أن يرى تلك العين، أن يعرف ما يكمن خلف ذلك البرقع.

«اصطادت فأرين اليوم»، تقول المرأة. «وفأر حقل. إنها تحلِّق»، تقول

ملتفتةً إليه، «بصمت تام. لا يمكنهم سماعها قادمة.»

المعلِّم، وقد شجَّعته نظرتها، يمدُّ يده. يجد رُدْنها، سُترتها، وأخيرًا خصرها. يطوِّقه بيده بقوة تضاهي قوة لمسها، محاولًا جذبها نحوه.

«ما اسمك؟» يقول.

تبتعد، لكنه يمسكها بقوة أكبر.

«لن أقول لك.»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ستقولين.»

«أفلِتني.»

«أخبريني أولا.»

«وبعدها ستفلتني؟»

«أجل.»

«كيف أعرف أنك ستفي بوعدك، أيها السيِّد المعلِّم؟»

«إنني دائمًا ما أفي بوعودي. أنا رجل يحفظ العهد.»

«مثلما إنك رجل له يَدَان. أفلتني. أقول لك؟»

«اسمك أولًا.»

«وبعد ذلك ستحرِّرني؟»

«أجل.»

«حسنًا جدًّا.»

«ستخبرينني؟»

«نعم. إنه...»

«ما هو؟»

«آن» تقول، أو يبدو أنها تقول في الوقت نفسه الذي يقول فيه: «يجب أن أعرف.»

«آن؟» يكرِّر مدهوشًا، الكلمةُ مألوفة لكنها في الوقت نفسه غريبة في فمه. كان اسمَ شقيقته التي ماتت ليس قبل أكثر من عامين. يدرك أنه لم يتفوَّه بالاسم منذ اليوم الذي وُورِيَ فيه جثمانها الثَّرى. مرة أخرى ولحظةً يرى باحةَ الكنيسة المبلَّلة، أشجارَ الطَّقسوس إذ يقطُرُ نُسْغُها، بطنَ الأرض المظلم الذي شُقَّ ليستقبل الجسد المُدثَّر بالبياض، نحيلًا جدًّا وصغيرًا. بدا أصغر كثيرًا من أن يذهب إلى الأرض هكذا، وحيدًا.

تستغل الفتاة الصقَّارة ارتباكه الوجيز لتبعده عنها، فيقع على الرُّفوف المصطفَّة على الجدران. ثمَّة صوت غريب يتردَّد كالصدى، مثل ألف قطعة أو كُرَة في لعبة تجد مكانها. يتلمَّس طريقه حول نفسه فيجد أشياء عديدة مستديرة، مشدودة القِشر، باردة، وسطها شوك. فجأة، يدرك الرائحة المألوفة هنا.

«تفاح»، يقول.

تطلق ضَحِكًا قصيرًا عبر المساحة بينهما، يداها مستقرَّتان على الرَّف خلفها، والصقر إلى جوارها.

«إنه مخزن التفاح.»

يحمل واحدة إلى وجهه ويستنشق الرائحة، قويَّة، واضحة، حمضيَّة. تعيد إلى ذهنه عددًا من الصور البعيدة: أوراقًا ساقطة، عشبًا نديًّا، دخان خشب، مطبخ أمِّه.

«آن»، يقول وهو يقضم التفاحة.

تبتسم، شفتاها تتقوَّسان على نحوٍ يثير فيه الجنون والبهجة، كليهما في آن واحد. تقول: «ذلك ليس اسمي».

ينزل التفاحة بغضب زائف، بارتياح جزئي. «قلتِ لي إنه هو.»

«لم أقُل.»

«قلتِ.»

«لم تكن تسمع إذًا.»

يلقي التفاحة نصف المأكولة جانبًا ويدنو منها.

«خبريني الآن.»

«لن أفعل.»

«ستفعلين.»

يضع يديه على كتفيها، ثم يترك أطراف أصابعه تجتاز ذراعيها، ويراقبها وهي ترتعش من لمسته.

يقول: «ستخبرينني حينما نتبادل القُبَل.»

تميل برأسها جانبًا. تقول: «متغطرس، ماذا لو لم نتبادل القُبَل قطُّ؟»

«لكننا سنفعل.»

مرةً أخرى، يدها تجد يده، تقبض أصابعها اللحم الذي بين إبهامه وسبَّابته. يرفع حاجبيه وينظر إلى وجهها. يحمل تعبير امرأة تقرأ نصًّا صعبًا بوجه خاص، امرأة تحاول فكَّ شفرة شيء ما، تحلُّ شيئًا ما.

«همم»، تقول.

يسأل: «ما الذي تفعلينه؟ لِمَ تمسكين بيدي هكذا؟»

تعبس ناظرةً إليه مباشرة، على نحوٍ فاحص.

«ما الأمر؟» يقول، وقد أقلقه فجأةً صمتها، تركيزها، قبضتها على يده. يستقر التفاح في أخاديده من حولها. يجلس الطائر ساكنًا على مجثمه مُصِيخًا السمع.

تميل المرأة نحوه. تفلت يده التي يحسُّ مرة أخرى بأنها عارية، مسلوخة، تالفة. دون سابق إنذار، تضغط فَمَه بفمها. يشعر بملمس شفتيها المُخْمَلي، بضغط أسنانها الشديد، بنعومة بَشَرَة وجهها المستحيلة. ثم تتراجع.

«إنه آغنس»، تقول. وهذا الاسم يعرفه أيضًا، مع أنه لم يقابل شخصًا يحمله من قبل. آغنس. يُنطق على نحوٍ يختلف عن كيفية كتابته على صفحة، مع تلك الغين السِّرِّيَّة، شبه المخفيَّة. يتثنَّى اللسان نحوها، لكنه لا يكاد يمسَّها. آن–يس. آغن–يز. على المرء أن يميل في المقطع الأول، ثم يقفز إلى الثاني.

تنزلق من الفسحة بين جسده والرُّفوف. تفتح الباب والضوءُ وراءها أبيض باهر، غامر. ثم يصفق الباب خلفها ويبقى هو وحده، مع الصقر، مع التفاح، مع رائحة الخشب والخريف، ورائحة ريش الطائر ولحمه الجافة.

إنه مُدَلَّهٌ جدًّا بالقُبْلة، بمخزن التفاح، بتذكُّر ملمس كتفيها، بخططه عن ما سيفعله في المرة المقبلة عندما يُرسَل إلى هيولَندز، خطط إيجاد تلك الخادمة بمفردها مرة أخرى، ويكون في منتصف طريق العودة إلى البلدة قبل أن تصدمه فكرة. ألا يقال أنَّ ابنة العائلة الكبرى تربِّي صقرًا؟

كانت هناك حكاية في هذه الأنحاء عن فتاة عاشت على طرفٍ من أطراف الغابة.

يقول الناس هذه الكلمات بعضهم لبعض: هل سمعتَ عن الفتاة التي عاشت على طرف الغابة؟ وهم يجلسون حول النار ليلًا، وهم يعجنون العجين، وهم ينفشون الصوف للغَزْل. قصصٌ كهذه، بلا شك، تجعل الليل يمضي سريعًا، تهدِّئ طفلًا شكِسًا، تصرف آخرين عن همومهم.

على طرف من أطراف الغابة، فتاة.

ثمَّة وعدٌ من الراوي للمستمع مخفيٌّ في ذلك المَطْلَع، مثل ملحوظة مدسوسة في جيب، تلويحٌ بأنَّ شيئًا على وشك الحدوث. أيُّ شخص على مقربة سيلتفت ويصيخ السمع، ويكون عقله قد بدأ يرسم صورة للفتاة، ربما شاقَّةً طريقها بين الأشجار، أو واقفةً بجانب حائط الغابة الأخضر.

ويا لها من غابة! كثيفة، وارفة بجنونٍ، يتشابك فيها العُلَّيْق واللَّبلاب، ويقال إنَّ الأشجار متراصَّة جدًّا إلى درجة أنَّ هناك مساحات بأكملها لا يصلها الضوء أبدًا. ليس مكانًا ليضيع فيه المرء، إذًا. كانت هناك دروبٌ تدور حول نفسها، دروبٌ تُضِلّ المسافرين عن طريقِهم، ونيَّاتهم. أنْسَامٌ كانت تهبُّ من العدم. أراض مقطوعة الشجر حيث يمكنك سماع موسيقى أو همسٍ أو همهمةٍ باسمك تقول: هنا، تعال هنا، تعال من هذا الطريق.

الأطفال الذين عاشوا قرب الغابة كانوا يُوجَّهون منذ نعومة أظفارهم إلى عدم المجازفة بدخولها وحدهم. كانت الفتيات تُحَثُّ على الابتعاد، وتُحذَّر مما قد يتربَّص بهن في تلك الأعماق الخضراء الشائكة. كانت هناك مخلوقات تشبه البشر -سكَّان الغابة، أُطلِق عليها- تمشي وتتحدَّث، لكنَّ أقدامها لم تطأ خارج الغابة قطُّ، عاشت حياتها كلَّها في ضوء الغابة المُورِق، وأغصانها

المُلتفَّة، وأعماقها الرطبة والمتشابكة. قيل إنَّ كلب صيد، كان مخلوقًا بديعًا بخاصرة ملساء وأنياب لامعة، قد غاص في الآجام بحثًا عن غزال، ولم يُرَ مرة أخرى قطُّ. تبع وميضَ الحيوان الأبيض فأطبقت عليه الغابة، ولم تطلقه قطُّ.

كان الناس الذي يُضطَرُّون إلى عبور الغابة يتوقَّفون للصلاة، هناك مذبح، صليب، حيث يمكنك الوقوف لتضع سلامتك بين يدي الرَّبّ، والأملَ بأنه يسمعك، والثقةَ بأنه سيحرُسك، وأنه لن يترك طريقك يتقاطع وطريق ساكني الغابة أو جنيَّاتها أو مخلوقات أوراق الشجر. قال بعضهم إنَّ الصليب أصبح مُغَطًّى بكُبَبِ اللَّبلاب المشدودة وممتلئًا بها. آمن مسافرون آخرون بقوى الظلام: في جميع أطراف الغابة كانت هناك مزارات حيث ربط الناس مِزَقًا من ثيابهم إلى الأغصان، تركوا أكوابًا من الجعة، أرغفة خبز، خُرْدَة من الآنِية، خيوطًا من خَرَز لامع أملًا في إرضاء أرواح الأشجار لتهبهم عبورًا آمِنًا.

إذًا، في بيت على طرف من أطراف الغابة مباشرة، سكنت الفتاة وشقيقها الصغير. يمكن رؤية الأشجار من النوافذ الخلفية وهي تطوِّح رؤوسها المضطربة في الأيام العاصفة، وتهزُّ قبضاتها العارية والملتوية في الشتاء. وُلِدت الفتاة وشقيقها وهما يشعران بجذب الغابة، بقوَّتها المُغرية.

اعتقد الناس الذين عاشوا في القرية زمنًا طويلًا أنَّ أمَّ الفتاة خرجت من الغابة. من أين، لم يعرف أحد. لعلَّها كانت من سكَّان الغابة وضلَّت طريقها، فافترقت عن بني جِلْدَتِها، أو لعلَّها كانت شيئًا آخر.

لم يعرف أحد. ذهبت الحكاية إلى أنها ظهرت في يوم من الأيام وهي تفرِق بين نبات العُلَّيْق، وتخرج من العالم الأخضر الشَّفَقي، ومنذ ذلك الحين لم يستطع المزارع الذي صادف أن كان واقفًا هناك يراقب خرافه أن يشيح

بنظره عنها أبدًا. التقط أوراق الشجر من شعرها والحلازين من ثوبها. نفض الغُصينات والطحالب عن رُدْنَيها، ومسح الطين عن قدميها بالماء. أخذها إلى بيته، وأطعمها وكساها وتزوَّجها، وبعد مدة ليست بطويلة رُزِقا طفلة.

في هذه المرحلة من الحكاية، عادةً ما يوضِّح الرُّواة بأنه لم توجد امرأة قطُّ مشغوفة بطفل إلى هذا الحد كهذه المرأة. كانت تربط الطفلة إلى ظهرها وتحملها أينما ذهبت، وهي تجول حول بيت المزرعة على قدميها العاريتين، حتى في أبرد أيام الشتاء. لم تكن لتضع الطفلة في مَهْد، حتى في الليل، بل تبقيها بالقرب منها، كما يفعل الحيوان. كانت تختفي ساعات متوالية في الغابة لتعود بعد حلول الظلام مع الطفلة، ربما بمئزر مليء بكستناء غير مقشَّرة، إلى بيت بلا نار، بلا طعام، بلا أي شيء مُعَدّ لزوجها للأكل. بدأت الزوجات في البيوت المجاورة يتهامسن، ويتساءلن كيف يطيق الرجل الأمر. ولمعرفتهن أنَّ الأم الجديدة كانت نفسها بلا أم، أو بدت كذلك، جاءت هؤلاء النسوة إلى المزرعة ليَهَبْنَها حكمتَهُن في التدبير المنزلي، والفطام، وتجنُّب الأسقام، والطريقة الأفضل لرفو الثياب، وكيف ينبغي أن تضع قلنسوة لتغطي شعرها الآن وقد تزوَّجت.

هزَّت المرأة رأسها لهن جميعًا، مبتسمةً بتحفُّظ. كثيرًا ما شوهدت في الطريق بشعر مكشوف ومنسدل على كتفيها. حفرت قطعة أرض خارج بيت المزرعة وزرعت فيها نباتًا غريبًا، سرخس غابات ونباتًا مُتسلِّقًا، أزهار فلفل وشجيرات منخفضة قبيحة. بدا أن الشخص الوحيد الذي كانت تتحدَّث إليه هو أرملة عجوز عاشت على الطرف القصي من القرية. غالبًا ما أمكن رؤيتهما تتبادلان أطراف الحديث في حديقة الأرملة الصغيرة المُسوَّجة، المرأة الأكبر سنًّا متكئة على عصاها، والأصغر سنًّا تحمل الطفلة على ظهرها وقدماها ما زالتا حافيتين، وشعرها ما زال مكشوفًا، وهي تميل لتعاين

أعشاب الأرملة.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى ولدت المرأة مرة أخرى، صبيًّا هذه المرَّة، كان قويًّا منذ اللحظة التي تنفَّس فيها. كان طفلًا ضخمًا، بيدين عريضتين وقدمين كبيرتين بما يكفي للمشي. فعلت المرأة كما فعلت من قبل، وربطت الصبي إليها، لكنها بعد يوم أو يومين على مولده انطلقت إلى الغابة، والطفلة تدْرُج إلى جانبها.

عندما انتفخ بطن المرأة للمرة الثالثة، نَفَد حظُّها. لزمت الفراش لتلد طفلها الثالث، لكنها هذه المرة لم تنهض منه مرة أخرى. أتت نسوة القرية لغسلها وكَفْنِها وإعدادها للعالم الآخر. انتحبن كما ينبغي، ليس لأنهن كنَّ مُولعات بالمرأة التي ظهرت من الغابة وتزوَّجها رجلٌ من رجالهن، المرأة التي حملت اسمَ شجرة، المرأة التي لم يكن لديها سوى القليل جدًّا لتقوله لهن، المرأة التي صدَّت محاولاتهن للمصاحبة، بل لأنَّ موتها ذكَّرهن بإمكان موتهن. بَكَيْن كلُّهن وهنَّ ينظِّفن شعرها ويُسرِّحنه، ويُزِلن الأوساخ من تحت أظافرها، ويُرخينَ قميصًا أبيض على رأسها، ويُدثِّرن الجراب الصغير للطفل الجهيض ويضعنه بين ذراعي الجثمان.

جلست الفتاة الصغيرة تراقب، ظهرها إلى الحائط، قدماها مطويَّتان تحتها، لا تصدر صوتًا. لم تنشج، لم تبكِ، لم تنبس بكلمة. نظرتها لم تَحِد عن جسد أمِّها. في حِجْرِها، أمسكت بشقيقها الصغير الذي أخذ ينشج ويسيل أنفه ويمسح عينيه بثوبها. إذا اقترب أيٌّ من هؤلاء الجيران ذوي النوايا الحسنة، بصقت الفتاة وخمشت مثل قطة. لم تكن لتفلت أخاها مهما حاول الكثيرون انتزاعه منها. يصعب مساعدة طفلة كتلك الطفلة، قالوا، يصعب أن تحمل لها أي شعور.

الشخص الوحيد الذي سمحت له بالاقتراب كان الأرملة التي كانت

صديقة عزيزة لأمِّها. جلست الأرملة على مقعد بالقرب من الطفلين، ساكنةً تمامًا، في حِجْرِها صحن طعام. بين حين وآخر، كانت الفتاة تسمح للمرأة بوضع بعض اللُّوق[1] في فم الصبي بالملعقة.

تذكَّرت إحدى الجارات أختها غير المتزوِّجة، جوان، التي كانت على صِغَر سِنِّها تعتني بالعديد من الأشقاء الصغار، والخنازير كذلك، وقد اعتادت العمل الشاق. لِمَ لا نجعلها تعمل في بيت المزارع؟ شخص ما عليه أن يعتني بالبيت، ويرعى الطفلين، ويوقد النار، ويُعِدَّ الطعام. مَن يعلم ما قد ينتج؟ الجميع كان يعلم أنَّ المزارع كان رجلًا ميسور الحال، يملك بيتًا ريفيًّا جميلًا وأفدِنة من الأرض، ويمكن السيطرة على الطفلين بالتصرُّف الصحيح.

والآن، قد يكون صحيحًا أو غير صحيح أنَّه قبل مرور شهرٍ على وجود جوان في المزرعة بدأت تشكو الفتاةَ إلى كل شخص يستمع إليها. كانت الطفلة تُوقِعُها في حَيْرَة. استيقظت مرتين في الليل لتجد الفتاة واقفة فوق رأسها، ممسكةً بيدها. باغتتها وهي تدسُّ في جيبها شيئًا وَضَحَ عند المعاينة أنه كان غُصينات مربوطة بريش دجاجة. اكتشفت أوراق لبلاب تحت مخدَّتها، ومَن غيرها سيضعها هناك؟

لم تعرف نساء القرية ماذا يقلن أو ما إذا كان عليهن تصديقها، لكنَّ العديد منهن لاحظ أنَّ بَشَرَة جوان أصبحت مُبقَّعة ومليئة بالبثور. أنَّ الثآليل نمت على يديها. أنَّ غَزْلها كان متشابكًا ومُهَلْهَلًا، أنَّ خبزها يأبى الانتفاخ. لكنَّ الفتاة كانت طفلة فحسب، طفلة صغيرة جدًّا، فكيف يمكن أن تكون قادرة على الإتيان بأفعال كهذه؟

لعلَّك تظنّ أنَّ جوان ستتراجع، ستترك المزرعة وتعود إلى عائلتها. لم يكن

(1) طعام لينٌ مُعَدّ للأطفال. (المورد الأكبر)

أمرًا هيِّنًا جدًّا أن تردعها طفلةٌ شقيَّةٌ صعبةُ المراس. قاومت بشراسة، دلَّكت ثآليلها بشحم الخنزير، وفركت وجهها بخرقة مغمورة في الرماد.

مع الوقت، كما هو شأن هذه الأمور غالبًا، كُوفِئ إصرار جوان. اتَّخذها المزارع زوجة له وأنجبت له ستة أطفال، كلُّهم جميلون ومتورِّدون وممتلئو الأجسام، مثلها، مثل الأب.

بعد زفافها، كفَّت جوان عن شَكْوِ الفتاة إلى الناس، فجأةً كأنَّ أحدًا خاط فمها. ليس ثمَّة شيء غريب فيها، كانت تقول بحدَّة. لا شيء البتَّة. كان هراءً وثرثرةً القولُ إنَّ الفتاة تستطيع أن تبصر ما في نفوس الناس. ما مِن خطأ في عائلتها، في بيتها الريفي، لا شيء أبدًا.

بطبيعة الحال، شاع نبأ قدرات الفتاة الخارقة. جاء الناس تحت جُنْح الظلام. عندما كبرت الفتاة وجدت وسيلة ليوافق طريقُها طريقَ أولئك الأشخاص الذين يحتاجون إليها. كان معروفًا في المنطقة أنها كانت تسير في محيط الغابة، عند أطراف الأشجار، في الأصيل المتأخر، في المساء الباكر، صقرُها يحلِّق فوق الأغصان ويعود ليحطَّ على قفَّازها الجلدي. كانت تُخرِج هذا الطائر في الغسق، لذا إذا كنت مهتمًّا، يمكنك الإعداد للتنزُّه في المنطقة.

إذا سألتها، ستخلع الفتاة -وقد غدت امرأة الآن- قفَّاز الصَّقَّار وتمسك بيدك لحظةً فحسب، وتضغط اللحم الذي بين الإبهام والسبَّابة حيث تكمن قوة يدك كلُّها، وتخبرك بما تشعر. قال بعضهم إنَّ الإحساس كان مدوِّخًا، مستنزِفًا، كأنها كانت تسحب منك قوتك كلَّها، وبعضهم الآخر قال إنه كان منشِّطًا، مفعمًا بالحياة، كزخَّات المطر. حلَّق طائرها في السماء، فَرَدَ ريشه، صاح، كأنه يحذِّر.

قال الناس إنَّ اسم الفتاة كان آغنس.

***

هذه هي الحكاية، أسطورة طفولة آغنس. هي نفسها قد تروي حكاية أخرى.

في الخارج، كانت هناك الخراف ويجب إطعامها وسقيها والاعتناء بها مهما كان الأمر. يجب إدخالها وإخراجها ونقلها من حقل إلى آخر.

في الداخل، كانت هناك النار ولا يجب تركها تخمد. يجب تغذيتها مرارًا ومراقبتها وتحريك جمرها، وأحيانًا يجب أن تنفخها أمُّها، بشفتين مزمومتين.

وكانت الأم نفسها شيئًا زلِقًا، لأنه كانت هناك أمٌّ، وكان لها كاحلان رفيعان قويَّان على قدمين عاريتين. هاتان القدمان اسودَّ أخمصهما، وكانتا تسيران في اتجاه ما ثم في اتجاه آخر على البلاط الحجري المنقوش، وأحيانًا تخرجان من البيت وتمران بالخراف وتلجان الغابة حيث تخطوان عبر أوراق الأشجار والغصينات والطحالب. كانت هناك يدٌ أيضًا، تمسك بيد آغنس لتمنعها من السقوط، وكانت دافئة ومتينة. عندما تُرفَع آغنس من أرض الغابة إلى ظهر تلك الأم، يمكنها أن تستكنَّ تحت معطف شعرها. عندئذ تتبدَّى لها الأشجار خلال الخُصَل مثل عرض فوانيس. انظري، قالت الأم، هذا سنجاب، واختفى في أعلى الجذع ذيلٌ زاهٍ ضارب إلى الحُمرة، كأنها هي نفسها قد استحضرته من اللحاء. انظري، هذا رفراف: إنه مثل سهم مرصَّع بالجواهر يخترق صفحة غدير فضيَّة. انظري، هذا بندق: تتسلَّق الأمُّ الأغصان، تهزُّها بيديها القويتين فتسقط عناقيد من لآلئ حمراء يخالطها سواد.

شقيقها، بارثولوميو، بعينيه الواسعتين المدهوشتين وأصابعه التي تتفتَّح كنجوم بيضاء، كان يركب محمولًا على صدر أمِّها، فيحدِّق كلٌّ منهما إلى

وجه الآخر وهما في الطريق، تتشابك أصابعهما فوق عظمتي كتفي أمِّهما المستديرتين. تقطف لهما أمُّهما أوراق الأسَل الأخضر، تجفِّفها، ثم تنسج منها دُميتَين. كانت الدُّميتان متطابقتين، وقد دسَّتهما آغنس وبارثولوميو جنبًا إلى جنب في صندوق، وجهاهما الأخضران الفارغان يحدِّقان بثقة إلى السقف.

ثم رحلت هذه الأم وكانت هناك أخرى مكانها قرب النار، تغذِّيها بالخشب، تنفخ اللَّهب، تنقل القِدْر من الأثافي إلى المِشبَك قائلة: لا تلمسيه، حذارِ، ساخن. هذه الأم الأخرى أضخم، شعرها باهت، وقد لُفَّ في عقدة تختبئ تحت قلنسوة مسودَّة من العرق. تفوح منها رائحة لحم الضأن والزيت. بشرتها محمرَّة يغطيها النَّمش، كأنَّ عربة يد تسير على الوحل نَثَرَته. كان لها اسم، «جوان»، جعل آغنس تفكِّر في كلب نابح. تناولت سكِّينًا وقصَّرت شعر آغنس قائلة إنها لا تملك الوقت للاعتناء به كل يوم. التقطت دُميَتي الأسَل، قالت إنهما دميتان شيطانيتان فألقتهما في النار. عندما أحرقت آغنس أصابعها محاولةً انتشال جسديهما المحترقين، ضحكت الأم وقالت إنَّ آغنس نالت ما تستحق. كانت تلبس نعلين تربطهما على قدميها. لم تذهب هاتان القدمان قطُّ من المزرعة إلى الغابة. إذا ذهبت آغنس بمفردها دون استئذان، تخلع هذه الأم أحد نعليها وترفع تنُّورة آغنس وتهوي بالنَّعل على ظهر ساقيها، خبطٌ، فرقعةٌ، ويكون الألم مباغتًا جدًّا، غريبًا جدًّا إلى درجة أنَّ آغنس تنسى أن تصرخ. كانت بدلًا من ذلك تحدِّق إلى الرَّوافد، في الأعلى، حيث ربطت الأم الأخرى حزمة أعشاب بحصاة وسطها ثقب. لإبعاد الحظ السيء، قالت. تذكَّرتها آغنس تقوم بهذا. عضَّت شفتها. أمرت نفسها بألا تبكي. نظرت إلى عين الحصاة السوداء. تساءلت متى ستعود هذه الأم. لم تبكِ.

تخلع هذه الأمُّ الجديدة نعلها أيضًا إذا قالت آغنس أنت لستِ أمي، أو إذا

داس بارثولوميو ذيل الكلب، أو إذا أراقت آغنس الحساء، أو تركت الإوز يخرج إلى الطريق، أو إذا لم تحمل سطل الخنازير طوال الطريق إلى المِعْلَف. تعلَّمت آغنس أن تكون رشيقة الحركة وسريعة. تعلَّمت مزايا الاختفاء، كيف تعبر في غرفة دون أن تسترعي الانتباه. تعلَّمت أنَّ ما يَخْفَى في شخص ما يمكن إظهاره، لنقُل، بِذَرٍّ شيءٍ من نبات حامول الماء على كأس ذلك الشخص. تعلَّمت أنَّ النبات المُعْتَرِش المنزوع من جذع شجرة بلُّوط، عندما تُفْرَك به ملاءة السرير، يضمن أنَّ أيَّ شخص يستلقي هناك لا ينعم بالنوم. تعلَّمت أنها إذا أمسكت بيد أبيها وقادته إلى الباب الخلفي حيث اقتلعت جوان نبات الغابة كلَّه، سيلوذ أبوها بالصمت، ثم ستُولوِلُ جوان وتقول له إنها لم تقصد أيَّ ضرر، وإنها حسبتها حشائش ضارَّة. واكتشفت، بعد ذلك، أنَّ جوان كانت تمدُّ يدها تحت المائدة وتقرصها تاركةً بقعًا أرجوانية على جلدها.

لقد كان هذا زمنَ الارتباك، زمنَ الفصول المتعاقبة بقسوة. إنه زمنُ الغرف المعتمة بالدخان. زمنُ ثغاء الخراف وأنينها الدائم. زمنٌ كان فيه والدها بعيدًا عن البيت معظم النهار، يرعى الحيوانات. زمنُ محاولة منع طين الخارج من الوصول إلى الداخل النظيف. زمنُ إبعاد بارثولوميو عن النار، عن جوان، عن بركة الطاحون وعربات اليد على الطريق وحوافر الخيل الساحقة وجدول الماء وخَبْط المنجل. كانت الحُمْلان المريضة توضع في سَلَّة إلى جوار النار، وتُغذَّى من خِرَق مبلَّلة بالحليب، صياحها الشبيه بصوت المزمار يقطع الغرفة كالمنشار. أبوها في الفناء، يمسك بين ركبتيه بالنِّعاج التي تقلِّب أحداقها نحو السماء من الذعر، وهو يُعمِل المجزَّ عبر صوفها. جَزَزُ الصوف تسقط على الأرض مثل زوبعة غيوم ويخرج من كلٍّ منها مخلوق مختلف تمامًا؛ نحيل، لبني الجلد، هزيل.

الجميع قال لآغنس إنه لم تكن هنالك أمٌّ أخرى. عمَّ تتحدثين؟ صاحوا. حينما أصرَّت، غيَّروا الخطة. لن تتذكَّري أمَّك الحقيقية، لا يمكنك أن تتذكَّري. قالت لهم إنَّ هذا لم يكن صحيحًا، خبطت الأرض بقدمها، ضربت المائدة بقبضتيها، صَقَعَت في وجوههم مثل ديك. ماذا عنى ذلك؟ لماذا أصرُّوا على هذه الأكاذيب، هذه الأباطيل؟ كانت تتذكَّر. تتذكَّر كلَّ شيء. قالت هذا لأرملة الصيدلي التي عاشت في أطراف القرية، امرأة أخذت تغزل الصوف، واصلت العمل على مِدْوَسِها كأنَّ آغنس لم تتحدَّث، لكنها بعد ذلك أومأت برأسها. أمُّك، قالت، كانت نقيَّة القلب. كان هناك لُطْفٌ في خِنصَرِها -ورفعت يدها المتغضِّنة- أكثر مما في أصابعها الأخرى كلِّها.

كانت تتذكَّر كلَّ شيء. كل شيء إلَّا إلى أين ذهبت أمُّها، لماذا رحلت.

في الليل، كانت آغنس تهمس لبارثولوميو عن المرأة التي أحبَّت السَّير معهما في الغابة، المرأة التي ربطت بالأعشاب حصاة وسطها ثقب، المرأة التي صنعت لهما دُميتَين من الأسَل، المرأة التي كانت لها حديقة نبات وراء الباب الخلفي. كانت تتذكَّر هذا كلَّه. تقريبًا كله.

ثم ذات يوم صادفت أباها خلف زريبة الخنازير، رُكْبَتُه على عنق حَمَل وقد هوى عليه بسِّكِّينه. أعادتها الرائحة، المشهد، اللون إلى سرير مُشبَّع باللون الأحمر وغرفة من الأشلاء، من العنف، من لون قرمزي مُروِّع. أخذت تحدِّق إلى أبيها وتحدِّق، لكنها لم تكن تراه أبدًا. بدلًا من ذلك، رأت سريرًا وسطه زهرة حمراء، ثم صندوقًا ضيِّقًا. كانت تعرف أنَّ داخله أمَّها، ولكنها ليست كما كانت. هذه الأم كانت مختلفةً مرةً أخرى. كانت شمعيَّةً وباردة وصامتة، وبين ذراعيها حزمة ملتفَّة يبرز منها وجه دُمْيَة حزينٌ وذاوٍ. كان على الكاهن أن يأتي ليلًا لأنَّ الأمر سِرّ، وكان كاهنًا لم تره آغنس من قبل قطُّ. كان عليه رداء طويل ويحمل وعاء تشتعل فيه نار أخذ يُدْليه فوق الصندوق ويُهَمْهِم

بكلمات غريبة أشبه بأغانٍ. يجب ألّا تخبر آغنس أحدًا أبدًا، قال أبوها، وهو يبكي، وألّا تخبر الجيران أو أي شخص بأن الكاهن جاء وردَّد كلمات سحريَّة فوق المرأة الشمعيَّة والطفل الحزين. قبل أن ينصرف الكاهن، مسَّ رأس آغنس مرة واحدة، برفق، وضغط جبينها بإبهامه، وقال ناظرًا مباشرة إلى عينيها، بلغة مألوفة لها: الحَمَل المسكين.

تقول آغنس هذا كلَّه لأبيها، وهو راكع هناك على هذا الحَمَل الآخر، والأحمر يتدفَّق من الخط المرسوم على عنقه. تصرخ به، تصيح به من أعماق رئتيها، من صميم قلبها. تقول، أتذكَّر، أعرف هذا كلَّه.

هُس يا فتاتي، يقول مُلتفِتًا نحوها. لا يمكنكِ التذكُّر. هُس، الآن. لا تقولي هذه الأشياء. لم يكن هنالك من كاهن في الليل. لم يمسّ رأسك. إيَّاك أن يسمعك أحد تقولين ذلك. إيَّاك أن تسمعك أمُّك.

لا تعرف آغنس إن كان جوان يقصد، المرأة التي في المنزل، أم أمَّها، التي في السماء. يبدو لها كأنَّ العالم تكسَّر، كبيضة. يمكن أن تنشقَّ السماء فوقها في أي لحظة، وتمطرهم جميعًا بالنار والرماد. في طرف بصرها، يبدو أنَّ أشكالًا سديمية سوداء تحوم. بيت المزرعة، زريبة الخنازير، إخوتها وأخواتها في الفناء، كلهم يبدون في آنٍ واحد بعيدين وقريبين على نحوٍ لا يطاق. تعرف أنه كان هناك كاهن. كيف يزعم أبوها خلاف ذلك؟ تتذكَّر الصليب حول عنقه، الذي رفعه إلى شفتيه ليقبِّله، الطريقة التي خلَّف بها وعاؤه دخانًا خفيفًا في الهواء فوق أمِّها والطفل، وأنه ردَّد اسم أمِّها مرارًا وتكرارًا، في منتصف صلواته الغامضة: روان، روان. تتذكَّر. الحَمَل المسكين، قال لها. يقول أبوها، هُس، لا تقولي ذلك أبدًا، لذا تهرب منه، من الحَمَل الذي أصبح الآن مترهِّلًا وفارغًا من الدم، أكثر قليلًا من كيس حوصلة وعظام، وتمضي إلى الغابة حيث تصيح بهذه الأشياء للأشجار، للأوراق، للأغصان، حيث

لا يستطيع أحد سماعها. تمسك بسيقان العُلَّيق الشائكة حتى تخترق جلدها، وتصرخ بربِّ الكنيسة التي يقصدونها كلَّ أحد، في هيئات أنيقة، حاملين الأطفال على ظهورهم، حيث لا دخان، لا أوعية، لا كلام على الألسنة. تناديه، تزعق باسمه. أنت، تقول، أنت، أتسمعني، إني أحسم أمري معك. بعد هذا الوقت، سأرتاد كنيستك لأنه عليَّ ذلك، لكنني لن أنبس بكلمة هناك لأنه ليس هنالك شيء بعد الموت. ثمَّة التراب وثمَّة الجسد وكلُّه ينتهي إلى العدم.

تخبر أرملة الصيدلي بهذا، وهذه الكلمات تجعل العجوز ترفع ناظريها. تئزُّ العجلة ببطء أكثر، تخفُّ سرعتها شيئًا فشيئًا، والمرأة تحدِّق إلى الطفلة. لا تقولي هذا لأي أحد أبدًا، تقول لآغنس بصوتها الشبيه بالصَّرير. أبدًا. وإلا جررتِ إلى رأسك متاعب لا حصر لها.

تكبر وهي ترقب الأمَّ صاحبة النعلين تحتضن أطفالها البدينين الجميلين وتدلِّلهم. ترقبها وهي تضع في أطباقهم من الخبز أطْرَاه ومن اللحم أفضله. على آغنس أن تعتاد الإحساس بأنها من درجة ثانية، ناقصة بطريقة ما، غير مرغوب فيها. هي مَن يجب أن يكنسَ الأرض، ويغيِّرَ فُوَط الأطفال، ويُهدهدَهم، ويحرِّكَ جمْر الموقد ويَحُشَّ النار. ترى، تدرك أنَّ أيَّ حادث أو مكروه يقع -طبق يسقط، إبريق ينكسر، بعض نسيج يتفكَّك، خبز لا ينتفخ- سيكون خطأها على نحوٍ ما. تكبر وهي تعرف أنها يجب أن تحمي بارثولوميو وَتَقِيه من بلايا الحياة كلِّها، فما مِن أحد آخر سيفعل. هو من دمها، كليًّا وتمامًا، بطريقة لا يكون بها أي شخص آخر. تكبر وبداخلها وهجٌ خفيٌّ خاص: يحرقها، يدفئها، يحذِّرها. ينبغي أن تهربي، يقول لها الوهج. يجب أن تفعلي.

يندُرُ -إن حدث- أن يلمس أحدٌ آغنس. ستكبر وهي تتوق إلى ذلك:

يدٌ على يدها، على شعرها، على كتفها، أصابع تمسُّ ذراعها. بصمةُ لطفٍ إنسانية، مشاركة شعورية. زوجة أبيها لا تقترب منها أبدًا. يلمسها إخوتها وأخواتها ويخمشونها، لكنَّ ذلك لا يُعوَّل عليه.

تكبر مفتونةً بأيدي الآخرين، مجذوبةً دومًا إلى لمسها، إلى الإحساس بها في يديها. تلك العضلة التي بين الإبهام والسبَّابة، بالنسبة إليها، لا تُقَاوَم. يمكن غلقها وفتحها كمنقار طائر ويمكن العثور على قوة القبضة كلِّها هناك، قوة الإمساك كلها. يمكن إدراك قدرة الشخص، ومداه، وجوهره. كل ما أَمْسَكَ به، ما احتفظ به، وكل ما يتوق إلى الإمساك به موجود هناك في ذلك المكان. إنها تدرك أنه يمكنك اكتشاف كل شيء تحتاج إلى معرفته عن شخص ما فقط بضغط يده.

لم تتجاوز آغنس السابعة أو الثامنة من عمرها حين سمح لها زائر بالإمساك بيده على هذه الشاكلة، فتقول: ستلقى حتفك في غضون شهر، وأَلَمْ يتحقَّق ذلك تمامًا عندما قضت الملاريا على الزائر في الأسبوع التالي مباشرة؟ تقول إنَّ الراعي سيتعثَّر وتُؤذَى ساقه، إنَّ أباها سيُحاصَر في عاصفة، إنَّ الطفل سيمرض في عيد ميلاده الثاني، إنَّ الرجل الذي عرض ابتياع جلود خراف أبيها كاذب، إنَّ البائع الجوَّال أمام الباب الخلفي يحمل نيَّات تجاه خادمة المطبخ.

تقلق جوان والأب. ليست مسيحيةً هذه القُدرة. يتوسَّلان إليها أن تتوقَّف، ألَّا تلمس أيدي الناس، أن تخفي هذه الهِبَة الغريبة. لا خير سيأتي منها، يقول أبوها إذ يقف على رأس آغنس وهي تقرفص قرب النار، لا خير أبدًا. عندما تمدُّ يدها لتمسك بيده، ينتزعها منها.

تكبر وهي تشعر أنَّ خطأ ما بها، أنها في غير مكانها، قاتمةٌ جدًّا، طويلة جدًّا، جامحة جدًّا، عنيدة جدًّا، صامتة جدًّا، غريبة جدًّا. تكبر وهي تدرك أنها

لا تكاد تُطاق، مزعجة، عديمة الفائدة، أنها لا تستحق الحب، أنها ستحتاج إلى تغيير نفسها تغييرًا جوهريًّا، وسحق نفسها إذا كانت ستتزوَّج. تكبر أيضًا بذاكرة ما يعنيه أن تُحَبَّ على نحوٍ صحيح، لما أنت عليه، وليس لما ينبغي أن تكونه.

تأمل أن يكون هناك ما هو حيٌّ من هذه الذاكرة بما يكفي ليمكِّنها من التعرُّف إليها إذا ما صادفتها. وإذا صادفتها، لن تتردَّد. ستمسك بها بكلتا يديها كوسيلة للهرب، كوسيلة للبقاء. لن تصغي إلى احتجاج الآخرين، واعتراضهم، ومنطقهم. ستكون هذه فرصتها، طريقها عبر الثقب الضيِّق في قلب الحصاة، ولن يقف شيء في طريقها.

يصعد هامنت السلالم، يتنفَّس بمشقَّة بعد عَدْوِه عبر البلدة. يبدو أنَّ قواه تُستنزَف وهو يضع ساقًا أمام الأخرى، رافعًا قدمًا بعد أخرى نحو كل دَرَجَة. يستخدم الدَّرَابْزين ليجُرَّ نفسه.

إنه واثق، إنه على يقين من أنه عندما يصل إلى الطابق العلوي سيرى أمَّه. ستميلُ على السرير حيث ترقد جودث، وسيكون جسدها مُنْحَنِيًا كقوس. ستُدَثِّر جودث بأغطية جديدة، سيكون وجهها شاحبًا لكنه يقظٌ ومنتبهٌ ومطمئن. ستعطيها آغنس محلولًا، ستجفل جودث من مرارته لكنها ستتجرَّعه على أية حال. جُرَعُ أمِّها يمكنها أن تعالج أي شيء، الجميع يعرف ذلك. يأتي الناس من جميع أنحاء البلدة، من جميع أنحاء ووركِشَر وما وراءها ليتحدَّثوا إلى أمِّه عبر نافذة البيت الضيق، ليصفوا أعراضهم، ليخبروها بما يعانونه، بما يُقاسونه. بعض هؤلاء الناس تدعوهم إلى الدخول. أغلبهم من النساء، وتجلسهم قرب النار على الكرسي ذي الذراعين، وتمسك أيديهم بيدها، في حين تطحن بعضَ الجذور، بعضَ أوراق النبات، ذُرَارَةً من البتائل. يغادرون حاملين صُرَّة قماشية أو قارورة صغيرة مسدودة بورق وبشمعِ عسل، ووجوههم منفرجة الأسارير، مبتهجة.

ستكون أمُّه هنا. ستردُّ إلى جودث عافيتها. يمكنها إبعادُ أيِّ مرض، أيِّ علَّة. ستعرف ماذا تفعل.

يدخل هامنت إلى الغرفة العلوية. هناك شقيقته فقط، وحيدة، على

السرير.

يرى وهو يتقدَّم نحوها أنها أصبحت أشحب، أضعف، خلال الوقت الذي أنفقه في البحث عن الطبيب. الجلد حول عينيها رمادي ضارب إلى الزُّرقة، كأنَّه مرضوض. أنفاسها واهنة وسريعة، عيناها تحت جفنيها تتقلَّبان جيئة وذهابًا، كأنها تنظر إلى شيء لا يستطيع هو رؤيته.

يطوي هامنت ساقيه تحته. يجلس على طرف الحشيَّة. يمكنه سماع شهيق أنفاسها وزفيرها. بالنسبة إليه، ثمَّة بعضُ السَّلْوى في هذا. يشبك خِنْصرَه في خِنْصَرِها. دمعة وحيدة تنسلُّ من عينه وتسقط على الملاءة، ثم على حشيَّة الأسَل تحتها.

تسقط دمعة أخرى. أخفق هامنت. يرى هذا. أراد أن يستدعي شخصًا ما، أمًّا أو أبًا، جدًّا أو جدَّة، شخصًا بالغًا، طبيبًا. أخفق في جميع النواحي. يغمض عينيه ليحبس دموعه، ويترك رأسه يسقط على ركبتيه.

بعد نصف ساعة أو نحو ذلك، تدخل سوزانا من الباب الخلفي. تُلقي سلَّتها على مقعد وترتمي على الطاولة جالسةً. تنظر في هذا الاتجاه، بتعاسة، ثم في ذلك الاتجاه. النار منطفئة، لا أحد هنا. أمُّها وعدت بأن تعود لكنها لم تعُد. أمُّها لا تكون أبدًا حيث تقول إنها ستكون.

تخلع سوزانا قبعتها وترميها على المقعد قربها. تنزلق وتقع على الأرض. تفكِّر سوزانا في الانحناء لاستعادتها لكنها لا تفعل. بدلًا من ذلك، تلتقطها بإصبع قدمها وتركلها بعيدًا. تتنهَّد. إنها تقريبًا في الرابعة عشرة من عمرها. كلُّ شيء -منظر الآنية المكدَّسة على المائدة، الأعشاب والزهور المربوطة

إلى الرَّوافد، دُمية شقيقتها المصنوعة من أعواد الحنطة على وسادة، الإبريق الموضوع قرب الموقد- يثير فيها سُخطًا عميقًا لا يُسْبَرَ غَوْرُه.

تنهض. تفتح النافذة لتسمح بدخول بعض الهواء، لكنَّ الشارع تفوح منه رائحة الخيل، والقذارة، رائحة شيء نتن وعفِن. تغلقها بعنف. لحظةً فقط، تخال أنها تسمع شيئًا يصدر من الطابق العلوي. هل من أحد هنا؟ تقف لحظةً، تتسمَّع. لكن لا. لا مزيد من الأصوات.

تجلس على الكرسي ذي الذراعين، الذي يستخدمه زُوَّارُ أمِّها، الناسُ الذين يتسلَّلون نحو الباب، عادةً في وقت متأخر من الليل، ليهمسوا بآلام، نزيفٍ، توقُّفِ نزيف، أحلامٍ، نذيرٍ، أوجاعٍ، مصاعبَ، حُبٍّ مُربك، حُبٍّ لحوح، نبوءاتٍ، دورات قمر، أرنبٍ برِّيٍّ يقطع طريقهم، طائرٍ داخل المنزل، فقدانِ الإحساس بأحد الأطراف، إفراط الإحساس في مواضع أخرى، طفحٍ جلدي، سعالٍ، التهابٍ، ألمٍ هنا أو هناك أو في الأذن أو السَّاق أو الرئتين أو القلب. تميل أمُّها برأسها لتصغي، تومئ، تنقر نقرة عطف بلسانها. ثم تمسك بأيديهم، وإذ تفعل هذا تترك نظرتها تطفو عاليًا، نحو السَّقف، في الهواء، عيناها لا تركِّزان، نصف مغمضتين.

يسأل بعضهم سوزانا كيف تفعل أمُّها هذا. ينسلُّون إلى جانبها خفية في السوق أو في الطرقات ليسألوها كيف تتكهَّن آغنس بما يحتاج إليه الجسد أو يفتقده أو يتفجَّر به، كيف تعرف إذا ما كانت النَّفْس مُتَمَلْمِلَةً أو توَّاقة، كيف تعرف ما يخبئه شخصٌ ما أو قلبٌ ما.

هذا يجعل سوزانا ترغب في التنهُّد والقذف بشيءٍ ما. يمكنها الآن أن تعرف إذا ما كان شخص ما على وشك أن يسأل عن قدرات أمِّها غير المألوفة فتحاول قطع الطريق عليه، أو تعتذر أو تبدأ بسؤاله أسئلة عن عائلته، عن الطقس، عن المحاصيل. تعلَّمت أنَّ ثمَّة تردُّدًا ما، تعبيرَ وجهٍ معيَّن -نصفه

فضول، ونصفه الآخر ريبة- يمهِّد لهذه الأحاديث. لِمَ لا يفهم الناس أنه ليس ثمَّة شيء يجعل سوزانا أقلَّ سعادةً كالحديث عن هذا؟ كيف لا يكون واضحًا أنها لا علاقة لها بهذا؛ بالأعشاب، بالحشيش، بالجرار والقناني المليئة بالمساحيق والجذور والبتائل التي تجعل رائحة الغرفة كريهة كرائحة كومة روث، ولا بهمهمة الناس، والبكاء، والمسك بالأيدي؟ عندما كانت سوزانا أصغر سنًّا اعتادت أن تجيب بصدق: أنها لا تعرف، أنَّ الأمر كالسحر، أنه هبة. لكنها هذه الأيام، تجيب بإيجاز فظ: لا فكرة لدي عما تتحدَّث، ستقول، ورأسها مرفوع، أنفها شامخ كأنه يستنشق الهواء.

وأين أمُّها الآن؟ تضع سوزانا أحد كاحليها فوق الآخر وتكرِّر ذلك. تتسكَّع في الريف، على الأرجح، تخوض البِرَك، تجمع الأعشاب، تتسلَّق الأسوجة لتصل إلى نبات ما أو آخر، فتتمزَّق ثيابها، ويتلطَّخ حذاؤها بالوحل. ستكون أمهات البلدة الأخريات يدهنَّ الخبز بالزُّبْد أو يغرفن اليَخْنَة لأطفالهن. أمَّا أمّ سوزانا؟ فستجعل نفسها فُرْجةً، كعادتها، وتقف لتحدِّق إلى الغيوم، لتهمس بشيء في أذن بغل، لتجمع الهندباء في تنُّورتها.

يفزع سوزانا قرْعٌ على النافذة. تجلس لحظةً، جامدةً على الكرسي. ها قد بدأ الأمر مرة أخرى. تدفع نفسها إلى الوقوف وتتجه إلى لوح النافذة. عبر الأُطُر الرصاصية المتقاطعة والزجاج الضبابي يمكنها تبيُّن قوس قلنسوة شاحب، صِدار أحمر غامق: شخص ميسور الحال إذًا. تقرع المرأة مرة أخرى، ناظرةً إلى سوزانا وَمومِئةً بطريقة آمرة متغطرسة.

لا تبدي سوزانا أي حركة لتفتح النافذة. «ليست هنا»، تصيح بدلًا من ذلك مادَّةً قامتها. «عليك أن تعودي في وقت تالٍ.»

تنكص على عقبيها وتولِّي مدبرةً، عائدة إلى الكرسي. تخبط المرأة على اللوح مرتين أُخريين ثم تسمع سوزانا خطواتها تبتعد.

أناسٌ، أناسٌ، دائمًا يأتي أناسٌ ويذهبون، يصلون ويغادرون. تجلس سوزانا والتوأمان وأمُّهم إلى المائدة لتناول بعض الحساء، وقبل أن يرفعوا ملاعقهم يكون هناك طرق على الباب، فتنهض أمُّها واضعةً الحساء جانبًا، كأنَّ سوزانا لم تكلِّف نفسها عناء إعداده من عظام الدجاج والجزر الذي احتاج إلى الغَسْل وكثير من الغسل، ثم إلى التقشير، فضلًا عن ساعات التقليب والتصفية في حرارة المطبخ. أحيانًا يبدو لسوزانا أنَّ آغنس ليست أمًّا لها وحدها -وللتوأمين بطبيعة الحال- بل للبلدة كلِّها، للمقاطعة بأسرها. ألن يتوقَّف هذا السَّيل المتدفِّق من الناس إلى منزلهم؟ ألن يتركوهم ليعيشوا حياتهم في سلام؟ استرقت سوزانا السَّمع إلى جدَّتِها وهي تقول إنها لا تعرف سبب استمرار آغنس في هذا العمل، فليست بحاجة إلى المال في هذه الأيام. وأنه، أضافت جدَّتها، لا يدرُّ ربحًا كثيرًا. لم تقل أمُّها شيئًا، لم ترفع رأسها عن الحياكة.

تلتف أصابع سوزانا حول أطراف ذراعي الكرسي المنقوشة التي رثَّت حتى غدت بنعومة التفاح من لمس مئات الكُفوف. تجرُّ جسدها إلى الخلف حتى يلاقي عمودُها الفقري ظهرَ الكرسي. إنه الكرسي الذي يحب أبوها الجلوس عليه عندما يأتي إلى البيت. مرَّتين، ثلاث مرات، أربع مرات، خمس مرات في السنة. أحيانًا أسبوعًا، وأحيانًا أكثر. في أثناء النهار، يحمل الكرسي إلى الطابق العلوي حيث يميل على منضدة ليعمل، وعندما يحلُّ المساء يحمله عائدًا به إلى الطابق السفلي ليجلس قرب النار. آتي كلما استطعت، قال لها آخر مرة كان هنا وهو يمسُّ وجنتها بأطراف أصابعه. تعلمين أنَّ هذا صحيح، قال. كان يحزم أمتعته ليغادر مرة أخرى؛ لفائف من الورق تغصُّ بالكتابة، قميص إضافي، كتاب ربطه بأوتار[1] وجلَّده بجلد خنزير. أمُّها انصرفت،

(1) خيوط مصنوعة من أمعاء الحيوانات. (م)

ذهبت إلى حيثما تذهب، لأنها كانت تكره رؤيته وهو يغادر.

يكتب إليهم رسائل تقرأها أمُّهم بمشقَّة، تنتقل إصبعها من كلمة إلى أخرى، شفتاها تشكِّلان الأصوات. تستطيع أمُّهم القراءة قليلًا، لكنها لا تستطيع الكتابة إلا بطريقة بُدائيَّة. اعتادت عمَّتهم إليزا كتابة ردودهم عنهم -تتمتَّع بخط أنيق- لكنَّ هامنت هو من يكتبها هذه الأيام. يذهب إلى المدرسة ستة أيام في الأسبوع من الفجر حتى الغسق، يمكنه الكتابة بالسرعة نفسها التي يمكنك التحدُّث بها، ويقرأ اللاتينية واليونانية، ويُنشئ أعمدة من الأرقام. صوت خدش ريشة الكتابة يشبه صوت نقر أقدام الدجاج في التربة. يقول جدُّهم، بفخر، إنَّ هامنت سيكون الشخص الذي سيتولَّى تجارة القفافيز بعد رحيله هو، إنَّ الصبي راجح العقل، إنه عالم، رجل أعمال بالولادة، الوحيد بينهم ذو عقل. يتكئ هامنت على كتبه المدرسية، لا يبدي أي إشارة إلى أنه يسمع، ناصيتُه تواجههم جميعًا وهم جالسون قرب النار، مَفْرِقُ شعره يتلوَّى كجدول ماء على فروة رأسه.

تتحدَّث رسائل أبيهم عن عقود، عن أيام طويلة، عن حشود ترشقهم بأشياء فاسدة إذا لم يرقها ما تسمع، عن النهر العظيم في لندن، عن صاحب مسرح منافس أطلق كيسًا من الفئران في ذروة مسرحيتهم الجديدة، عن حفظ سطور وسطور ومزيد من السطور، عن ضياع الأزياء، عن الحريق، عن التمرين على مشهد يُنزَل فيه الممثلون إلى المنصة على حبال، عن مشقة العثور على طعام حينما يكونون في الخارج على الطريق، عن مشهد يفشل، عن اكسسوارات المسرحية التي تُفقَد أو تُسرَق، عن عربات يد تنفصل عجلاتها فتغوص في الوحل، عن حانات ترفض إيواءهم، عن المال الذي ادخره، عن ما ينبغي أن تفعله أمُّهم، مَن يجب أن تتحدَّث إليه في البلدة بشأن قطعة أرض يود شراءها، منزلٍ سمع أنه معروض للبيع، حقلٍ ينبغي شراؤه

ثم تأجيره، عن مدى شوقه إليهم، وأنه يرسل إليهم حبَّه، وكم يتمنَّى تقبيل وجوههم، واحدًا تلو الآخر، وأنه لا يستطيع الانتظار حتى يعود إلى البيت مرة أخرى.

إذا وصل الطاعون إلى لندن، يمكنه العودة إليهم للمكوث شهورًا. تُغلَق المسارح كلُّها بأمر من الملكة، ولا يُسمح بالتجمُّع في الأماكن العامة. من الخطأ تمنِّي الطاعون، تقول أمُّها، لكنَّ سوزانا تفعل هذا مرات عدَّة، بهمس، في الليل بعد أن تتلو صلواتها. دائمًا ما ترسم علامة الصليب في ما بعد. لكنها ما فَتِئَت تتمنَّى ذلك. أن يمكث أبوها شهورًا معهم. أحيانًا تتساءل عمَّا إذا كانت أمُّها تتمنَّى ذلك سرًّا أيضًا.

ينفتح مزلاج الباب الخلفي بجلبة وتدخل الغرفة جدَّتُها ماري. تلهث، وجهها محمرّ، نصف دوائر داكنة من العرق تحت ذراعيها.

«ماذا تفعلين جالسة هناك؟» تقول ماري. ليس ثمَّة ما هو أشدّ إهانة لها من شخص متبطِّل.

تهزُّ سوزانا كتفيها. تحكُّ مفاصلَ الكرسي البالية بأطراف أصابعها.

تلقي ماري نظرة على المكان. «أين التوأمان؟» تسأل.

ترفع سوزانا إحدى كتفيها، وتنزلها.

«ألم تريهما؟» تقول ماري وهي تمسح جبينها بمنديل.

«كلا.»

«طلبت منهما»، تغمغم ماري وهي تنحني لالتقاط قبعة سوزانا الساقطة، وتضعها على المائدة، «أن يقطعا الحطب ويشعلا النار في المطبخ. وهل فعلا ذلك؟ لا، لم يفعلا. سينال كلاهما العقاب عندما يأتيان.»

تعود للوقوف أمام سوزانا، يداها على خصرها. «وأين والدتك؟»

«لا أعلم.»

تتنهَّد ماري. توشك أن تقول شيئًا. لكنها لا تفعل. ترى سوزانا هذا، تحس بالكلمات التي لم تُقَل تتموَّج كأعلام في الهواء بينهما.

«حسنًا، هيَّا إذًا»، تقول ماري وهي تُخَفِّق مئزرها في وجه سوزانا، «تحرَّكي. العشاء لن يطهو نفسه. تعالي وساعدينا يا فتاة بدلا من الجلوس هناك مثل دجاجة تحضن بيضها.»

تمسك ماري بذراع سوزانا وتجذبها لتقف على قدميها. تخرجان من الباب الخلفي الذي يصفق منغلقًا وراءهما.

في الطابق العلوي، يفيق هامنت جافلًا.

فجأةً لا يوجد ما هو أروع من تعليم اللاتينية. في الأيام التي يذهب فيها المعلِّم إلى هيولَندز، يستيقظ عند أول نداء، يطوي أغطية فراشه ويغتسل بنشاط من السَّطل. يَمْشِط شعره ولحيته ويملِّسهما بحرص. يملأ صحن إفطاره لكنه يترك المائدة قبل أن يكمله. يساعد إخوته على العثور على كتبهم ويرافقهم إلى الباب، وهم يغادرون إلى المدرسة، ويلوِّح لهم مودِّعًا. أصبح يدندن، وحتى إنه يومئ برأسه بتهذيب لأبيه. ترمقه أخته شزرًا، وهو يصفر لنفسه، ويزرِّر سترته بهذه الطريقة ثم بتلك، متأمِّلًا انعكاسه على زجاج النافذة قبل أن يغادر، يدسُّ شعره ويعيد دسَّه خلف أذنيه، ثم يصفق الباب وراءه.

في الأيام التي لا يذهب فيها إلى هيولَندز، يستلقي على فراشه حتى يهدِّده أبوه بضربه ضربًا مُبَرِّحًا إن لم يتحرَّك. ما إن يخفُّ واقفًا حتى يبدأ بالتسكُّع في أنحاء البيت، متنهِّدًا، لا يجيب إذا تحدَّث إليه أحد، يمضغ بشرود كسرة خبز، يلتقط الأشياء ثم يضعها مرة أخرى. يُرى في المعمل، وهو يميل على المنضدة مقلِّبًا زوجًا تلو الآخر من قفافيز السيِّدات كأنه يبحث عن معنى ما مختبئ في طبقاتها، في أصابعها الهامدة. ثم يتنهَّد مرة أخرى ويدفعها كلها ليعيدها عشوائيًّا إلى صندوقها. يقف على رأس نِد مراقبًا إيَّاه وهو يخيط حزام صقَّار، على مقربة شديدة تجعل الصبي يكفُّ عن عمله تمامًا، فيزأر جون في الصبي قائلًا إنَّه لن يحول بينه وبين الشارع إلا الباب.

«وأنت»، يلتفت جون إلى ابنه، «اغرب من هنا. جِد لك عملًا نافعًا. إن استطعت.» يهزُّ جون رأسه محوِّلًا انتباهه إلى تقطيع فرو سنجاب إلى أحزمة مفيدة ضيقة. «هذا التعليم كلُّه»، يغمغم لنفسه، للأحزمة الجلدية الطويلة الزلقة، «ولا مثقال ذرَّة من عقل.»

في وقت تالٍ ترسل أمُّه شقيقته إليزا لتبحث عنه. بعد أن تجول في الطابق الأرضي، في الفناء، تصعد السلالم وتنتقل من حجرة الصبيان إلى حجرتها، إلى حجرة والديها، ثم تعود؛ تناديه باسمه.

يمضي بعض الوقت حتى يأتي الرَّد، وعندما يأتي يكون الصوت منخفضًا، متبرِّمًا، مستاءً.

«أين أنت؟» تسأل متعجِّبةً وتتلفَّت من جانب إلى آخر.

مرةً أخرى، الصمت الطويل المتردِّد. ثم: «هنا في الأعلى.»

«أين؟» تسأل حائرة.

«هنا.»

تنتقل إليزا من غرفة والديها لتقف أسفل السُّلَّم الخشبي المفضي إلى العِلِّيَّة. تناديه باسمه مرة أخرى.

تأوُّه. حفيف غامض. «ماذا تريدين؟»

لحظةً، تحسب إليزا أنه ربما يفعل الشيء الذي يفعله الصبية -الشباب- في بعض الأحايين. لها عدد كافٍ من الإخوة لتعرف أنَّ هناك شيئًا يحدث سِرًّا، ويسوء مزاجهم إذا ما قوطعوا. تتردَّد أسفل السُّلَّم، ويدها على المِرْقاة.

«هل يمكنني... الصعود؟»

صمت.

«هل أنت مريض؟»

تأوُّهٌ آخر. «كلا.»

«أمي تقول، أيمكنك الذهاب إلى المدبغة ثم إلى...»

ثمَّة صياح مخنوق عاجز عن النطق يصل من الأعلى، صوت شيء ثقيل يُلقَى على الحائط، لعلَّه حذاء أو رغيف خبز، حركة، ثم خبط، لا يختلف عن شخص يقف ويضرب رافدة برأسه. «آه،» يصرخ، ويطلق وابلًا من الشتائم، بعضه مروِّع، وبعضه الآخر لم تسمعه إليزا من قبل، لكنها ستسأله عنه لاحقًا، عندما يكون في مزاج أفضل.

«أنا قادمة»، تقول، وتبدأ بصعود السُّلَّم.

تظهر، يبرز رأسها أوَّلًا إلى مكان دافئ ومغبر، الضوء الوحيد يأتي من شمعتين تسندهما حزمة صوف. يجلس شقيقها منهارًا على الأرض، ورأسه بين يديه.

«دعني أرى»، تقول.

يغمغم بشيء غير مسموع، لعلَّه هرطقة، لكنَّ المعنى واضح: يريدها أن تنصرف وتتركه وشأنه.

تضع يدها على يديه، تدلِّك أصابعه. بيدها الأخرى ترفع الشمعة وتفحص موضع الألم. ثمَّة انتفاخ مُحمر ومرضوض تحت منبت شعره مباشرة. تضغط حافاته الخارجية، فيجفل.

«همم» تقول. «جرَّبْتَ أسوأ من ذلك.»

يرفع عينيه إلى عينيها فينظر أحدهما إلى الآخر لحظةً. يبتسم نصف ابتسام. «هذا صحيح»، يقول.

تبعد يدها وهي ما زالت تحمل الشمعة، تجلس على إحدى حُزَم الصوف المحشورة في الفراغ بين الأرض والسقف. يصعدون إلى هنا منذ سنوات عديدة. ذات مرة، في الشتاء السالف، في الفناء، وهم يغلِّفون القفافيز بورق الكتان، واضعين أصابع كل زوج منها فوق معاصم الزوج الآخر في سلال في عربة يد، تكلَّم شقيقها وسأل عن سبب امتلاء العِلِّيَّة بحُزَم الصوف، وعن غرضها المقصود؟ مال أبوهما على العربة وأحكم قبضته على سترة ابنه. ليس هناك أي حُزَم صوف في هذا البيت، قال، هازًّا ابنه مع كل كلمة يقولها. هل هذا واضح؟ حدَّق شقيق إليزا بثبات إلى عيني أبيه دون أن تطرف عينه. واضح بما يكفي، أجاب أخيرًا. تماسك أبوهما وقبضته تطبق على ثوب الابن، كأنه كان يفكِّر في ما إذا كان الابن يتوقَّح، ثم أفلته. لا تتحدَّث عمَّا لا يعنيك، غمغم عائدًا إلى التغليف، فتنفَّس جميع من في الفناء الصُّعَداء.

تسمح إليزا لنفسها بالنَّطِّ صعودًا وهبوطًا على حزمة الصوف التي حُتِمَ عليهما إنكار وجودها دائمًا. ينظر إليها شقيقها لحظة لكنه لا يقول شيئًا. يميل رأسه إلى الخلف ويحدِّق إلى الرَّوافد.

تتساءل عمَّا إذا كان يتذكَّر أنَّ هذه العِلِّيَّة طالما كانت حيِّزهم الخاص، هي وهو وآن أيضًا قبل أن تموت. كان ثلاثتهم يلجؤون إلى هذا المكان في الأصائل عندما يعود هو من المدرسة، يسحبون السُّلَّم إلى الأعلى خلفهم على الرغم من عويل أشقائهم الصغار وتوسُّلهم. كان المكان في الأغلب خاليًا في ذلك الحين إلا من بضع جلود عفنة احتفظ بها أبوهم لسبب غير محدَّد. لم يكن أحد يستطيع الوصول إليهم هناك، كانوا فقط هي وهو وآن، إلى أن تستدعيهم أمُّهم للقيام بعمل ما أو للاعتناء بأحد الأطفال الأصغر سنًّا.

لم تدرك إليزا أنَّ شقيقها ما زال يصعد إلى هنا، لم تعرف أنه ما زال يلجأ إلى هذا المكان كملاذ من العائلة. لم تتسلَّق السُّلَّم منذ وفاة آن. تدع نظرتها تطوف في أنحاء الغرفة: السُّقوف المائلة، الجوانب السفلية لقرميد السطح، حُزَم الصوف الكثيرة التي يجب الاحتفاظ بها هنا بعيدًا عن الأنظار. ترى أعقاب شمعة قديمة، مِطواة، قارورة حبر. على الأرض يتناثر عدد من الأوراق المُتغضِّنة التي خُربشت عليها كلمات شُطبت، أُعيد كتابتها، وشُطبت مرة أخرى، ثم غُضِّنت الأوراق ورُميت جانبًا. ترى أنَّ إبهام شقيقها وباقي أصابعه وحافات أظافره ملطَّخة بالسواد. ما عساه يدرس هنا خِفْيَةً؟

«ما الخطب؟» تقول.

«لا شيء»، يجيب دون أن ينظر إليها. «لا شيء أبدًا.»

«ما الذي يوجعك؟»

«لا شيء.»

«إذًا ما تفعل هنا في الأعلى؟»

«لا شيء.»

تنظر إلى الأوراق المتغضِّنة. ترى كلمتي «أبدًا» و«نار»، وشيئًا قد يكون «يطير» أو «يصير». وهي ترفع عينيها مرة أخرى، ترى أنه ينظر إليها، حاجباه مرفوعان. تبتسم ابتسامًا سريعًا لا إراديًا. إنه الشخص الوحيد في هذا البيت -بل في هذه البلدة كلِّها- الذي يعرف أنَّ لها حروفها، أنه يمكنها القراءة. وكيف يعرف هذا؟ لأنه هو من علَّمها هي وآن. كلَّ أصيل، هنا، بعد عودته من المدرسة. كان يرسم حرفًا في التراب على الأرض ويقول: انظري يا إليزا، انظري يا آن، هذا حرف ك، هذا حرف ل، وإذا وضعتما حرف ب في النهاية، تصير الكلمة «كلب». أرأيتما ذلك؟ عليكما أن تمزجا الأصوات، أن تربطا

بعضها إلى بعضها الآخر حتى يصل معنى الكلمة إلى رأسيكما.

تقول: «هل (لا شيء) الشيء الوحيد الذي ترغب في قوله؟»

ترى فمه يرتعش وتعلم أنه يستعين بكل ما تعلَّمه من دروس الخطابة والجدل للعثور على طريقة للإجابة عن هذا السؤال بهذه الكلمة تحديدًا.

«لا يمكنك فعل ذلك»، تقول بجذل. «لا يمكنك العثور على طريقة للرد بـ«لا شيء»، أليس كذلك؟ مهما بذلت من جهد؟ لا يمكنك فعل ذلك. اعترف.»

«أعترف بلا شيء»، يقول منتصرًا.

يجلسان لحظة، ينظر أحدهما إلى الآخر. تهزهز إليزا كعب حذائها على مُقَدَّمة حذائها الآخر.

تقول بحذر: «يقول الناس إنهم رأوك مع فتاة هيولَندز.»

لا تقول بعض الأشياء الأردأ أو الأشد افتراءً التي سمعتها عن شقيقها بأنه مُعْدَم وبلا تجارة، فضلًا عن أنه أصغر سنًّا من أن يغازل امرأة كهذه، بالغة وتملك مَهْرًا غاليًا. يا له من مخرج سيكون للصبي! سمعتْ امرأةً في السوق تهمس خلف ظهرها. يمكنكم أن تفهموا سبب رغبته الزواج لأجل المال والابتعاد عن ذلك الأب.

تحدِّث نفسها بالامتناع عن ذكر ما يقوله الناس عن هذه الفتاة. إنها شرسة ومتوحشة، إنها تجلب للناس اللعنات، إنها تستطيع علاج أي شيء ولكنها تستطيع أيضًا التَّسبُّب في وقوع أي شيء. في أحد الأيام استرقت إليزا السمع إلى أحدهم يقول إنَّها سبب تلك الدَّمامل على وجنتي زوجة أبيها عندما سلبتها صقرَها. يمكنها أن تفسد الحليب بلمسه بأصابعها فحسب.

حينما تسمع إليزا هذه المزاعم يدلي بها في حضورها الناسُ في الشارع، أو الجيران، أو أولئك الذين تبيعهم القفافيز، لا تتظاهر بأنها لا تسمع. تقف في طريقها. تحدِّق إلى عين الواشي المعنِّي (لها نظرة رادعة: تعرف هذا، كثيرًا ما أخبرها شقيقها بذلك، يقول إنَّ للأمر علاقة بصفاء لون عينيها، بالطريقة التي تفتح بها عينيها على اتساعٍ كافٍ لأن تُرى الحدقة كلُّها). إنها في الثالثة عشرة من عمرها فحسب، لكنها تبدو طويلة القامة بالنسبة إلى سنِّها. تحدِّق إلى الشخص مدة طويلة كافية ليخفض بصره، ليرتدَّ على عقبيه، مُعَاقَبًا بجرأتها، بقسوتها الصامتة. تجد أنَّ ثمَّة قوة كبيرة في الصمت. شيء لم يتعلَّمه شقيقها هذا قطُّ.

«سمعتُ»، تستطرد بتحكُّم كبير، «أنكما تتنزَّهان معًا. بعد الدروس. أهذا صحيح؟»

لا ينظر إليها وهو يقول: «وماذا في ذلك؟»

«في الغابة؟»

يهزُّ كتفيه، لا يقول نعم ولا لا.

«هل أمُّها تعرف؟»

«أجل»، يجيب بسرعة، بسرعة كبيرة، ثم يستدرك: «لا أعرف.»

«لكن ماذا لو...؟» تجد إليزا أنَّ السؤال الذي تودُّ أن تسأله إيَّاه ثقيل جدًّا، فهي لا تفهم محتواه إلا فهمًا غامضًا، وما ينطوي عليه من أفعال، ومسائل على المَحَك. تحاول مرة أخرى: «ماذا لو باغتكما أحدهم؟ في أثناء إحدى نُزَهِكما هذه؟»

يرفع إحدى كتفيه، ثم ينزلها. «يكون قد باغتنا.»

«ألا تستوقفك هذه الفكرة؟»

«لماذا تستوقفني؟»

تبدأ قائلةً: «الأخ... راعي الخراف. ألم ترَه؟ إنه رجل عملاق. ماذا لو أنه...؟»

يلوِّح شقيق إليزا بيده. «إنك تقلقين كثيرًا. هو دائمًا بعيد مع خرافه. لم أصادفه قطُّ في هيولَندز في الأوقات كلِّها عندما كنت هناك.»

تطوي يديها معًا، ترمق مرة أخرى الأوراق المتغضِّنة، لكنها لا تستطيع فهم ما كُتِب فيها. «لا أعلم إن كنت تعرف»، تقول باستحياء، «ما يقوله الناس عنها، لكن...»

«أعرف ما يقال عنها»، يقول بسرعة وحِدَّة.

«ثمَّة كثيرون يزعمون أنها...»

يعتدل في جلسته، يحمرُّ وجهه بغتةً. «لا شيء من هذا صحيح. لا شيء. يفاجئني أنك تهتمين لهذه الثرثرة الفارغة.»

«أنا آسفة»، تصيح إليزا قانطةً. «إنني فقط...»

«كلها أكاذيب»، يردف قائلًا كأنها لم تتكلَّم، «تذيعها زوجة أبيها. إنها شديدة الغيرة منها إلى درجة أنها تلتف حولها كثعبان و...»

«... خائفة عليك!»

يرمقها متفاجئًا. «عليَّ؟ لماذا؟»

«لأنَّ...» تحاول إليزا أن تنظِّم أفكارها، أن تمحِّص كلَّ ما سمعته، «... لأنَّ والدنا لن يوافق على هذا أبدًا. يجب أن تعرف هذا. نحن مدينون لتلك

العائلة. أبي لا يتفوَّه حتى باسمها بتاتًا. وأمَّا ما يقال عن الفتاة. لا أصدِّقه»، تضيف على عجل، «قطعًا لا أصدِّقه. لكنه، مع ذلك، مقلق. يقول الناس إنه لا خير سيأتي من علاقتك هذه.»

يرتمي إلى الخلف على حُزَم الصوف، كأنه هُزِم، ويغمض عينيه. جسده كلُّه يرتعش غضبًا أو من شيء آخر. إليزا لا تعرف. ثمَّة صمتٌ طويل. تثني إليزا نسيج ثوبها في أثناء صغيرة متراصَّة. ثم تتذكَّر شيئًا آخر أرادت أن تسأله عنه فتميل إلى الأمام.

«ألديها صقر حقًّا؟» تهمس بصوت مختلف.

يفتح عينيه، يرفع رأسه. ينظر الأخ والأخت أحدهما إلى الآخر لحظةً.

يقول: «بلى».

«حقًّا؟ سمعت ذلك لكنني لم أعرف أنه...»

«إنه عوسق وليس صقرًا»، يقول على عجل. «درَّبته بنفسها. علَّمها كاهن. لديها قفَّاز، والطائر يحلِّق مثل سهم عاليًا فوق الأشجار. إنك لم تشهدي شيئًا مثله قطُّ. إنه مختلف جدًّا عندما يطير، قد تحسبين أنه مخلوقان اثنان تقريبًا. واحد على الأرض والآخر في الهواء. حين تصيح به منادية يعود إليها، محلِّقًا في دوائر كبيرة في السماء، ويحطُّ بقوة كبيرة على القُفَّاز، بتصميم شديد.»

«هل سمحت لك بفعل هذا؟ أن ترتدي القفاز وتمسك بالصقر؟»

«عوسق»، يصحِّح ثم يومئ برأسه ويكاد يتوهَّج فخرًا. «أجل.»

«أحبُّ»، تتنهَّد إليزا، «أن أرى ذلك.»

ينظر إليها، يحكُّ ذقنه بأطراف أصابعه الملطَّخة. «ربما»، يقول تقريبًا

لنفسه، «أصطحبك يومًا ما.»

تفلت إليزا ثوبها، تنحسر الأثناء عن النسيج. إنها مفتونة ومذعورة في آن واحد. «هل ستفعل؟»

«قطعًا.»

«وهل تعتقد أنها ستدعني أطيِّر الصقر؟ العوسق؟»

«لا أرى سببًا يجعلها لا تفعل ذلك.» يتأمَّل شقيقته لحظة. «أحسب أنك ستحبينها. أنت وهي لا تختلفان في بعض النواحي.»

يصدم إليزا هذا الكَشْف. لا تختلف عن المرأة التي يقول الناس عنها مثل هذه الأمور المروِّعة؟ فقط في ذلك اليوم في الكنيسة سنحت لها فرصة ملاحظة بَشَرَة سيِّدة هيولَندز -تلك الحُبُوب والبُقَع والدَّمامل- وفكرةُ أنَّ شخصًا ما قادرٌ على فعل هذا لشخص آخر أمرٌ مزعج جدًّا لها. لكنها لا تقول هذا لشقيقها، وفي الحقيقة ثمَّة جزء فيها يتوق إلى رؤية الفتاة من كَثَب، إلى النظر في عينيها. لذا لا تقول إليزا شيئًا. لا يحبِّذ شقيقها الإلحاح أو الاستعجال. إنه شخص يجب الاقتراب منه على نحوٍ غير مباشر، بحذر، مثلما يقترب المرء من حصان جامح. يجب أن تسبره برفق، وعلى هذا النحو ستكتشف المزيد على الأرجح.

«أيُّ صنف من الأشخاص هي إذًا؟» تسأل إليزا.

يفكِّر شقيقها قبل أن يجيب. «إنها لا تشبه أحدًا قابَلْتِه أنتِ من قبل. لا تهتم بما يعتقده الناس بشأنها. تتبع تمامًا مسارها الخاص.» يميل إلى الأمام واضعًا مرفقيه على ركبتيه، ويخفض صوته هامسًا: «يمكنها أن تنظر إلى الشخص وتبصر ما في أعماق نفسه. ليس ثمَّة ذرَّة قسوة فيها. إنها تعامل المرء كما هو وليس وفق ما ليس عليه أو ما ينبغي أن يكون عليه.» يرمق إليزا.

«هذه سمات نادرة، أليست كذلك؟»

تشعر إليزا برأسها يومئ ويومئ. تدهشها تفاصيل الحديث، وتفخر بأنها من يتلقَّاها. «تبدو...» تتلمَّس الكلمة الصحيحة مستعيدةً كلمة علَّمها هو إيَّاها منذ بضعة أسابيع، «... منقطعة النظير.»

يبتسم وتعلم أنه يتذكَّر أنه علَّمها إيَّاها.

«ذلك تمامًا ما هي عليه يا إليزا. منقطعة النظير.»

«يبدو أيضًا»، تبدأ بحذر، بحذر شديد كي لا تذعره، كي لا تجعله يلوذ بالصمت مرة أخرى، فهي لا تستطيع تصديق أنه قد قال هذا القَدْر مما قاله، «كأنك... حسمت أمرك. أنك مُصِرٌّ. عليها.» مكتبة سُر مَن قرأ

لا يقول أيَّ شيء، فقط يمدُّ يده ويضرب بكفِّه حُزْمَةَ الصوف التي إلى جانبه. لحظةً، تحسب أنها ذهبت بعيدًا، وأنه سيرفض الانجراف إلى أبعد من ذلك، وأنه سينهض وينصرف دون مزيد من الأسرار.

تغامر بالقول: «هل تحدَّثت إلى عائلتها؟»

يهزُّ رأسه، ثم كتفيه.

«هل ستتحدَّث إليهم؟»

يغمغم مطرق الرأس: «سأفعل، لكنني أشك في قبولهم مطلبي. لن ينظروا إليَّ كمُرشَّحٍ جيِّد لها.»

«ربما لو... انتظرت»، تقول إليزا متردِّدة وهي تضع يدها على كُمِّه، «عامًا أو نحو ذلك. حينها ستكون قد بلغت سنَّ الرشد. وأكثر رسوخًا في عملك. لعلَّ تجارة أبي ستشهد بعض التحسُّن، ولعلَّه سيستعيد شيئًا من مكانته في البلدة، ولعلَّه سيقنع بإيقاف هذا الصوف...»

يهزُّ يده معترضًا ويعتدل في جلسته. يسأل: «ومتى عرفتِ عنه أنه يصغي إلى أي إقناع، أي عقل؟ متى بدَّل رأيه حتى عندما كان مخطئًا؟»

تنهض إليزا عن الحُزْمة. «إنني أفكِّر فقط...»

يتابع شقيقها: «متى كلَّف نفسه عناء منحي شيئًا أريده أو أحتاج إليه؟ متى عرفتِه يتصرَّف لمصلحتي؟ متى عرفتِه لا يحيد عن طبعه عمدًا ليخذلني؟»

تتنحنح إليزا. «ربما لو انتظرت، سيكون...»

يقول شقيقها وهو يمشي في العِلِّيَّة، بين الكلمات المبعثرة على الأرض، فتنزلق الأوراق المتغضِّنة وتدوِّم حول حذائه: «المشكلة هي أنني لا موهبة لي في ذلك. لا أستطيع الانتظار.»

يستدير، يخطو نحو السُّلَّم ويختفي عن النظر. تراقب طرفي السُّلَّم يهتزان مع كل خطوة يخطوها، ثم يسكنان.

صفوفٌ وصفوفٌ من التفاح تتحرَّك، ترتج، تهتز في رفوفها. كلُّ تفاحة مثبَّتة في خُدَّة خاصة نُحِتت في الرُّفوف الخشبية التي تمتد على جدران هذا المخزن الصغير.

اهتزاز، اهتزاز، ارتجاج، ارتجاج.

وُضِعت الفاكهة بحرص، على هذا النحو فقط: السَّاق الخشبية تتجه إلى الأسفل ونجمة كأس الزهرة إلى الأعلى. يجب ألَّا يلمس قشرُ تفاحةٍ قشرَ جارتها. يجب أن يستقر التفاح على هذا النحو، وتمسكه الخُدَد الخشبية برفق، وأن تبعد كلُّ تفاحة عن الأخرى بمقدار عَرْض إصبع، طوال الشتاء وإلا

فسد. إذا لامست إحداها الأخرى ستستحيل بُنِّيَّةً وتترهَّل وتتفسَّخ وتتعفَّن. يجب حفظها في صفوف على هذا النحو، وتكون منفصلة، سيقانها إلى الأسفل، في مكان معزولٍ مُهَوًّى.

كُلِّف أطفال البيت بهذا العمل: أن يقطفوا التفاح من أغصان الأشجار الملتفَّة، يكدِّسوه في السِّلال، ثم يجلبوه إلى هنا، إلى مخزن التفاح، ويصفُّوه على هذه الرفوف بحيث يكون متباعدًا على نحوٍ متساوٍ وحذِر، ليحصل على الهواء، ليبقى، ليدوم طوال الشتاء والربيع حتى تثمر الأشجار مرة أخرى.

إلا أنَّ ثمَّة شيئًا ما يحرِّك التفاح، مرارًا وتكرارًا، مرارًا وتكرارًا، حركةً تحويلية، دافعة، مُلِحَّة.

العوسق على مجثمها مُبرْقَعة لكنها يقظة، دائمًا يقظة. يدور رأسها على عنقها الذي يحيط به طوق من الريش الأرقط ليتحقَّق من مصدر هذه الضوضاء المتكرِّرة المشتِّتة للانتباه. أذناها حسَّاستان جدًّا حتى إنهما إذا لزم الأمر يمكنهما تمييزَ دقَّاتِ قلب فأر على بعد مئة قدم، وَقْعِ قدمي ابن عِرْس عبر الغابة، خَفْقِ جناح صَعْوٍ[1] في حقل، وسماع الآتي: عشرون تفاحة تُدْفَع في مُهُودها، وتُهَز، وتُقْلَق. تنفُّس ثدييات بحجم أكبر من أن يثير اهتمام شهيَّتِها، يتزايد بوتيرة سريعة. راحةُ يدٍ جوفاء تهبط برفق على العضلات والعظم. فرقعة لسان وانزلاقه على الأسنان. ثوبان أملسان من نسيج مختلف يتحرَّك أحدهما فوق الآخر في اتجاهين متقابلين.

ينقلب التفاح على رأسه، تبرز سيقانه من الجوانب السُّفلية، تنقلب كؤوس أزهاره على جانب، ثم إلى الخلف، ثم إلى الأعلى، ثم إلى الأسفل. تتنوَّع وتيرة الاصطدام: تتوقَّف، تبطئ، تزيد، تتراجع مرة أخرى.

---

(1) نوع من الطيور. (م)

ركبتا آغنس مرفوعتان، مفرودتان كجناحي فراشة. قدماها اللتان ما زالتا في زوجي حذائهما، تستقرَّان على الرَّف المقابل، يداها تستندان إلى الحائط المطلي بالأبيض. يستقيم ظهرها ويتقوَّس، على ما يبدو من تلقاء نفسه، وأنفاس خفيضة تشبه الهدير تخرج من حنجرتها. يفاجئها هذا: جسدها يثبت قدرته على هذا النحو. يعرف ما يفعل، كيف يستجيب، كيف يكون، أين يضع نفسه، ساقاها بيضاوان ومطويتان في الضوء المعتم، ظهرها يستريح على حافة الرَّف، أصابعها تتشبَّث بحجارة الحائط.

في المساحة الضيقة بينها وبين الرَّف المقابل هناك معلِّم اللاتينية. يقف في المثلَّث الشَّاحب بين ساقيها. عيناه مغمضتان، أصابعه تمسكان بمنحنى ظهرها. كانت يداه هما اللتين فكَّتا رباط الياقة في عنقها، وسحبتا قميصها إلى الأسفل، وأظهرتا نهديها إلى الضوء، وكم بدوا مشدوهين! وكم بدوا بيضاوين في هواء كهذا في النهار أمام شخص آخر! عيناهما الورديتان الضاربتان إلى البُنِّي تحدِّقان بانشداه. لكن كانت يداها هما اللتين رفعتا تنُّورتها، ودفعتا جسدها إلى الخلف إلى هذا الرَّف، وسحبتا جسد معلِّم اللاتينية نحوها. أنتَ، قالت له اليدان، أختارك أنت.

والآن ثمَّة هذا، هذا التوافق. إنه لا يشبه أبدًا أيَّ شيء شعرت به من قبل. يجعلها تفكِّر في يدٍ ترسم على قفَّاز، في حَمَلٍ ينزلق رطبًا من نعجة، فأسٍ تقطع جذع شجرة، مفتاحٍ يدور في قفل مُزيَّت. تتساءل وهي تنظر إلى وجه المعلِّم: كيف لأيِّ شيء أن يوافق إحساسًا صائبًا كهذا موافقةً جيدة ودقيقة جدًّا؟

التفاح الذي يبتعد عنها بين اتجاه وآخر، يدور ويتصادم في خُدَدِه.

يفتح معلِّم اللاتينية عينيه لحظةً، حدقتاه السوداوان واسعتان، لا تكادان تريان. يبتسم، يضع يديه على صَفْحَتي وجهها، يغمغم بشيء ما، ليست على يقين ما هو، لكنَّ ذلك لا يهم في هذه اللحظة عينها. تتلامس جبهتاهما.

غريبٌ، تفكّر، أن يكون شخص آخر قريبًا منها إلى هذا الحد: حجم الرموش الغامر، الجفن المُنثني، شعر الجبين، كله يواجه الاتجاه نفسه. لا تمسك بيده، ليس حتى على سبيل العادة: لا تحتاج إلى ذلك.

عندما أمسكت بيده في ذلك اليوم، أوّل مرة قابلته، شعرت... بماذا؟ بشيء لم تعرف له مثيلًا من قبل قطُّ. شيء لم تتوقّع أن تجده في يد تلميذٍ في مدرسة قواعد لامع الحذاء من البلدة. كان شيئًا بعيد المنال: كانت تعرف هذا القَدْر. له طبقات وطبقات، مثل مشهد طبيعي. كانت هناك مساحات وفراغات، بقع كثيفة، كهوف تحت أرضية، مرتفعات ومنحدرات. لم يكن هنالك ما يكفيها من الوقت لتدرك مغزى هذا كلِّه، كان كبيرًا جدًّا، معقّدًا جدًّا. كان يتملّص منها في أكثر الأحيان. كانت تعلم أنَّ ثمَّة فيه ما هو أكثر مما يمكنها إدراكه، أنه أكبر من كليهما. إحساسٌ أيضًا بأنَّ ثمَّة شيئًا ما يقيِّده، يعوقه، كانت هناك عُقْدَة في مكان ما، قَيْد بحاجة إلى الفك أو الكسر قبل أن يتمكّن من الإقامة تمامًا في هذا المشهد، قبل أن يتمكّن من الأخذ بزمام الأمر.

تعاين تفاحةً يتجه بدنها المبقَّع بالأحمر نحوها ثم يبتعد عنها، تبدو عليها آثار ندوب، ثم يومض الطرف الشبيه بالسُّرَّة.

آخر مرَّة جاء خلالها إلى المزرعة سارا معًا بعد الدرس حتى بلغا أبعد حقل، حين أخذ الغسق يغشى الأرض ملوِّنًا الأشجار بالسَّواد، حين بدت أخاديد حقول الحشيش المشذَّب حديثًا كأنها تتعمَّق لتصير وهادًا، وأقبلا على جوان وهي تخطو بين خواصر قطيعهم الرجراجة. كانت تحب أن تتحقَّق عملَ بارثولوميو، أو أنها تحب أنَّ يعرف بارثولوميو أنها تتحقَّق عمله. أحد الاثنين. عرفت آغنس أنها رأتها مقبلين. رأت رأس جوان يلتفت نحوهما، تنظر إليهما نظرة طويلة وهما يصعدان الدَّرب معًا. كانت ستدرك سبب قدومهما لو رأت أيديهما المتشابكة. أحسَّت آغنس بقلق المعلِّم: فجأةً كانت

أصابعه باردة وأحسَّت بها ترتعش. ضغطت يده مرة واحدة، مرتين، قبل أن تفلتها وتتركه يسير أمامها إلى البوابة.

أبدًا، كان ما قالته جوان. أنت؟ ثم ضحكت، قهقهة حادَّة أجفلت الخراف من حولها، دفعتها إلى رفع رؤوسها المشدوهة وتحريك أظلافها. أبدًا، قالت مرةً أخرى. كم سِنُّك؟ لم تنتظر ردًّا، بل أجابت بنفسها: لستَ كبير السن بما يكفي. أعرف عائلتك، قالت جوان، وقد قطَّبت وجهها وتجهَّمت مشيرةً باحتقار إلى المعلِّم. الجميع يعرفها. أبوك ومعاملاته المشبوهة، عاره. كان مساعد عُمْدة، قالت، وهي تلفظ كلمة «كان» بازدراء. كم أحبَّ التسلُّط علينا والتسكُّع في الأنحاء بردائه الأحمر! لكن ليس بعد الآن. هل لديك أي فكرة عن ديون أبيك في أرجاء البلدة؟ بكم هو مدين لنا؟ يمكنك تعليم أبنائي حتى يبلغوا مبلغ الرجال ولن يقترب ذلك من سداد دينه هنا. لذا، لا، قالت، وهي تنظر إليها من ورائه، لا يمكنك أن تتزوَّجها. عمَّا قريب سيتزوَّج آغنس مزارع، شخصٌ ذو إمكانات، شخصٌ يعولها. ترعرعت على تلك الحياة. ترك لها أبوها مهرًا في وصيته، إنني على يقين من أنك تعرف ذلك، أليس كذلك؟ لن يتزوَّجها صبيٌّ عاجزٌ.

وأعرضت عنهما كأنَّ ذلك نهاية الأمر. لكنني لا أرغب في أن يتزوجني مزارع، صاحت آغنس. ضحكت جوان مرة أخرى. أصحيح ذلك؟ ترغبين في أن يتزوَّجَكِ هو؟ نعم، قالت. أرغب في ذلك. كثيرًا. وضحكت جوان مرة أخرى، وهي تهزُّ رأسها.

لكننا خطيبٌ وخطيبته، قال المعلِّم. سألتُها وأجابت ولذا فنحن مرتبطان.

لا، لستما كذلك، قالت جوان. لن يكون ما لم أقل أنا ذلك.

غادر المعلِّم الحقل، سار على الدَّرب نزولًا وخرج إلى الغابة، وجهه

مكفهِّر ويستشيط غضبًا، وتُركت آغنس مع زوجة أبيها التي قالت لها أن تكفَّ عن الوقوف هناك مثل مغفَّلة وتعود إلى البيت وتعتني بالصغار. في المرة التالية التي جاء فيها إلى المزرعة أومأت إليه آغنس. أعرف وسيلة ما، قالت. لديَّ إجابة. نستطيع، قالت، التصرُّف بأنفسنا. تعال. تعال معي.

كلُّ تفاحة تبدو لها في هذه اللحظة مختلفة، مميَّزة، فريدة، على نحوٍ بارز، كلٌّ منها مخطَّط بمزيج متنوِّع من اللون القرمزي والذهبي والأخضر. كلُّها توجِّه عينها الوحيدة نحوها ثم بعيدًا عنها ثم تعود إليها. إنه شيء كثير جدًّا، كلُّه كثير جدًّا، غامرٌ، كم عددًا منها هناك، الجلبة التي تحدثها، الصوت النقَّار، الموزون، المهتز، يستمر ويستمر، أسرع فأسرع. يخطف أنفاسها، يجعل قلبها يطفُر في صدرها ويسرع، لا تحتمل المزيد، لا تستطيع، لا تستطيع. بعض التفاح يتدحرج من مكانه على الأرض، ولعلَّ المعلِّم داسه لأنَّ الهواء يتضوَّع برائحة حلوة، حامضة، وتتشبَّث هي بكتفيه. تعرف، تشعر بأنَّ كلَّ شيء سيكون على ما يرام، بأنَّ كلَّ شيء سيسير على هواهما. يضمُّها إليه ويمكنها أن تحس بأنفاسه تخرج منه، وتدخل إليه، وتخرج ثانيةً.

جوان ليست امرأة بليدة. لها ستة أطفال (ثمانية، إذا عددَت الرَّبيبة نصف المجنونة والأخ الأحمق اللذين أكُرِهت على الاعتناء بهما عندما تزوجت). هي أرملة، منذ العام السَّالف. ترك المزارع المزرعة لبارثولوميو، بطبيعة الحال، بيد أنَّ شروط الوصية تسمح لها، أي جوان، بمواصلة العيش هنا للإشراف على الأوضاع. وستشرف عليها. إنها لا تثق بأن ينظر بارثولوميو إلى ما هو أبعد من أنفه. أخبرته بأنها ستستمر في إدارة المطبخ والفِناء والبستان بمساعدة الفتيات. بارثولوميو سيتولى رعاية القطيع والحقول بمساعدة الصِّبية، وستتفقَّد هي الأرض معه مرة في الأسبوع لتتيقَّن من أنَّ كلَّ شيء يسير كما ينبغي. وإذًا، فإنَّ على جوان الاعتناء بالدجاجات والخنازير،

وحلب البقرات، وإعداد الطعام للرجال وعامل المزرعة والراعي يومًا بعد يوم. عليها تعليم صبيَّين صغيرين قدر استطاعتها، ويَعْلَم الرَّبُّ أنهما في حاجة إلى التعليم لأنَّ المزرعة لن تؤول إليهما، وهذا أمر مؤسف. لها ثلاث بنات (أربع إذا عددت الأخرى، وهو ما لا تفعله جوان عادةً) تراقبهن. عليها أن تخبز الخبز، وتحلب الماشية، وتعبِّئ التوت في قنان، وتخمِّر الجعة، وترفو الثياب، وترتق الجوارب، وتفرك الأرضية، وتغسل الأطباق، وتهوِّي الأسرَّة، وتنفض السجاجيد، وتلمِّع النوافذ، وتنظِّف المناضد، وتمشط الشعر، وتمسح الأروقة، وتفرك السلالم.

فلتعذروها إذًا إذا مضى نحو ثلاثة أشهر قبل أن تلاحظ غياب عدد من الفُوَط الصحية من الثياب المُعَدَّة للغَسْل.

في البداية، تخال أنها ارتكبت خطأً ما. تُغسَل الثياب مرَّةً كلَّ أسبوعين، في وقت مبكِّر من صباح يوم الاثنين، لإتاحة الوقت للتهوية والعَصْر. هناك دائمًا يوم لغسل عدد قليل من الفوط الصحية، إذ تنزفُ وبناتُها في الوقت نفسه، وأمَّا الأخرى فتحتفظ بوقتها لنفسها، بطبيعة الحال، مثلما تفعل مع كلِّ شيء آخر. تعرف وبناتُها الإيقاع: هناك غَسْلُ فوطها وفوط بناتها كلَّ أسبوعين، كُوَم منها، جافة صدِئة، وهناك غَسْلُ العدد الأصغر من فوط آغنس. تُعنَى جوان بإلقائها في القِدْر بملاقط خشبية، حابسةً أنفاسها، ثم تغطيها بالملح.

في صباح أحد أيام أواخر تشرين الأول، تغربل جوان كُوَم الثياب غير المغسولة في المَغْسَل. كومة من القمصان والأكمام والقلانس مُعدَّة للغمر في الماء الحار والملح، كومة من الجوارب للغمر في حوض أبرد، بناطيل تكتَّلت عليها القذارة والوحل، رداء طويل مبقَّع، معطف تضرَّر من بركة موحلة. الكومة التي ترى جوان أنها «قذارة» تبدو أصغر من المعتاد.

ترفع جوان قماشًا مُتَّسخًا، ويدها على أنفها، ملاءة عليها أثر بول (وِلْيَم أصغر أبنائها ما زال غير جدير بالثقة كليًّا في هذا الجانب، على الرغم من التهديد والتملُّق، مع أنه ما زال في الثالثة من عمره فحسب، حفظه الرَّبّ). قميص ملطَّخ بشيء من الرَّوث ويلتصق بقلنسوة. تعبس جوان، تنظر حواليها. تقف لحظةً متفكِّرةً.

تذهب إلى الخارج حيث بناتها، كاترينا وجواني ومارغرت يعصرن ملاءة بينهن. ربطت كاترينا حبلًا حول خصر وليَم، يلتف طرفه حول خصرها. يشد ويسحب الطرف، متذمرًا ومغمغمًا بصوت خفيض، ويمسك بقبضة من العشب. إنه يحاول الوصول إلى زريبة الخنازير لكنَّ جوان سمعت قصصًا عديدة عن الخنازير التي تدوس الأطفال أو تأكلهم أو تسحقهم. لن تدع صغارها يجولون كما يشاؤون.

«أين الفوط الصحية؟» تقول واقفةً في المدخل. تلتفت بناتها لينظرن إليها، تفصل بينهن وتجمعهن الملاءة المعذَّبة التي يقطر منها الماء إلى الأرض. يهززن أكتافهن، وجوههن مُصْمَتَة وبريئة.

تعود جوان إلى المَغْسَل. لا بدَّ أنها ارتكبت خطأً ما. لا بدَّ أن تكون الفُوط هنا في مكان ما. ترفع كومة بعد كومة من الأرض. تبحث بين القمصان والقلانس والجوارب. تندفع خارجًا متجاوزة بناتها إلى البيت ومباشرة إلى الخزانة. هناك تَعُدُّ الفُوط السميكة، المطويّة والمغسولة، على الرَّف العلوي. تعرف كم منها هناك في هذا البيت وذلك العدد بعينه أمامها مباشرة.

تطأ جوان الأرض بقوة في الرُّواق، تخرج من الباب وتصفقه وراءها. تقف لحظةً على السلالم، تندفع أنفاسها داخل منخريها وخارجهما. الهواء بارد، يسِمُهُ الحَدُّ الفاصل الذي يدل على انقلاب الخريف إلى الشتاء. دجاجة تَخْطُر على السُّلَّم إلى خُمِّ الدجاج، الماعز، في وضع دفاعي، تمضغ العشب

وتجترُّه ملء فمها، وتحدجها ببصرها. ذهن جوان صافٍ، يرنُّ بفكرة واحدة: أيُّهن، أيُّهن، أيُّهن؟

لعلَّها تعرف، لكنها مع ذلك تنزل الدَّرَج بقوة، تعبر فناء المزرعة، وإلى المغسل حيث الفتيات ما زلن يعصرن الأغطية الرطبة، يقهقهن معًا على شيء ما. تمسك بذراع كاترينا أوَّلًا، وتضغط بيدها بطنَ الفتاة وتنظر إلى عينيها متجاهلة صراخها. تسقط الملاءة على الأرض المعشوشبة المبلَّلة وتدوسها هي والبنت المذعورة. تتحسَّس جوان: بطن ضامر، وَكْزُ عَظْمِ حوض، جِرابٌ خالٍ. أفلتت كاترينا وأمسكت بجواني الصغيرة، ما زالت صَبِيَّة، رفقًا بها! وإذا كانت هي، إذا كان شخص ما قد فعل هذا بها، فإنَّ جوان ستُقْدِم على فعل شيء شنيع، شيء سيِّئ ومخيف وانتقامي، وسيندم ذلك الرجل على اليوم الذي وطئت فيه قدمه هيولَندز، وأخذ ابنتها أينما أخذها وستفعل...

تبعد جوان يدها. بطن جواني ضامر، أجوف تقريبًا. ربما، تجد نفسها تفكِّر، ينبغي أن تطعم بناتها هؤلاء أكثر، وتحثُّهن على تناول حصة من اللحم أكبر. هل تسيء تغذيتهن؟ هل تفعل ذلك؟ هل تسمح للصِّبية بتناول أكثر من حقهم؟

تهزُّ رأسها لتبعد تلك الفكرة. مارغرت، تفكِّر وهي تتفحَّص وجه ابنتها الصغرى الناعم والقلِق. كلا. لا يمكن. ما زالت طفلة.

«أين آغنس؟» تقول.

تحدِّق إليها جواني مذعورة، ثم تنظر إلى الملاءة الموحلة تحت أقدامهن، تلاحظ جوان أنَّ كاترينا تشيح بنظرها، تنظر شزرًا، كأنها تفهم ما يعنيه هذا.

«لا أعرف»، تقول كاترينا، وهي تنحني لالتقاط الملاءة.

«قد تكون...»

تندفع مارغرت قائلة: «إنها تحلب البقرة.»

تزعق جوان حتى قبل أن تصل إلى الزريبة. تتطاير الكلمات من فمها، كدبابير، كلمات لم تعرف حتى إنها تعرفها، كلمات تندفع وتفرقع وتبتر، كلمات تلوي لسانها وتشوِّهه.

«أنتِ»، تصرخ وهي تدخل الزريبة الدافئة، «أين أنتِ؟»

تضغط آغنس برأسها خاصرةَ البقرة الناعمة وهي تحلب. تسمع جوان رشَّ الحليب وطَشِّه وهو يتدفَّق في الدَّلو. لدى سماع صياح جوان، تتحرَّك البقرة وترفع آغنس وجنتها وتلتفت لتنظر إلى زوجة أبيها، على وجهها تعبير حذِر. ها قد بدأنا الآن، تبدو كأنها تفكِّر.

تمسك جوان بذراعها، تسحبها من مقعد الحَلْب، وتدفعها إلى حاجز المَربِط. بعد فوات الأوان ترى ابنها جيمس واقفًا في المَربِط التالي: لا بد أنه كان يساعد آغنس على الحَلْب. على جوان أن تتحسَّس رداء الفتاة وأبازيم ثوبها، والفتاة تقاوم وتدفع أصابعها بعيدًا عنها محاولة التحرُّر، لكنَّ جوان تمد يدها، لحظةً فحسب، وتشعر... بماذا؟ انتفاخ، صلب الملمس وحار. تلٌّ يتسارع، ينتفخ كرغيف.

«عاهرة»، تبصق جوان، وآغنس تدفعها بعيدًا. «فاسقة».

تُدفَع جوان إلى الوراء، نحو البقرة التي تحرِّك رأسها الآن منزعجة من هذا التبدُّل في الجو، من هذا الانقطاع غير المبرَّر في عملية الحلْب. تسقط على كَفَل البقرة وتتعثَّر قليلا فتهرب آغنس بعيدًا، وتعدو في الزريبة، متجاوزة النعاج الناعسة، ثم إلى الباب، وجوان لن تتركها تفلت. تعتدل واقفة، تلاحق ربيبتها، يدفعها غضبها إلى مزيد من السرعة فتلحق بها بسهولة.

تمدُّ يدها، تطبق يدها على خصلة في شعر آغنس. من اليسير جدًّا أن تشدَّه،

أن توقف الفتاة، أن تشعر برأسها يهتز إلى الخلف في قبضتها، كأنما تُسحَب بلجام. تذهلها سهولة الأمر وتزيدها قوة: تسقط آغنس على الأرض، تسقط على نحو أخرق على ظهرها وتستطيع جوان إبقاءها هناك بلفٍّ شعرها حول قبضتها.

على هذا النحو، بوجود كلتيهما عند سياج فناء المزرعة، تستطيع جوان جعل آغنس تستمع إلى أي شيء تقوله.

تصرخ في الفتاة: «مَن فعل هذا؟ من وضع ذلك الطفل في بطنك؟»

تستعيد جوان العدد غير القليل من الخاطبين الذين سعوا إلى طلب آغنس للزواج منذ أن أصبحت تفاصيل المهر في وصية أبيها معروفة. أيمكن أن يكون واحدًا منهم؟ كان هناك صانع العجلات، والمزارع من الطرف الآخر في شوتري، تلميذ الحدَّاد ذاك. لكن لم يبدُ أنَّ الفتاة قد أبدت ميْلًا إلى أيٍّ منهما. مَنْ أيضًا؟ تمدُّ آغنس يدها إلى الوراء محاولة إبعاد أصابع جوان عن شعرها. وجهها -ذلك الوجه الشامخ الشاحب ذو الوجنتين المرتفعتين الذي تفخر به كثيرًا- يتلوَّى من الألم، من الغضب المكبوت. دموع تنهمر على وجنتيها، وتتجمَّع في مَحجِريها.

«أخبريني»، تقول جوان لهذا الوجه الذي عليها أن تراه كل يوم ناظرًا إليها بلا مبالاة، بوقاحة منذ اليوم الذي أتت فيه إلى هنا. هذا الوجه الذي تعرفه جوان يشبه وجه الزوجة الأولى، الزوجة الحبيبة، المرأة التي لم يتحدَّث عنها زوجها قطُّ، المرأة التي احتفظ بشَعْرها مضغوطًا في منديل في جيب قميص، قريبًا من قلبه. اكتشفت ذلك وهي تكفِّنه للدَّفن. لا بد أنه كان هناك طوال الوقت، طوال الأعوام التي غسلت فيها له ونظَّفت، وأطعمته، وحبلت بأطفاله، وذاك هو، شعر الزوجة الأولى. هي، جوان، لن تتجاوز أبدًا ذكاء تلك الإهانة ولسْعَتَها.

«هل كان الراعي؟» تقول جوان وترى أنَّ هذا الاقتراح، بالرغم من كل شيء، يجعل آغنس تبتسم.

تقول آغنس: «كلا، ليس الراعي.»

«مَنْ إذًا؟» تسأل جوان وتوشك أن تسمِّي ابنَ المزرعة المجاورة عندما تستدير آغنس وتوجِّه ركلة إلى مقدمة ساقها، ركلة قوَّتُها جعلت جوان تترنَّح إلى الوراء، يداها ترتفعان في الهواء. تستوي آغنس جالسةً، تخفُّ واقفةً، تبتعد، مُلَمْلِمةً تنُّورتها. تقوم جوان مترنِّحةً وتمضي وراءها. تكونان في فناء المزرعة عندما تلحق جوان بآغنس. تمسك برسغها، تهزُّها، وتسدِّد صفعة إلى وجه الفتاة.

«ستقولين لي من...» تبدأ، لكنها لا تنهي الجملة أبدًا لأنَّ ثمَّة ضوضاء في الجانب الأيسر من رأسها: انفجار يصمُّ الأذن، مثل قصف الرعد. لحظةً، لا تستطيع فهم ما حدث، ما تعنيه الضوضاء. ثم تشعر بالألم، ألم الجلد، وجع العظم العميق، فتدرك أنَّ آغنس ضربتها.

تضع جوان يدها على وجهها مذعورة. تزعق: «كيف تجرئين؟ كيف تجرئين على ضربي؟ إنَّ بنتًا ترفع يدها في وجه أمها هي شخص...»

شفة آغنس منتفخة، تنزف، لذلك كلماتها مشوَّشة، غير واضحة، لكنَّ جوان ما زالت قادرة على سماعها تقول: «أنتِ لستِ أمِّي.»

تثور ثائرة جوان وتصفعها مرة أخرى. على نحو لا يُصدَّق ودونما تردُّد، تردُّ آغنس الصفعة. ترفع جوان يدها مرة أخرى لكنَّها تُمسَك من الخلف. شخص يحيط بخصرها، إنه ذاك البارثولوميو المتوحش العملاق يرفعها ويبعدها، يُكرِهُها على إنزال يديها ويمسكهما بسرعة بقبضة أصابعه من غير جهد. ابنها، تومس، هناك أيضًا، يقف الآن بينها وبين آغنس، رافعًا عصا

الراعي، وبارثولوميو يقول لها أن تتوقف، أن تهدأ. يقف أطفالها الآخرون قرب خُمِّ الدجاج، فاغري الأفواه، مدهوشين. تطوِّق كاترينا بذراعيها جواني التي تبكي. تحضن مارغرت وليَم الصغير الذي يدُّس وجهه في عنقها.

تشعر جوان بأنها تُحمَل إلى الجانب الآخر من الفناء وبارثولوميو يكبِّلها، يسألها ما الخطب، ما سبب هذا، فتخبره مشيرةً بإصبعها إلى آغنس التي يساعدها تومس الآن على الوقوف.

تتبدَّى خيبة الأمل على وجه بارثولوميو وهو يصغي. يغمض عينيه، يشهق، ويزفر. يفرك شعر لحيته الغليظ ويفحص قدميه لحظةً.

«معلِّم اللاتينية»، يقول وينظر إلى آغنس.

آغنس لا تجيب، لكنها ترفع ذقنها قليلًا.

تُنَقِّل جوان نظرها بين ربيبها وربيبتها وأبنائها وبناتها. كلُّهم، ما خلا ربيبتها، يغضُّون أبصارهم فتدرك أنهم جميعًا، بل كلُّ واحد منهم، رأى ما لم تره. تكرِّر قائلةً: «معلِّم اللاتينية؟» تتصوَّره فجأةً واقفًا عند بوابة في أبعد الحقول طالبًا يد آغنس للزواج، بصوت متلعثم. لقد نسيَت تقريبًا. «هو؟ ذلك... ذلك الصبي؟ المتبطِّل؟ ذاك العديم الأجر، العديم النفع، العديم اللحية...» تنفجر ضاحكة بصوت أجش كئيب يخلِّف في صدرها شعورًا بالفراغ والحرارة. تتذكَّر كلَّ شيء الآن. الغلام واقف هناك وهي تقول له لا، تتذكَّر شعورها بوخز شفقة طفيف عليه، ذاك الغلام الصغير، وجهه حزينٌ جدًّا، وله أب كهذا أيضًا. لكنَّ جوان انصرفت عن التفكير فيه حالما غاب عن نظرها.

تتخلَّص جوان من يد بارثولوميو. تصبح مركَّزة، قاسية. تندفع إلى البيت، متجاوزة آغنس، متجاوزة أطفالها، متجاوزة الدجاجات. تفتح الباب بقوة،

وحالما تدخل تكون سريعة ودقيقة. تتحرَّك في الغرفة، تجمع كلَّ ما يخص ربيبتها. قميصان، قلنسوة إضافية، مئزر. مشط خشبي، حصاة بثقب، حزام.

ما زالت العائلة مجتمعة في فناء المزرعة حينما خرجت جوان من البيت وألقت بِصُرَّة عند قدمي آغنس.

تصيح: «أنتِ مطرودة من هذا البيت إلى الأبد!»

ينقل بارثولوميو نظراته من آغنس إلى جوان ومن جوان إلى آغنس. يطوي ذراعيه ويخطو إلى الأمام. يقول: «هذا بيتي، تُرِك لي في وصية أبي. وأقول إنَّ آغنس ستبقى.»

تحدِّق جوان إليه، دون كلام، تتضرَّج وجنتاها.

«لكن...»، تهدِّد محاولة حشد أفكارها، «... لكن... شروط الوصية تنص على أن أبقى في البيت حتى ذلك الوقت...»

«يمكنك البقاء»، يقول بارثولوميو، «لكنَّ البيت بيتي.»

«لكنني أوكِلت إليَّ إدارة البيت!» تتمسَّك بهذا بانتصار، باستماتة. «وأنت الاعتناء بالمزرعة. واستنادًا إلى هذا الواقع، يحق لي طردها، لأن هذه مسألة تخص البيت وليس المزرعة، و...»

«البيت بيتي»، يردِّد بارثولوميو بهدوء. «وستبقى.»

«لا يمكنها البقاء»، تزعق جوان، محتدَّة، مغتاظة. «عليك أن تفكِّر في إخوتك وأخواتك، وفي سُمْعَة هذه العائلة، فضلًا عن سمعتك، ومكانتنا في...»

«ستبقى»، يقول بارثولوميو.

«عليها أن تذهب، يجب أن تفعل.» تحاول جوان أن تفكِّر، باحثةً عن شيء

يجعله يغيِّر رأيه. «فكِّر في أبيك. ماذا كان سيقول؟ كان الأمر سيحطِّم قلبه. لم يكن أبدًا لـ...»

«ستبقى. إلا إذا حدث أن...»

تضع آغنس يدها على رُدْن شقيقها. ينظر أحدهما إلى الآخر لحظة طويلة دون أن يتحدَّثا. ثم يبصق بارثولوميو في التراب ويرفع يده إلى كتفها. تبتسم آغنس باعوجاج بفمها المجروح والنازف. يومئ بارثولوميو برأسه مُستجيبًا. تمسح وجهها بكُمِّها، تفكُّ عقدة الصُّرَّة، تربطها وتعيد ربطها.

ينظر بارثولوميو وهي تضع الصرة على كتفها. «سأتدبَّر الأمر»، يقول لها ملامسًا يدها. «لا تقلقي.»

«لن أقلق»، تقول آغنس.

تمشي بشيء من الترنُّح عبر فناء المزرعة. تدخل مخزن التفاح، وبعد بضع لحظات، تخرج وعوسقها على قفَّازها. الطائر مبرقع، مطوي الجناحين، لكنَّ رأسه يدور وينتفض، كأنه يتعرَّف إلى أحواله الجديدة.

تحمل آغنس صُرَّتها على كتفها دون أن تقول وداعًا، تخرج من فناء المزرعة وتسلك الطريق خلف طرف البيت، وترحل.

إنه خلف كُشْك أبيه في السوق، يسترخي أمام المنضدة متكاسلًا. اليوم منعش، باردٌ ببرودة بواكير الشتاء المدهشة. بينما يراقب أنفاسه تخرج في تيَّار مرئي يتلاشى، ويصغي نصف إصغاء إلى امرأة تفاضل بين قفافيز مبطَّنة بفرو سنجاب وأخرى مُزيَّنة بفرو أرنب، تظهر إليزا فجأة إلى جانبه.

تبتسم له تبسُّمًا غريبًا، عريضًا، بارز الأسنان.

«ينبغي أن تذهب إلى البيت»، تقول بصوت منخفض دون أن تترك ملامحها الثابتة ترتبك. ثم تلتفت إلى المرأة التي تستعرض السِّلَع وتقول: «نعم يا سيدتي؟»

يعتدل في وضع مستقيم. «لماذا ينبغي أن أذهب إلى البيت؟ قال أبي إنه عليَّ...؟»

تهمس: «اذهب فحسب، الآن»، وتخاطب الزبونة بصوت أعلى: «أحسب أنَّ القفاز المزيَّن بفرو الأرنب هو الأدفأ.»

يِثبُ عبر السوق، شاقًّا طريقه داخل الأكشاك وخارجها، متفاديًا من عربة يد محمَّلة بالملفوف، من صبيٍّ حاملًا حُزْمة قش. ليس على عجلة من أمره: لعلَّ للأمر علاقة بإحدى شكاوى والده بشأن سلوكه أو مشاغله أو نسيانه أو كسله أو عجزه عن تذكُّر أشياء مهمة أو نفوره من إنفاق يومه في ما يتهوَّر والده بوصفه بـ«عمل نزيه في النهار». لعلَّه نسي توصيلَ طلبٍ ما أو جَلْبَ جلد من المدبغة أو غَفَلَ عن تقطيع الحطب لأمِّه. يشق طريقه صعودًا إلى شارع هنلي الواسع، يقف ليتبادل والعديد من الجيران التعليقات، ليربِّت رأسَ طفل، وأخيرًا، ينعطف إلى باب بيته.

يمسح حذاءه على الحصيرة، تاركًا الباب ينغلق وراءه، ويلقي نظرة على معمل أبيه. مقعد أبيه خالٍ، مدفوع إلى الخلف، كأنما على عجل. كتفا المتدرِّب الهزيلتان تنحنيان على شيء ما على منضدة العمل. يلتفت الصبي المتدرِّب على وقع صوت المزلاج وهو ينعقف، وينظر إليه بعينين مدهوشتين خائفتين.

يقول: «أهلًا يا ند، كيف الحال؟»

يبدو ند كأنه سيتكلَّم لكنه يغلق فمه. يومئ برأسه إيماءة بين الموافقة

والرفض، ثم يشير إلى الرَّدهة.

يبتسم للمتدرِّب، ثم يخطو إلى الباب قادمًا من الرُّواق، يعبر بلاطات البيت المربعة، يتجاوز مائدة الطعام، يتجاوز الموقد الفارغ، ويلج الرَّدهة.

المشهد الذي يستقبله غير قابل للتفسير كليًّا، مربك جدًّا، حتى إنه أنفق لحظة ليدرك الأمر، ليقيِّم ما يحدث. يقف في مساره، يؤطِّره المدخل. ما يبدو فورًا واضحًا له هو أنَّ حياته قد اتخذت منعطفًا جديدًا.

تجلس آغنس على مقعد منخفض، صُرَّة رثَّة عند قدميها، تقابلها أمُّه قرب النار، يقف أبوه عند النافذة موليًا الغرفة ظهره. العوسق تجثم على الرافدة العلوية لمقعد سُلَّمي الظهر، تحكم قبض مخالبها على الخشب، قيدها وجرسها يتدليان. جزء منه يودُّ الالتفات والجري. الجزء الآخر يودُّ الانفجار في الضحك من: فكرة وجود صقر وآغنس في ردهة أمِّه تحيط بهما بُسُط الحائط المزخرفة والملوَّنة التي تفخر بها أمُّه أيَّما فخر.

«أه»، يقول، محاولًا تمالك نفسه، ويلتفت الثلاثة كلهم نحوه. «الآن...»

تذوي الكلمات على شفتيه لأنه يرى وجه آغنس. عينها اليسرى مغمضة من الانتفاخ، محمرَّة، مرضوضة، الجلد تحت الحاجب متمزِّق وينزف.

يتقدَّم نحوها، رادمًا الفجوة بينهما. «ربَّاه!» يقول واضعًا يده على كتفها متحسِّسًا تقوُّس عظمة كتفها وشدَّها، كأنها ستحلِّق، ستطير في الهواء مثل طائرها، لو أنها تستطيع فحسب. «ماذا حدث؟ من فعل بكِ هذا؟»

ثمَّة علامات واضحة على وجنتها، جرح على شفتها، آثار أظافر، بُقَع دامية على معصمها.

تتنحنح ماري. تقول: «أمُّها طردتها من البيت.»

تهزُّ آغنس رأسها. تقول: «زوجة أبي.»

يضيف قائلًا: «جوان زوجة أب آغنس، وليست...»

تقول ماري بسرعة: «أعرف ذلك، ما استخدمت الكلمة إلا كـ...»

تقول آغنس: «ولم تطردني. ليس بيتها. إنه بيت بارثولوميو. أنا من اختارت الرحيل.»

تزفر ماري مغمضة عينيها لحظةً، كأنها تستجمع ما تبقَّى لها من صبر. «آغنس»، تقول وهي تفتح عينيها وتثبِّتهما في ابنها، «حبلى بطفل. تقول إنه طفلك.»

يومئ برأسه ويهزُّ كتفيه في الوقت ذاته، ناظرًا إلى ظهر أبيه العريض إذ يلوح خلف أمِّه وما زال مواجهًا الشارع. على الرَّغم من نفسه، على الرَّغم من حقيقة أنه يمسك بيد المرأة التي تعهَّد بالزواج بها، على الرَّغم من كلِّ شيء، يفكِّر في الوسيلة التي سيتَّخذها ليتجنَّب القبضة التي لا مفر منها، ليراوغ الضربات التي يعلم أنها ستأتي، ليتفادى منها، وليحمي آغنس منها. أمرٌ كهذا ليست له سابقة في عائلتهم. لا يسعه إلا أن يتخيَّل ما الذي سيفعله أبوه، ما الذي يختمر في رأسه الأصلع الأخرق ذاك. ثم يدرك بخزي شديد أنَّ آغنس سترى كيف تمضي الأمور بينه وبين أبيه، سترى الاضطراب والصراع كلَّه، ستراه على حقيقته، رجلًا ساقه عالقة بين فكَّي مصيدة، سترى وتعرف كلَّ شيء في لحظة فقط.

«أليس كذلك؟» تقول أمُّه، وجهها شاحب، متوتِّر.

«كذلك ماذا؟» يقول شاعرًا بالذعر وبشيء من الغضب، ومن ثم بالعجز عن منع نفسه من الانزلاق إلى تناوش لفظي.

«أهو لك؟»

«ما هو الذي لي؟» يجيب مبتهجًا تقريبًا.

تزمُّ ماري شفتيها. «هل وضعتَه هناك؟»

«وضعتُ ماذا؟ أين؟»

في هذا الحين يدرك أنَّ آغنس تدير رأسها لتنظر إليه، يستطيع تخيُّل عينيها السوداوين ترمقانه، تقيِّمان، تجمعان معلومات، مثل بَكْرَة يُلَفُّ عليها خيط، لكنه ما زال عاجزًا عن التوقُّف. أيُّ شيءٍ يأتي في طريقه يريده أن يأتي عاجلًا: يريد أن يستفزَّ أباه، أن يدفعه إلى الفعل، يريد أن ينتهي من الأمر مرة واحدة وإلى الأبد. كفى حَوْمًا حول الموضوع. فلتظهر حقيقة أبيه. ولترَ آغنس.

«الطفل.» تتحدَّث ماري بصوت عالٍ بطيء كأنها تتحدَّث إلى شخص ساذج. «الذي في بطنها. هل وضعتَه هناك؟»

يشعر بوجهه يتغضَّن مبتسمًا. طفل. صنعه هو وآغنس بين التفاح في المخزن. كيف لا يتزوجان الآن؟ لا شيء يمكن فعله لإيقاف ذلك في ظروف كهذه. سيكون، تمامًا مثلما قالت إنه سيكون. سيتزوجان. سيكون زوجًا وأبًا، وحياته ستبدأ ويمكنه أن يترك هذا وراءه، كلَّه، هذا البيت، هذا الأب، هذه الأم، المعمل، القفافيز، هذه الحياة كابن لهما، إرهاق العمل في التجارة وضجره. يا لها من فكرة! يا له من شيء! هذا الطفل في بطن آغنس سيغيِّر كلَّ شيء له، سيحرِّره من الحياة التي يكرهها، من الأب الذي لا يستطيع العيش معه، من البيت الذي ما عاد يحتمله. هو وآغنس سيطيران: إلى بيت آخر، بلدة أخرى، حياة أخرى.

«نعم فعلت»، يقول مستشعرًا تبسُّمه يجلِّل وجهه.

تحدث عدَّة أشياء في الوقت نفسه. تندفع أمُّه من مقعدها نحوه وتضربه بقبضتيها، يشعر بوقع الضرب على صدره وكتفيه مثل قَرْع طبل. يسمع

صوت آغنس يقول كفى، توقَّفي، وصوتًا آخر، صوته، يقول إنهما خطيب وخطيبته، إنه لا خطيئة في ذلك، سيتزوجان، يجب أن يتزوجا. تزعق أمُّه قائلة إنه لم يبلغ سنَّ الرُّشد بعد، إنه سيحتاج إلى موافقتها ولن يمنحاه إيَّاها أبدًا، تقول شيئًا عن أنه مسحور، أي دمار هذا!، سترسله بعيدًا، تفضِّل أن يذهب إلى البحر على أن يتزوج هذه البَغِيّ، يا لها من كارثة! خلفه، يحسُّ بأنَّ الطائر يتحرَّك مضطربًا على مقعده، نافضًا ريشه، يحسُّ بخفق جناحيه المفتوحين ورُعاشهما، برنين جرسه. ثم تقترب هيئة أبيه العريضة المظلمة، وأين آغنس وسط هذه الفوضى كلها، أهي خلفه؟ أهي بأمان بعيدًا عن متناول يد أبيه؟ لأنه، قسمًا بالرَّبِّ، سيقتله، سيقتله، إذا ما لمسها بأصابعه.

يمدُّ أبوه ذراعه فيكون هو على أُهبة الاستعداد، عضلاته متوترة، لكنَّ اليد اللاحمة لا تضربه، لا تتكوَّر في كُرَة، لا تؤذيه. بدلًا من ذلك، تحطُّ على كتفه. يستطيع أن يشعر بأطراف الأصابع الخمس كلِّها تخز لحمه، خلال نسيج قميصه، يستطيع أن يشمَّ رائحة الجلود المألوفة، رائحة الدباغة -حادَّة، لاذعة، بوليَّة- تفوح منه.

ثمَّة ذلك الإحساس غير المعهود بيد أبيه وهي تضغط عليه للجلوس على المقعد. «اجلس»، يقول أبوه، صوته هادئ. يشير إلى آغنس التي تقف وراءهما تهدِّئ طائرها. «اجلسي يا فتاة.»

بعد لحظة، يمتثل. تأتي آغنس لتقف إلى جواره، تملِّس الريش على عنق العوسق بظهر أصابعها. يرى أمَّه تفحصها بملامح مستنكِرة، باستغراب واضح. يجعله هذا راغبًا في الضحك مرة أخرى. ثم يتحدَّث أبوه فيعود انتباهه.

يقول أبوه: «لا أشكُّ في أنه... يمكننا أن نصل إلى اتفاق.»

تعبير وجه أبيه غريب. يحدِّق إليه مدهوشًا بغرابته. يشدُّ جون شفتيه إلى الخلف حتى تبين ثناياه، عيناه تلمعان على نحو غريب. أنفق بضع ثوان ليدرك أنَّ جون في الواقع، يبتسم.

«لكن يا جون»، تصيح أمُّه، «مستحيلٌ أن نوافق على مثل...»

«هُس يا امرأة»، يقول جون. «قال الصبي إنَّهما خطيبٌ وخطيبته. ألم تسمعيه؟ ليس ابني مَن يخلف وعدَه، يتنصَّل من مسؤولياته. الغلام حبَّل الفتاة. لديه مسؤولية...»

«إنه في الثامنة عشرة من عمره! لا عمل لديه! كيف يمكنك أن تفكِّر...»

«قلت لكِ هُس.» يتحدَّث أبوه بغضبه العاصف المعتاد لحظةً فقط، قبل أن يستعيد النغمة الغريبة، المتملِّقة تقريبًا. «وَعَدَكِ ابني، أليس كذلك؟» يقول وهو ينظر إلى آغنس. «قبل أن يأخذك إلى الغابة؟»

تربِّت آغنس طائرها. تنظر إلى جون نظرة ثابته. «وعد أحدنا الآخر.»

«وما قول والدتك -آه، زوجة أبيك- في العلاقة؟»

«إنها... لم تستحسن الأمر. قبلًا. وأمَّا الآن»، تشير إلى بطنها، «فلا يمكنني القول.»

«فهمت.» يتوقَّف أبوه لحظةً، عقله يفكِّر. وثمَّة، بالنسبة إلى الابن، شيء مألوف في صمت أبيه هذا، وفقط وهو يحدِّق إليه عابسًا، متعجِّبًا، يدرك ما هو. هذا هو الوجه الذي يبديه أبوه حينما يفكِّر في صفقة تجارية، في صفقة مربحة. إنه التعبير نفسه الذي يبدو عليه عندما تأتي في طريقه حصَّةُ جلود رخيصة، أو بضع حُزَم صوفٍ إضافية ليخبئها في العِلِّيَّة، أو عندما يُرسَل إليه تاجر عديم الخبرة ليقايضه. إنه التعبير الذي يتظاهر به عندما يحاول ألَّا يكشف للطرف الآخر بأنه سيخرج من الصفقة أيسر حالًا.

تعبيرٌ جشع. مرِح. مكبوت. يجعل بدن الابن يقشعرّ حتى النُّخاع. يجعله يتشبَّث بأطراف المقعد تحته بيديه كلتيهما.

فجأةً يرى الابن، بإحساس مستنكِرٍ خانق، أنَّ هذا الزواج سيكون مفيدًا لأبيه، لأنَّها صفقة له مع أرملة راعي الخراف. يوشك أبوه أن يحوِّل هذا كلَّه -وجه آغنس الدامي، وصولها إلى هنا، العوسق، الطفل الذي ينمو في بطنها- لمصلحته.

لا يستطيع تصديق الأمر. لا يستطيع. أنه وآغنس أوقعا نفسيهما على نحوٍ غير مقصود في يد أبيه. الفكرة تجعله يود الفرار من الغرفة. أنَّ ما حدث بينهما في هيولَندز، في الغابة، والعوسق تغوص مثل إبرة في تلافيف أوراق الشجر فوقهما، يمكن ليُّه ليصير حبلًا يوثقه به أبوه أكثر إلى هذا البيت، إلى هذا المكان. شيءٌ لا يُحتمل. لا يُطاق. ألن يرحل أبدًا؟ ألن يتحرَّر أبدًا من هذا الرجل، من هذا البيت، من هذه التجارة؟

يبدأ جون بالتحدُّث مرة أخرى بالصوت المعسول نفسه قائلا إنه سيقصد هيولَندز مباشرة للتحدُّث إلى أرملة الفلاح، إلى شقيق آغنس. إنه على يقين، يقول لهم، من أنه يمكنه التوسط لأجل اتفاق ما، يمكنه صياغة شروط مفيدة للجميع. الفتى يرغب في الزواج بالفتاة، يقول لزوجته، والفتاة ترغب في الزواج بالفتى: فمن هما حتى يمنعا هذا الاقتران؟ يجب أن يولد الطفل في فراش الزوجية، لا يمكن ولادته في هذا العالم على الجانب الخطأ من الملاءة. إنه حفيدهما، أليس كذلك؟ يقع العديد من الزيجات على هذا النحو. إنها سُنَّة الطبيعة.

في هذه الأثناء، يلتفت إلى زوجته ويضحك، يمدُّ يده ليمسك بخصرها، فينظر الابن إلى الأرض، ينتابه شعور شديد بالغثيان.

يقفز جون على قدميه، وجهه مُحمر، كلُّه توق وحماسة. «حُسِم الأمر إذًا. سأذهب إلى هيولَندز لأضع شروطي... شروطنا... لـ... لأختم هذا الأمر الأكثر... فجائية... ويجب أن يُعْلَن اقترانًا مباركًا بين العائلتين. ستبقى الفتاة هنا.» يومئ إلى ابنه. «كلمة معك، على انفراد، من فضلك.»

خارجًا في الرُّواق، يتخلَّى جون عن التظاهر باللُّطف. يمسك بياقة ابنه، أصابعه باردة على جلده، يرفع وجه ابنه مباشرة إلى وجهه.

«قُل»، يقول بصوت متوعِّد هَرِم منخفض، «إنه ليس هناك المزيد.»

«المزيد من ماذا؟»

«قلها. لا يوجد المزيد. أليس كذلك؟»

يشعر الابن بضغط الحائط على ظهره وكتفه.

تقبض الأصابع ياقته بقوة شديدة تعوق الهواء في حلقه.

«هل هناك المزيد؟» يهمس أبوه في وجهه. تفوح من أنفاسه رائحةُ سَمَك وطُفَال على نحوٍ مبهم. «هل ستكون هناك بغايا أخريات من ورِكْشَر يثِبن إلى بابي ليقلن لي إنك نفخت بطونهن بالأطفال؟ هل عليَّ أن أتعامل مع أخريات؟ قل لي الحقيقة، الآن. لأنه، قسمًا بالرَّبِّ، إذا كانت هناك أخريات وسمِعَت عائلتُها بهن، فستكون هناك مشكلة. لك ولنا جميعًا. أتفهم؟»

يلهث، يدفع أباه إلى الوراء، لكنَّ أباه يضغط كتفه بكوعه، ويضع ساعده على حنجرته. يحاول أن يقول لا، أبدًا، لا أحد غيرها، إنها ليست بغيًّا، كيف تجرؤ على قول شيء كهذا، لكنَّ الكلمات لا تجد طريقها إلى شفتيه.

«لأنك إذا كنت قد حرثت واحدة أخرى وغرست فيها -حتى إن كانت واحدة فقط- فسوف أقتلك. وإن لم أفعل أنا، سيفعل شقيقها. أتسمعني؟

أقسم بأنني سأحرمك حياتك، والرَّبُّ شهيد على ذلك. تذكَّر ذلك.»

يسدِّد أبوه ضربة أخيرة إلى قصبته الهوائية، ثم ينصرف خارجًا من الباب تاركًا إياه يصفق وراءه.

ينحني الابن، يتنشَّق الهواء، يمسح عنقه. بينما يعتدل واقفًا، يرى ند، المتدرِّب، ينظر إليه. يحدِّق الاثنان أحدهما إلى الآخر لحظة، ثم يستدير ند عائدًا إلى المنضدة، منحنيًا لفحص عمله.

يسير جون مباشرة إلى هيولَندز. لا يقف عند كُشْكِه ليزعج إليزا، ليوجِّه النَّقد والأحكام، أو ليفحص المخزون. لا يقف ليبادل الحديثَ عضوًا من البلدية يلتقيه في شارع روذر. يسلك الطريق المؤدي إلى شوتري ويغذّ السير، كأنَّ الفتاة قد تلد الطفل في أية لحظة وتحبط بطريقة ما هذه الفرصة. خطواته سريعة، يبهجه التفكير بمرح، ولا سيَّما بالنسبة إلى رجلٍ في سِنِّه. يتوقَّع صفقة مربحة في انتظاره، يحسُّ بتلك المتعة الخاصة تسري في أوصاله مثل كأس نبيذ. يعلم جون أنَّ هذه هي اللحظة، أنَّ صفقةً يجب أن تُبرَم دون تأخير، خشية أن تتبدَّل الأحوال وتضيع الفرصة منه، كما قد يحدث. له اليد الطُّولى، نعم، له ذلك. لديه الفتاة في بيته، لديه الفتى الذي سيحتاج إلى إذنٍ خاص بالزواج بسبب صغر سِنِّه، إذنٍ موقَّعٍ من والديه. ثمَّة مسألة الدَّيْن القديم بينهم، لكنَّ القضية الألح ستكون الفتاة. يريدونها أن تتزوَّج، في حالها هذه، ولا يمكن أن يتمَّ الزواج إذا لم يوافق عليه جون. إنه الوضع المثالي. يمسك بكل بطاقة. يسمح لنفسه وهو يسير على الدرب بأن يدندن بصوت عال لحنًا راقصًا قديمًا من عهد شبابه.

يجد الأخَ في حقل بعيد، يجب أن يشقَّ طريقه عبر الأوساخ ليصل إليه، والأخ متكئ على عصاه يراقبه وهو يقترب، دون أن يتحرَّك.

مجموعات من الخراف تتحرَّك حوله، توجِّه عيونها الجاحظة نحوه، تحيد عنه، كأنه مفترس ضخم ومخيف. قفافيز، يهمهم لها هامسًا دون أن يتلاشى ابتسامه، جميعكن سيصير قفافيز قبل أن تعرفن ذلك. سَتَلْبَسُكنَّ أيدي نبلاء ووركْشَر قبل نهاية العام، إذا كان لدي أي علاقة بالأمر. يصعب عليه، وهو يخطو على الحقل، كبح الفرح من الظهور على وجهه.

البِرَك تحت حذائه البلدي متجمدة كأنها غيوم بيضاء، صلبة في ثُلَم الوحل وأخاديده.

يصل جون إلى الأخ راعي الخراف. يبسط يده. ينظر الأخ إليها لحظةً. رجل ضخم، له نظرة عيني آغنس، وشعر أسود معقود إلى الخلف بعيدًا عن وجهه. يلبس رداءً من جلد الخراف كالذي كان يلبسه أبوه، ويحمل هراوة منحوتة. فتى آخر أكثر حُسْنًا وأصغر سنًّا، يحمل عصًا أيضًا، يحوم في الخلف، حَذِرًا، ولحظةً يشعر جون بوخز طفيف. ماذا لو أنَّ هذين الرجلين، هذين الأخوين، هؤلاء الناس يريدون به شرًّا ليثأروا منه بسبب ابنه المتبطِّل الذي أفقد أختهم عُذْرَتَها؟ ماذا لو أخطأ قراءة الموقف، ولا يصب في مصلحته بعد كل شيء، وارتكب خطأ فادحًا بالمجيء؟ لحظةً خاطفةً يرى الموتَ مقبلًا نحوه هنا في حقل يكسوه الصقيع في شوتري. يرى جثَّته، رأسه مهشَّمًا بهراوة راعٍ، دماغه متناثرًا مبدَّدًا، يتبخَّر على الأرض المتجمدة. يرى زوجته ماري أرملةً، ابنيه الصغيرين، إدموند وريتشرد، يتيمَين. كلُّه خطأ ابنه الضال.

ينقل الفلاح هراوته إلى يده الأخرى، يبصق على الأرض بحزم، ويصافح أصابع جون، يعصرها بقوة مؤلمة. يسمع جون نفسه يطلق صياحًا عاليًا، كأنه صياح بنت.

«حسنًا». يقول جون ضاحكًا أعمق ضحِكٍ أمكنه وأَرْجَلَه، «أحسب يا بارثولوميو أنَّ لدينا مسائل نناقشها.»

ينظر إليه الأخ مدة طويلة. ثم يومئ برأسه، وينظر إلى شيء ما خلف كتف جون.

«نعم يجب أن نفعل ذلك»، يقول ويشير بإصبعه. «هي ذي جوان قادمة. سيكون لديها ما تقول، أضمن ذلك.»

تقبل جوان مهرولة عبر الحقول، محاطة ببناتها، وصبي صغير يجثم على خاصرتها.

«أنت»، تصيح، كأنه أحد صبية مزرعتها. «كلمة معك، من فضلك.»

يلوِّح لها جون بيده بودّ، ثم يلتفت ليشمل بارثولوميو بابتسام وإيماءٍ برأسه. إنه إيماءٌ رجولي جانبي مُطَّلِع ذاك الذي أومأ به جون إليه، إيماءٌ يقول: النساء، آه منهن! دائمًا ما يُرِدْن الأمور على هواهنّ. علينا نحن الرجال أن نجعلهن يشعرن بأنهن يحظين بالمشاركة.

يشخص بارثولوميو بصره لحظةً، عيناه الشهلاوان تشبهان عيني شقيقته كثيرًا، لكنهما بلا تعبير، لا مباليتان. ثم يخفض بصره، وبإشارة غير محسوسة يأمر أخاه بالانصراف، بفتح البوابة لجوان، وهو يصفر للكلاب لتذهب معهم.

يقفون في الحقل مدة طويلة، بارثولوميو، وجوان، وجون. الأبناء الآخرون يراقبون، غير مرئيين، مختبئين وراء حائط. بعد حين يبدؤون بالتساؤل، هل سُوِّي الأمر، هل انتهى، هل ذهبت آغنس إلى منزلهم، هل سيزوجونها، ألن تعود أبدًا؟ يتعب الأخ الأصغر من لعبة الوقوف هذه عند حائط فيبكي ليوضَع على الأرض. عيون الأخوات لا تترك أبدًا الأشخاص

الثلاثة الواقفين بين الخراف. تتعارك الكلاب وتتثاءب، رؤوسها تتكئ على كفوفها، ترفعها من حين إلى آخر لتراقب مع تومس، منتظرةً أوامره.

يبدو أخوهم وهو يهزُّ رأسه، متلفِّتًا يمنةً ويسرةً، كأنه سيترك النقاش. يبدو صانع القفافيز كأنه يلتمس، باسطًا إحدى يديه أولًا، ثم الأخرى. يحصي شيئًا بأصابع يده اليمنى. تتحدَّث جوان بحماسة وقتًا طويلًا، ملوِّحة بيديها، مشيرةً إلى البيت، ممسِكَةً بمئزرها. ينظر بارثولوميو طويلًا وبصرامة إلى الخراف قبل أن يمدَّ يده ليلمس ظهر أحدها، ملتفتًا لينظر إلى صانع القفافيز، كأنه يثبت للرجل الآخر وجهة نظره في الحيوان. يومئ صانع القفافيز بحيوية، يلقي خطابًا طويلا، ثم يبتسم كأنه حقَّق نصرًا. ينقُر بارثولوميو حذاءه بالهراوة، إشارة أكيدة إلى أنه غير سعيد. يدنو صانع القفافيز، تتمسَّك جوان بموقفها. يضع صانع القفافيز يده على كتف بارثولوميو، يسمح الراعي ببقائها.

ثم يتصافحون. صانع القفافيز يصافح جوان، ثم بارثولوميو. أوه، تقول إحدى الفتيات. يتنفَّس الصِّبية الصعداء. قُضِي الأمر، تهمس كاترينا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يستيقظ هامنت جافلًا، الفِراش يُخَشْخِش تحته. شيء ما أيقظه -جلبة، دوي، صياح- لكنه لا يعرف ما هو. يستطيع أن يلاحظ من خلال أشعة الشمس الممتدة إلى الغرفة أنَّ المساء يدنو. ما الذي يفعله هنا نائمًا على الفراش؟

يطرق ثم يتذكَّر كلَّ شيء. جسد يستلقي خامدًا إلى جواره، الرأس يلتفت إلى جانب. وجه جودث شاحب وساكن، عَرَق لامع يجعله يتلألأ كزجاج. صدرها يعلو ويهبط مُدَدًا متفاوتة.

يبلع هامنت ريقه، حلقه مسدود ومشدود. يحسُّ بلسانه كأنه مكسو بفرو، يحسُّ به غليظًا، أكبر من أن يتسع له فمه. يترنَّح واقفًا، تغيم الغرفة من حوله. ألمٌ يتغلغل في مؤخّر رأسه ويربض هناك، يَصِرُّ صرير فأر محاصَر.

في الطابق السفلي، تدخل آغنس من الباب الأمامي وهي تدندن لنفسها. تضع على المائدة الأشياء الآتية: حُزْمتين من إكليل الجبل، حقيبتَها الجلدية، جرَّةَ العسل، كتلةً من شمع العسل مغلَّفةً بورقة نبات، قبعتَها القشِّيَّة، حُزْمةً من عشبة السَّنفيتون تعتزم قطفَ أزهارها وتجفيفَها، ثم نقعَها في زيت دافئ.

تمشي في الغرفة، تسوِّي المقعد قرب الموقد، تنقل قلنسوة سوزانا من المائدة إلى مِشجَب خلف الباب. تفتح النافذة على الشارع، تحسُّبًا لمجيء أحد زبائنها. تحلُّ رباط ثوبها وتنفضه. ثم تفتح الباب الخلفي وتنزل إلى الدَّرب المفضي إلى المطبخ.

يمكن الإحساس بالحرارة من بُعْد عدة خطوات. في الداخل، ترى ماري تحرِّك الماء في قِدر، وإلى جوارها سوزانا جالسة على مقعد تمسح الطين عن البصل.

«ها أنتِ»، تقول ماري ملتفتةً، وجهها محمر من الحرارة. «مكثتِ وقتًا طويلًا.»

تتبسَّم آغنس تبسُّمًا غامضًا. «كان النحل يحتشد في البستان. كان عليَّ إغراؤه بالعودة.»

«همم»، تقول ماري وهي تلقي بحفنة من الدقيق في الماء. إنها تضيق ذرْعًا بالنحل. كائنات مخادعة. «وكيف حال الجميع في هيولَندز؟»

«بخير، حسبما أظن»، تجيب آغنس لامسةً شعر ابنتها لحظةً، مُحيِّيَةً، تتناول رغيف خبز أعدَّته في ذلك الصباح وتضعه على المنضدة. «أخشى أنَّ ساق بارثولوميو ما زالت تزعجه، لكنه لا يعترف بذلك. أراه يعرج. يقول إنها توجعه في الطقس الرطب وهذا كل ما في الأمر، لكنني قلت له إنه بحاجة إلى...»، تقول آغنس فجأة وسِكِّين الخبز في يدها. «أين التوأمان؟»

لا ماري ولا سوزانا رفعت ناظريها عن عملها.

«هامنت وجودث»، تقول آغنس. «أين هما؟»

«لا فكرة لدينا»، تقول ماري رافعةً ملعقة إلى شفتيها لتتذوَّق، «لكنني عندما أجدهما سأعاقبهما. لم يقطعا شيئًا من الحطب. لم يُعِدَّا المائدة. كلاهما اختفى، يعلم الرَّبُّ أين. سيحل وقت العشاء قريبًا وما من أثر لأي منهما.»

توجِّه آغنس حافة السكين المُسَنَّنَة إلى رغيف الخبز، مرَّةً، مرَّتين، فتسقط الشرائح بعضها فوق بعض. توشك على شَقِّ قشرة الخبز للمرة الثالثة عندما تترك السكين تنزلق من يدها.

«سأذهب فقط و...»، يتلاشى صوتها وهي تخرج من باب المطبخ صاعدةً الدَّرب إلى البيت الكبير. تتفقَّد المعمل حيث يميل جون على المقعد في هيئة تقول: لا تزعجني. تسير في قاعة الطعام والرَّدهة. تصيح مناديةً باسميهما من أسفل السلالم. لا شيء. تخرج من الباب الأمامي إلى شارع هنلي. حرارة اليوم تتلاشى، غبار الشارع يهدأ، يعود الناس أدراجهم إلى منازلهم لتناول عشائهم.

تدخل آغنس من باب بيتها الأمامي للمرة الثانية في ذلك المساء.

وترى، ابنها واقفًا أسفل السلالم. جامدٌ، وجهه شاحب، أصابعه تتشبَّث بدرابزين السلالم. ثمَّة انتفاخٌ، جرحٌ على حاجبه كانت على يقين من أنه لم يكن هناك هذا الصباح.

تتحرَّك نحوه بسرعة قاطعةً الغرفة في خطوات قليلة.

تقول ممسكةً بكتفيه: «ماذا؟ ما الخطب؟» ماذا أصاب وجهك؟»

لا يتكلَّم. يهزُّ رأسه. يشير إلى السلالم. ترتقيها آغنس درجتين درجتين.

تقول إليزا لآغنس إنها ستصنع إكليل الزفاف. إذا كان ذلك ما ترغب فيه آغنس، تضيف قائلةً.

إنه اقتراح طُرِح بخجل، بصوت متردِّد، في وقت مبكِّر من صباح أحد الأيام. تستلقي إليزا وظهرها يقابل ظهر المرأة التي حلَّت ببيتهم على نحوٍ غير متوقَّع أبدًا، ومثيرٍ جدًّا. الوقت بعد مطلع الفجر مباشرة، ويمكن سماع صوت أولى العربات ووقع الأقدام في الخارج على الشارع.

قالت ماري إنَّ على إليزا أن تقاسم آغنس فراشها ريثما يحين الوقت الذي يمكن فيه الإعداد للزفاف. قالت لها أمُّها هذا بشفتين مزموتين صارمتين، دون أن تلتقي عيناها عيني إليزا، وهي تلقي بدثار إضافي على الفراش. نظرت إليزا إلى نصف الفراش الأقرب إلى النافذة، الذي بقي خاليًا منذ وفاة شقيقتها آن. رفعت بصرها لترى أنَّ أمَّها كانت تفعل الشيء نفسه وأرادت أن تقول: هل تفكِّرين فيها، أما زلتِ تجدين نفسك تصغين إلى وقع خطاها، إلى صوتها، إلى صوت أنفاسها في الليل؟ لأنني أسمعها طوال الوقت. ما زلت أعتقد أنني يومًا ما سأصحو وستكون هناك، إلى جواري، مرة أخرى، سيحدث غَضَنٌ أو انثناء في الزمن وسنعود إلى حيث كنَّا، عندما كانت تعيش وتتنفَّس.

لكن، بدلًا من ذلك، تستيقظ إليزا وحيدة في الفراش كلَّ يوم.

لكن، ها هي ذي الآن المرأة التي سيتزوَّجها شقيقُها: تُدعى آغنس بدلًا

من آن. الإعداد لهذا الأمر كلُّه استعجال وعناء، فأخوها بحاجة إلى إذن خاص وثمَّة -هذه النقطة ليست واضحة لإليزا- نقاش ممتد (ساخن) في المال. بعض أصدقاء شقيق آغنس دفع كفالة: هذا كل ما تعرفه. ثمَّة طفل في بطنها، سمعت إليزا، لكن من وراء الأبواب فقط. لم يقل لها أحد ذلك صراحةً. تمامًا مثلما لم يفكِّر أحد في أن يقول لها إنَّ الزفاف سيكون في الغد، في الصباح: شقيقها وآغنس سيسيران إلى الكنيسة في تمبل غرافتن، حيث وافق كاهن على تزويجهما. ليس كاهنهم وليست الكنيسة التي يقصدونها كلَّ أحد. تقول آغنس إنها تعرف هذا الكاهن معرفة جيدة. إنه صديق حميم لعائلتها. في الواقع كان هو من وهبها العوسق. ربَّاه بنفسه منذ أن فقس الطائر بيضته، وعلَّمها ذات مرة كيف تعالج تعفُّن رئة صقر، سيزوِّجهما، قالت بمرح وهي تحوك على مِنوال ماري، لأنه يعرفها مذ كانت طفلة وطالما كان لطيفًا معها. مرَّةً أخذت منه قيودَ صقور وعاضته ببرميل جعة. توضِّح قائلة إنه يجمع لها الصوف، خبير في شؤون الصِّقارة وتخمير الجعة وتربية النحل، وشاطرها معارفه العظيمة الثلاث كلَّها.

حين ألقت آغنس هذا الخطاب من مكانها عند المنوال قرب النار في الرَّدهة، سقطت إبرةُ الحياكة من يد والدة إليزا، كأنها عاجزة عن تصديق ما تسمع، وهو ما جعل شقيق إليزا الممسك بكوبه يفرط في الضحك، وهذا بدوره جعل أباه يغضب. لكنَّ إليزا أصغت، بجذل، إلى كل كلمة. لم تسمع من قبل أشياء كهذه تقال، لم يتحدَّث أحد قطُّ على هذه الشاكلة في بيتهم من قبل، بهذا الاسترسال غير المتحفِّظ، بهذه الصراحة المبهجة.

في كلتا الحالين، سيُعْقَد القِران. سيزوجهما الكاهن الصَّقَّار، منتجُ العسل، تاجرُ الجعة، في وقت مبكِّر من اليوم التالي في حفل يُعَد له بسرعة، وعلى نحوٍ خفي وسِرِّي.

عندما تتزوَّج إليزا، ستودُّ أن تسير في شارع هنلي متوَّجة بإكليل زهور، في ضوء الشمس الساطع، ليراها الجميع. لا تريد حفلًا يبعد أميالًا عن البلدة، في كنيسة صغيرة مع كاهن غريب يهرِّبها وعريسها من الباب، سترفع رأسها عاليًا وتتزوَّج في البلدة. إنها على يقين من هذا. ستجعل إعلان زواجها يُقرأ بصوت عالٍ عند باب الكنيسة. غير أنَّ أباها وشقيق آغنس لفَّقا هذا بينهما حتى لا يقال أيٌّ شيء آخر.

ومع ذلك، تودُّ أن تصنع إكليل الزهور لآغنس. من غيرها سيفعل هذا؟ ليست زوجة أبي آغنس، إليزا على يقين من هذا، ولا أخواتها: إنهن معتزلات، هناك في شوتري. قد يأتين إلى الزفاف، تهز آغنس كتفيها، وقد لا يأتين.

لكن يجب أن يكون لآغنس إكليل. لا يمكنها الزواج من دون إكليل، سواء أحبلى كانت أم لم تكن. لذا تسألها إليزا. تتنحنح. تشبك أصابعها، كأنها على وشك الصلاة.

«»هل لي...» تبدأ متحدِّثةً في هواء الغرفة الشديد البرودة، «... إنني أتساءل عمَّا إذا كنت تودين أن... أصنع إكليلًا لكِ؟ للغد؟»

تشعر بآغنس خلفها، مصغية. تسمعها إليزا تتنهَّد فتحسب لحظةً أنها سترفض، ستقول لا، أنَّ إليزا تحدَّثت على نحوٍ غير لائق.

يُخَشْخِش فراش القش ويهتز عندما تستدير آغنس لتواجهها.

«إكليل؟» تقول آغنس، ويمكن إليزا أن تسمع في صوتها أنها تبتسم. «أودُّ ذلك كثيرًا حقًّا. شكرًا لك.»

تنقلب إليزا وتحدِّق إحداهما إلى وجه الأخرى، وقد تواطأتا فجأةً.

تقول إليزا: «لا أعلم أية زهور سنجد في هذا الوقت من السنة. ربما بعض أزهار التوت أو...»

«عَرْعَر»، تقاطعها آغنس. «أو بَهْشِيَّة. بعض السَّرْخَس. أو صنوبر.»

«ثمَّة لبلاب.»

«أو أزهار البندق. يمكننا الذهاب إلى النهر، أنتِ وأنا»، تقول آغنس وهي تمسك بيد إليزا، «في وقت تالٍ اليوم، ونرى ما عسانا نجد.»

«رأيت قَلَنْسُوة الراهب هناك الأسبوع الماضي. ربما...»

«سامَّة»، تقول آغنس منقلبة على ظهرها، وهي ما زالت تمسك بيد إليزا وتضعها على بطنها. «أتودين أن تتحسَّسي الجنين؟ إنها تتحرَّك في الصباح الباكر. تحتاج إلى إفطارها.»

«إنها؟» تقول إليزا مدهوشة من هذه الألفة المفاجئة، من دفء بشرة المرأة القوية المشدودة، من قبضة يدها القوية.

«أحسب أنها ستكون بنتًا»، تقول آغنس متثائبةً تثاؤبًا ناعمًا وسريعًا.

يد إليزا مضغوطة بين أصابع آغنس. إنه أغرب إحساس، كأنَّ شيئًا يُسحَب منها، مثل شظية في الجلد أو التهاب من جرح ما، وفي الوقت نفسه كأنَّ شيئًا آخر يُسكَب فيها. لا يمكنها أن تفهم إذا ما كانت تمنح شيئًا أم تتلقَّاه. تودُّ أن تسحب يدها، وفي الوقت نفسه أن تبقيها.

«شقيقتك»، تقول آغنس بلطف. «هل كانت أصغر منك سنًّا؟» تحدِّق إليزا إلى الجبهة الناعمة، والصدغين الأبيضين، والشعر الأسود لهذه التي ستصبح عمَّا قريب زوجة شقيقها. كيف عرفت أنها كانت تفكِّر في آن؟

تقول إليزا: «أجل، بنحو عامين.»

«وكم كان عمرها عندما ماتت؟»

«ثمانية أعوام.»

تنقر آغنس بلسانها متعاطفة. تغمغم: «أنا آسفة على هذا الفقد.»

لا تقول إليزا إنها قلقة على آن لأنها وحدها تمامًا، وصغيرة السن جدًّا، ومن دونها، أينما تكون. أنها تبقى وقتًا طويلًا مستيقظة في الليل، تهمس باسمها، لعلّها تسمعها في أي مكان كانت، لعلّ صوت إليزا مبعث راحة لها. لا تقول شيئًا عن ألم السؤال عمّا إذا كانت آن حزينة في مكان ما وإنها هي إليزا عاجزة عن سماعها، عاجزة عن الوصول إليها.

تربّت آغنس ظهر يد إليزا وتتحدّث على عجل: «معها شقيقتاها الأخريان، تذكّري. الاثنتان اللتان ماتتا قبل أن تولدي. يعتني بعضهن ببعض. لا تريدك أن تقلقي. تريدك أن...» تتوقّف آغنس، تنظر إلى إليزا التي ترتعش من البرد أو الصدمة أو كليهما. «أعني»، تقول بصوت مختلف حذر: «أتوقّع أنها لا تريدك أن تقلقي. تريدك أن تستريحي.»

تصمتان لحظةً. تدقُّ حوافر الخيل وهي تمر قرب النافذة متجهة شمالًا أعلى الشارع.

تهمس إليزا: «كيف عرفتِ عن البنتين الأخريين اللتين توفيتا؟»

تبدو آغنس مفكِّرةً لحظةً. «أخبرني شقيقك»، تقول دون أن تنظر إلى إليزا.

«إحداهما»، تتنفس إليزا قائلة، «كانت تُدعى إليزا. أول طفلة. هل تعرفين هذا؟»

تبدأ آغنس بالإيماء لكنها تهزُّ كتفيها.

«أحيانًا يقول غلبرت إنَّ...»، تلقي إليزا نظرة خلفها قبل أن تتحدَّث، «...إنها قد تأتي في منتصف الليل لتقف قرب فراشي مطالبة باستعادة اسمها مني. وإنها ستكون غاضبة لأنني أخذته منها.»

«هُراء»، تقول آغنس بحدَّة. «كلام غلبرت هراء. لا تستمعي إليه. أختك سعيدة لأن لكِ اسمها، لأنك تحملين اسمها. تذكَّري هذا. إذا سمعتُ غلبرت يقول لك ذلك مرة أخرى سأضع قُرَّاصًا في بنطاله.»

تنفجر إليزا ضاحكة. «لن تفعلي.»

«حتمًا سأفعل. وذلك سيلقِّنه درسًا في عدم إخافة الناس.» تفلت آغنس يد إليزا وتدفع نفسها لتجلس باعتدال. «والآن. حان الوقت لنبدأ اليوم.»

تنظر إليزا إلى يدها. ثمَّة حفرة في جلدها تشكَّلت من ضغط إبهام آغنس، كأنَّ وردة حمراء تحيط بها. تفركها بيدها الأخرى، مدهوشة من حرارتها، كأنها وُضعت قرب شمعة.

يتكوَّن الإكليل الذي تصنعه إليزا من أزهار السَّرخس والأَرْزِيَّة والنَّجميَّة. تجلس إلى مائدة الطعام لتصنعه. كُلِّفت برعاية شقيقها الصغير إدموند وهي تعمل، ولذا أعطته بعض أوراق الأَرْزِيَّة وبتائل الأقحوان. يجلس على الأرض، ساقاه ممدوتان، ويسقِط الأوراق، واحدة تلو الأخرى، بِجِدّ، في وعاء خشبي حيث يقلِّبها بملعقة. تصغي إلى وتر الأصوات الخارج من فمه اللاهث وهو يقلِّب: هناك «وقة» لـ«ورقة»، و«إيز» لـ«إليزا»، و«ساء» لـ«حساء». إنَّ الكلمات هناك إذا عرفتَ كيف تصغي إليها.

أناملها -القوية، النحيلة التي اعتادت حياكة الجلد أكثر- تنسج السيقان بعضها إلى بعض في هيئة طوق. يقف إدموند على قدميه. يدْرُجُ نحو النافذة، ثم يعود، ثم يتجه نحو المدفأة، محذِّرًا نفسه وهو يقترب: «نا-نا-نا-نا-نا.» تبتسم إليزا وتقول: «لا يا إدموند، ليس النار.» ينظر إليها بوجه طَرِب،

يتهلَّل فرحًا لأنه فُهِم. النار، الحرارة، لا، لا تلمسها. يعلم أنه لا يُسمح له بالاقتراب منها، لكنَّها تملأه توقًا شديدًا لا يُقاوَم، بلونها الساطع الوثَّاب، ودفئها المندفع إلى وجهه، وثمَّة صفُّ الأدوات الجذابة المستخدمة لإذكاء النار وتحريك الجمر والتقاطه بها.

من ناحية البيت الخلفية، يمكنها سماع أمِّها وهي تقرع القدور والمقالي في المطبخ. إنها في مزاج عكِر وقد دفعت الخادمة إلى البكاء. تصبُّ ماري جام غضبها على الطعام. اللحم لا يستوي. عجينة الفطيرة تتفتَّت. العجين لا ينتفخ بالسرعة الكافية. للحلوى مذاق القمح. يبدو لإليزا أنَّ المطبخ في قلب زوبعة ويجب أن تبقى هنا، بعيدًا عنه، مع إدموند، حيث هما في أمان.

تواصل أناملها دسَّ أطراف سيقان النبات المقطوعة في النسيج، في حين تدير راحةُ يدها الأخرى حلقةَ الإكليل وهي تتابع العمل.

من الأعلى، يمكنها سماع هديد أقدام أشقائها وجلبتها. إنهم يتصارعون أعلى السلالم، حسبما يبدو من الصوت. نخيرٌ، عاصفةُ ضحك، استجداء ريتشرد المتوجِّع ليُطلَق سراحه، طمأنةُ غلبرت الكاذبة، خَبْطٌ، صريرُ لوح أرضي، ثم صياحٌ مخنوق: «آخ!»

«يا أولاد!» يصل زئير من معمل القفافيز. «كُفُّوا عن هذا فورًا! وإلا صعدت إلى هناك ولقَّنتكم درسًا يجعلكم تعولون، سواء أحفل زفاف كان هناك أم لم يكن.»

يظهر الأشقاء الثلاثة في المدخل، يتدافعون بالمناكب. شقيق إليزا الأكبر، العريس، يتزحلق في الغرفة، يمسك بها، يقبِّل أعلى رأسها ثم يدور ليرفع إدموند عاليًا في الهواء. ما زال إدموند يمسك ملعقته الخشبية بيد، وبالأخرى بحفنة من ورق النبات. يدور به شقيقه الأكبر، مرة، مرتين. يلوي إدموند

حاجبيه ويبتسم، والهواء يطيِّر شعره عن جبينه. يحاول حشر الملعقة منحرفة في فمه. ثم يوضَع على الأرض ويختفي الأشقاء الثلاثة الكبار من فورهم خارجين من الباب إلى الشارع. يسقِط إدموند ملعقته، ناظرًا وراءهم، حزينًا، عاجزًا عن فهم هذا الهَجْر المفاجئ.

تضحك إليزا. تقول: «سيعودون يا إد عمَّا قريب. حينما يتزوج هو. سترى.»

تظهر آغنس عند المدخل. شعرها ناعم غير مضفور. يتسلسل أسفل ظهرها وعلى كتفيها مثل ماء أسود. ترتدي ثوبًا لم تره إليزا من قبل، بلون زهرة الربيع الباهت، مقدِّمته بارزة قليلًا.

تقول إليزا شابكةً أصابعها: «أوه، الأصفر سيُبرز قلوبَ زهور الأقحوان.» تقفز على قدميها حاملةً الإكليل. تنحني آغنس حتى تضعه إليزا على رأسها.

حلَّ الصقيع بين عشيَّة وضحاها. كلُّ ورقة نبات، كلُّ حافة فيها، كلُّ غصين على الطريق المؤدي إلى الكنيسة تَغَلَّف بالصقيع والتفَّ به. الأرض باردة وقاسية تحت الأقدام. العريس ورجاله في المقدِّمة: الضجيج في مجموعتهم بين هُتَافٍ وصياحٍ، وغناءٍ، وتردُّد صوت مزمار يعزفه صديق أخذ يقفز على قارعة الطريق. يقف بارثولوميو في المؤخرة، طوله يحجب أولئك الذين أمامه، رأسه مُطْرِق.

تسير العروس في خط مستقيم، لا تنظر يمينًا ولا يسارًا. معها إليزا وإدموند راكب على خصرها، وماري، والعديد من صديقات آغنس، وزوجة الخبَّاز. تسير جوان وبناتها الثلاث جانبًا. جوان تجرُّ ابنها الصغير من

يده. تمشي الأخوات متراصَّات، متأبِّطات الأذرُع، ثلاثهن معًا، كلُّ واحدة إلى جوار الأخرى، يقهقهن ويتهامسن. تنظر إليزا إليهن شَزْرًا مرات عديدة قبل أن تشيح وجهها عنهن.

ترى آغنس هذا، ترى حزن إليزا يتجمَّع حولها، مثل ضباب. ترى كلَّ شيء. ثمار الورد على الوشيع التي تستحيل أطرافها بُنِّيةً، التوت الأسود غير المقطوف الذي لا يمكن الوصول إليه لعُلُوِّه، تحليق طائر سُمْنة من أغصان شجرة بلُّوط على جانب الطريق وحطّه عليها، تيَّار الأنفاس الأبيض إذ يخرج من فم زوجة أبيها عند حملها ابنها الصغير على ظهرها، خُصَل الشَّعر العديمة اللون على نحو غريب المُنسلَّة من منديل رأسها، اهتزاز وركيها المتباعدين. ترى آغنس أنَّ لكاترينا أنفَ أمِّها، أفطس وعريض القَصَبَة، ولجواني منبت شعر أمِّها المنخفض، ولمارغرت العنق الغليظ وشحمتا الأذنين الطويلتان. ترى أنَّ لدى كاترينا الموهبة أو القدرة على جعل حياتها سعيدة، ولدى مارغرت بدرجة أقل، لكنَّ جواني لا تتمتَّع بهذا. ترى أباها في الصبي الأصغر، الذي يمشي الآن ممسكًا بيد كاترينا: شعره الأشقر، هيئة رأسه المربعة، زاويتا فمه المقلوبتان. تشعر بالشرائط مربوطة حول جوربيها، في شدٍّ وارتخاء مع شدِّ عضلات ساقيها وارتخائها تحتها. تشعر بوخز أعشاب إكليلها وتُوته وأزهاره وحركتها، تشعر بقطرات الماء الصغيرة في عروق سيقانها وأوراقها. تشعر بحركة مماثلة داخلها، في الوقت ذاته مع حركة النبات، دفق أو تيَّار أو مد، مرور الدم منها إلى الطفل داخلها. إنها تترك حياةً لتبدأ أخرى. قد يحدث أيُّ شيء.

تحسُّ أيضًا، في مكان ما شمالًا، بأمِّها. لكانت هنا معها لو أنَّ الحياة اتخذت منعطفًا مختلفًا. لكانت هي من يمسك بيد آغنس وهي تسير إلى حفل زفافها، تشبك أصابعُها أصابعَ ابنتها. ستتبع خطاها خفقَ قلبها. ستسيران على هذا

الدرب معًا، جنبًا إلى جنب. ستكون هي من يصنع لها الإكليل، لتثبِّته على رأس آغنس، وتُسَرِّح شعرها فينسدل حواليها. ستأخذ الشرائط الزرقاء وتربطها حول جوربيها، وتنسجها في خُصَل شعرها. لكانت هي.

يعقب هذا إذًا، بطبيعة الحال، أنها ستكون هنا الآن على أية هيئة يمكنها تدبرها. لا تحتاج آغنس إلى أن تدير رأسها، لا تريد إخافتها كي لا تبتعد. حسبها أن تعرف أنها هنا، جليَّة، مرفرفة، خيالية. أراكِ، تفكِّر. أعرف أنكِ هنا.

تنظر إلى الأمام بدلًا من ذلك، على طول الطريق، حيث كان من الممكن أن يكون أبوها في المقدِّمة مع الرجال، فترى من سيكون زوجها. ترى قبعته الصوفية الداكنة اللون، مِشيته الأرشق من مشية الرجال الآخرين حوله؛ ترى إخوته، أباه، أصدقاءه، إخوتها. تريده أن ينظر إلى الوراء، وهي تمشي، انظر إليَّ.

لم تَدْهَش حينما فعل ذلك تمامًا، رأسه يلتفت، وجهه يَبين لها عندما يدفع شعره إلى الخلف لينظر إليها. يرنو إليها لحظة واقفًا في الطريق، ثم يبتسم. يومئ رافعًا إحدى يديه ومحرِّكًا الأخرى نحوها. تميل برأسها متسائلة. يكرِّر الحركة ثانية، ما زال مبتسمًا. تظن أنه يقلِّد دخول خاتم حول إصبع، شيئًا من هذا القبيل. ثم يندفع نحوه من الجنب أحدُ أشقائه، تحسب آغنس أنه غلبرت، لكنها ليست على يقين، يمسك بكتفيه ويدفعه دفعًا. يستجيب بالمثل مطوِّقًا غلبرت، جاعلا الفتى يصرخ غاضبًا.

الكاهن ينتظر عند باب الكنيسة، يبدو ثوبه شكلًا أسود على الحجارة التي ابيضَّت من الصقيع. يصمت الرجال والفتية وهم يصعدون الدرب. ينتظمون في مجموعة إلى جواره، متوترين، صامتين، وجوههم متورِّدة في هواء الصباح. بينما تصعد آغنس طريق الكنيسة، يبتسم لها الكاهن، ثم يتنهَّد.

يغمض عينيه ويتكلَّم: «أعلن زواج هذا الرجل وهذه المرأة.» يخيِّم السكون عليهم جميعًا، حتى الأطفال. لكنَّ آغنس تناشد مناشدة داخلية خاصة بها: تفكِّر، إذا كنتِ هنا، تَجَلَّي الآن، عرِّفي بنفسك، الآن، من فضلك، إنني بانتظارك، أنا هنا. «إذا كان بينكم من يعرف سببًا أو عائقًا فحسب يحول دون اجتماع هذين الشخصين في زواج مقدَّس، فليعلنه. هذه هي المرة الأولى التي يُسأل فيها هذا السؤال.»

يرتفع جفناه فينظر إليهم جميعًا، واحدًا تلو الآخر. تومَس يَكِز رقبة جيمس بورقة نبات بَهْشِيَّة، فيصفع بارثولوميو مؤخرَ رأسه بسرعة ومهارة. ريتشرد يتململ مخالفًا بين قدميه، كثيرًا ما يبدو كأنه يحتاج إلى قضاء حاجته. كاترينا ومارغرت تختلسان النظر إلى شقيقي العريس، تقيِّمان أهميتهما. جون يبتسم، داسًّا إبهاميه في أربطة صِداره المشدودة. ماري تحدِّق إلى الأرض، وجهها جامد، متجهِّم تقريبًا.

يتنهَّد الكاهن مرة أخرى. يقول كلماته مرة ثانية. تتنهَّد آغنس، مرة، مرتين، وينقلب الجنين داخلها كأنه سمع جلبة، صياحًا، كأنه سمع اسمه أوَّل مرة. تَجَلَّي الآن، تفكِّر آغنس مرة أخرى، مُشكِّلَةً الكلمات في رأسها باعتناء مدروس ودقيق. تنحني جوان لتستمع إلى شيء يقوله ابنها، فتسكته واضعةً إصبعها على شفتيها. يحرِّك جون قدمه الأخرى فيدوس زوجته مصادفة. تسقط ماري القفازين اللذين تمسك بهما وعليها أن تنحني لاستعادتهما، لكن ليس قبل أن تحملق إليه غَضِبَةً.

يقال الإعلان مرة ثالثة، يشخص الكاهن ببصره إليهم جميعا، مباعدًا بين يديه كأنه سيعانقهم جميعًا. قبل أن ينهي كلماته الأخيرة يتقدَّم العريس إلى رُواق الكنيسة مُتَّخذًا مكانه إلى جوار الكاهن، كأنه يقول له: لننجز الأمر. ثمَّة موجة ضحك بين الجمع، انفراج أسارير، وترى آغنس وميضًا إلى

يمينها، في زاوية عينها، دَفْقًا لونيًّا، مثل سقوط خصلة شعر على وجهها، مثل حركة طائر مُحلِّق. شيء يسقط من شجرة فوقهم. يحطُّ على كتف آغنس، على نسيج ثوبها الأصفر، ثم على صدرها، وعلى بطنها المتكوِّر بلطف. تمسكه بعناية وتضعه على جسدها. إنه غصن توت روان مزهر، مُذهَّب، ما زالت عالقةً به بضعُ أوراق دقيقة فضية الظهر.

تمسك به بين أصابعها لحظةً. ثم يتقدَّم شقيقها. يأخذ الغصن الذي يمسك به كفُّ آغنس. يرفع بصره إلى الشجرة فوقهما. أخٌ وأخته يرنو أحدهما إلى الآخر. ثم تمدُّ آغنس يدها إلى بارثولوميو.

قبضته قوية، لعلَّها قوية جدًّا، لا يعرف ولا يدرك أبدًا قوته الاستثنائية. أصابعه باردة، الجلد خشن ومُحبَّب. يرافقها إلى باب الكنيسة. يمدُّ العريس يده إليها، ذراعه مبسوطة بشوق. يتوقَّف بارثولوميو، جاذبًا آغنس لتتوقَّف. العريس ينتظر، يده ممدودة، وابتسام على وجهه. يميل بارثولوميو إلى الأمام، وما زال ممسكًا ظهر آغنس بيده. يمدُّ يده الأخرى ويمسك بكتف من سيصبح زوجها. تعرف آغنس أنه لا يريدها أن تسمع ولكنها تسمع: سمعها حاد كسمع صقر. يميل بارثولوميو ويهمس في أذن من سيصبح زوجها: «اعتنِ بها جيدًا، يا فتى اللاتينية، اعتناء جيدًا، ولن يصيبك أي أذى.»

عندما يميل بارثولوميو إلى الخلف مرة أخرى نحو شقيقته، يبتسم مكشِّرًا عن أسنانه، مواجهًا الحشد، يفلت يد آغنس فتتقدَّم نحو عريسها الذي يبدو شاحبًا بعض الشيء.

يغمس الكاهن الخاتم في الماء المقدَّس مُهَمْهِمًا بصلاة، ثم يأخذه العريس. «باسم الأب»، يقول بصوت واضح مسموع للجميع، حتى لأولئك الذين في الخلف، تاركًا الخاتم ينزلق على إبهامها ثم يخرجه، «باسم الابن»، يدفع الخاتم إلى خنصرها، «باسم الروح القدس»، ثم إلى إصبعها الوسطى. وعند

قول «آمين» يطوِّق الخاتم إصبعها الثالثة حيث يسري وريد ينتقل مباشرة إلى قلبها كما أخبرها العريس في ذلك اليوم حين اختبئا في البستان. يبدو باردًا لحظة على جلدها، ومبلَّلا بالماء المقدَّس، لكنَّ الدَّم المتدفق مباشرة من قلبها يدفئه بعد ذلك، يرفع حرارته إلى درجة حرارة جسدها.

تدخل إلى الكنيسة واعيةً بالأشياء الثلاثة التي تمسك بها. الخاتم في إصبعها، غصن توت الرَّوان الملتف في كفِّها، يد زوجها. يسيران في الممشى معًا، وراءهما حشد من الناس، أقدامهم تقعقع على الحجر، متخذين أماكنهم في المقاعد. تركع آغنس على المذبح إلى يسار زوجها لتسمع القُدَّاس. يخفضان رأسيهما في اتساق، ويضع الكاهن ملاءة عليهما، ليحميهما من العفاريت، من الشيطان، من كل شرٍّ ومكروه في العالم.

تتحرَّك آغنس في غرفة الطابق العلوي خلال أشعة الضوء المتجمِّعة، حيث تحتشد ذرَّات الغبار وتتدفَّق. ابنتها مستلقية على حشيَّة القش، ما زالت في ثوبها، نعلاها مرمِّيان إلى جوارها.

إنها تتنفَّس، تقول آغنس لنفسها، تقول لقلبها الواجف، لنبضها الخافق وهي تقترب، وذلك جيد، أليس كذلك؟ ذاك صدرها، يعلو ويهبط، انظري، وجنتاها متوردتان، يداها مسترخيتان بجانبها، أصابعها مضمومة. ليس الأمر سيئًا جدًّا. قطعًا. إنها هنا وهامنت هنا.

تصل آغنس إلى الفراش وتجثو، ثوبها ينتفخ حولها.

«جودث»، تقول، وتضع يدها على جبين الفتاة، ثم على معصمها، ثم على وجنتها.

تدرك آغنس أنَّ هامنت في الغرفة، خلفها مباشرة، تومئ برأسها مفكِّرةً. حُمَّى، تقول لنفسها بصوت صامت يبدو مطمَئنًّا جدًّا، هادئًا جدًّا. ثم تصحِّح نفسها: حمى شديدة، الجلد رطب وساخن كالنار. التنفُّس سريع وغير عميق. النَّبض ضعيف، غير منتظم، وسريع.

«منذ متى وهي على هذه الحال؟» تتحدَّث بصوت عال دون أن تلتفت.

«منذ أن عدت من المدرسة»، يقول هامنت، صوته عالي النبرة. «كنا نلعب مع القطط الصغيرة وقالت جود... إنَّ جدَّتنا أمرتنا بتقطع الحطب وكنا على

وشك أن نبدأ، بتقطيع الحطب، لكننا كنا نلعب مع القطط الصغيرة وخيط. كان الحطب هناك و...»

«لا تهتم بالحطب»، تقول برباطة جأش. «لا يهم. قُل لي عن جودث.»

«قالت إنَّ حنجرتها تؤلمها لكننا لعبنا وقتًا أطول قليلا، ثم قلت إنني سأقطع الحطب وقالت إنها تشعر بتعب شديد، لذا صعدت إلى هنا واستلقت على الفراش. لذلك قطعت بعض الحطب -ليس كلَّه- ثم صعدت لأراها ولم تكن على ما يرام أبدًا. ثم بحثت عنك وعن جدتي والجميع»، صوته يعلو الآن، «لكن لم يكن أحد هنا. ذهبت إلى كل مكان أبحث عنك وأناديك. وسارعت إلى البحث عن الطبيب، لكنه لم يكن هناك هو أيضًا ولم أعرف ما أفعل. لم أعرف كيف... لم أعرف...»

تعتدل آغنس وتدنو من ابنها. «لا بأس»، تقول مادَّةً يدها إليه. تُدْني رأسه الأشقر الناعم إلى كتفها، تشعر بِرِعْدَة جسده ورَجْف أنفاسه. «لقد أبليت بلاء حسنا. حسنًا جدًّا. إنه ليس...»

يبتعد عنها، وجهه متجهِّم ومبلَّل. «أين كنتِ؟» يصيح، خوفه يستحيل غضبًا، صوته متهدِّج، مثلما بدأ يفعل مؤخرًا، يتعمَّق في الكلمة الثانية، ثم يعلو في الثالثة. «بحثتُ في كل مكان!»

تنظر إليه بثبات ثم إلى جودث. تقول: «كنتُ في هيولَندز. أرسل بارثولوميو في طلبي لأنَّ النَّحل أخذ يحتشد هناك. تأخَّرت أكثر مما خطَّطت له. آسفة، آسفة لأنني لم أكن هنا.» تمدُّ يدها إليه مرة أخرى، لكنه يبتعد عنها ويتجه نحو الفراش.

يجثوان معًا إلى جوار الفتاة. تمسك آغنس بيدها.

«هي مُصابةٌ... به»، يقول هامنت بصوت أجش. «أليس كذلك؟»

لا تنظر آغنس إليه. عقله ذكي، يتسق كثيرًا وعقول الآخرين، وتعرف أنه يستطيع قراءة أفكارها، مثل كلمات مكتوبة في صفحة. لذا يجب أن تحتفظ بها لنفسها، رأسها مطأطئ. تفحص طرف كل إصبع بحثًا عن تغيُّر في اللون، عن مسحة من لون رمادي أو أسود. لا شيء. كل إصبع وردية اللون، كل ظفر شاحب مع شكل هلالي ناشئ. تفحص آغنس القدمين، كل إصبع فيهما، عظام الكاحل المستديرة والهشَّة.

يهمس هامنت: «إنها مصابة بـ... الوباء، أليس كذلك؟ يا ماما؟ أليس كذلك؟ ذلك ما تعتقدين، أليس كذلك؟»

تمسك بمعصم جودث، النبض يرتعش، ليس ثابتًا، يعلو ويهبط، يتلاشى ويتسارع. تقع عينا آغنس على الانتفاخ في عنق جودث. بحجم بيضة دجاجة بِيضَت حديثًا. تمدُّ يدها وتلمسه برفق بطرف إصبعها. تحسُّ به رطبًا ومائيًّا، مثل أرض مستنقع. ترخي رباط قميص جودث وتنزله للأسفل. ثمَّة بيوض أخرى متشكِّلة في إبطيها، بعضها صغير، وبعضها الآخر كبير وبشع، بَصَليَّة الشكل، تشدُّ الجلد.

لقد رأت هذه من قبل، هنالك قليلون في البلدة أو حتى في المقاطعة ممن لم يروها في مرحلة ما من حياتهم. إنها أكثر ما يخشاه الناس، ما يأمل الجميع ألَّا يجدوه أبدًا على أجسادهم أو على أجساد من يحبونهم. تحتل مكانًا قويًّا بين مخاوف كل شخص إلى درجة أنها لا تصدِّق أنها تراها بالفعل، أنها ليست شيئًا من نسج الخيال أو شبحًا تستدعيه مخيِّلتها.

ومع ذلك، ها هي ذي. أورام دائرية، تندفع من تحت جلد ابنتها.

تبدو آغنس كأنها شُطِرَت اثنتين. جزء منها يشهق عند رؤية الدُّبول. والجزء الآخر يسمع الشهيق، يشاهده، يلاحظه: شهيق، حسن جدًّا. تنهمر

الدموع من عيني آغنس الأولى، ويخفق قلبها خفقانًا شديدًا داخل صدرها، حيوان يتخبَّط في قفص من العظام. آغنس الأخرى تسجِّل العلامات: دُبُول، حمى، نوم عميق. آغنس الأولى تقبِّل ابنتها، على جبينها، على وجنتيها، على صدغها حيث يتلاقى الشَّعر والجلد، والأخرى تفكِّر: كِمَادةٌ من خبزٍ مُفتَّت وبصلٍ محمَّص وحليبٍ مغلي ودهنِ ضأن، وشرابٌ من ثمرِ وردٍ بري وسَذَابٍ مسحوق وحِمْحِمٍ وزهرِ عسل.

تقف، تتحرَّك في الغرفة وتهبط السلالم. ثمَّة شيء مألوف على نحو غريب في حركتها، يكاد يكون تمييزه ممكنًا. ما كانت تخشاه على الدوام موجود هنا. جاءت. اللحظة التي تخشاها أكثر من غيرها، الحدث الذي فكَّرت فيه، تأمَّلته مليًّا، قلَّبته على هذا النحو وذاك، أعادته في ذهنها مرارًا وتكرارًا، في ظلمة ليالي الأرق، في لحظات التبطُّل، حين تكون وحيدة. وصل الوباء إلى بيتها. ترك أثره حول عنق طفلتها.

تسمع نفسها تقول لهامنت أن يذهب ويجد جدَّته وشقيقته، أجل، لقد عادتا، هما في المطبخ، اذهب وقل لهما أن تأتيا، اذهب الآن، نعم، فورًا. ثم تقف أمام رفوفها وتمتد يداها إلى القوارير المسدودة. ثمَّة سَذَابٌ وثمَّة قِرْفة، وهذان جيِّدان لإبعاد الحرارة، وهنا جذور لبلاب وزعتر.

تنظر أسفل رفوفها. رَاوَنْد؟ تمسك بالسَّاق الجافة لحظة. أجل، رَاوَنْد، لتطهير المعدة، للتخلص من الوباء.

عند نطقها الكلمة، تدرك أنها تصدر جلبة صغيرة، كأنين كلب. تميل برأسها على جص الحائط. تفكِّر: ابنتي. تفكِّر: تلك الأورام. تفكِّر: هذا لا يمكن أن يحدث، لن يحدث، لن أسمح به.

تقبض مِدَقَّها وتضرب به في الهاون، فتتناثر المساحيق والأوراق والجذور

على المائدة.

يخرج هامنت، يهبط الدرب متجهًا إلى الفناء الخلفي ثم إلى باب المطبخ حيث جدته تنقِّب في وعاء من البصل والخادمة واقفة إلى جوارها، ممسكة بمئزر، مستعدة لتلقِّي كل ما تراه ماري مناسبًا لإلقائه فيه. النار تضطرم وتفرقع في الموقد، تصعد ألسنة اللهب لتغري جوانب عدَّة قدورٍ وتداعبها. تقف سوزانا قرب ممخضة الزُّبْد، يدها الكسلى تمسك بالمقبض.

هي أول من يراه. ينظر هامنت إليها، تبادله النظر، تفتح فمها قليلًا عند رؤيته. تعبس، كأنها ستتكلَّم، ستعترض عليه بشأن شيء ما. ثم تدير رأسها نحو جدتها التي تأمر الخادمة بتقشير البصل وتقطيعه إلى قطع صغيرة. الحرارة في الغرفة لا تطاق لهامنت، يستطيع أن يشعر بها لافحةً كألسنة لهب تتصاعد من بوابات الجحيم. تكاد تسدُّ المدخل، تملأ المكان، تضغط الجدران بثقلها الشَّرِس. لا يعرف كيف تحتملها النساء. يمرِّر يده على حاجبه فتبدو حافاته الخارجية كأنها تتلألأ، ويرى، أو كأنه يرى، لحظةً فقط، ألفَ شمعة في الظلام، لهبها يسطع ويتوهَّج، خيوطًا رفيعة من الضوء، شموع عفاريت. تطرف عينه فتختفي، يعود المشهد أمامه كما كان. جدَّته، الخادمة، البصل، شقيقته، ممخضة الزُّبْد، الدُّرَّاج المقطوع الرأس على الطاولة، قائمتاه الحرشفيتان مرفوعتان بحرص، كأنَّ الطائر قلق من اتساخ قدميه بالوحل، على الرغم من أنه مقطوع الرأس وميِّت منذ وقت طويل.

«جدَّتي؟» تقول سوزانا غير متيقِّنة، عيناها ما زالتا على شقيقها. لاحقًا، ستعود هذه اللحظة إلى سوزانا مرارًا وتكرارًا، ولا سيَّما في الصباح الباكر عندما تستيقظ. شقيقها واقف هناك، يؤطِّره مدخلُ الباب. ستتذكَّر تفكيرها في أنه بدا شاحب الوجه، مصعوقًا، ليس على سجيته أبدًا، وجرح تحت حاجبه. هل كان هذا سيحدث فَرْقًا لو أنها علَّقت على هذا أمام جدَّتها؟ لو

أنها استرعت انتباه أمِّها أو جدَّتِها إليه؟ هل كان سيغيِّر شيئًا؟ لن تعرف أبدًا لأنَّ كلَّ ما تقوله اللحظة: «جدَّتي؟»

ماري في منتصف قولها للخادمة: «واحترسي من حرقه هذه المرة، ليس حتى قليلًا في الأطراف، حالما يبدأ في النضج ارفعي القدر عن النار، أتسمعين؟» تلتفت، أوَّلًا إلى حفيدتها، ثم وهي تتبع نظرة سوزانا، إلى المدخل وهامنت.

تقفز، تضع يدها على صدرها، تقول: «أوه، أفزعتَنِي! ما دهاك أيها الفتى؟ تبدو كشبح وأنت واقف هناك هكذا؟»

ستقول ماري لنفسها في الأيام والأسابيع التالية إنها لم تقل هذه الكلمات قطُّ. لا يمكن أن يكون بوسعها فعل ذلك. لم تكن لتقول له: «شبح» أبدًا، لم تكن لتقول له إن هناك شيئًا مفزعًا، شيئًا خاطئًا في مظهره. بدا على خير ما يرام. لم تقل شيئًا كهذا.

بيدين مرتعشتين، تلملم آغنس البتائل والجذور المتناثرة وتعيدها إلى الهاون وتبدأ في الطحن، معصمها ينثني، وينثني، براجمها تشحب، أظافرها تمسك بالمِدَق الخشبي بقوة. ساق الرَّاوند المجفَّف، السَّذَاب، القرفة، تُسْحَق معًا، تختلط روائحها، الحلوة والحادَّة والمُرَّة.

عندما تطحن، تحصي لنفسها عدد الأشخاص الذين أنقذهم هذا الخليط. كانت هناك زوجة الطَّحَّان التي كانت تهذي وتمزِّق ثيابها. في اليوم التالي مباشرة، بعد أن شربت جرعتين من هذا الشراب جلست على السرير هادئة كحَمَل، تحتسي الحساء. كان هناك ابن شقيق مالك الأرض في سنيترفيلد: أُخذت آغنس إلى هناك في منتصف الليل بعد أن أرسل مالك الأرض في طلبها. تعافى الغلام بهذا الدواء وبكِمادة. الحدَّاد من كوپتون، العانس من

بيشوپتن. جميعهم تعافى، أليس كذلك؟ ليس بالأمر المُحَال.

تركِّز تركيزًا شديدًا إلى درجة أنها تثِب عندما يلمس أحدٌ مرفقها. يقع المِدَق من بين أصابعها على المائدة. حماتها، ماري، إلى جوارها، وجنتاها حمراوان من المطبخ، كُمَّاها مرفوعان، تقطيب يعلو جبينها.

تقول: «أذلك صحيح؟»

تطلق آغنس نَفَسًا، لسانها يتذوَّق نكهة القرفة اللاذعة، حموضةَ مسحوق الرَّاوند، ولأنها تدرك أنها قد تبكي إذا تكلَّمت، أومأت برأسها.

«ألديها دُبُول؟ حمى؟ أذلك صحيح؟»

تومئ آغنس برأسها مجدَّدًا، مرة واحدة. وجه ماري جهيم، عيناها متَّقدتان. إنك قد تحسبها غاضبة، لكنَّ آغنس تعرف حق المعرفة. تنظر المرأتان إحداهما إلى الأخرى، وترى آغنس أنَّ ماري تفكِّر في ابنتها آن التي قضت بالوباء، في الثامنة من عمرها، عندما غطَّتها الأورام واستبدَّت بها الحمى، اسودَّت أصابعها وفاحت منها رائحة كريهة وتفسَّخت عن يديها. تعرف هذا لأنَّ إليزا أخبرتها مرة، لكنها كانت تعرف على أية حال. لا تلتفت آغنس، لا تنظر إلى ماري، لكنها تعرف أنَّ آن الصغيرة ستكون هناك في الغرفة معهم، عند الباب، كفنها على كتفها، شعرها غير مضفور، أصابعها متقرِّحة وتالفة، عنقها منتفخ ومختنق. تسمح آغنس لنفسها بتشكيل الفكرة: آن، نعلم أنك هناك، لست منسيَّة. ما أوهن الغشَاوة بين عالمهم وعالمها في نظر آغنس! بالنسبة إليها، لا يختلف العالمان أحدهما عن الآخر، يحتك أحدهما بالآخر، متيحًا معبرًا بينهما. لن تسمح لجودث بالعبور.

تهمس ماري بخيط من الكلمات، بشيء من صلاة، تضرُّع، ثم تسحب آغنس إليها. لمسها يكاد يكون خشنًا، تمسك أصابعها بمرفق آغنس بقوة،

وساعدها يضغط كتف آغنس بشدة. تضغط آغنس بوجهها قلنسوةَ ماري، تشمُّ الصابون فيها، الصابون الذي صنعته بنفسها -من الرَّماد والوَدَك[1] وبراعم الخزامى الصغيرة- تسمع صوتَ حكِّ شعرها بالقماش، تحته. قبل أن تغمض عينيها، مُسلِمةً نفسها إلى العناق ترى سوزانا وهامنت يدخلان من الباب الخلفي.

ثم تفلتها ماري وتلتفت، اللحظة بينهما انتهت، انقضت. إنها تعمل الآن، تنزل مئزرها، تفحص محتوى الهاون، تذهب إلى المدفأة قائلة إنها ستشعل النار، تطلب من هامنت أن يجلب الحطب، بسرعة يا فتى، سنشعل نارًا عظيمة، فلا شيء أنجع في إبعاد الحمى من نار حامية. تفسح مكانًا أمام المدفأة وتعرف آغنس أنَّ ماري ستحضر فراش القش، ستحضر دُثُرًا نظيفة، ستُعِدُّ سريرًا هناك قرب النار، وستحضر جودث إلى الطابق السفلي أمام النار.

مهما كانت الاختلافات بين آغنس وماري - وهناك الكثير منها قطعًا، فهما تعيشان في مسكنين بهذا القرب، ولديهما الكثير من العمل للقيام به، العديد من الأطفال، العديد من الأفواه، الوجبات للإعداد، والثياب للغَسْل والرَّفو، والرجال للاعتناء بهم وتقييمهم وتهدئتهم وتوجيههم- فإنها تذوب في وجه الصِّعاب. قد تضايق إحداهما الأخرى وتناكدها وتغضبها بالطريقة الخاطئة، قد تتجادلان وتتشاجران وتتحسَّران، قد ترمي إحداهما في زريبة الخنازير الطعامَ الذي طهته الأخرى لأنه مالح جدًّا أو غير مطحون طحنًا ناعمًا بما يكفي أو لأنه كثير التوابل، قد ترفع إحداهما حاجبها في وجه الأخرى مستنكرةً ما قامت به من رَفْو أو خياطة أو تطريز. لكنهما، في وقت كهذا، يمكنهما العمل مثل يدين للشخص نفسه.

(1) شحم حيواني يستخدم في صنع الصابون. (المورد الأكبر)

انظر. آغنس تصبُّ الماء في مقلاة وترش المسحوق عليه. ماري تُعِدُّ الكِير، تأخذ الحطب من هامنت، تأمر سوزانا بالذهاب إلى الصندوق الخشبي في البيت المجاور وجلب الأغطية. إنها توقد الشموع الآن، تتوهَّج ألسنة اللهب وتتصاعد، مشكِّلةً دوائر من الضوء في زوايا الغرفة المظلمة. آغنس تناول ماري المقلاة لتدنيها من اللهب لتدفأ. كلاهما ترتقيان السلالم الآن، دون أن تتشاورا، وتعلم آغنس أنَّ ماري ستحيِّي جودث بوجه باسم، ستهتف ببعض الكلمات المثيرة للحماس والمطمئِنة. معًا، ستعتنيان بالفتاة، بتنزلان الحشيَّة إلى الطابق السفلي، ستعطيانها الدواء. ستمسكان زمام الأمر.

الوقت يتجاوز منتصف الليل في ليلة زفاف آغنس، حتى إنه يكاد يقارب الفجر. الجو بارد إلى حدٍّ كافٍ لجعل أنفاسها مرئية مع كل زفير، لتتجمَّع في قطرات صغيرة جدًّا على الدِّثار الذي تلتفُّ به.

شارع هنلي، عندما تنظر إليه من النافذة، غارق في ظلام دامس. لا أحد في الخارج. يمكن سماع بومة على نحو متقطِّع من مكان ما خلف البيت، وهي ترسل صياحها المرتعش في الليل.

تفكِّر آغنس واقفة عند النافذة والدثار يلفها في أنَّ بعضهم قد يعدُّ هذا فألًا سيئًا، صياح البومة إشارة موت. لكنَّ آغنس لا تخاف من هذه المخلوقات. تحبُّها، تحبُّ عيونَها التي تشبه قلوب أزهار الآذَرْيُون، ريشهَا الأرقط المتداخل، ملامحَها الغامضة. تبدو لها أنها توجد في حال مزدوجة، نصفها روح، ونصفها الآخر طائر.

نهضت آغنس من سرير زواجها وأخذت تجول في غرف بيتها الجديد. لأنَّ النوم لا يبدو أنه سيأتي ويلفُّها في ريشه. لأنَّ الأفكار في رأسها كثيرة جدًّا، مكتظة جدًّا، تتدافع بحثًا عن مكان. لأنَّ هناك الكثير لتستوعبه، الكثير من أحداث اليوم لتفكِّر فيه. لأنَّ هذه أوَّل مرَّة يُتوقَّع منها أن تنام إمَّا على سرير وإمَّا في طابق علوي.

وهكذا تسيح في أنحاء البيت، تلمس الأشياء وهي تمشي: ظهر مقعد، رفًّا خاليًا، أدوات إذكاء النار، مقبض الباب، درابزين الدرج. تنتقل إلى

جزء البيت الأمامي، إلى الجزء الخلفي، ثم تعود إلى الأمامي، تهبط السلالم، تصعد مرة أخرى. تمرِّر يدها على الستائر المحيطة بالسرير التي أهداها إليهما والداه بمناسبة زواجهما. تسحب الستارة جانبًا وتتأمَّل هيئة الرجل الذي في الداخل، زوجها، غاطًّا في النوم، متمدِّدًا وسط السرير، ذراعاه منبسطتان كأنما يطفو فوق تيار. ترفع بصرها إلى السقف الذي توجد فوقه عِلِّيَّة صغيرة مائلة السقف.

بُنِي هذا المسكن الذي أصبح بيتها إلى جانب بيت العائلة. له طابقان: في الطابق السفلي توجد المدفأة والمقعد الخشبي الطويل، المائدة والآنية، وهنا في الأعلى يوجد السرير. كان جون يستخدمه تحديدًا لتخزين ذلك الذي لا يُذكَر قطّ، لكنَّ آغنس وهي تتشمَّم الهواء أول مرة قَدِما فيها إلى هنا، ميَّزت رائحة الصوف التي لا تُخطَأ، رائحة حُزَم الصوف المطويَّة والمتروكة سنوات عديدة. أيًّا كانت، فقد أزيلت ونُقِلت إلى مكان آخر.

لدى آغنس إحساس قوي بأنَّ لهذه التسوية علاقة بشقيقها، ولعلَّها كانت جزءًا من شروطه للزواج. كان بارثولوميو هناك حينما وصلا أول مرة إلى عتبة الدار. فحص الغرف الضيقة، صاعدًا السلالم ثم نازلًا، وسار من حائط إلى آخر قبل أن يومئ برأسه لجون الذي ظل واقفًا عند الباب.

كان على بارثولوميو أن يومئ له برأسه مرتين قبل أن يناول جون ابنَه المفتاح. كانت لحظة غريبة، مثيرة للاهتمام لآغنس. أخذت تراقب الأب وهو يمد المفتاح إلى ابنه ببطء، ببطء. إحجام الأب عن التخلي عن المفتاح قابله -ربما فاقه- عدمُ رغبة الابن في قبوله. كانت أصابعه ساكنة، متراخية، تردَّد معاينًا المفتاح الحديدي في يد أبيه، كأنه غير متيقِّن من ماهيَّته. ثم انتزعه منه فقط بإصبع وإبهام، وأمسك به على مسافة ذراع، كأنه يقرِّر إذا ما كان سيؤذيه أم لا.

حاول جون تخفيف الحرج، قائلًا تعليقًا عن البيوت والسعادة والزوجات، مادًّا يده إلى الأمام ليُربِّت ظهر ابنه. كانت إشارة قُصد بها أن تكون لطيفة على نحوٍ أبويٍّ فظّ، لكنَّ آغنس ستفكِّر في ما بعد: ألم يكن هنالك شيء غير مريح فيها؟ شيء غير طبيعي؟ كان الرَّبت قويًّا جدًّا بعض الشيء، مقصودًا جدًّا بعض الشيء. لم يتوقَّعه الابن، فأخذ يترنَّح فاقدًا اتزانه. تمالك نفسه سريعًا، تقريبًا سريعًا جدًّا مثل ملاكم أو مبارز، منتصبًا على قدميه. تبادل الاثنان النظرات، كأنهما سيشرعان في تبادل ضرب لا مفاتيح.

لاحظت هي وبارثولوميو هذا من طرفي الغرفة. استدار الابن مبتعدًا وبدلًا من أن يضع المفتاح في المحفظة عند خاصرته، وضعه على سطح المنضدة مصدِرًا صوت نقر معدني كئيب، فتبادلت وبارثولوميو النظرات. كان وجه شقيقها خاليًا من التعبير إلا من غَضَن طفيف في أحد حاجبيه. لآغنس، عنى هذا الكثير. كانت تعلم أنَّ شقيقها سيقول، أترين الآن، أي صنف تزوجتِ؟ أترين الآن لِمَ أصررتُ على مسكن منفصل؟ هذا ما عنته حركة الحاجب تلك.

تميل آغنس على لوح النافذة الزجاجي فتسمح لأنفاسها بالتكاثف عليه. تذكِّرها هذه الغرف بالحرف الأول من اسمها، حرف علَّمها أبوها كيف تتبيَّنه عندما خدش الوحل بعصا مشحوذة: آ «A». (يمكنها أن تتذكَّر هذا بوضوح وهي جالسة مع أبويها على الأرض بين قدمي أمِّها، رأسها مُتَّكِئ على عضلة ركبتها، كان بوسعها مدّ يدها إلى الأسفل والإمساك بقدمي أمِّها. يمكنها استحضار الإحساس بسقوط شعر أمِّها على كتفها عندما مالت لترى حركة عصا والد آغنس، قائلة: «هنا يا آغنس، انظري.» تجلَّى الحرف من تحت رأس العصا الأسود المتيبِّس الذي فحَّمته نار المطبخ: «A». حرفها، دائمًا حرفها.)

البيت متشكِّل كالحرف، مائل الجانبين في الأعلى، وثمَّة أرضية في منتصفه. تجعل آغنس هذا إشارتها -الحرف المحفور في الوحل، ذكرى قدمي أمِّها القويتين، مسّ شَعرها الرقيق- وليست البومة، ولا نظرات حماتها الطويلة المتألمة، ولا شباب زوجها، ولا الإحساس الخانق بهذا البيت، بجوِّه الفارغ والهامد، ولا رَبْت حَمِيها القاسي ذاك على الظهر، لا شيء من هذا كلِّه.

تفكُّ صُرَّة قماش وتضع الأشياء على الأرض حين يجفلها صوت آتٍ من السرير.

«أين أنتِ؟» صوته العميق، على نحوٍ ما، يتعمَّق أكثر بالنوم، بطبقات الستائر الملتفَّة.

«هنا»، تقول، ما زالت رابضة على الأرض، حاملة محفظة، كتابًا، تاجها الذي ذبل الآن وتشعَّث، لكنها ستربطه وتجفِّف الزهور ولن يضيع منه شيء.

«عودي.»

تقف، وما زالت تحمل أشياءها، تتحرَّك نحو السرير، تبعد الستائر جانبًا وتنظر إليه. تقول: «أنت مستيقظ.»

«وأنت بعيدة جدًّا»، يقول مضيِّقًا عينيه. «ما الذي تفعلينه هناك بعيدًا عندما يجدر بك أن تكوني هنا؟» يشير إلى الفراغ بينهما.

«لا أستطيع النوم.»

«لِمَ لا؟»

«للبيت شكل حرف A.»

ثمَّة لحظة صمت فتتعجَّب إن كان قد سمعها. «همم؟» يقول وهو ينهض متكئًا على أحد مرفقيه.

«حرف A»، تكرِّر، ناقلةً كلَّ شيء تحمله إلى يد واحدة حتى تستطيع كتابة الحرف في هواء الشتاء البارد بينهما. «ذلك حرف A، أليس كذلك؟»

يومئ لها برأسه بِجِدٍّ. «إنه كذلك. لكن ما علاقة ذلك بالبيت؟»

لا تستطيع تصديق أنه لا يراه كما تراه. «يميل البيت من الأعلى وله أرض في منتصفه. لا أعرف كيف سأتمكَّن من النوم هنا في الأعلى.»

يسأل: «في الأعلى أين؟»

«هنا.» تشير حولها. «في هذه الغرفة.»

«لِمَ لا؟»

«لأنَّ الأرضية تطفو وسط الهواء مثل الخط العارض في حرف «A». لا توجد أرض تحتها. فقط فضاء فارغ ومزيد من الفضاء الفارغ.»

يتبسَّم وجهه، عيناه تتأمَّلانها باهتمام، ويرتمي على السرير. يقول مخاطبًا الغطاء فوقه، «أتعلمين أنَّ هذا أكثر سبب يجعلني أحبك؟»

«أنني لا أستطيع النوم في الهواء؟»

«كلا. لأنك ترين العالم بطريقة لا يراها بها أحد آخر.» يبسط ذراعيه. «عودي إلى الفراش. حسبك من هذا. أؤكد لك أننا لن نحتاج إلى النوم إلى حين.»

«أهذا صحيح؟»

«نعم صحيح.»

يقف على قدميه، يرفعها ويضعها بعناية على الفراش. «ستكونين لي حبيبتي آغنس»، يقول وهو يصعد السرير إلى جوارها، «في بيتنا الشبيه بحرف A.

وستكون لي مرارًا وتكرارًا، مرارًا وتكرارًا.»

يقبِّلها مؤكِّدًا، مع كل كلمة وهي تضحك وينثال شعرها على كل مكان بينهما عالقًا بشفتيه، ولحيته، وأصابعه.

يقول: «لن يكون هناك نوم كثير على هذا الفراش، ليس إلى حين.» و: «برَبِّك! لماذا تمسكين بهذه الأشياء كلِّها؟ ما الغرض منها؟ لا أحسب أننا نحتاج إلى أي منها اللحظة.»

يأخذ الأشياء كلَّها، واحدة تلو الأخرى -قفازيها، تاجها، محفظتها- من يدها ويضعها على الأرض. يأخذ الكتاب المقدَّس من يدها وكتابًا آخر، لكنه قبل أن يضعه، يتوقَّف، ناظرًا إليه.

«ما هذا؟» يسأل مقلِّبًا الكتاب.

«تركته لي جارة لنا قبل وفاتها»، تقول آغنس وهي تلمس واجهة الكتاب بطرف إصبعها. «اعتادت أن تغزل لنا، وكنت أحمل إليها الصوف ثم آخذه عندما تنتهي. طالما كانت لطيفة معي وكتبت في وصيتها أن يؤول الكتاب إليَّ. كان يملكه زوجها الذي كان صيدليًّا. اعتدت مساعدتها في حديقتها عندما كنت طفلة. قالت لي ذات مرَّة...» وهنا تتوقَّف «... إنها وأمي اعتادتا الرجوع إليه.»

يبعد يده من حولها ويمسك الكتاب بكلتا يديه، مقلِّبًا الصفحات. «وهو لديك منذ أن كنتِ صغيرة؟» يقول، وعيناه تفحصان الكلمات المطبوعة على نحوٍ متراص. «إنه باللاتينية»، يقول مُقَطِّبًا جبينه. «إنه عن النبات. استخدامه. كيف يمكن معرفته. كيف يداوي بعض الأمراض واعتلال المزاج.»

تنظر آغنس فوق كتفيه. ترى صورة نبات ببتائل على شكل دموع،

وجذورٍ طويلة متشابكة داكنة، رسمًا توضيحيًّا لغصن مثقل بالتوت. تقول: «أعرف هذا، نظرتُ إليه كثيرًا بما يكفي، مع أنني لا أستطيع القراءة بطبيعة الحال. هلَّا قرأته لي؟» تسأل.

يبدو أنه ينتبه. يضع الكتاب، ينظر إليها. «سأفعل حتمًا»، يقول، أصابعه تفكُّ أربطة قميصها. «لكن ليس الآن.»

يبدو غريبًا لآغنس أنها في هذه الأثناء، في غضون شهر استبدلت بلدةً بقرية، بيتًا بمزرعة، حماةً بزوجة أب، عائلة بأخرى.

تتعلَّم أنَّ بعض البيوت يُدَار على نحوٍ يختلف اختلافًا كبيرًا عن بعضها الآخر. بدلًا من الأجيال الممتدَّة التي يعمل أفرادها معًا لرعاية الحيوانات والأرض، للبيت الذي في شارع هنلي بنية مختلفة: هنالك الأبوان، ثم الأبناء، ثم البنت، ثم الخنازير في الزريبة والدجاج في الخُم، ثم المتدرِّب، ثم في الأسفل تمامًا الفتيات الخادمات. تحسب آغنس أنَّ موقعها كزوجة ابن جديدة غامض، في مكان ما بين المتدرِّب والدجاج.

تراقب آغنس الناس يجيئون ويروحون. إنها في أثناء هذا الوقت تجمع معلومات، أسرارًا، أخبارًا يومية، شخصيات وتفاعلات. إنها مثل لوحة على الحائط، عيناها لا تفقد شيئًا. لديها بيتها الخاص، المسكن الصغير الضيق، لكنها تستطيع الخروج من بابه الخلفي، وهناك الفناء المشترك: تشاركهم وزوجها الحديقة، المطبخ، زريبة الخنازير، الدجاج، المَغْسَل، مخزن الجعة. هكذا تستطيع الانسحاب إلى مكانها الخاص، لكنها أيضًا تختلط بالآخرين وتجتمع بهم. إنها مراقِبة ومشارِكة في الوقت ذاته.

تصحو الخادمات باكرًا، كما تفعل آغنس: يستلقي أهالي البلدة على أسِرَّتهم مدة أطول مما يفعل أهالي الريف، وقد اعتادت آغنس أن تستهل

يومها قبل شروق الشمس. هؤلاء الفتيات يجلبن الحطب، ويشعلن النار في البيت والمطبخ. يطلقن الدجاجات وينثرن البذور والحبوب لها في الفناء. يأخذن فضلات الطعام إلى زريبة الخنازير. يحضرن الجعة من مخزن الجعة. يأخذن العجين المتخمِّر طوال الليل في إناء المطبخ، يشكِّلنه، ثم يضعنه قرب الفرن الدافئ. هي ساعة أو نحو ذلك قبل أن يخرج أفراد العائلة من غرفهم.

هنا في البلدة، لا أسوجة لتُصلَح، لا طين ليُزال عن الأحذية. الثياب لا تعلق بها آثار التربة والشَّعر والرَّوث. لا رجال يعودون في منتصف النهار وقد نهشهم الجوع وجمَّد البرد عظامهم. لا حُملان ينبغي تدفئتها قرب الموقد، لا حيوانات تشكو مغصًا أو داء ديدان أو عفن قدم. لا حيوانات تُطْعَم في الصباح الباكر، ولا عوسق أيضًا: ذهب طائرها للعيش مع الكاهن الذي أشرف على الزفاف، يقول إنَّ بوسع آغنس أن تزوره في أي وقت تشاء. لا خراف تحاول الهرب خلال الأسوجة. لا غربان أو حمام أو دجاجة أرضٍ تَحُطُّ على السطح وترسل صياحها عبر المدخنة.

بدلًا من ذلك، ثمَّة عربات يد تمضي وتجيء طوال اليوم، أناس يتصايحون في الشارع، حشود وجماعات تعبر. ثمَّة طلبات تُسَلَّم وتُسْتَلَم. ثمَّة مخزن في الخلف خاص بمعمل القفافيز، حيث تُمَطُّ الجلود الخاوية لمخلوقات الغابة على أعمدة كأجسادٍ تائبين بعد معصية. ثمَّة الخادمات اللاتي يدخلن البيت ويخرجن منه بنعالهن التي تطرق البلاط وتدقُّه. ينظرن إلى آغنس من الرأس إلى أخمص القدمين كأنما يُقَيِّمْن أهميتها ويبحثن عمَّا تفتقر إليه. يتنهَّدْن بصوت خافت جدًّا إذا ما وقفت في طريقهن، لكنهن إذا ظهرت ماري ينتصبن في وقوفهن ويسوِّين قلانسهن ويقلن: نعم يا سيدتي، لا يا سيدتي، لا أعلم يا سيدتي.

في الريف يكون الناس مشغولين بماشيتهم ومحاصيلهم أكثر من تبادل

الزيارات، أمَّا في هذا البيت فالناس يأتون طوال ساعات اليوم متطلِّعين إلى إيجاد رفقة: أقارب ماري، شركاء جون في التجارة. يُحضَر الأوَّلون إلى الرَّدهة، ويُستَقْبَل الآخرون في المعمل حيث يقرِّر جون إلى أي غرفة سيُأخذون. كثيرًا ما تكون ماري في البيت مراقبةً الخادمات والمتدرِّب أو جالسةً للحياكة إلا إذا كانت خارجة للزيارة. غالبًا لا يُرى جون في أي مكان. الصبية الأصغر سنًّا يذهبون إلى المدرسة. زوج آغنس يكون أحيانًا في البيت وأحيانًا في الخارج: يدرِّس، يخرج إلى الحانات في الأماسي، وفي بعض الأحيان يرسله والده لقضاء بعض الحاجات. في ما تبقّى من الوقت يتوارى في الطابق العلوي في بيتهما ليقرأ أو ليقف محدِّقًا من النافذة.

يأتي الزبائن في جميع الأوقات إلى نافذة المعمل لمعاينة القفافيز وطرح الأسئلة، أحيانًا يسمح لهم جون بالدخول والنظر حوالي المعمل وربما طَلَبِ صنعِ زوجٍ خاص من القفافيز.

تراقب آغنس ذلك كلَّه ثلاثة أيام أو أربعة. في اليوم الخامس تستيقظ قبل الخادمات وتخرج من باب البيت الخلفي الذي يفضي إلى الفناء المشترك. بحلول الوقت الذي يظهرن فيه، تكون آغنس قد أشعلت الفرن في المطبخ وشكَّلت العجين في دوائر مضيفةً حفنة من الأعشاب المطحونة من الحديقة. تتبادل الخادمات نظرات قلقة.

على مائدة الإفطار، تنقضُّ العائلة على لفائف الخبز التي تبدو أنعم وأطرى ولها بريق كالزجاج. الزُّبْد مُنَسَّقٌ بشكل ملتوٍ. عندما يُقْطَع الخبز يطلق رائحة الزعتر أو المَرْدَقُوش الدافئة. إنه يعيد إلى ذهن جون ذكرى جدَّته، كانت تحتفظ بباقة أعشاب مربوطة إلى نطاقها. يجعل ماري تفكِّر في الحديقة المربَّعة المسوَّجة عند باب المزرعة حيث نشأت، وفي الوقت الذي كان على أمِّها أن تبعد طيور الإوَز بمكنسة لأنها اقتحمت المكان وأكلت شجيرات الزعتر.

تبتسم للذكرى، لذكرى ثياب أمِّها المبلَّلة بالندى والوحل، لصياح الإوز المستاء، فتتناول شريحة خبز أخرى وتغمس السكين في الزُّبْد.

ترمق آغنس وجه حميها ووجه حماتها ثم وجه زوجها. يرى نظرتها فيومئ برأسه نحو الخبز إيماءة لا تكاد تُرى، رافعًا حاجبيه.

تمكث ماري أسبوعًا أو نحو ذلك لتلاحظ أنَّ البيت مختلف. فتائل الشموع مُشَذَّبة دون أن تحتاج ماري إلى تذكير الخادمات. مفرش المائدة قد غُيِّر، أيضًا دون أن تطلب ذلك، وبُسُط الحائط خالية من الغبار. الأطباق نظيفة ولامعة. ترى هذه الأشياء منفردة دون أن تجمعها كلها. تبدأ في التعجُّب فقط عندما تشم رائحة شمع العسل المميزة والمثقلة بحبوب اللِّقَاح في الرَّدهة ذات يوم وهي تستضيف جارة لها.

بعد انصراف الجارة تتمشَّى في أرجاء بيتها. ثمَّة أغصان نبات بهشيَّة في إناء في الرَّدهة. قرنفل رُصِّعَت به قطع الحلوى في المطبخ، أصيص به أوراق نبات عطرية لا تعرفها ماري. ثمَّة جذور ملتفَّة مثقلة بالتربة تُركِت لتجف على أفاريز مخزن الجعة، وتوت على طبق. كومة من أطواق القمصان المكويَّة باستخدام النَّشا وُضِعَت منتظرة على مُنْبَسَط الدَّرج. الخنازير في زريبتها تبدو نظيفة ووردِيَّة اللون على نحو مُريب، مِعْلَف الدجاج نظيف ومملوء بالماء.

لدى سماعها الأصوات، تسلك ماري الدَّرب المفضي إلى المَغْسَل.

«أجل هكذا»، تسمع صوت آغنس المنخفض، «كأنكِ تفركين مِلْحًا بين كفَّيك. برفق. أقل حركة فحسب. على هذا النحو يمكن الحفاظ على رؤوس الزهور.»

ثمَّة صوت آخر -غير مسموع لماري- ثم انفجار بالضحك.

تدفع الباب: آغنس، إليزا، والخادمتان، يتزاحمن كلهن في المَغْسَل ملتفَّات

بمآزرهن، الهواء ساخن ومُتْرَع برائحة محلولٍ حِرِّيفة لاذعة. وُضِع إدموند في حوض على الأرض مع عدد من الحصى.

«ما»، يهتف لمرآها، «ما-ما-ما!»

«أوه»، تقول إليزا ملتفتة، وجهها متورِّد من الحرارة والضحك، «كنَّا... حسنًا، كنَّا...» تنخرط في الضحك مرة أخرى، مُبْعِدةً خُصْلة عن وجهها بمرفقها. «كانت آغنس تُرِينا كيف نمزج الخزامى بالصابون، ثم... ثم قمنا...» تبدأ إليزا بالضحك مرة أخرى، دافعةً إحدى الخادمتين إلى القهقهة على نحوٍ لا يلائم وضعها أبدًا.

تسأل ماري: «أتصنعن صابونًا؟»

تستمر آغنس في العمل تلقائيًّا. رابطة الجأش، هادئة، وجهها غير متورِّد أبدًا. تبدو كأنها نهضت توًّا من كرسي في الرَّدهة، لا كأنها أذابت عجينة صابون وقلَّبتها في مَغْسَل خانق رطب. تنبعج مقدِّمة مئزرها ببطنها المنتفخ. ماري تنظر، وتشيح بنظرها. ليس أوَّل مرة يخطر ببالها أنها ' شعر بهذا مرة أخرى أبدًا، أنَّ هذه تجربة سُدَّت في وجهها الآن، في سنها، في فترة حياتها هذه. في بعض الأحيان يحرقها الإحساس بفقدان هذه الإمكانية: يشقُّ على المرأة تجاوز هذا الأمر، والأشق أن تدخل امرأة أخرى بيتها بتلك الحال. كلَّ مرة، يجعل منظرُ بطنِ هذه الفتاة ماري تفكِّر في فراغ بطنها، في سكونه.

«بلى»، تَفْتَرُّ آغنس عن أسنان صغيرة حادَّة مبتسمةً. «بالخزامى. حسبتُ أنه قد يكون تغييرًا جميلًا. آمل أن يكون ذلك مقبولًا لك؟»

«مؤكَّد»، تقول ماري بسرعة. تنحني وتنتزع إدموند من الحوض. يجفل جفولًا شديدًا فيبدأ بالبكاء. «مقبول حقًّا»، تقول وتخرج ممسكةً بابنها المخيَّب الأمل، تاركةً الباب يصفق وراءها.

في الأسابيع الأولى من زواجها، تجمع آغنس الأفكار كجامعِ صوفٍ يختزن الصوف: نُتْفَةٌ من هنا، فُتَاتٌ من هناك، بضع خيوط من سياج، شيء من غصن، حتى، حتى، حتى تحصل على ما يملأ يديها، ما يكفي لغزل حكاية.

ترى أنَّ جون يؤثِر غلبرت على إخوته الصبية -لأنه قوي ويحب وضع الأشخاص بعضهم في مواجهة بعض للتسلية- لكنَّ ماري تفضِّل ريتشرد. تومئ برأسها إذ يتكلَّم، تُسكِت الآخرين لتصغي إليه. ترى آغنس أنَّ ماري تحمل حبًّا عميقًا لإدموند، لكنها تذعن لحقيقة أنَّ جُلَّ رعايته يقع على عاتق إليزا. ترى آغنس أنَّ إدموند يراقب زوجها، شقيقه الأكبر، طوال الوقت. تتبعه عيناه أينما يذهب في الغرفة، يبسط إليه يديه عندما يمر. ترى آغنس أنَّ إدموند سيترعرع متفائلًا وسعيدًا، سيقتدي بشقيقه الأكبر، حتمًا، دون أن يُسأل، دون أن يُلحَظ على الأغلب. لن يعيش طويلًا، لكنه سيعيش سعيدًا: ستحبُّه النساء، وسينجب العديد من الأبناء في أثناء حياته القصيرة. آخر شخص سيفكِّر فيه قبل وفاته بقليل، سيكون إليزا. سيدفع زوج آغنس تكاليف جنازته وسيبكي عند قبره. ترى آغنس هذا لكنها لا تقوله.

ترى أيضًا أنَّ جميع الأبناء الستة يجفلون إذا ما خفَّ جون واقفًا فجأةً، مثل حيوانات تستشعر اقتراب مفترِس. ترى عيني ماري تطرفان ببطء، كأنها تغمضهما كي لا ترى ما قد يحدث.

إنه وقت عشاء وإدموند متعب، نكِد، جائع، لكنه على نحوٍ ما عاجز عن فهم العلاقة بين الطعام الذي على الطبق والإنزعاج غير المُسَمَّى الذي في معدته. يبكي ويئنّ ويطوِّح رأسه من جانب إلى آخر. تجلس آغنس إلى جواره، تَدُسُّ لُقَمًا في فمه. لثَّته حمراء وملتهبة، تبرز منها رؤوس أسنان جديدة، وجنتاه ضارب لونهما إلى الزُّرْقة وساخنتان. يهيج، يضغط الفطيرة

بين أصابعه، يقلِب كوبه، يتكئ على كتف آغنس، يمسك بمنديلها ويلقيه على الأرض. زوج آغنس، في الجانب الآخر إلى جوارها، يغضِّن وجهه ساخرًا ويسأل: لست سعيدًا اليوم، هاه؟ لكنَّ والدهم يتجهَّم أكثر وأكثر، مهمهمًا: ممَّ يشكو الطفل، ألا تأخذينه من هنا؟ يضيق إدموند ذرعًا بالطعام فيقذف كسرة فطيرة عبر المائدة لتسقط على رُدْن جون وتترك بقعة بُنيَّة. ثمَّة لحظة صمت طويلة وممتدة. تنكِّس ماري رأسها كأنَّ شيئًا في حِجْرِها يثير اهتمامها، تبدأ عينا إليزا بذرف الدموع، ينهض جون من مقعده مترنِّحًا صائحًا: قسمًا بالرَّبِّ، ذلك الصبي، سأ...

يَثِب زوج آغنس ويكون حول المائدة قبل أن تدرك آغنس ما يحدث. يضع نفسه بين أبيه وبين الصبي الذي يعوِل الآن، فمه مفتوح على اتساعه، كأنه يستشعر التغيُّر الذي طرأ. ثمَّة عراك، زوجها يمسك بأبيه، سِبابٌ، تدافع بالصدور، يد تقيِّد ذراعًا. لا تستطيع آغنس أن ترى جيدًا لأنها ترفع الطفل عن المائدة، مُخَلِّصةً قدميه من المقعد، حاملةً إيَّاه وهي تعدو به خارجة من الغرفة.

بعد حين، يأتي زوجها باحثًا عنها. معها إدموند في الفناء، وقد لفَّت جسده القصير بشالها مرتين، فاستعاد مزاجه الجيد وأخذ يطعم الدجاج الحبوب. تمسك له وعاء الحبوب قائلة: قليلًا فقط، كافٍ تمامًا، فتندفع الدجاجات إلى الأرض. يأتي زوجها ليقف قربها مراقبًا. ثم يميل برأسه على رأسها، ويطوِّقها. تفكِّر وهي تمسك بالحبوب في مشهد الكهوف والأغوار ذاك الذي تحسُّه بداخله. تفكِّر في دُرُوز القفافيز الممتدة على طرف كل إصبع وأسفله وحوله لتثبيت الجلد الذي لا ينتمي إلى مُرتديه. كيف يغطي القُفَّازُ اليدَ ويلائمها ويضغط عليها. تفكِّر في الجلود في المخزن، وقد شُدَّت ومُطَّت تقريبًا -لكن ليس تمامًا- إلى درجة التمزُّق أو التَّقَطُّع. تفكِّر في أدوات المعمل

المستخدمة للقطع والتشكيل والتثبيت والثَّقْب. تفكِّر في ما يجب التخلُّص منه من الحيوان ليكون مفيدًا لصانع قفافيز: القلب، العظام، النفس، الروح، الدم، الأحشاء. لن يحتاج صانع القفافيز إلا إلى الجلد، السطح، الطبقة الخارجية. كل شيء آخر عديم الفائدة، عقبة، فوضى لا داعي لها. تفكِّر في الوحشية السِّرِّيَّة وراء شيء جميل ومثالي كقُفَّاز. تفكِّر في أنها إذا أمسكت بيده الآن وضغطتها بأصابعها، فقد ترى المشهد الذي رأته من قبل، لكنها سترى أيضًا شبحًا أسود ومتوعِّدًا، حاملًا أدوات لنزْع أحشاء مخلوقٍ ونهْبِها وسَلْب جوهره. تفكِّر وإدموند ينثر الحَبَّ للدجاج، في أنهما ربما لن يقيما طويلًا في هذا البيت: عمَّا قريب ستكون مغادرتهما وهروبهما ضروريين، للعثور على مكان مختلف.

تخرج إليزا إلى الفناء، مشيرة إلى أنَّ العشاء انتهى. وجهها منزعج، عيناها مبتلَّتان. تحمل إدموند وتعود به إلى البيت. تنظر آغنس وزوجها أحدهما إلى الآخر، ثم يسيران نحو باب بيتهما الخلفي.

يبدو جليًّا لآغنس الآن وهما يدخلان المطبخ، وهو يحرِّك النار ويلقي فيها قطعة من الحطب أنَّ زوجها مشطورٌ شطرين. هو في بيتهما رجل، وفي بيت والديه رجلٌ آخر تمامًا. في بيتهما، هو الشخص الذي تعرفه وتدركه، الشخص الذي تزوَّجته.

خذوه إلى البيت المجاور، إلى البيت الكبير، وسيكون متجهِّمًا، شاحب الوجه، متوتِّرًا، نَزِقًا. يصير حُرَاقًا[1] وصَوَّانًا[2]، يتطاير منه الشَّرر فيشتعل ويضطرم. لماذا؟ يتحدَّى أمَّه، لأي شيء؟ يقول بحدَّة. لا أريد، يردُّ على أبيه. لم تفهم قطُّ سبب ذلك، لكنَّ سورة الغضب التي شهدتها في جون وهو

---

(1) ما تقع فيه النَّار عند القدح من خرقة ونحوها. (المعجم الوسيط)

(2) ضربٌ من الحجارة فيه صلابة يتطاير منه شرر عند قدحه بالزِّناد. (السابق)

ينهض من مقعده كشفت لها كلَّ ما تحتاج إلى معرفته.

في بيتهما يتركها تمسك بيده، يتركها تقوده من المدفأة إلى المقعد، يترك عينيه تفقدان التركيز، يترك أصابعها تدلِّك رأسه، فتحسُّ به متحوِّلًا شخصًا آخر، يمكنها الإحساس بأنَّ شخصية ذلك البيت الكبير الأخرى تنسلخ عنه مثلما ينزلق الشمع عن شمعة مشتعلة، كاشفةً الرجل الذي بداخلها.

ثلاث طرقات قوية على باب البيت: بووم، بووم، بووم.

هامنت هو الأقرب إلى الباب، لذا يذهب ويجيب الطارق. حين ينفتح الباب، ينكمش هامنت خوفًا ويصرخ صراخًا حادًّا: على عتبة الباب منظر مُروِّع، مخلوق آتٍ من كابوس، من الجحيم، من الشيطان. طويل القامة، مُتَلَفِّع بالسواد، وفي موضع الوجه ثمَّة قناع بشع عديم الملامح، مدبَّب كمنقار طائر هائل.

«لا»، يصيح هامنت، «ابتعد.» يحاول إغلاق الباب، لكنَّ المخلوق يمد يده ويضغط الباب بقوة رهيبة خارقة. «ابتعد»، يصرخ هامنت مرة أخرى، وهو يركل.

ثم تأتي جدَّته، تدفعه جانبًا، معتذرة للشبح، كأنَّ لا شيء غير مألوف فيه، وتدعوه إلى الدخول إلى البيت لفحص المريضة.

يتكلَّم الشبح بلا فم، قائلًا إنه لن يدخل، لا يستطيع، وإنهم هم، أهل البيت، مأمورون بعدم الخروج، بعدم النزول إلى الشوارع، إنما عليهم البقاء في الداخل إلى أن ينتهي الوباء.

يتراجع هامنت خطوة إلى الوراء، ثم خطوة أخرى. يصطدم بأمِّه التي تقصد النافذة وتفتح كُوَّتها على الشارع. تميل لتعاين هذا الشخص.

يندفع هامنت إلى جانبها، وأول مرة منذ سنوات يمسك بيدها. تعصر أمُّه أصابعه دون أن تنظر إليه. تهمس: «لا تخف، إنه الطبيب فحسب.»

«الـ...؟» يحدِّق هامنت إليه، ما زال عند عتبة الباب يتحدَّث إلى جدته. «لكن لماذا هو...؟» يشير هامنت إلى وجهه، إلى أنفه.

تقول: «يضع ذلك القناع لأنه يعتقد أنه سيحميه.»

«من الوباء؟»

تومئ أمُّه برأسها.

«وهل سيحميه؟»

تزمُّ أمُّه شفتيها، ثم تهزُّ رأسها. تغمغم: «لا أحسب ذلك. لكنَّ عدم دخوله إلى البيت، ورفضه رؤية المريضة أو فحصها قد يحميه.»

يضع هامنت يده الأخرى بين أصابع أمِّه القوية والطويلة، كأنَّ لمسها قد يبقيه في أمان. يرى الطبيب مادًّا يده إلى حقيبة ومناولًا جدَّته صُرَّة مربوطة.

«اربطيها إلى بطن الفتاة بقماش»، يقول بصوت رخيم متلقِّيًا بضع عملات معدنية من ماري في يده الشاحبة، «واتركيها هناك ثلاثة أيام. ثم يمكنك أن تأتي ببصلة وتنقعيها في...»

«ما ذاك؟» تقول أمُّه مقاطعة، وهي تميل من كُوَّتها.

يلتفت الطبيب لينظر إليها، منقاره المدبَّب المروِّع مُصَوَّب نحوهما. ينكمش هامنت بجانبها. لا يريد أن ينظر هذا الرجل إليه، لا يريد أن يقع تحت نظره. تستحوذ عليه فكرة أنه إذا ما رآه بعينه، أو لاحظه أو عرفه، سيكون ذلك فألًا سيئًا، وستنزل بهم جميعًا نازلة فظيعة. يريد أن يركض، أن يسحب أمَّه بعيدًا، أن يقفل الأبواب والنوافذ، حتى لا يدخل ذلك الرجل،

حتى لا تقع نظرته على أيٍّ واحد فيهم.

لكنَّ أمَّه ليست خائفة أبدًا. يرمق الطبيب وأمُّ هامنت أحدهما الآخر لحظةً، عبر الكُوَّة التي تبيع منها أمُّه الأدوية. هامنت يدرك ويرى بوضوح شديد يتمتَّع به طفل مُهَيَّأ ليشبَّ عن الطَّوق أنَّ هذا الرجل لا يحب أمَّه. يمقتها: تبيع أدوية، تزرع أعشابها الخاصة، تجمع أوراق الشجر والبتائل واللِّحاء والنُّسْغ، وتعرف كيف تساعد الناس. هذا الرجل، يرى هامنت فجأةً، يضمر لأمِّه الشر. تأخذ مرضاه، تتعدَّى على دخله، على عمله. كم بدا عالم الكبار محيِّرًا لهامنت في تلك اللحظة! ما أعقده، ما أغمضه! كيف يمكنه أن يشقَّ طريقه فيه؟ كيف سيتدبَّر أمره؟

يميل الطبيب بمنقاره، مرةً، ثم يلتفت إلى جدَّة هامنت، كأنَّ أمَّه لم تتكلَّم.

«أهو ضفدع مجفَّف؟» تقول آغنس بصوت واضح عالٍ. «لأنه إذا كان كذلك، فلا نريده.»

يُحكِم هامنت تطويق خصر أمِّه بذراعيه، يودُّ لو يبلغها بالحاجة الماسَّة إلى إنهاء هذا الحديث، بالابتعاد عن هذا الشخص. لا تتحرَّك، لكنها تضع يدها على معصمه كأنها تقول: أعترف بك، أنا هنا.

«سيدتي»، يقول الطبيب، ومرة أخرى، يترجَّح منقاره نحوهما، «يمكنك الوثوق بأنني أعرف عن هذه الأمور أكثر بكثير مما تعرفين. وضع ضفدع مجفَّف على المعدة أيامًا معدودة، أثبت نجاعته العظيمة في حالات كهذه. إذا كانت ابنتك تعاني الوباء، يؤسفني القول إنَّ هناك القليل جدًا مما يمكن...»

قُطِع باقي الحديث، بُتِر، وضاع لأنَّ آغنس صفقت الكُوَّة. يراقب هامنت أصابعها إذ تتحسَّس الكُوَّة لقفلها. وجهها غاضب، يائس، متورِّد. تهمس بشيء ما، يتلقَّف كلمة «رجل»، و«يجرؤ»، و«أحمق».

يبعد يديه ويراقبها تسير في الغرفة، تُسَوِّي مقعدًا بتوتُّر، تحمل وعاء وتضعه، ثم تأتي لتجثو إلى جوار الحشيَّة التي وُضِعَت عليها جودث قرب النار.

«ضفدع، حقًّا»، تهمهم أمُّه واضعةً قطعة قماش مبلَّلة على جبين جودث.

تغلق جدَّته الباب الأمامي وتدفع المزلاج في مكانه. يراها هامنت وهي تضع صُرَّة الضفدع المجفَّف على رفٍّ عال.

تقول شيئًا غير مفهوم لهامنت مومئةً برأسها.

ذات صباح في ربيع عام 1583، لو استيقظ سكّان شارع هنلي مبكّرًا بما فيه الكفاية لرأوا كَنَّة جون وماري الجديدة تخرج من باب البيت الضيق الصغير حيث يعيش المتزوجان حديثًا. لرأوها تحمل سلَّة، تسوِّي ثوبها، وتنطلق في الاتجاه الشمالي الغربي.

في الطابق العلوي، ينقلب زوجها الشاب على السرير. ينام بعمق، ودائمًا ما ينام بعمق. لا يلاحظ أنَّ جانبها من السرير خال ويبرد سريعًا. يضغط الوسادة برأسه أكثر، ذراعه مدسوسة تحت اللحاف، شعره يسقط على معظم وجهه. إنه في سِنَة النوم العميقة غير المضطربة التي تأخذ الشباب، وإذا لم يزعجه أحد، يمكنه النوم ساعات. يفتح فمه قليلًا، يسحب الهواء، ويبدأ بالشخير برفق.

تتابع آغنس طريقها عبر سوق روذر، حيث يبدأ أصحاب الأكشاك في الوصول. رجل يبيع حُزَم خزامى، امرأة تقود عربة يد تحمل أعواد صفصاف. تقف آغنس لتتحدَّث إلى صديقتها زوجة الخبَّاز. تتبادلان الكلمات عن صفاء اليوم، عن نذير المطر، وحرارة الأفران في المخبز، وتطوُّر حمل آغنس، وكيف تشعر بالجنين منخفضًا يضغط عظامها. تحاول زوجة الخبَّاز وضع كعك في يد آغنس. ترفض آغنس. تصرُّ زوجة الخبَّاز، رافعةً غطاء سلَّة آغنس ودافعةً الكعك داخلها. تلمح ثيابًا، نظيفة ومطويَّة بعناية، مقصًّا، قارورة مسدودة، لكنها لا تفكِّر في الأمر. تومئ آغنس برأسها لها، تبتسم، تقول إنها ينبغي أن

تذهب.

تقف زوجة الخبَّاز لحظة أمام كشكها الخالي في السوق، تراقب صديقتها وهي تبتعد. تتوقَّف آغنس لحظة في طرف السوق واضعةً إحدى يديها على الجدار. تعبس زوجة الخبَّاز وتكاد تصيح منادية، لكنَّ آغنس تستقيم وتستأنف طريقها.

في الليل، حلمت آغنس بأمِّها، مثلما تفعل من حين لآخر. كانت آغنس واقفة في فناء المزرعة في هيولَندز وتنورتها تنجرُّ على التراب، كان ثمَّة إحساس ثقيل حولها، كأنَّ ثوبها مثقل بالماء. حينما نظرت إلى الأسفل، كانت هناك طيور تقف على حاشية ثوبها وتدوسها: بط، دجاج، حجل، حمام، عصافير صغيرة. كانت تناضل وتتدافع، أجنحتها مبسوطة وخرقاء، تحاول البقاء واقفة على ثوبها. كانت آغنس تحاول إبعادها، تحاول تحرير نفسها، عندما أدركت أنَّ شخصًا يقترب. استدارت ورأت أمَّها تعبر: ضفيرتها تنسدل إلى أسفل ظهرها، شال أحمر معقود فوق قميص أزرق. ابتسمت أمُّها، لكنها لم تتوقَّف، كان وركاها يهتزَّان وهي تعبر.

شعرت آغنس بشوق عظيم يتكشَّف دائرًا في أعماقها، مثل دوران بَكْرَة. قالت: «أُمَّاه، انتظري، انتظريني.» حاولت التقدُّم إلى الأمام لتتبع أمَّها، لكنَّ الطيور ما زالت تدوس ثوبها، بطونها المتدلية المغطَّاة بالريش، قوائمها ذات الكُفوف والمخالب تسحبه إلى الأسفل. «انتظري!» صاحت آغنس بأمِّها في الحلم لتعود أدراجها.

أمُّها لم تتوقَّف، لكنها التفتت وقالت، أو بدا أنها قالت: «أغصان أشجار الغابة كثيفة جدًّا إلى درجة أنك لا تستطيعين الشعور بالمطر.» ثم تابعت السير نحو الغابة.

صاحت بها آغنس مرة أخرى، وهي تكبو وتتعثَّر بالأجساد المتكدِّسة للطيور المُلِحَّة المرفرفة الساقطة على الطين. عندما ارتطمت بالأرض فقط استيقظت جافلة لاهثة، فنهضت جالسة، وفجأة لم تعد في هيولَندز، في الفناء، صائحةً بأمِّها. كانت في بيتها، على السرير، ثوبها منزلق عن كتفها، الجنين مندَّس داخل جلدها، زوجها إلى جانبها، يمدُّ يده نائمًا ليجذبها إليه.

استلقت وضمَّت جسدها إلى جسده، فاستقر وجهه على ظهرها. وجدت خُصْلة من شعره فأخذت تملِّسها، وتلُفُّها بين أصابعها، وتصوَّرت الأفكار في رأسه تنجذب إلى الأعلى مع شعره بين أصابعها، مثل قَصَب يسحب الماء إلى جذعه الأجوف.

أحسَّت بأنه كان قلقًا عليها مثلما يقلق الرجال عندما يدنو مخاض زوجاتهم. دار عقله ودار حول الفكرة، هل ستنجو؟ هل ستجتاز الأمر؟ شدَّ أطرافه حولها، كأنه يريد أن يبقيها هناك، في سريرهما الآمن. تمنَّت لو استطاعت أن تقول له: يجب ألَّا تقلق. أنت وأنا سننجب طفلين وسيعيشان طويلا. لكنها بقيت صامتة: لا يحبُّ الناس سماع أشياء كهذه.

بعد حين نهضت، أماطت الستائر عن السرير ونزلت منه. مشت إلى النافذة، مدَّت يدها إلى الزجاج. الأغصان كثيفة جدًّا، فكَّرت. الأغصان. لا يمكنك أن تشعري بالمطر.

قصدت المنضدة الصغيرة قرب المدفأة حيث يضع زوجها أوراقه وريشة كتابة. رفعت غطاء قارورة الحبر وغمست الريشة، طرفها الشبيه بمخلب يحمل الحبر. يمكنها الكتابة إلى حدٍّ ما، تخرج الحروف صغيرة ومتراصَّة، وربما ليس بنَسَق مقروء لمعظم الناس (خلافًا لزوجها الذي ارتاد مدرسة القواعد ومن بعدها الخطابة، ويمكنه كتابة سيل متصل من الحروف، مثل خُصْلة خيوط مزخرفة، بطرف ريشته. يبقى مستيقظًا حتى وقت متأخر من

الليل، جالسًا إلى منضدته يكتب. يكتب ماذا، لا تعلم. يكتب بسرعة كبيرة وبتركيز لا تستطيع آغنس مجاراته، لا تستطيع فهمه.) لكنها تعرف ما يكفي ليجعلها قادرة على كتابة شيء قريب من هذه العبارة: أغصان أشجار الغابة كثيفة جدًّا إلى درجة أنك لا تستطيعين الشعور بالمطر.

أزالت آغنس الرماد عن النار، ألقت فيها الحطب لإذكائها، وضعت وعاء من القشدة ورغيف خبز على المائدة. حملت سلَّتها وخرجت من الباب الأمامي. تحدَّثت إلى صديقتها، زوجة الخبَّاز، وهي الآن تسلك طريقًا قرب نبع، وسلَّتها ترهق ذراعها.

إنه منتصف أيَّار. ضوء الشمس ينير الأرض بأشكال وامضة متغيِّرة، تلاحظ آغنس هذا على الرَّغم من كل شيء، لأنها لا تستطيع ألا تلاحظ أشياء كهذه، وما يزهر على الحافات. ناردين، منثور برِّي، نسرين برِّي، حُمَّاض، ثوم برِّي، سوسن برِّي. لو كان الظرف مختلفًا، لجَثت على يديها وركبتيها لتقطف رؤوسها وأزهارها. ليس اليوم.

مع أنَّ الوقت ما زال مبكِّرًا، تتخطَّى حدود سياج هيولَندز. لا تود المجازفة بمقابلة أي أحد على الطريق. لا جوان ولا بارثولوميو ولا أيا من إخوتها وأخواتها. إذا رأوها، سيدقُّون ناقوس الخطر، سينادون شخصًا ما، سيرسلون في طلب زوجها، سيكرهونها على دخول بيت المزرعة. إنه آخر مكان تريد أن تكون فيه لإنجاز هذا الأمر. أغصان أشجار الغابة، قالت لها أمُّها.

بينما تسير على طريق الخيول، تلمح من بعيد أخاها تومس ينتقل من البيت إلى الفناء، وتسمع صفير بارثولوميو الحاد لكلابه. ذاك سطح البيت القشي، تلك زريبة الخنازير، تلك هي الناحية الخلفية لمخزن التفاح، مرآهُ يجعلها تبتسم.

تلج الغابة على بعد نصف ميل أو نحو ذلك من هيولَندز. بحلول هذا الوقت، تأتي نُوَب الألم بانتظام. لا تكاد تستردُّ أنفاسها بينها حتى تُعِدَّ نفسها وتهيئها للنَّوبة التالية. عليها الانتظار قرب شجرة دردار ضخمة، تضغط بكفِّها لحاءها الخشن المُحَزَّز حين يبدأ الألم في أسفل ظهرها، عميقًا بين ساقيها، ثم يندفع إلى الأعلى مطبقًا عليها بين فكَّيه، يهزُّها بقوة.

حالما تكون قادرة، تحمل حملها وتتابع السير. تصل إلى تلك الناحية من الغابة التي تقصدها. تشقُّ طريقها بين الأغصان وشجيرات العُلَّيق والعَرْعَر الشائكة الكثيفة. تقصد النبع، تتجاوز أجمة من أشجار البَهْشِيَّة التي تمنح لونها الوحيد في أشهر الشتاء. ثم تظهر بقعة مفتوحةٌ ما ينفذ إليها ضوء الشمس، فيتشكَّل نسيج ناعم من العشب الأخضر في أشكال دائرية، من أوراق السرخس المنحنية. توجد هنا شجرة أفقيَّة تقريبًا، شجرة تنُّوب ضخمة، مطروحة على الأرض، كعملاق في قصة، جذورها ممتدة إلى الخارج، جذعها الضارب لونه إلى الحُمْرة تسنده الأغصان المتفرعة لأشجار أخرى، حيث تعاضدها جاراتها من الأشجار الأصغر حجمًا.

وتحت طرفها، حيث كانت تقف على الأرض ذات يوم، يوجد تجويف، جاف، محجوب، كبير بما يكفي العديد من الأشخاص. اعتادت آغنس وبارثولوميو المجيء إلى هنا عندما كانا صغيرين، إذا صاحت فيهما جوان أو كلَّفتهما أعمالًا كثيرة. كانا يجلبان جِرابًا قماشيًّا يحوي خبزًا وجبنًا، يزحفان تحت جذور الشجرة ويقول أحدهما للآخر إنهما سيبقيان هناك إلى الأبد، سيعيشان في الغابة كالجان، ولن يعودا أبدًا.

تخفض آغنس جسدها إلى الأرض. المكان جاف في طرف الشجرة المقتلَعة المحجوب عن الريح، عليه بساط من إبر الصنوبر. تشعر بنوبة ألم أخرى آتية، تتجه نحوها، تقترب مثل هزيم الرعد فوق مشهد طبيعي. تستدير، تربض،

تلهث في أثناء الألم، لأنها تعرف أنها يجب أن تفعل ذلك، وهي تتشبث بأحد جذور الشجرة. حتى في نُوَب الألم، عندما تكون في قبضة الألم، عندما يبعد كلَّ شيء عن عقلها إلا تركيزها الشديد على وقت انقضائه، تدرك أنه يصير أقوى. إنه أمرٌ جِدٌّ، هذا الألم. لن يتركها وشأنها. عاجلًا لن يتركها تستريح أو تستجمع قواها. يقصد أن يخرجها من نفسها، أن يقلب ما في الداخل إلى الخارج.

رأت نساء يخبرن هذا. تتذكَّر زمن أمِّها: رأت الأمر من عتبة الباب، سمعته من خارج البيت حيث أُرْسِلَت هي وبارثولوميو. لازمت جوان في كل ولادة، ممسكة إخوتها وأخواتها بيديها وهم يدخلون العالم، ماسحة الدهون والدماء عن أفواههم وأنوفهم. رأت جاراتها يفعلن ذلك، سمعت بكاءهن يعلو إلى صراخ، شمَّت رائحة العملة الصدئة للولادة الجديدة. رأت الخنزيرة، والبقرة، والنعجة وهي تلد صغارها، وكانت هي من يدعوها أبوها وبارثولوميو عندما تعلق الحُمْلان. يجب أن تدخل أصابعها الأنثوية النحيلة الدقيقة الأطراف في تلك القناة الضيقة الساخنة الزلقة، وتُخْرِج الحوافر الناعمة، والأنف اللزج، والأذنين الخلفيتين الملتصقتين. وتعرف، على النحو الذي تعرفه دائمًا، أنها ستبلغ الجانب الآخر من الولادة، أنها وهذا الطفل سيعيشان.

ومع ذلك، لا شيء كان يمكنه أن يهيِّئها لهذا العناء. إنه أشبه بمحاولة الوقوف في عاصفة، بمحاولة السباحة عكس تيار نهر فائض، بمحاولة رفع شجرة ساقطة. لم تكن أشد وعيًا بضعفها، بعدم كفايتها من الآن. طالما شعرت أنها شخص قوي: يمكنها دفع بقرة لتتخذ وضع الحَلْب، يمكنها غمر حِمْلٍ من الثياب المُعَدَّة للغَسْل وتقليبه، يمكنها رفع إخوتها الصغار وحملهم، يمكنها حَمْل حزمة جلود، دلو ماء، حفنة من الحطب. جسدها يتمتع بالمرونة

والقوة: لها عضلات تحت الجلد الناعم. لكنَّ هذا شيء آخر. شيء آخر. يهزأ بمحاولاتها في التغلُّب عليه، في إخضاعه، في تجاوزه. تخشى آغنس أن يتفوَّق عليها. سيمسك بخناقها ويغرقها في الأعماق، تحت سطح الماء.

ترفع رأسها فترى عبر البقعة المفتوحة جذعَ شجرةِ روان فضي اللون وأوراقَها الناعمة. على الرغم من كل شيء، تبتسم. تقول الكلمة لنفسها -روان، روان- مادَّةً المقطعَين. للشجرة توتٌ أحمر في الخريف يُستخدم لآلام المعدة وسعال الصدر إذا غُلِيَ، وإذا زُرع عند باب البيت سيبعد الأرواح الشريرة عن قاطنيه. يقول الناس إنَّ أول امرأة خُلِقت من أغصانها. كان هذا اسمَ أمِّها، قال لها أبوها الراعي عندما سألته، مع أنَّ شفتيه لم تنطقا به. أغصان أشجار الغابة.

تغرس آغنس يديها أمامها جاثيةً على أطرافها الأربعة، مثل ذئب، وتستسلم لنوبة ألم أخرى.

في شارع هنلي، يستيقظ. يمكث بعض الوقت محدِّقًا إلى الستارة الغامقة الحُمْرة فوقه. ثم ينهض، يسير إلى النافذة ويرنو إلى الشارع، حاكًّا لحيته بشرود. لديه درسان في اللاتينية هذا الأصيل في بيوت في البلدة، يدرك رتابتهما الخانقة مثلما يدرك المرء نتانة جيفة على مقربة. الصِّبية الناعسون، صرير الألواح، خفْق أوراق كتب القراءة وانثناؤها، ترديد الأفعال وتصريفها. هذا الصباح مطلوب منه أن يساعد والده على التسليم والتحصيل. يتثاءب، يميل برأسه على إطار النافذة الخشبي، يحملق إلى رجل يسحب حمارًا من لجامه، امرأة تشدُّ طفلًا باكيًا من سترته، صبي يعدو في الاتجاه المعاكس حاملًا حزمة

حطب تحت ذراعه.

يسأل نفسه، هل سيظلان هنا في هذه البلدة إلى الأبد؟ ألن يرى أبدًا مكانًا آخر، ألن يعيش أبدًا في مكان آخر؟ لا يريد شيئًا أكثر من الإمساك بآغنس والطفل والهرب معهما إلى أبعد مكان يمكنهم الوصول إليه. عندما تزوَّج، حسب أنَّ حياة أرحب وأكثر حرية ستبدأ، حياة رجل، ومع ذلك ها هو ذا، يفصله حائط فحسب عن بيت صباه، وعائلته، وأبيه ونزواته ومفاجآت مزاجه المتقلِّب. يعلم قطعًا أنَّ عليه انتظار الطفل، أنه لا شيء يمكن إنجازه إلى أن يحين وصول الطفل الآمن. أمَّا الآن وقد دنا الوقت، فلم تتقدَّم خطته للمغادرة. كيف له أن يبتعد؟ هل قُدِّر لهما العيش على هذا النحو، في بيت ضيِّق مُلْحَق بمنزل والديه؟ أما من مهرب لهما؟ تقول آغنس إنه يجب أن....

التفكير في آغنس يجعله يعتدل واقفًا. ينظر إلى جانبها من السرير، حيث الفراش ما زال يحمل أثر جسدها، شكله. ينادي باسمها. لا شيء. ينادي مرة أخرى. لا شيء. تعبر عقله، لحظةً، صورةُ جسدها في هيئته الحالية المذهلة، مثلما رآه الليلة الفائتة: الأطراف، القفص الصدري الدقيق، العمود الفقري الممتد حتى أسفل الظهر، كمسار عربة يد على الثلج، ثم هذه الكرة ذات المقدّمة المستديرة تمامًا. مثل امرأة ابتلعت القمر.

يرفع ثيابه عن الكرسي المجاور للنافذة ويلبسها متلوِّيًا. يشقُّ طريقه في الغرفة بقدميه المُجَوْرَبتين نافضًا شعر رأسه عند ارتدائه طوق قميصه. يزمجر الجوع في بطنه زمجرة خافتة متوعِّدة، كأنَّ كلبًا يجثم داخل جسده. سيكون في الطابق السفلي خبز وحليب، شوفان وبيض إذا كانت الدجاجات قد باضت. يكاد يبتسم وهو يفكِّر في هذا. بينما يعبر قرب منضدته الموضوعة في زاوية، يلوح له من مؤخِّر عينه أنَّ شيئًا فيها قد تبدَّل. شيء تغيَّر. يتوقَّف. تستقر الريشة في الدَّواة، طرفها يتجه إلى الأسفل، ريشها المورق يتجه إلى

الأعلى. يعبس. هذا شيء لا يفعله هو أبدًا: أن يترك ريشة على هذا النحو، طوال الليل، في دواة مظلمة رطبة. يا له من تبذير! يا له من إسراف! ستتلف تمامًا.

يخطو إلى الأمام ويرفع الريشة، يهزُّها برفق حتى لا تسقط القطرات على الصفحات المجعَّدة. ثم يلاحظ أنَّ شيئًا أُضيف إلى ما كتبه في الليلة السالفة.

إنه خيط من الحروف المكتوبة بشكل مائل، تبدو الكلمات كأنها تنزلق إلى أسفل الصفحة، كأنها تزن في نهاية الجملة أكثر مما تزن في بدايتها. ينحني لينظر. لا توجد علامات ترقيم، ولا إشارة إلى بداية أو نهاية. يمكنه تمييز كلمتي «أغصان» و«مطر» (كُتبت «ماطار»)، وثمَّة كلمة أخرى تبدأ بحرف ك وأخرى بحرف س أو ربما ش.

أغصان شيء ما هي شيء... مطر. لا يستطيع الفهم. تمسك أصابعه بالصفحة. بيده الأخرى يمرِّر طرف الريشة على وجنته. الأغصان، الأغصان.

لم تفعل زوجته هذا من قبل قطُّ، أن تأخذ ريشة وتكتب شيئًا على منضدته. أهو رسالة إليه؟ أهي مهمة ليفهمها؟ ماذا تعني؟

يضع الريشة. يستدير. ينادي باسمها مرة أخرى بنبرة استفهام. يهبط السلالم الضيقة.

ليست في غرفة الطابق السفلي ولا في الخارج في الشارع. أتراها ذهبت إلى الكاهن لتطيِّر عوسقها مثلما تفعل في بعض الأحايين؟ لكنْ مؤكَّد أنها لن تكلِّف نفسها عناء المشي بعيدًا إلى هذا الحد، ووقت ولادتها وشيك جدًّا؟ يخرج من الباب الخلفي إلى الفناء حيث يجد أمَّه واقفة على رأس إليزا التي تغمس قطعة قماش داخل صبغ أحمر وتخرجها.

«هل رأيت آغنس؟»

«ليس هكذا»، تقول أمُّه موبِّخة. «الطريقة التي علَّمتكِ إياها البارحة، بأصابع خفيفة. خفيفة قلتُ.» ترفع رأسها لتنظر إليه. تكرِّر: «آغنس؟»

الطفلة حيَّة: لا تدرك آغنس، على الرغم من الإشارات، إلى أي مدى يمكن ألَّا يكون الأمر كذلك إلى أن ترى الطفلة تدير رأسها وتستحيل ملامحها صرخة غضب. وجه ابنتها مبلَّل، ضارب لونه إلى الرمادي، عليه تعبير فزع. ترفع قبضتيها قرب وجهها وتطلق صراخًا عاليًا على نحو مدهش وحازم بالنسبة إلى مخلوق صغير جدًّا. تديرها آغنس على جنبها مثلما كان أبوها يفعل دائمًا مع الحملان، وترقب الماء -من ذلك المكان الآخر حيث كانت في هذه الشهور الطويلة- يتسرَّب من فمها. تتخضَّب شفتاها باللون الوردي ثم يمتد اللون إلى وجنتيها، وذقنها، وعينيها، وجبينها. فجأةً تبدو إنسانًا كاملًا. ما عادت مائية، ولا حورية بحر مثلما كانت عندما خرجت، بل شخصًا صغيرًا، تشبه نفسها إلى حدٍّ كبير، لها جبهة أبيها العريضة، وشفته السُّفلية، وشعره المُلتفّ على مُقَدَّم رأسها، وعظمتا وجنتي آغنس الحادتان وعيناها الواسعتان.

تمدُّ يدها الأخرى وتخرج الدثار والمقص من السَّلَّة. تضع الطفلة على الدثار وتُعمِل المقص في الحبل السُّرِّي. من يحسب أنه يمكن أن يكون سميكًا جدًّا ، قويًّا جدًّا على هذا النحو، وما زال ينبض كأنه قلبٌ طويل مخطَّط؟ ألوان الولادة باغتت آغنس: الأحمر، الأزرق، الأبيض.

تزيح قميصها كاشفة ثديها، رافعة الطفلة إليه، وتراقب بشيء قريب من الرهبة ابنتها فاتحةً فمها على اتساعه، وهي تتشبَّث وتشرع في الرضاعة. تفلت آغنس ضحكًا. الأمر كله ينجح. الطفلة تعرف ما تفعل، أفضل منها.

بعد ذلك بوقت قصير، يعقب هذا في البيت، في البلدة كلِّها، ضجيج وعجيج، ذعر وعويل. إليزا تذرف الدموع، وماري تصرخ راكضةً على السلالم صعودًا ونزولًا في البيت الضيق، كأنَّ آغنس تختبئ في خزانة. تواصل الصراخ، لقد أعددت كلَّ شيء لها، غرفة الولادة، كلَّ شيء تحتاج إليه، هنا. يندفع جون داخل المعمل وخارجه، ويزأر قائلًا إنه لا يمكنه العمل وسط هذه الجلبة كلها، ثم، يا للشيطان! أين ذهبت؟

يُرسَل ند، المتدرِّب، إلى هيولَندز ليستخبر عنها. لا أحد يستطيع العثور على بارثولوميو الذي خرج في الصباح الباكر، لكن سرعان ما تخرج جميع الأخوات وجوان والجيران والقرويون بحثًا عن آغنس. هل رأيت امرأة حبلى تحمل سلَّة؟ مشت الأخوات ذهابًا وإيابًا في الزقاق سائلات كل من يقابلنه. لكن لم يرها أحد، إلا زوجة الخبَّاز التي قالت إنها سارت في اتجاه طريق شوتري. ضربت كفًّا بكف وألقت مئزرها على رأسها قائلة: لماذا تركتها تذهب، لماذا، وقد عرفت أنَّ خطبًا ما هناك؟ أُرسِل غلبرت وريتشرد إلى الطرقات لسؤال المارَّة، لمعرفة ما إذا كان هناك شخص ما يحمل أية أخبار.

والزوج؟ هو من يجد بارثولوميو.

عندما يلمحه بارثولوميو على الطريق الممتد على حافة أرضه الخارجية، يلقي أرضًا حزمة القش التي يحملها ويتقدَّم نحوه. يشحب الفتى -لا يسع بارثولوميو التفكير فيه إلا كفتى، صبي من البلدة ناعم اليدين، له شعر مسترسل إلى الوراء، ويضع قرطًا في أذنه- إذ يراه آتيًا عبر الحقل. تصل إليه الكلاب أوَّلًا وتحيط به وتنبح.

«ماذا؟» يسأل بارثولوميو بإلحاح وهو يقترب ليسمعه. «هل وضعت مولودها؟ هل كل شيء على ما يرام؟»

يقول الزوج: «آه، الحال ليس على ما يرام، إذا يمكن أن نسميه...»

تمسك أصابع بارثولوميو بمقدمة سترة الزوج. يقول: «تكلَّم بوضوح، الآن.»

«اختفت. لا نعلم أين هي. أحدهم رآها في وقت مبكِّر من هذا الصباح وهي تسير في هذا الاتجاه. هل رأيتها؟ هل لديك أي فكرة عن مكان...»

«لا تعلم أين هي؟» يكرِّر بارثولوميو. يحدِّق إليه وقتًا طويلًا، تشتد قبضته على سترته، ثم يتكلَّم بصوت هادئ متوعِّد: «ظننتُ أنني كنت واضحًا جدًّا. قلت لك أن تعتني بها. ألم أقل ذلك؟ قلت لك إنَّ عليك أن تعتني بها جيدًا. أفضل عناية.»

«إني أفعل! أعتني بها!» يكافح الزوج في قبضته، لكنه أقصر من بارثولوميو بما لا يُقاس، فذاك رجل عملاق، له يدان كأنهما قَصْعَتان وكتفان كأنهما شجرة بلُّوط.

فجأةً ودونما سابق إنذار، تطنُّ نحلة بينهما، يشعران بحركتها على وجهيهما. يمدُّ بارثولوميو يده غريزيًّا ليبعدها، فينتهز الزوج الفرصة لينتزع نفسه من قبضة بارثولوميو.

يندفع جانبًا، برشاقة، مستعدًّا، منتصبًا على قدميه.

«اسمع»، يقول من حيِّزه الجديد رافعًا يديه مخالفًا بين قدميه، «لا أريد العراك معك...»

على الرغم من كل شيء، يودُّ بارثولوميو أن يضحك. فكرة انخراط هذا

المعلِّم الشاحب الوجه في عراك مجرَّد معه تبدو سخيفة. يقول: «اللعنة! مؤكَّد أنك لا تريد ذلك.»

«لدينا الغاية نفسها في عقلينا هنا»، يقول الزوج ذارعًا المكان جيئة وذهابًا. «أنت وأنا. ألا ترى ذلك؟»

«أية غاية تلك؟»

«كلانا يودُّ العثور عليها. أليس كذلك؟ التيقُّن من أنها في أمان. والطفل.»

لدى ذكر سلامة آغنس -والطفل- اشتد غضب بارثولوميو مرة أخرى، كقِدْر يغلي.

يغمغم: «أتعلم، لم أفهم قطُّ سبب تفضيل شقيقتي إيَّاك على الآخرين. ما الذي يجعلك تتزوجينه؟ قلت لها. ما نفعه؟» يأخذ بارثولوميو هراوته ويضعها مباشرة بين قدميه. «أتعرف ما قالته لي؟»

يهزُّ الزوج رأسه واقفًا منتصبًا كقصبة الآن، ذراعاه مطويَّتان، وشفتاه مزمومتان. «ماذا قالت؟»

«إنك تختبئ بعيدًا في أعماقك أكثر من أي شخص آخر قابلته.»

يحملق الزوج، كأنه لا يستطيع تصديق ما يسمع. وجهه مكروب، موجوع، مدهوش. «هل قالت ذلك؟»

يومئ بارثولوميو برأسه. «والآن، لا يمكنني التظاهر بفهم اختيارك زوجًا لها، لكنني أعرف شيئًا واحدًا عن أختي. أتريد أن تعرف ما هو؟»

«بلى.»

«نادرًا ما تكون مخطئة. بشأن أي شيء. وهذا نعمة أو نقمة، حسب السائل. لذلك إذا اعتقدَت ذلك عنك، فثمَّة احتمال أنه صحيح.»

يقول الزوج: «لا يمكنني التكهُّن بها إذا كان...»

يتابع بارثولوميو مقاطعًا إياه: «ليس الأمر مهمًّا، في كلتا الحالين، في هذه اللحظة. عملنا الآن هو العثور عليها.»

لا يقول الزوج شيئًا، لكنه ينحني إلى الأرض، رأسه بين يديه. حين يتكلَّم، يخرج صوته مكتومًا. «كتبت شيئًا على ورقة قبل مغادرتها. لعلَّه كان ضربًا من رسالة إليَّ.»

«ماذا قالت؟»

«شيء عن المطر. والأغصان. لكنني لم أستطع فهمه بوضوح.»

يتأمَّله بارثولوميو ثانية أو ثانيتين، مقلِّبًا هذه الكلمات مرارًا وتكرارًا في عقله. مطر وأغصان. أغصان. مطر. ثم يرفع هراوته ويدسُّها في حزامه.

يقول: «انهض.»

ما زال الزوج يتحدَّث، إلى نفسه أكثر من أي شخص آخر. يقول: «كانت هناك هذا الصباح ثم لم تكن هناك، تدخَّلت الأقدار وجرفتها بعيدًا عني، كأنها في تيَّار، ولا فكرة في ذهني عن كيفية العثور عليها، لا أعرف أين أبحث و...»

«أنا أعرف.»

«... لن أستريح حتى أجدها، حتى نكون...» يكفُّ الزوج فجأة ويرفع رأسه. «تعرف؟»

«أجل.»

«كيف؟» يسأل بإلحاح. «كيف يمكنك أن تفهم عقلها بهذه السرعة ومع ذلك، أنا زوجها لا يمكنني البدء...»

يسأم بارثولوميو من هذا. يكِز ساق الزوج بحذائه. يقول: «انهض أقول لك، تعال.»

يخفُّ الفتى واقفًا وينظر إلى بارثولوميو نظرة احتراس. «إلى أين؟»

«الغابة.»

يضع بارثولوميو إصبعيه في فمه دون أن يرفع عينيه عن وجه الفتى، ويصفر لكلابه.

تغفو آغنس في مكان ما بين اليقظة والنوم ضامَّةً الطفلة إلى صدرها، عندما يجدهما بارثولوميو.

سار عبر الحقول تلحقه كلابه، الزوج في أعقابه ما زال يئن وينوح، ووجدها هنا حيث ارتاب في أنها يمكن أن تكون.

«لا بأس»، يقول وهو ينحني ليرفعها إلى ذراعيه، لا تهمه الفوضى والرائحة ومسائل الولادة. «لا يمكنك البقاء هنا.»

تعترض قليلًا، وهي ناعسة، لكنها بعد ذلك تميل برأسها على صدر شقيقها. يلاحظ أنَّ الطفلة على قيد الحياة وأنَّ وجنتيها تعلوان وتنخفضان. إنها ترضع إذًا. يومئ بارثولوميو برأسه لنفسه.

يلحق بهما الزوج الآن مثيرًا هرجًا ومرجًا لحظةً، مومئًا، شادًّا شعره، صوته يعلو، مردِّدًا الكلمات تلو الكلمات وسط الأشجار. يقول إنه سيحملها، وما جنس المولود، أبنت أم صبي، وماذا كانت تعتقد عندما هربت هكذا، وسبَّبت الذعر للجميع، ولم تكن لديه أي فكرة عن المكان الذي ذهبت إليه. يفكِّر بارثولوميو في تسديد ركلة إليه، لإسكاته، لإسقاطه على الأرض

الخصبة المعشوشبة المبلَّلة، لكنه يتمالك نفسه. يحاول الزوج أخذ آغنس منه، لكنَّ بارثولوميو يبعده كما يبعد ذبابة مزعجة.

يقول للفتى: «احمل أنت السَّلَّة.» ثم يضيف من خلفه وهو يبتعد: «إن لم تكن ثقيلة عليك.»

مكتبة
t.me/soramnqraa

لكي يصل الوباء إلى وورِكْشَر في إنكلترا في صيف عام 1596، ينبغي أن يقع حدثان في حياة شخصين منفصلين، ثم ينبغي أن يلتقي هذان الشخصان.

الأول زَجَّاج في جزيرة مورانو بمقاطعة البندقية، والثاني غلامٌ خادم على متن سفينة تجارية تبحر إلى الإسكندرية في صباح دافئ على نحوٍ غير معتاد تهبُّ فيه رياح شرقية.

قبل أن تلزم جودث فراشها بعدَّة أشهر، بينما تتحوَّل السنة من سنة 1595 إلى سنة 1596، يندلع في مصنع الزُّجاج عراكٌ بين الوقَّادين مُشتِّتًا لحظةً انتباهَ السيِّد الزَّجَّاج البارع في نَظْم طبقات من خمسة ألوان أو ستة لصنع الخَرَزات الزجاجية التي على شكل النجمة أو الزهرة المعروفة بميليفوري. تزِلُّ يده عن مكانها فتدخل اثنتان من أصابعه اللَّهبَ الأبيض الثائر الذي أحمى قبل لحظة المصباحَ الزجاجي ليستحيل علكة مرنة قابلة للمط. الألم شديد جدًّا إلى درجة أنه يتخطَّى الإحساس، ولا يشعر به في البداية أبدًا، لا يستطيع التفكير في ما يحدث، لماذا يحدِّق الجميع، ثم يهرولون نحوه. ثمَّة رائحة لحم مشوي، صراخ يكاد يكون كلبيًّا لشدته، هياج حوله.

النتيجة، في وقت تالٍ من ذلك اليوم، عضوان مبتوران.

ثم في اليوم التالي يكون أحد رفاقه العمَّال هو من يحزم الخَرَز الصغير الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر والأرجواني ويضعه في صناديق. هذا الرجل لا يعرف أنَّ السيِّد الزَّجَّاج -في بيته الآن، مضمَّدٌ وذاهبٌ في غيبوبة

مخدِّرة بفعل شراب الخشخاش- عادةً ما يحفظ الخرز ويغطيه بنشارة الخشب والرمل لمنع الكسر. بدلًا من ذلك، يلتقط حفنة من الخِرَق التي على أرض مصنع الزجاج ويدسُّها بين الخرز وحوله، فيبدو مثل مئات من العيون الصغيرة المتحفِّزة المُتَّهِمة محدِّقةً إليه.

في الإسكندرية، في اللحظة نفسها تمامًا، عبر البحر الأبيض المتوسط، يجب أن يغادر الغلام سفينته لتصاب جودث بالوباء ولتبدأ مأساة في منتصف الطريق عبر العالم. يجب أن يتلقَّى أوامر بالذهاب إلى الشاطئ وجلب بعض المؤونة لرفاقه الجوعى المنهكين.

وهكذا يفعل.

يهبط سُلَّم السفينة متشبِّثًا بالمحفظة التي أعطاه إياها الضابط البحري، إضافةً إلى ركلة سريعة قاسية على المؤخرة، تفسِّر مشية الفتى العرجاء المائلة.

رفاقه من أفراد الطاقم ينزلون صناديق القرنفل الماليزي والنيل الهندي من السفينة قبل أن يحمِّلوها بجوالق البُن وحُزَم المنسوجات.

يبدو رصيف المرفأ تحت قدمي غلام السفينة راسخًا وصلبًا على نحوٍ مربك بعد أسابيع في البحر. ومع ذلك، يمضي مترنِّحًا نحو ما يبدو له حانة، مارًّا بكشك يبيع مكسَّرات مُتبَّلة، وبامرأة تحمل ثعبانًا حول عنقها.

يقف ليشاهد رجلًا معه قرد رُبط بسلسلة ذهبية. لماذا؟ لأنه لم ير قردًا قطُّ من قبل. لأنه يحب الحيوانات باختلاف أنواعها. لأنه، بعد كل شيء، ليس أكبر بكثير من هامنت الذي يجلس في هذه اللحظة تحديدًا في صفٍّ دراسي بارد مراقبًا المعلم وهو يوزِّع كتب الشعر اليوناني اللدائنية[1].

---

(1) الكتاب اللدائني: كتاب أولي لتعليم القراءة يتألف من ورقة واحدة محفوظة ضمن غلاف لدائني أو بلاستيكي شفَّاف. (المورد الأكبر)

القرد الذي في ميناء الإسكندرية يرتدي سترة حمراء صغيرة وقبعة باللون نفسه، ظهره منحنٍ وناعم كظهر جرو، لكنَّ وجهه معبِّر، وبشري على نحو غريب وهو يحدِّق إلى الصبي.

ينظر غلام السفينة -فتى صغير من عائلة مانيَّة- إلى القرد وينظر القرد إلى الغلام. يميل الحيوان برأسه، عيناه لامعتان كخرزتين، ويهذر برفق بصوت مهتز قليلًا، رقيق ويشبه صوت المزمار. يذكِّر الصبيَ بآلة يعزف عليها عمُّه في اللُّمة في جزيرة مان، ولحظةً يعود إلى احتفال أخته الطقسي[1]، إلى زفاف ابن عمِّه، يعود إلى مطبخه الآمن في الوطن، حيث أمُّه تنزع أحشاء سمكة قائلةً له أن ينتبه إلى حذائه، أن ينظِّف مقدِّمة قميصه، أن يأكل الآن. حيث عمُّه يعزف على نايِه والجميع يتحدَّث اللغة التي نشأ عليها، ولا أحد يصرخ في وجهه أو يركله أو يقول له ما يفعل، وبعد ذلك قد يكون هناك رقص وغناء.

تترقرق الدموع في عيني غلام السفينة، والقرد الذي ما زال يتأمَّله بنظرة إحساس وإدراك، يمدُّ إليه يده.

أصابع يد القرد مألوفة وغريبة للصبي في آن واحد. سوداء ولامعة كجلد حذاء، بأظافر كبذور التفاح. لكنَّ كفَّه خشنة، تمامًا مثل كفِّ الصبي، وهناك، هناك تحت أشجار النخيل المصطفة على الرصيف، ينساب بينهما فيض التعاطف الذي يمكن أن ينساب بين إنسان وحيوان. يشعر الصبي بالسلسلة الذهبية كأنها حول عنقه، يرى القردُ حزنَ الصبي، شوقه إلى وطنه، الكُدُوم على ساقيه، البثور والتَّيبُّس على أصابعه، الجلد المتقشِّر على كتفيه من لفح الشهور القاسية تحت شمس المحيط.

---

(1) احتفال ديني يُقام في بعض الكنائس على شرف النسوة اللاتي وضعن مواليد جديدة. (المورد الأكبر)

يمدُّ الصبي يده إلى القرد، فيسمك القرد بها. قبضته قوية على نحو مدهش: تتحدَّث عن الإلحاح، عن سوء المعاملة، عن الحاجة، عن التَّوق إلى الرفقة الطيبة. يتسلَّق القرد ذراع الصبي مستخدمًا أطرافه الأربعة كلَّها، ثم إلى كتفيه وعلى رأسه حيث يجلس ويحشر كفَّيه في شعر الصبي.

ضاحكًا يرفع الصبي يده ليتيقَّن مما يحدث. أجل، ثمَّة قرد يجلس على رأسه. يشعر بأنه مفعم برغبات متصارعة شتَّى: أن يعدو على رصيف الميناء ويصيح برفاقه: انظروا إليَّ، انظروا، أن يخبر شقيقته الصغيرة بهذا، أن يقول: لن يخطر ببالكِ أبدًا ما حدث معي، قرد جلس على رأسي، أن يحتفظ بالقرد لنفسه، أن يندفع بعيدًا، أن ينتزع السلسلة من يد الرجل ويصعد على سُلَّم السفينة ويختفي فيها، ويهزهز هذا المخلوق بين يديه إلى الأبد، لا يتركه أبدًا.

يخفُّ الرجل واقفًا على قدميه ويشير إلى الصبي. له جلد أجرب ونَدِب، فم مليء بأسنان سوداء، عين لا تطابق نظيرتها تمامًا، لا في الاتجاه ولا في اللون. يفرك أصابع يده، باللغة العالمية التي تعني: المال.

يهزُّ الصبي رأسه. يتشبَّث به القرد أكثر، ويلفُّ ذيله حول رقبته.

ينحني الرجل ذو الجلد الأجرب النَّدِب ويمسك بذراع الصبي. يكرِّر إشاراته. المال، يلح، المال. يشير إلى القرد، ثم يومئ مرة أخرى.

مرة أخرى، يهزُّ الصبي رأسه، يزمُّ شفتيه، يضع يده على المحفظة المربوطة بحزامه ليحميها. يعلم ما سيحل به إذا عاد إلى السفينة دون طعام، دون جعة. سيحمل ذكرى سَوْط الضابط البحري -جُلِد اثنتي عشرة مرة في مَلَقَا وسبع مرات في غالي وعشر مرات في مقديشو- إلى الأبد.

«لا»، يقول الصبي. «لا.»

يطلق الرجل سيلًا من الكلمات الغاضبة في وجه الصبي. اللغة التي

يتحدَّثون بها في هذا المكان المسمَّى بالإسكندرية تَخِز، تحزّ كحد سكين. يمدُّ الرجل يده ليمسك بالقرد الذي يهذر ثم يزعق زعيقًا موجوعًا عاليًا حادًّا، متشبِّثًا بشعر الصبي، وطوق قميصه، أظافره الصغيرة السوداء تخمش جلد عنقه.

الصبي الذي يكاد يبكي الآن يتمسَّك بصديقه الجديد. لحظةً، يمسك بقائمته الأمامية، بفرو المرفق الدافئ المستقر على راحة يده، ولكن بعد ذلك ينتزع الرجل السلسلة فيسقط القرد، صارخًا، من قبضة الصبي على الرصيف الحجري، حيث يستقيم واقفًا، ثم يُسْحَب مرة أخرى، يزحف خلف الرجل ويئن.

مذعورًا يراقب الصبيُّ الحيوان وهو يمضي، يراقب حَدَبَةَ ظهره، حركةَ كَفْلَيه محاولًا مواكبة سيِّده. يمسح الصبي وجهه، عينيه، يشعر بأنَّ رأسه عارٍ وخالٍ، ويتمنَّى لو استطاع استعادة اللحظة، لو أمكنه على نحوٍ ما إقناع الرجل بالسماح له بالاحتفاظ بالقرد. القرد ملك له: يقينًا، ألا يمكن أي شخص رؤية ذلك؟

ما لا يعرفه الصبي -لا يمكنه معرفته- أنَّ القرد يترك جزءًا من نفسه خلفه. في العراك، سقط ثلاثة من براغيثه.

يسقط أحد هذه البراغيث، غير مرئي، على الأرض حيث يسحقه الصبي عن غير قصد بباطن قدمه. يمكث الثاني حينًا من الوقت على شعر الصبي الرملي اللون شاقًّا طريقه إلى مقدَّم رأسه. وعندما يدفع الصبي ثمن قنِّينة من الجعة المحلية في الحانة يقفز البرغوث -قفزًا رشيقًا مقوَّسًا- من جبهته إلى كتف صاحب الحانة.

ثالث براغيث القرد يمكث حيث سقط، في أثناء قطعة القماش الحمراء

المربوطة حول عنق الصبي التي أهدتها إليه حبيبته في الوطن.

في وقت تالٍ، حينما يعود الصبي إلى السفينة ليلًا وقد تناول عشاء من بعض المكسَّرات المُتبَّلة وقرص خبز غريب، شكله يشبه فطيرة، يلتقط قطَّه المفضَّل من بين قطط السفينة، وهو حيوان معظمه أبيض لكنَّ ذيله مخطَّط، ويجعله يتمسَّح بعنقه. البرغوث، الذي ينتبه إلى وجود مضيف جديد، ينتقل من منديل عنق الصبي إلى عنق القط ذي الفرو السميك الأبيض.

هذا القط، الذي لا يكون على ما يرام، وبعينه السنورية التي لا تخطئ أولئك الذين يكرهونه، يقيم في اليوم التالي في أرجوحة نوم ضابط البحرية. عندما يقصد الضابط في تلك الليلة أرجوحته يلعن الحيوان الذي أصبح ميِّتًا حين يجده هناك، فيقلبه بفظاظة راكلًا إياه في المقصورة.

أربعة أو خمسة براغيث، أحدها الذي كان ينتمي إلى القرد ذات مرة، يبقى حيث رقد القط. برغوث القرد ذكي، عازم على بقائه ونجاحه في العالم. إلى ضابط البحرية الغاطِّ في نومه يشقُّ طريقه، وثبًا وقفزًا نحو إبطه الخصب والرطب، ليتخم نفسه بدمه الغني بالكحول.

بعد ثلاثة أيام، لدى عبور السفينة دمشق وتوجُّهها إلى حلب، يدخل مسؤول التموين مقصورة القبطان ويبلغه بأنَّ ضابط البحرية مريض ومعزول في الأسفل. يهزُّ القبطان رأسه وهو ما زال يفحص خرائطه وآلة السُّدْسِيَّة، ولا يفكِّر في الأمر أكثر من ذلك.

في اليوم التالي، يتلقى أنباءً وهو على سطح السفينة العلوي بأن ضابط البحرية يهذي وفمه يزبد، رأسه يترنَّح كثيرًا بسبب انتفاخ في عنقه. يعبس القبطان إذ يهمس مسؤول التموين بهذه الكلمات في أذنه، ثم يصدر أمرًا إلى طبيب السفينة بزيارة الرجل. بعد ذلك يضيف مسؤول التموين قائلًا: أوه،

ويبدو أنَّ العديد من قطط السفينة قد نفق.

يدير القبطان وجهه لينظر إلى مسؤول التموين. التعبير على وجهه تعبير نفور وحيرة. أتقول القطط؟ يومئ مسؤول المؤونة برأسه، باحترام، خافضًا عينيه. كم هو أمر غريب جدًّا!

يفكِّر القبطان لحظةً أطول، ثم يفرقع أصابعه ناحية البحر. القوا بها في البحر.

القطط النافقة، ثلاث كلها، تؤخذ من ذيولها المخطَّطة ،ويُلقَى بها في البحر الأبيض المتوسط. يراقب غلام السفينة من كُوَّة على ظهر السفينة ويمسح عينيه بوشاحه الأحمر.

بعد ذلك بوقت قصير، ترسو السفينة في حلب، حيث تفرغ المزيد من القرنفل وبعض القهوة والعديد من الجرذان التي تندفع إلى الشاطئ. يطرق طبيب السفينة باب مقصورة القبطان الذي يشاور ضابطه في شؤون الطقس والإبحار.

يقول القبطان: «آه، كيف حال الرجل... حسنًا، ضابط البحرية؟»

يحكُّ الطبيب تحت شعره المستعار ويكبح جُشْأة. «مات يا سيدي.»

يعبس القبطان فاحصًا الرجل، ناظرًا إلى شعره المستعار المُعْوَجّ، ورائحة الرُّوم القوية تفوح منه. «بسبب ماذا؟»

الطبيب الذي يصلح أكثر لتثبيت العظام وخلع الأسنان ينظر إلى الأعلى، كأنَّ الجواب يمكن العثور عليه على سقف المقصورة الخشبي المنخفض. «حُمَّى يا سيدي»، يقول بيقين سكِّير.

«حُمَّى؟»

«حُمَّى أفريقية»، يجمجم الطبيب، «برأيي. استحال كله أسود اللون، في بقع حول الأطراف وأيضًا في أماكن أخرى سأمسك عن ذكرها هنا في هذا المكان الصحي، ولذلك من الضروري أن أستنتج أنه مَرِض فجأةً و...»

«فهمت.» قاطعه القبطان منصرفًا عنه إلى خرائطه، فقد تعامل مع الأمر بقدر ما يعنيه.

يتنحنح الضابط الثاني. يقول: «علينا يا سيدي أن نتهيَّأ لدفنه في البحر.»

يُلَفُّ ضابط البحرية بملاءة ويُجْلَب إلى سطح السفينة. يغطِّي البحارة القريبون أنوفهم وأفواههم بخِرَق: رائحة الجثة كريهة جدًّا. يتلو القبطان تلاوة قصيرة من الكتاب المقدَّس، هو أيضًا في صراع مع رائحة الرجل الميِّت، على الرغم من ركوبه البحر خمسة وعشرين عامًا وحضوره عددًا من الجنائز المائية أكثر مما يمكنه أن يتذكَّر.

«باسم الأب»، ينطق القبطان رافعًا صوته فوق أصواتِ محاولات التقيُّؤ المكتومة في الخلف، «والابن والروح القدس، نستودع الأم هذا الجسد.»

«أنتما»، يومئ القبطان إلى البحَّارَين الأقرب إليه، «خذا الـ... قوما بـ... آه... نعم... في البحر.»

يندفعان إلى الأمام وبوجهين مُخْضَرَّين يرفعان الجثة إلى الأعلى ويلقيانها من ظهر السفينة.

يطوي سطحُ البحر الأبيض المتوسط الهائج المُتثنِّي جسدَ ضابط البحرية.

بحلول الوقت الذي يصلون فيه إلى القسطنطينية، حاملين طلب استلام شحنة من الفرو من الشمال، تموت القطط كلُّها وتصبح أعداد الجرذان مشكلة. تقضم الصناديق وتأتي على حصص اللحوم المجفَّفة، يقول الضابط الثاني للقبطان. كان هناك خمسة أو ستة عشرة منها في قمرة الطاهي هذا

الصباح. الرجال واهنو العزيمة، يقول وعيناه على خط الأفق خارج النافذة، والمزيد منهم سقط مريضًا بين ليلة وضحاها.

يموت رجلان آخران، ثم ثالث، ثم رابع. جميعهم بالحمى الأفريقية نفسها التي تُضخِّم العنق وتحيل الجلد أحمر ومتقرِّحًا وأسود في بعض الأماكن. يضطر القبطان إلى التوقُّف وقوفًا طارئًا في راغوزا لحمل مزيد من البحَّارة الذين لا يملك لهم مرجعًا ولا توصية، وهذا ضرب من عمل ملاحي متعجِّل يعوزه الإتقان يَسْتَحْسِن تجنُّبه.

عيون هؤلاء البحارة الجُدد ماكرة وأسنانهم ناتئة، كتومون ومُقِلّون كثيرًا في الكلام، لا يتكلَّمون إلا بلغة هي ضرب من اللغة البولندية. لا يثق بهم أفراد الطاقم المانيُّون حالما تقع عيونهم عليهم، ولا يتصلون بهم، ولا يشاركونهم المسكن عن طيب خاطر.

لكنَّ البولنديين بارعون في قتل الجرذان. يمارسونه كرياضة، يعلِّقون طعامًا على خيط، ثم يستلقون منتظرين بجاروف ضخم. عندما يظهر المخلوق -أملس، ببطن متدلٍّ، متخم بحصص البحَّارة من الطعام- يقفز البولنديون عليه صائحين مُغَنِّين، ويضربونه حتى الموت فيترشَّش دماغ الجرذ وأحشاؤه على الجدران والسُّقوف. ثم يقطعون أذيالها ويربطونها إلى أحزمتهم، ويمرِّرون بينهم سائلا أبيض في قنِّينة يشربه جميعهم.

يصيبك بالغثيان، يقول أحد البحَّارة المانيين لغلام السفينة ناظرًا عبر المقصورة. أليس كذلك؟ ثم يذبُّ عن عنقه وكتفه الحشرات، فالمكان تجتاحه البراغيث. الجرذان الملعونة، يتذمَّر قائلًا لنفسه وينقلب في أرجوحته.

في البندقية، لا يخطِّطون للرُّسُوِّ طويلا، فالقبطان متحمِّس لإعادة شحنته إلى إنكلترا، لينال تعويضًا، لينهي هذه الرحلة الشيطانية، ولكنه في أثناء

التفريغ والتحميل، يأمر غلام السفينة بالعثور على بعض القطط للسفينة. يقفز الغلام بحماسة إلى رصيف الميناء، فهو شديد التَّوق إلى مغادرة السفينة وسقوفها الضيِّقة المنخفضة ورائحة الجرذان والحمى والموت النتنة. اليوم حبست الحمى رجلين آخرين في قمرتهما، أحدهما مانِيّ مثله، والآخر بولندي، وحزامه المزيَّن بذيل الجرذ معلَّق بجانبه.

قبل ذلك، زار الصبي البندقية في رحلته الأولى، وهي مثلما يتذكَّرها: مكانٌ غريبٌ هجين، نصفه بحر ونصفه الآخر يابسة، حيث تغطِّي سلالمَ المنازل مياهٌ بلون اليَشْم الأخضر، ويضيء النوافذَ لهبُ الشموع الذائبة، حيث لا توجد شوارع، بل أزقة ضيقة، يفضي كلٌّ منها إلى الآخر في متاهة مُدَوِّخة، وجسور تدعمها أقواس. مكان يمكنك أن تضيِّع فيه طريقك بسهولة كبيرة بين الضباب والساحات ذات الزوايا والأبنية الشاهقة وأجراس الكنائس الرَّنَّانة.

لحظةً، يراقب الصبي أفرادَ الطاقم وهم يسحبون الصناديق والأجرِبة بينهم، يصيحون بخليط من المانيَّة والبولندية والإنكليزية. يدفع رجل بندقي عربة يد نحوهم محمَّلة بالصناديق، ويشرع هو الآخر في الصياح، بلهجة أهل البندقية. يومئ إلى البحَّارة، إلى صناديقه، ممسِكًا بعربته، ويرى الصبيُّ أنَّ الإصبعين الأُولَيين في يده مفقودتان، وباقي يده سطح غريب متغضِّن مثل شمع ذائب. إنه ينادي البحَّارة، مومئًا إلى السفينة بيده السليمة، إلى صناديقه، ويستطيع الصبي أن يرى أنَّ العربة توشك على الميل، وأنَّ الصناديق ستسقط عاجلًا على رصيف الميناء.

يثب الصبي إلى الأمام، يسوِّي العربة، يبتسم لوجه الرجل المدهوش ذي اليد المشوَّهة، ثم ينطلق مبتعدًا لأنه رأى تحت كشكٍ يبيع السمك الوجوهَ المثلَّثة للعديد من القطط ذات الشوارب.

يجهل كلاهما أنَّ البرغوث الذي أتى من القرد الإسكندري -الذي كان يتغذَّى في الأسبوع الأخير أو نحو ذلك على جرذ، وقبل ذلك على الطاهي الذي مات بالقرب من حلب- يقفز من الصبي إلى رُدْن السيد الزَّجَّاج، وعندئذ يشق طريقه صاعدًا إلى أذنه اليسرى ويعضُّه هناك خلف شحمة أذنه. لا يشعر به لأنَّ هواء القناة الضبابية البارد يجعل أطرافه فاقدة الإحساس، وهو لا غرض له إلا حمل صناديق الخرز هذه إلى متن السفينة، وتلقِّي المال، ثم العودة إلى مورانو حيث لديه العديد من الطلبات ليلبيها، ومؤكَّد أنَّ وقَّادي النار سيتشاجرون مرة أخرى في أثناء غيابه الوجيز.

بحلول الوقت الذي تدور فيه السفينة حول كعب صقلِّيَّة، يسقط الضابط الثاني مريضًا بالحمى الأفريقية، أصابعه أرجوانية وسوداء، جسده شديد السخونة إلى درجة أنَّ العرق يتصبَّب خلال عُقَد أرجوحته إلى الأرضية تحتها. يدفنونه في البحر مع رجلين بولنديين خارج نابولي.

عندما لا تقتل القططُ البندقيةُ الجرذان تظل وفيَّة لأصولها، وتختار النوم في المخزن على صناديق الخرز الآتية من مورانو. ثمَّة شيء ما يروق القططَ بوضوح في سطوح هذه الصناديق الخشبية، وفي أربطتها المعقودة، وفي علاماتها المطبوعة بالطباشير بلهجة البندقية على جوانبها.

لأنَّ المخزن لا يقصده كثير من الناس في غضون الرحلة، عندما تموت القطط -وتموت على التوالي، واحدةً تلو الأخرى- تبقى أجسادها غير مكتشفة على هذه الصناديق. البراغيث التي قفزت من الجرذان المحتضرة إلى فرو القطط المخطَّط تزحف إلى الأسفل داخل هذه الصناديق وتستقر في الخِرَق التي تغطِّي المئات من خرزات ميليفوري الصغيرة المتعدِّدة الألوان (الخِرَق نفسها التي وضعها رفيقُ السيد الزَّجَّاج العامل، الزَّجَّاج نفسه الذي يوجد الآن في مورانو حيث توقَّفت أعمال الزِّجاجة لأنَّ العديد من العمَّال

سقط مريضًا بحمى غامضة وشرسة).

في برشلونة، يقفز البولنديون الباقون من السفينة ويختفون في فوضى الميناء. يحزم القبطان أمره ويقول للرجال إنهم سيواصلون طريقهم بعددهم القليل. سيسلِّمون صناديق القرنفل والنسيج والقهوة ويبحرون.

يفعل الرجال ما يقال لهم. ترسو السفينة في قادس، ثم في پورتو، ثم في لا روشيل، وفي أثناء الطريق يُفقَد مزيد من الرجال، ثم يتجهون شمالًا، وأخيرًا إلى كورنوول. عندما يبحرون إلى لندن، ينخفض عدد أفراد الطاقم إلى خمسة.

ينطلق غلام السفينة ليعثر على سفينة متجهة إلى جزيرة مان، الوشاح الذي كان أحمر ذات مرة ما زال مربوطًا حول عنقه، والقطة البندقية الوحيدة الباقية على قيد الحياة مندسَّة تحت ذراعه. يتجه الرجال الثلاثة الآخرون إلى حانة في أقصى جسر لندن، ويطلب القبطان حصانًا يحمله إلى بيته وزوجته وعائلته.

الشحنة المفرَّغة والمكدَّسة في دائرة الضرائب تُوزَّع شيئًا فشيئًا في أنحاء لندن: القرنفل والتوابل والمنسوجات والقهوة للتُّجار لبيعها، الحرير للقصر، الآنية الزجاجية لتاجر في بيرموندسي، رُزَم النسيج لباعة الأنسجة والخُرْدة في أدلغَيت.

صناديق الخرز الزجاجي الذي صنعه الزَّجَّاج في جزيرة مورانو قبل أن تُصاب يده، تقبع على رفٍّ في مستودع ما نحو شهر. ثم يُرسَل أحدها إلى خيَّاط في شروزبيري، وثانٍ إلى خيَّاط في يورك، وآخر إلى صائغٍ في أوكسفورد. أمَّا الصندوق الأخير، أصغر المجموعة، الذي ما زال مغطًّى بخِرَق من أرض مصنع الزُّجاج في البندقية، فيُرسَل بواسطة رسول إلى نُزُل في طرف المدينة الشمالي، حيث يبقى أسبوعًا. ثم يحمله صاحب النُّزُل إلى الخارج، مع رزمة

رسائل وعلبة شرائط تُسلَّم إلى رجل متجه إلى وورِكْشَر على ظهر جواد.

يُرسِل خُرْجُه الجلدي صوتَ طقطقةٍ إيقاعيَّة وهو يمضي بجواده، تتدافع الخرزات مع حركة الحصان، فتنقلب ألوانها الستة وتدور وتدور مُحتكًّا بعضها ببعض. طوال يومي الرحلة، يسأل الرجل نفسه من دون اكتراث عمَّا يمكن أن يكون في الصندوق المغلَّف: ما الذي يمكنه أن يُصدر مثل هذا الصوت الواضح الدقيق؟

تنكسر خرزتان وتتهشَّمان بسبب ثقل نُسَخِها المقلَّدة. خمس خرزات تُخْدَش وجوهها على نحوٍ غير قابل للإصلاح. الخرزات الأثقل تشق طريقها شيئًا فشيئًا إلى الأسفل مع كل هزَّة يرسلها الحصان.

البراغيث في الخِرَق تزحف إلى الخارج، جائعة ومنهكة من إقامتها غير المضيافة في مخزن رصيف الميناء. لكنها سرعان ما تسترد عافيتها ونشاطها واثبةً من الحصان إلى الرجل ومن الرجل إلى الحصان، ثم تخرج إلى الأشخاص العديدين الذين يصادفهم الراكب في الطريق؛ امرأة تعطيه ربع غالون من الحليب، طفل يأتي ليربت حصانه، شاب في حانة على جانب الطريق.

بحلول الوقت الذي يبلغ فيه الراكب ستراتفرد تضع البراغيث بيضها، في أثناء سترته الضيقة، في عُرْف الفرس، في دَرْز السَّرج، في زركشة الشرائط ونسيجها، في الخِرَق المحيطة بالخرز. هذا البيض هو حفيد أبناء برغوث القرد.

يوصل الرجل الرسائل وعلبة الشرائط وصندوق الخرز إلى يد صاحب نُزُل في ضواحي البلدة. يُسَلِّم الرسائل إلى متلقِّيها واحدةً تلو الأخرى صبيٌّ مقابل فلس واحد (تصل إحداها مصادفةً إلى شارع هنلي، لأنَّ الزوج يكتب إلى عائلته يخبرها عن معصمه الذي التوى إثر سقوطه على بعض السلالم،

عن كلب يملكه صاحب البيت، عن المسرحية التي يوشكون على أدائها في جولة طوال الطريق إلى كنت). علبة الشرائط تستلمها، بعد يوم أو يومين، امرأة من إيفشم.

يدير الراكب جواده عائدًا إلى لندن ملاحظًا أنَّ الحركة تسبِّب له بعض الانزعاج: يبدو أنَّ هنالك بقعة رقيقة مؤلمة في إبطه. لكنه يتجاهلها ويستأنف طريقه.

الصبي حامل الرسائل نفسه يأخذ صندوق الخرز إلى خيَّاطة في شارع إلِي، طُلِب منها خِياطة ثوب جديد لزوجة رجل من البلدية سترتديه في سوق الحصاد. يقال إنَّ الزوجة زارت لندن وباث أيضًا، في زمانها، لذا لديها ذائقة راقية في الثياب. قالت للخيَّاطة إنها يجب أن يكون لها صدار مزيَّن بخرز البندقية، وإلا فلن يساوي الثوب شيئًا لها. لن يساوي شيئًا.

وهكذا أرسلت الخيَّاطة رسالة إلى لندن ومن هناك أُرسِلت الرسالة إلى البندقية، وانتظرت وانتظرت، وقلقت زوجة رجل البلدية من أن لا يصل الخرز في الوقت المناسب، فأُرسِلت رسالة ثانية إلى لندن ولم يأتِ جواب، ولكن ها هي ذي الخرزات.

تمدُّ الخيَّاطة يدها عبر الكُوَّة وتأخذ الصندوق من الصبي. توشك أن تفتحه عندما تدخل من الباب طفلة جيرانها، جودث، التي تساعدها على خياطة الثياب وتنسيق تضاعيفها الملوَّنة وقصِّ القماش.

ترفع الخيَّاطة الصندوق عاليًا. «انظري»، تقول للفتاة التي تبدو أصغر من سنِّها، وجميلة كملاك على نحوٍ لا يضاهيه شيء إلا الطبيعة.

تصفِّق الفتاة بيديها. «الخرزات من البندقية؟» هل هي هنا؟»

تضحك الخيَّاطة. «أحسب ذلك.»

«هل يمكنني أن أرى؟ هل يمكنني أن أنظر؟ لا أستطيع الانتظار.»

تضع الخيَّاطة الصندوق على المنضدة. «يمكنك أن تفعلي أكثر من ذلك. يمكنك أن تكوني من يفتحه. ستحتاجين إلى قَصِّ هذه الخِرَق العتيقة القذرة كلِّها. خذي المقص هناك.»

تناول الفتاةَ صندوقَ خَرَز ميليفوري، فتأخذه جودث، يداها متحمِّستان وسريعتان، ووجهها يشرق بابتسام.

ذات أصيل في صيف عام سوزانا الأول، تلاحظ آغنس رائحة جديدة في البيت.

تضع الطعام في فم سوزانا المنتظِر قائلة: هذه واحدة لك، وهذه أخرى، فتدخل الملعقة ممتلئة بالطعام وتخرج ملطَّخة ومتلألئة. تجلس سوزانا في ركن المائدة على كرسي كُدِّست عليه الوسائد. ثبَّتتها آغنس على هذا العرش بشال معقود. الطفلة جذلى، تلتف يداها الصغيرتان مثل صَدَفتي حلزونَين، عيناها ثابتتان على الملعقة إذ تنتقل من الطبق إلى فمها وتعود مرة أخرى.

«دات»، تصيح سوزانا، في فمها أربع ثنايا بيضاء ضاربة إلى الزرقة، تتوالى على لثَّتها السفلية.

تكرِّر آغنس الصوت وراءها. كثيرًا ما تجد نفسها غير قادرة على النظر بعيدًا عن طفلتها، على إبعاد نظرتها عن وجه ابنتها. لماذا تنظر إلى أي شيء آخر ويمكنها أن تمتِّع ناظريها بأذني سوزانا الشبيهتين بطيَّات الورد الشاحبة، بحاجبيها الرقيقين الممتدين كجناحين، بشعرها الأسود الملتصق بجبهتها كأنه مرسوم هناك بفرشاة؟ لا يوجد شيء أجمل من طفلتها، لا يمكن أن يضم العالم كائنًا أكمل منها في أي مكان آخر، أبدًا.

«دِيت»، تهتف سوزانا، وباندفاع رشيق وحازم تمسك بالملعقة فيتناثر الطعام على المائدة، على صدارها، على وجهها، على ثوب آغنس.

تجلب آغنس قطعة قماش لتمسح المائدة والمقاعد ووجه سوزانا المستنكِر، محاولةً تهدئة الغضب العاصف، عندما ترفع رأسها وتتنشَّق الهواء.

إنها رائحة رطبة، ثقيلة، لاذعة، كرائحة طعام متعفِّن أو ملاءة غير مُهَوَّاة. لم تشمها من قبل قطّ. لو كان لها لون، لكان أخضر ضاربًا إلى الرمادي.

قطعة القماش ما زالت بيدها، تستدير لتنظر إلى ابنتها. تمسك سوزانا بالملعقة، قارعةً بها المائدة بانتظام، تطرف عيناها مع كل قرع، شفتاها مزمومتان كأنَّ هذا الطَّرْق فعل يقتضي أقصى تركيز.

تشمُّ آغنس قطعة القماش، تشم الهواء. تضغط أنفها بكُمِّها، ثم بثوب سوزانا. تسير في أنحاء الغرفة. ما هذا الشيء؟ له رائحة أزهار ذابلة، رائحة نبات تُرِكَ طويلًا في الماء، رائحة بركة راكدة، أُشْنَة[1] رطبة. هل ثمَّة شيء رطب ومتعفِّن في البيت؟

تنظر تحت المائدة، فلعلَّ أحد كلاب غلبرت سحب شيئًا ما إلى الداخل. تجثو على ركبتيها لتنظر تحت الصندوق الخشبي. واقفة وسط الغرفة، تضع يديها على خصرها، جاذبةً نَفَسًا عميقًا.

فجأة تعرف شيئين. لا تعرف كيف تعرفهما: تعرفهما فحسب. لا ترتاب آغنس في لحظات البصيرة هذه، في كيفية وصول المعلومات إلى رأسها. تقبلها مثل شخص يقبل هدية غير متوقَّعة بابتسام كريم وإحساس بمفاجأة لطيفة.

تشعر بأنها حبلى. سيكون هناك طفل آخر في البيت بحلول نهاية الشتاء. طالما عرفت آغنس عدد الأبناء الذين ستنجبهم. حدست هذا: تعرف أنه

---

(1) نبات لا زهري يتألف من كائنين نباتيين، أحدهما طحلب والآخر فُطر، يكون على هيئة قشور أو صفائح أو فروع دقيقة لطيفة تنمو على الصخور أو الأحجار أو تتعلَّق بأغصان الأشجار. (المعجم الوسيط)

سيكون لها ابنان يقفان إلى جوار سريرها عندما تموت. وها هو الطفل الثاني الآن، هذه أولى علاماته، بدايته.

تعرف أيضًا أنَّ هذه الرائحة، هذه الرائحة النتنة، ليست شيئًا ماديًا. إنها تعني شيئًا. إنها إشارة إلى شيء ما، شيء سيء، شيء خاطئ، شيء غير متزن في بيتها. يمكنها أن تشعر به في مكان ما، ناميًا، متبرعمًا، مثل العفن الأسود الذي يتسلَّل من الجص في الشتاء.

تحيِّرها الطبيعة المتعارضة لهذين الشعورين. تشعر بنفسها وهي تتمدَّد في اتجاهين: الطفل شيءٌ جيد، الرائحة شيءٌ سيِّئ.

تسير آغنس عائدة إلى المائدة. تفكيرها الأول والوحيد هو في ابنتها. هل تنبعث رائحة الحزن هذه، ذات المادة القاتمة منها؟ تدسُّ آغنس وجهها في عنق الطفلة الدافئ وتتشمَّم. هل تنبعث منها؟ هل طفلتها، ابنتها تحت تهديد قوة ما محتشدة مظلمة؟

تصرخ سوزانا صراخًا طويلًا حادًّا، وقد فاجئها هذا الاهتمام قائلة: ماما، ماما، وتطبق ذراعيها حول عنق آغنس. تستطيع آغنس أن تشعر بأن يدي ابنتها ليستا طويلتين بما يكفي لتطوِّقاها، لذلك تتشبَّث أصابعهما القوية بكتفيها.

تتشمَّمها آغنس مثلما يقتفي كلبٌ أثرًا، بكلا منخريها، كأنها ترتشف جوهر ابنتها. تشم أثر عبير الكمثرى على جلد سوزانا، وشعرها الدافئ، رائحة أغطية السرير والطعام. لا شيء آخر.

ترفع جسد ابنتها الدائري الصغير قائلة إنها ستجلب شريحة خبز وكوب حليب، وتفكِّر في الطفل الجديد، يلتفُّ صغيرًا كجوزة داخلها، وكم ستحبه سوزانا وسيلعبان معًا، سيكون مثل بارثولوميو لها، صديقًا ورفيقًا وحليفًا،

دائمًا. هل سيكون صبيًّا أم بنتًا؟ تسأل آغنس نفسها، والأمر الغريب أنها لا تستطيع تحديد أي معنى للإجابة.

تقف سوزانا عند قدمي أمها التي تقطع شريحة خبز وتدهنها بالعسل. ثم تجلس في حجرها، لأنَّ آغنس تريدها قريبة منها، تريدها هناك تمامًا، في حال حاولت هذه الرائحة، هذه الظلمة الاقتراب. وتتكلَّم آغنس، لتشتِّت انتباه ابنتها، لتحميها من العالم. تصغي الطفلة إلى تيَّار الكلام الخارج من فم آغنس ملتقطةً الكلمات التي تعرفها، لتصيح بها عاليًا: خبز، كوب، قدم، عين.

تغنيان معًا أغنية عن تعشيش الطيور وطنين النحل، وعندئذ ينزل والد سوزانا من السلالم إلى الغرفة. تشعر به آغنس وهو يرفع كوبًا، يملأه بالماء من الإبريق، يشربه، ثم آخر وآخر. يمشي حولهما ويرتمي على كرسي مقابل.

تنظر إليه آغنس. تشعر بنفسها تشهق ثم تزفر، تشهق ثم تزفر، مثل شجرة تمتلئ بالريح. تعود الرائحة اللاذعة الرطبة. إنها أقوى. إنها هنا أمامهما مباشرة. تنبعث منه كدخان، تتكثَّف فوق رأسه في سحابة خضراء ضاربة إلى الرمادي. يسحبها معه، هذه الرائحة، كأنه مُغَلَّف بضبابها. تبدو كأنها تتفصَّد من جلده.

تفحص آغنس زوجها. يبدو أنه هو نفسه. أم أنه ليس كذلك؟ وجهه، ما تحت لحيته، كامدٌ، شديد الشحوب. جفناه يبدوان مرتخيين وتحت عينيه ظلال قرمزية. يحملق من النافذة، لكنه في الوقت ذاته لا يحملق. لا يبدو أنه يرى شيئًا أمامه. يده الأخرى المستقرة على المائدة بينهما يملأها الفراغ. إنه مثل صورة رجل، قماش رقيق لا شيء خلفه، إنه مثل شخص امتُصَّت منه روحه أو سُلِبت في الليل.

كيف يمكن أن يحدث هذا أمام ناظريها؟ كيف يمكن أن يكون قد بلغ

هذه الحال دونما سابق إنذار، دون أن ترى العلامات؟ هل كانت هنالك علامات؟ تحاول أن تفكِّر. أصبح ينام أكثر من المعتاد، هذا صحيح، وينفق وقتًا أطول في الخارج في الأمْسِيَة في الحانات رفقة أصدقائه. مضى وقت طويل منذ أن قرأ لها في الليل، على ضوء الشمعة، في فراشهما، لا تستطيع أن تتذكَّر آخر مرة فعل هذا. هل كانا يتبادلان الحديث، كما كان ديدنهما، قرب النار في الليل؟ تعتقد أنهما يفعلان ذلك، ربما أقل من المعتاد. لكنها مشغولة بالطفلة، بالبيت، بحديقتها، بالزائرين عند النافذة، وكان يواصل أصائله في التدريس وأصْبَاحه في قضاء حاجات أبيه. اعتقدت أنَّ الحياة جرفتهما معًا خطوة خطوة. والآن هذا ما يحدث.

ما زالت سوزانا تغنِّي، تصفِّق بيديها. على كلِّ مِفْصَل من مفاصل أصابعها نُقْرة مُتَحَفِّرة على العظم. الأغنية تدور وتدور، الأنغام الأربعة نفسها، الدَّندنة نفسها، تدور وتدور. واضحٌ أنَّ هذا لا يروقه لأنه يجفل ويغطِّي إحدى أذنيه بيده.

تعبس آغنس. تفكِّر في الطفل، هناك في بطنها، مُلْتَفًّا في الماء، مُصْغِيًا إلى كل ما يجري، مُتنفِّسًا هذا الهواء الفاسد، تفكِّر في ثقل سوزان الدافئ على حِجْرِها، تفكِّر في هذه السَّحابة الرَّمادية والعفونة الطالعة من زوجها.

هل هذا الزواج، هذه الطفلة، حياتهم معًا هي سبب ضيقه؟ هل سُكْنَاهم في هذا البيت يمتص الحياةَ منه على هذه الشاكلة؟ لا فكرة لديها. التفكير في هذا يملأها بالذعر. كيف لها أن تخبره عن الطفل الجديد في بطنها وهو على هذه الحال؟ قد يفاقم هذا من كآبته وهي لا تطيق أن تراه يستقبل نبأها بحزن، بأي شيء أقل من البهجة.

تناديه باسمه. لا رد. تناديه مرة أخرى. يرفع ذقنه وينظر إليها: وجهه مرعب لها. رمادي، منتفخ، لحيته شعثاء وغير مشذَّبة. كيف آلَ إلى هذه

الحال؟ كيف حدث ذلك؟ لِمَ لَمْ تلاحظ هذا التغيير قادمًا؟ ما الذي لم تره، أو اختارت ألّا تراه؟

تسأله: «أمريضٌ أنت؟»

«أنا؟» يقول، ويبدو أنه يمكث وقتًا طويلًا ليسمعها، ليُعِدَّ إجابة. «لا. لِمَ تسألين؟»

«لا تبدو على ما يرام.»

يتنهَّد. يفرك جبينه وعينيه. يقول: «لا أبدو على ما يرام؟»

تقف، ناقلةً سوزانا إلى خصرها. تلمس جبهته، تحسُّها رطبة وباردة كجلد ضفدع. يتجنَّب قبضتها بنزق، مُبْعِدًا يدها.

«كل شيء على ما يرام»، يقول، وكلماته ثقيلة، كأنه يبصق حصًى وهو يتكلَّم. «لا تقلقي.»

تقول: «ما يوجعك؟» سوزانا تركل بساقيها محاولة إدارة وجه أمها نحوها لتخبرها بأنها بحاجة إلى الغناء.

يقول: «لا شيء، أنا متعب. هذا كل ما في الأمر.» يقف، فيحتك الكرسي بالأرض. «سأعود إلى الفراش.»

«لِمَ لا تأكل؟» تسأله آغنس محاولة إسكات سوزانا بهزِّها إلى الأعلى وإلى الأسفل. «بعض الخبز؟ عسل؟»

يهزُّ رأسه. «لست جائعًا.»

«تذكَّر أنَّ أباك يريدك أن تذهب باكرًا إلى...»

يقاطعها بحركة خاطفة من يده. «أخبريه بأن يرسل غلبرت. لن أذهب

إلى أي مكان اليوم.» يتجه إلى السلالم جارًّا قدميه على الأرض، ساحبًا خلفه الرائحة الغامضة مثل رزمة ثياب قديمة غير مغسولة. يقول: «أحتاج إلى النوم.»

ترقبه آغنس وهو يصعد السلالم، ساحبًا نفسه إلى الأعلى باستخدام الدرابزين. تلتفت لتنظر إلى عيني ابنتها المستديرتين السوداوين الحكيمتين.

«غنِّي يا ماما»، تنصحها سوزانا.

في سكون الليل، تهمس له، تسأله ما الخطب، ما الذي يدور في عقله، هل تستطيع مساعدته؟ تضع يدها على صدره فتشعر بخفق قلبه على راحة يدها مرارًا وتكرارًا، مرارًا وتكرارًا، كأنه يسأل السؤال نفسه ولا يحصل على إجابة.

«لا شيء»، هي إجابته.

تقول: «لا بد أن يكون شيئًا ما، ألا يمكنك القول؟»

يتنهَّد، صدره يعلو ويهبط تحت يدها. يتململ على حافة الملاءة، معيدًا ترتيب ساقيه. تحسُّ بساقه يَحُكُّ ساقها، وبشدِّ الملاءة المضطرب. تنسدل ستائر السرير حولهما مُشَكِّلةً كهفًا ينامان فيه، وسوزانا نائمة على الحشيَّة، ذراعاها ممدودتان، فمها مزموم، شعرها ملتصق بوجنتيها.

تبدأ قائلةً: «هل... هل أنت... هل تتمنى لو لم... نتزوج؟ هل هذا هو السبب؟»

يستدير نحوها، ما يبدو كأنه المرة الأولى منذ أيام عديدة، ووجهه متألِّم،

مذعور. يضغط يدها بيده. يقول: «لا، أبدًا. كيف تقولين شيئًا كهذا؟ أنت وسوزانا كل ما أعيش لأجله. لا شيء آخر يهم.»

تقول: «ما الخطب إذًا؟»

يرفع أصابعها، إصبعًا إصبعًا، إلى شفتيه ويقبِّل أطرافها. يقول: «لا أعرف. لا شيء. ثقل في الروح. كآبة. إنه لا شيء.»

تخلد إلى النوم توًّا وهو يقول أو يبدو أنه يقول: «أنا ضائع. أضعت دربي.»

ثم يتحرَّك نحوها ويطوِّق خصرها، كأنها تنجرف بعيدًا عنه إلى مياه عاتية.

***

في غضون المدة التي تلت ذلك، أخذت تراقبه باهتمام، على النحو الذي يراقب به طبيب مريضًا. ترى أنه لا يستطيع النوم في الليل، لكنه أيضًا لا يستطيع الاستيقاظ في الصباح. يصحو في منتصف اليوم مترنِّحًا، شاحبًا، مزاجه كَدِر وكئيب. عندئذ تغدو الرائحة المنبعثة منه أسوأ من الرائحة الفاسدة الزَّنِخة التي تملأ ثيابه وشعره. يأتي والده إلى الباب صائحًا زاعقًا، قائلًا له أن يحرِّك نفسه، أن يجد عملًا في يومه. ترى آغنس أنها يجب أن تبقى هادئة، ثابتة، يجب أن تكون أقوى على نحوٍ ما لكي تحافظ على استقرار البيت، لكي لا تسمح لهذه الظلمة بالسيطرة عليه، لكي تواجهها، وتحمي سوزانا منها، لكي تسدَّ هي شقوقها الخاصة ولا تسمح لهذه الظلمة بالنفاذ إليها.

ترى كيف يجرُّ قدميه ويتنهَّد عندما يذهب إلى تدريس تلاميذه. ترقبه وهو يحملق خارج النافذة عندما يعود شقيقه ريتشرد من المدرسة. ترى

كيف يجلس إلى المائدة مع والديه، عابس الوجه، يده تعبث بالطعام، بالطبق. تراه يمدُّ يده إلى إبريق الجعة عندما يثني أبوه على غلبرت في تعامله مع أحد العمَّال في المدبغة. ترى إدموند يأتي ويقف إلى جواره ويضع رأسه على كُمِّه، ويكون على الصبي أن ينطحه بجبهته مرات عديدة قبل أن يدرك شقيقه أنه هناك. ترى حاله الذاهلة المُنْهَكة وهو يرفع الطفل إلى حجره. ترى إدموند يحدِّق باهتمام إلى وجه أخيه، ويضغط بيده الصغيرة الخدَّين الخشنين. ترى أنَّ إدموند فقط، هو الشخص الآخر الوحيد الذي يلاحظ أنَّ به خطبًا ما.

ترى كيف يجفل زوجها واقفًا على قدميه إذا قفزت القطة على المائدة، إذا صفق الباب بفعل النَّسيم، إذا وُضِع صحن بعنف. ترى طريقة صراخ أبيه في وجهه، وسخريته منه، داعيًا غلبرت إلى الانضمام إليه. تسمع جون يقول له عندما يريق الجعة على مفرش المائدة: أنت عديم الفائدة، لا تستطيع حتى أن تصب جعتك، إيه، إيه، يا غلبرت، أرأيت؟

ترى السحابة فوقه تزداد قتامة، تستجمع قواها الرهيبة. تريد أن تمدَّ يدها عبر المائدة حينئذ، أن تضع يدها على ذراعه. تريد أن تقول: أنا هنا. لكن ماذا لو أنَّ كلماتها غير كافية؟ ماذا لو أنها ليست مُسَكِّنًا كافيًا لوجعه الذي لا اسم له؟ أوَّل مرَّة في حياتها، تجد أنها لا تعرف كيف تساعد شخصًا ما. لا تعرف ما تفعل. وعلى أية حال، لا يمكنها الإمساك بيده، ليس هنا، ليس على هذه المائدة. ثمَّة أطباق وأكواب وشمعدانات بينهما، وتقف إليزا الآن لتنظِّف صحن اللحم، وتحاول ماري إطعام سوزانا قطع لحم كبيرة جدًّا. ثمَّة الكثير مما ينبغي القيام به في عائلة بهذا العدد، الكثير مما ينبغي الإشراف عليه، العديد من الأشخاص الذين يحتاجون إلى العديد من الأشياء. تفكِّر آغنس وهي ترفع الأطباق، ما أسهل أن يغفل المرء عن ألم شخص واحد وعذابه، إذا بقي ذلك الشخص هادئًا، إذا احتفظ بكل شيء داخله، مثل قنِّينة مُحْكَمة

الإغلاق، يشتد الضغط داخلها ويشتد إلى أن... ماذا؟

آغنس لا تعرف.

يعاقر الخمر كثيرًا في وقت متأخِّر من الليل، ليس في الخارج مع رفاقه، بل يجلس إلى المنضدة في حجرة النوم. يقصُّ ريشًا تلو آخر ليصنع أقلام ريشة، لكن أيًّا منها ليس صحيحًا تمامًا، يقول. واحدة طويلة جدًّا، وأخرى قصيرة جدًّا، وثالثة رفيعة جدًّا بالنسبة إلى أصابعه. تنشقّ الريشة أو تخدش الصفحة أو تلطِّخها وتبقِّعها. هل هو شيء كثير جدًّا أن يطلب رجل أن تكون له ريشة للعمل؟ تستيقظ آغنس ذات ليلة فتسمعه يقول هذا قاذفًا الحائط بكل شيء، بالمحبرة وبكل شيء، دافعًا سوزانا إلى البكاء. لا تتعرَّف إليه حينئذ، حاملةً طفلتها التي تصرخ إلى جوارها: وجهه الشاحب، شعره الأشعث، فمه الصارخ، رذاذ الحبر على الحائط مثل جزيرة سوداء.

في الصباح وهو نائم، تربط سوزانا إلى ظهرها وتسلك الدَّرب إلى هيولَندز، تقف في الطريق لتجمع الريش، رؤوس الخشخاش، غصينات القُرَّاص.

تجد بارثولوميو عندما تقتفي صوت جلبة ضرب متكرِّر. إنه في أقرب حظيرة، يوجِّه مطرقة إلى قمة دعامة سياج، ليدقَّها في الأرض: طق، طق. يبني أسوجة للحملان الجديدة. تعلم أنه يمكنه أن يخبر الآخرين بالقيام بهذا العمل، لكنه بنَّاء أسوجة ماهر: طوله، قوته غير العادية، نهجه السَّخي الذي لا يتزعزع في إنجاز عمل ما.

عندما تقترب، يترك المطرقة تسقط عند قدميه. ينتظر، يمسح وجهه، ويراقبها وهي تسير نحوه.

«جلبت لك هذا»، تقول آغنس وهي تناوله رغيف خبز كبير وربطة

الجبن الذي تصنعه بنفسها في الكوخ في شارع هنلي بتصفية حليب النعجة خلال نسيج قطني.

يهز بارثولوميو رأسه موافقًا، يقبل الطعام، يقضم قضمة ويمضغها دون أن يرفع عينيه عن وجه آغنس. يرفع زاوية قلنسوة سوزانا ويمرِّر إصبعه على وجنتها النائمة. ثم تعود عيناه إلى آغنس. تبتسم له، يتابع المضغ.

أول شيء يقوله: «وإذًا؟»

تبدأ آغنس قائلةً: «إنه ليس بالشأن الكبير.»

يمزِّق كسرة الخبز بأسنانه. «خبِّريني.»

«إنه فقط...» تنقل آغنس ثقل سوزانا، «... لا ينام. يبقى مستيقظًا طوال الليل ثم لا يستطيع الاستيقاظ. إنه حزين ومتجهِّم. لا يتكلَّم إلا ليجادل أباه. ثمَّة ثقل مريع فيه. لا أعرف ماذا أفعل.»

يفكِّر بارثولوميو في كلماتها، مثلما تعرف أنه سيفعل، يميل برأسه، يركِّز نظره على شيء في البعيد. يمضغ، مرارًا وتكرارًا، عضلات وجنتيه وصدغيه تشتد وتشتد. يرسل بقية الرغيف والجبن إلى فمه، لم يقل شيئًا بعد. عندما يبلع الطعام، يزفر. ينحني. يلتقط مطرقته. تقف آغنس جانبًا، خارج نطاق ضربته.

يسدِّد ضربتين إلى رأس الدِّعامة، كلاهما صحيحتان ومستقيمتان. تبدو الدعامة كأنها ترتعش وتترجَّح وهي تنغرز. «الرجل»، يقول ثم يسدِّد ضربة أخرى، «يحتاج إلى عمل.» يرفع المطرقة مرة أخرى، ويهوي بها على الدعامة. «عمل ملائم.»

يختبر بارثولوميو الدعامة بيده فيجدها ثابتة. ينتقل إلى الثانية التي غُرِزت في التربة دون إحكام. يقول رافعًا مطرقته: «ذلك الرجل يعيش في الخيال.

يعيش في الخيال، بلا أي معنى. يحتاج إلى عمل ليثبِّته، ليمنحه هدفًا ما. لا يمكنه الاستمرار على هذا النحو، ساعيَ بريد لأبيه، معلِّمًا هنا وهناك. عقل كعقله سيصاب بالجنون.»

يضع يده على الدعامة التي يبدو أنها لا تروقه، لأنه يأخذ المطرقة ليدقها مجدَّدًا، مرةً، مرتين، فتنغرز الدعامة.

يغمغم بارثولوميو: «سمعتهم يقولون إنَّ الأب يستخدم قبضته بحُرِّيَّة، ولا سيَّما مع فَتَاكِ معلِّم اللاتينية. هل هذا صحيح؟»

تتنهَّد آغنس. «لم أره بعيني، لكنني لا أشك في ذلك.»

يوشك بارثولوميو أن يرفع المطرقة، لكنه يتراجع. «هل تثور ثائرته معك؟»

«أبدًا.»

«ومع الطفلة؟»

«لا.»

يبدأ بارثولوميو بالقول: «إذا رفع يده إلى أي منكما، إذا حاول حتى، حينئذ...»

«أعرف»، تقاطعه آغنس مبتسمة. «لا أحسب أنه يجرؤ.»

«همم»، يغمغم بارثولوميو. «آمل ألَّا يفعل.» يلقي المطرقة ويسير إلى ركام الدعامات المكدَّسة في كومة. يختار واحدة، يزنها في يده، يرفعها وينظر إليها ليفحص حدودها.

يقول دون أن ينظر إليها: «يشقُّ على رجل أن يعيش في ظلمة وحشية كهذه. حتى إذا كان ذلك في المنزل المجاور. يشقُّ عليه التنفُّس. يشقُّ عليه أن

يجد سبيله في الحياة.»

تومئ آغنس برأسها عاجزة عن الكلام. تهمس: «لم أدرك مدى سوء الأمر.»

«يحتاج إلى عمل»، يقول بارثولوميو مرة أخرى. يرفع الدعامة على كتفه ويقبل نحوها. «وربما مسافة بينه وبين أبيه.»

تنظر آغنس إلى أسفل الدرب، إلى الكلب المستلقي في الظل، دالعًا لسانه الشبيه ببساط وردي.

تبدأ قائلةً: «كنت أفكر في أنه قد يهم جون أن يؤسِّس عملًا في مكان آخر. في لندن.»

يرفع بارثولوميو رأسه، يضيِّق عينيه. «لندن»، يكرِّر مقلِّبًا الكلمة في لسانه.

«ليوسِّع تجارته هناك.»

يتوقَّف أخوها، يحكُّ ذقنه. يقول: «فهمت، تقصدين أنَّ جون قد يرسل شخصًا ما إلى المدينة بعض الوقت. شخصًا يثق به. ابنًا له ربما.»

تومئ آغنس برأسها. تقول: «فقط بعض الوقت.»

«هل ستذهبين معه؟»

«قطعًا.»

«أتتركين ستراتفرد؟»

«ليس في البداية. سأنتظر حتى يستقر في منزل، ثم سألحق به مع سوزانا.»

ينظر الأخ والأخت أحدهما إلى الآخر. تتحرَّك سوزانا على ظهر آغنس،

تبكي قليلًا، ثم تعود إلى النوم.

يقول بارثولوميو: «لندن ليست بعيدة جدًّا.»

«صحيح.»

«العديدون يقصدونها بحثًا عن عمل.»

«صحيح مرة أخرى.»

«قد تكون هنالك فرص.»

«أجل.»

«له. للتجارة.»

«أحسب ذلك.»

«قد يجد عملًا لنفسه. بعيدًا عن أبيه.»

تمدُّ آغنس يدها وتلمس الطرف المقطوع للدعامة التي يحملها بارثولوميو، متتبِّعة بإصبعها الدوائر فيها.

«لا أحسب أنَّ جون سيصغي إلى امرأة في هذا الشأن. إذا وضع شريكٌ ما الفكرة في رأسه -شخص له مصلحة في تجارته، لديه حصة- ليجعلها تبدو كأنها فكرة جون في المقام الأول، فإنَّ...»

«الفكرة ستنجح.» يكمل لها بارثولوميو. يضع يده على ذراعها. يقول بصوت منخفض: «ماذا عنك؟ ألن يزعجك إذا ما... ذهب قبلك؟ قد يستغرق الأمر بعض الوقت حتى يؤسِّس نفسه.»

تقول: «سيزعجني كثيرًا. ولكن أي شيء آخر بوسعي أن أفعله؟ لا يمكن أن يستمر على هذا النحو. إذا استطاعت لندن أن تنقذه من هذا البؤس، فهذا

ما أريده.»

«ستعودين إلى هنا»، يهزُّ إبهامه مشيرًا إلى هيولَندز، «في غضون ذلك، أنت وسوزانا، حتى...»

تهزُّ آغنس رأسها. «لن توافق جوان على الفكرة أبدًا. وسيكون هنالك المزيد منَّا عمَّا قريب.»

يعبس بارثولوميو. «ما الذي تقولينه؟ سيكون هناك طفل آخر؟»

«أجل. بحلول نهاية الشتاء.»

«ليس بعد. سأنتظر حتى نهيِّئ للأمر.»

يومئ بارثولوميو برأسه، ثم يبتسم لها تبسُّمه العريض النادر، واضعًا ذراعه القوية حول كتفيها. «سأبحث عن جون. أعرف أين يحتسي الخمر. سأذهب إلى هناك الليلة.»

تجلس آغنس على الأرض قرب الحشيَّة إلى جوار جودث، في يدها قطعة قماش. كانت هناك طوال الليل: لن تنهض، لن تأكل، لن تنام أو تستريح. تفعل ماري كلَّ ما في وسعها لتحملها على أن تشرب قليلًا. حرارة النار شديدة جدًّا إلى درجة أنَّ هناك بقعًا أرجوانية على وجنتي آغنس، تنسلُّ خُصَلٌ من قلنسوتها لترتسم على هيئة خرابيش رطبة على عنقها.

بينما تراقب ماري، تغمس آغنس قطعة القماش في وعاء الماء وتمسح جبين جودث، ذراعيها، عنقها. تهمس ببعض الكلمات لابنتها، بشيء ناعم ومريح.

تتساءل ماري عمَّا إذا كانت الطفلة تسمعها. لم تهدأ حمى جودث. الدَّبْل على عنقها كبير جدًّا، مشدود جدًّا إلى درجة أنه قد ينفجر. وعندئذ سيضيع كل شيء. الفتاة ستموت. ماري تعرف هذا. قد يحدث هذا الليلة، في جُنْح الظلام، لأن هذا هو الوقت الأخطر للمريض. قد يحدث غدًا أو حتى بعد غد. لكنه سيأتي.

لا شيء يمكنهم فعله الآن. مثلما أُخذت ثلاث من بناتها، اثنتان عندما كانتا رضيعتين فقط، جودث ستتركهم أيضًا. لن تكون بينهم بعد الآن.

ترى ماري أنَّ آغنس تمسك بأصابع الطفلة المرتخية بقوة، كأنها تحاول شدَّها إلى الحياة. ستبقيها هنا، تسحبها إليها، بالإرادة وحدها، إن استطاعت. تعرف ماري هذه الرغبة، تشعر بها، عاشتها، وتعيشها الآن وإلى الأبد. كانت الأمَّ الجالسة قرب الحشيَّة مرات عديدة، الأمَّ التي تحاول التشبُّث وإبقاء

قبضتها على طفلتها. هذا عبثٌ كلُّه. ما يُوهَبُ يؤخذ في أي وقت. القسوة والهلاك يتربَّصان بكِ في الزوايا، داخل الخزائن، خلف الأبواب: يمكنهما الانقضاض عليكِ في أي لحظة مثل لص أو قاطع طريق. الحيلة هي ألَّا تتخلَّي عن حذركِ أبدًا. ألَّا تحسبي أنك في أمان أبدًا. ألَّا تعتقدي أبدًا أنه أمرٌ مفروغٌ منه أنَّ قلوب أطفالك تنبض، أنهم يرتشفون الحليب، أنهم يتنفَّسون، أنهم يمشون ويتكلَّمون ويبتسمون ويجادلون ويلعبون. لا تنسَي لحظةً أنهم قد يرحلون، قد يُخْتَطفون منكِ في طرفة عين، ويُحْمَلون بعيدًا عنك مثل زَغَب شوك.

تشعر ماري بالدموع تحتشد في عينيها، تشعر بحنجرتها تختنق. منظر شعر جودث الذي ما زال مضفورًا، خط فكِّها وعنقها. كيف يمكن ألَّا تكون موجودة بعد الآن؟ وأنه قبل مُضِيِّ وقت طويل ستغسل هي وآغنس هذا الجسد، ستسرِّحان تلك الضفيرة، ستعدَّانها للدفن؟ تستدير ماري بخفة، حاملةً إبريقًا، خرقة، طبقًا، أي شيء، تنقله إلى المنضدة وتعود أدراجها.

إليزا الجالسة إلى المائدة وذقنها على يدها تهمس: «ينبغي أن أكتب رسالة. ألا تعتقدين ذلك يا ماما؟»

تنظر ماري إلى الحشيَّة، حيث ينحني رأس آغنس، كأنه في صلاة. طوال اليوم، رفضت آغنس السماح لإليزا بالكتابة إلى والد جودث. كل شيء سيكون على ما يرام، ظلَّت تقول، وهي تطحن الأعشاب، بحركات عصبية متزايدة، وهي تحاول حمل جودث على ابتلاع المحاليل والنُّقَاعة[1]، وتدهن بشرتها بالمراهم. يجب ألا نخيفه. ليس ضروريًّا.

تلتفت ماري إلى إليزا وتومئ إليها برأسها إيماءة واحدة سريعة. تراقب

(1) ما نُقِع فيه الشيءُ من ماءٍ ونحوه. (المعجم الوسيط)

إذ تذهب إليزا إلى الخزانة وتخرج حبرًا وورقة وريشة، يضعها شقيقها هناك عندما يكون في البيت. تجلس إلى المائدة وتغمس ريشتها في الحبر، ومتردِّدة لحظةً، تكتب.

أخي العزيز،

يؤسفني أن أقول لك إنَّ ابنتك جودث مريضة جدًّا. نعتقد أنه لم تتبق لها ساعات كثيرة. من فضلك عُد إلينا إن استطعت. وعجِّل.

حفظك الرَّبُّ يا أخي العزيز.

أختك المُحِبَّة،

إليزا

تذيب ماري ختم الشمع بشمعة، ترى آغنس تنظر وهما تقطران الختم على الصفحة المطويَّة. تكتب إليزا عنوان مسكن أخيها في الأمام، ثم تأخذ ماري الرسالة وتتجه إلى الباب المجاور، إلى بيتها. تجد عملة نقدية، تفتح نافذة، تنادي أيًّا من كان في الشارع ليحمل الرسالة إلى النُّزُل على الطريق خارج ستراتفرد ويطلب من صاحب النُّزُل أن ينقلها، بأسرع ما يمكن، إلى لندن، إلى ابنها.

لا يمضي وقت طويل على مغادرة ماري للعثور على عملة معدنية، لمناداة أحد المارَّة، حتى يطفو هامنت على سطح النوم. يستلقي بعض الوقت تحت الملاءة متعجِّبًا لماذا يشعر بأنه ليس على ما يرام، لماذا يبدو العالم مائلًا بعض

الشيء، لماذا يشعر بجفاف شديد في فمه، وثقل شديد في قلبه، ووجع شديد في رأسه.

ينظر في اتجاه واحد في الغرفة المظلمة ويرى سرير أبويه: فارغ. ينظر في الاتجاه الآخر ويرى الحشيَّة حيث تنام شقيقتاه. جسد واحد فقط تحت الأغطية، ثم يتذكَّر: جودث مريضة. كيف يمكنه أن ينسى؟

يقف مترنِّحًا، يسحب الأغطية معه ويكتشف شيئين. رأسه يضج بالألم مثل قِدْرٍ طافح بماء يغلي. إنه نوع غريب ومربك من الألم، يسحب التفكير كلَّه، كلَّ إحساس بالفعل. يُتخم رأسه، ممتدًّا إلى العضلات ومركز عينيه، يعبث بجذور أسنانه، بجانبي أذنيه، بمسالك أنفه، بخُصَل شعره. يشعر به هائلًا، جسيمًا، أكبر منه.

يزحف هامنت من السرير، يسحب الملاءة معه، لكن لا يهم. يحتاج إلى أن يجد أمَّه: مدهش كم هي قوية هذه الغريزة، حتى الآن، وهو صبي في الحادية عشرة من عمره. يتذكَّر هذا الإحساس، هذه الرغبة -فقط- منذ أن كان أصغر سنًّا: الحاجة المُلِحَّة إلى أن يكون مع أمِّه، أن يكون تحت ناظريها، أن يكون إلى جوارها، قريبًا بما يكفي ليتمكَّن من مدِّ يده ولمسها، لأنه لا أحد آخر سيفعل.

لا بدَّ أنَّ الوقت يدنو من الفجر لأنَّ ضوء النهار الجديد يتسلَّل إلى الغرف رهيفًا وكامدًا كالحليب. خطوةً خطوةً يهبط السلالم التي تبدو كأنها تترنح وتتمايل أمامه. عليه أن يلتفت ليواجه الحائط لأنَّ كل شيء حوله يتحرَّك.

في الطابق السفلي يرى هذا المشهد: عمَّته إليزا نائمة على المائدة، رأسها مستقر على ذراعيها. انطفأت الشموع، غرقت في بركها. استحالت النار كومة رماد خامد. أمُّه منحنية إلى الأمام، رأسها على الحشيَّة، نائمة، تمسك

بقطعة قماش في يدها. وجودث تنظر مباشرة إليه.

«جود»، يقول أو يحاول أن يقول، لأنَّ صوته لا يبدو أنه يخرج. يخدش، يحِز، يبدو عاجزًا عن الخروج من حلقه الجاف والموجِع.

يتهاوى على ركبتيه ويزحف على الحشيَّة القشِّيَّة ليصل إليها.

تتلألأ عيناها بنور فضي غريب. إنها أسوأ حالًا، يستطيع أن يرى هذا. وجنتاها غائرتان، شاحبتان، شفتاها متشقِّقتان وشاحبتان، الأورام على عنقها حمراء ولامعة. يأتي ليجثو قرب توأمه، حريصًا على ألَّا يوقظ أمَّه. يده تجد يدها، تتشابك أصابعهما.

يرى عيني جودث تتقلَّبان في رأسها، مرة، مرتين. ثم تنفتحان على اتساعهما وتتجهان نحوه. يبدو أنها تبذل جهدًا كبيرًا.

تتقوَّس شفتاها إلى الأعلى في ما يبدو أنه ابتسام. يشعر بضغط على أصابعه. تهمس: «لا تبكِ.»

ينتابه مرة أخرى الإحساس الذي أحسَّه طوال حياته: بأنها جانبه الآخر، بأنهما يتسقان معًا، هو وهي، مثل نصفي جوزة. بأنه من دونها غير مكتمل، ضائع. سيحمل جرحًا مفتوحًا، أسفل جنبه بقية حياته، حيث انتُزِعت منه. أنَّى له أن يعيش من دونها؟ لا يستطيع. الأمر أشبه بمطالبة القلب بالعيش من دون الرئتين، بانتزاع القمر من السماء ومطالبة النجوم بأداء عمله، بتوقُّع نمو الشعير بلا مطر. تبدو الدموع على وجنتيها الآن مثل بذور فضية، كأنها بسحر ما. يعرف أنها دموعه، تسقط من عينيه على وجهها، لكنها يمكن أن تكون دموعها بسهولة. إنهما شخص واحد والشخص نفسه.

تغمغم: «ستكون بخير.»

يقبض أصابعها بغضب. «لن أكون بخير.» يمرِّر لسانه على شفتيه،

متذوِّقًا الملح. «سآتي معك. سنرحل معًا.»

مرةً أخرى، وميض ابتسام، ضَغْطُ أصابعها. «لا»، تقول، دموعه تلمع على وجهها. «ستبقى. إنهم بحاجة إليك.»

يمكنه أن يحسَّ بالموت في الغرفة، حائمًا في الظلال، هناك بجانب الباب، مشيحًا بوجهه، لكنه يراقب على الرغم من ذلك، دائمًا يراقب. إنه ينتظر، متحيِّنًا الفرصة المناسبة. سينزلق إلى الأمام بقدمين حافيتين، بنَفَس من رماد رطب، ليأخذها، ليطبق عليها في حضنه البارد، وهو، هامنت، لن يتمكَّن من تحريرها. هل يصرُّ على أن يأخذه هو أيضًا؟ هل يرحلان معًا، تمامًا مثلما يفعلان دومًا؟

ثم تباغته الفكرة. لا يعرف لِمَ لَمْ يفكِّر فيها من قبل. يخطر ببال هامنت وهو جاثم هناك إلى جوارها، أنه قد يكون ممكنًا تضليل الموت، أن يلجأ إلى الحيلة التي يخدع بها الناس هو وجودث منذ أن كانا صغيرين: يتبادلان الأماكن والثياب، ليجعلا الناس يعتقدون أنَّ أحدهما هو الآخر. وجهاهما متشابهان. يعلِّق الناس على هذا طوال الوقت، مرةً في اليوم على الأقل. كلُّ ما على هامنت فعله هو أن يرتدي شال جودث أو أن تعتمر هي قبَّعته، ويجلسان إلى المائدة على هذا النحو، بعيون مُسْبَلة، وبسمات مخفيَّة، وتضع أمهما يدها على كتف جودث وتقول: هامنت، هلَّا جلبت الحطب؟ أو قد يأتي أبوهما إلى الغرفة ويرى من يعتقد أنه ابنه مرتديًا سترة ويسأله أن يصرِّف فعلًا باللاتينية، ليكتشف أنها ابنته، تخفي ضَحِكَها مغتبطة بالخدعة، دافعةً الباب جانبًا لتكشف الابن الحقيقي المختبئ وراءه.

هل يلجأ إلى خدعتهما، إلى مزحتهما، مرة واحدة أخرى فقط؟ يعتقد أنه يستطيع. يعتقد أنه سيفعل. ينظر خلفه إلى نفق الظلمة بجانب الباب. الظلمة بعيدة الغور، ناعمة، مطلقة. ابتعِد، يقول للموت. اغمض عينيك،

لحظةً فقط.

يضع يديه تحت جودث، إحدى كفَّيه تحت كتفيها، والأخرى تحت وركيها، وينقلها إلى الجانب نحو المدفأة. إنها أخف مما يتوقَّع، تنقلب على جانبها وتفتح عيناها قليلًا وهي تسوِّي نفسها. تراقب عابسة، إذ يستلقي إلى جوارها في المنخفض الذي صنعه جسدها، آخذًا مكانها، يملِّس شعره إلى الأسفل على جانبي وجهه، ويسحب الملاءة إلى الأعلى فوقهما معًا، ويدسها تحت ذقنيهما.

إنه على يقين من أنهما سيبدوان الشخص نفسه. لن يعرف أحد أيهما هذا وأيهما الآخر. سيكون يسيرًا على الموت أن يقترف خطأ، أن يأخذه هو بدلًا منها.

تتحرَّك قربه محاولة الجلوس. «لا»، تقول مرة أخرى. «هامنت، لا.»

يعلم أنها ستعرف فورًا ما كان يفعل. طالما عرفت. تهزُّ رأسها، لكنها أضعف من أن ترفع نفسها عن الحشيَّة. يمسك هامنت بالملاءة ويرفعها بسرعة فوقهما.

يشهق. يزفر. يدير رأسه ويزفر في أثناء أذنها، يزفر قوته، صحته، كلَّه. ستبقين، هذا ما يقوله لها، وسأذهب. يرسل هذه الكلمات إليها: أريدك أن تأخذي حياتي. ستكون لكِ. أهبك إيَّاها.

لا يمكن أن يحيا كلاهما: هو يرى هذا وهي ترى هذا. ليس ثمَّة حياة كافية، هواء كاف، دم كافٍ لكليهما. ربما ما كان هناك شيء من هذا قطُّ. وإذا كان على أحدهما أن يحيا، فلا بدَّ أن تكون هي. إنه يشاء ذلك. يمسك الملاءة بقوة، بكلتا يديه. هو، هامنت يقرِّر هذا. فليكن.

قبل عيد ميلادها الثاني بقليل، تجلس سوزانا في سلَّة على أرض ردهة جدَّتها، ساقاها متقاطعتان، تنُّورتها منتفخة حولها، ممتلئة بالهواء. تحمل في يديها ملعقتين خشبيتين تَجْدِف بهما بأسرع ما تستطيع. تجدف في النهر. التيار سريع ومُتَلَوٍّ. الأعشاب تتشابك وتنفصل. يجب أن تجدف وتجدف لتبقى طافية، إذا توقَّفت فمن يدري ما قد يحدث؟ يطفو البط والبجع إلى جانبها، هادئًا على ما يبدو وغير منزعج، لكنَّ سوزانا تعلم أنَّ قوائمه ذات الكفوف تتحرَّك تحت الماء. لا أحد سواها يستطيع رؤية هذه الطيور. لا أمها التي تقف عند النافذة، موليةً الغرفة ظهرها وهي تنثر الحب على الحافة. لا جدَّتها التي تجلس إلى المائدة وصندوق شُغْلها مفتوح أمامها. ولا أبوها الذي يغلِّف ساقيه جوربان أسودان ذارعًا المكان من حائط إلى آخر. أسفل حذائه يخدش صفحة نهر سوزانا ويضربها. يمشي إلى جانب بطة، عَبْرَ بجعة، فوق كومة أعشاب. تريد سوزانا أن تخبره بأن يتوخَّى الحذر، أن تتيقَّن مما إذا كان يستطيع السباحة. تتخيَّل رأس أبيها -أسود مثل جوربيه- مختفيًا تحت المياه الهائجة الخضراء الضاربة إلى البني. تشعر بحنجرتها تنقبض، بعينيها تحرقانها بسبب الفكرة.

ترفع نظرها إلى أبيها وترى أنه كفَّ عن ذرع المكان. ساقاه ساكنتان، مستقيمتان، زوج من جذع شجرة. إنه واقف أمام أمِّه التي ما زالت تخيط، إبرتها تختفي داخل النسيج وتخرج منه. تبدو الإبرة لسوزانا مثل سمكة،

سمكة فضيَّة نحيلة، لعلها سمكة مِنَّوَة[1] أو تيهالوس[2] تقفز خارج الماء وتغطس مرة أخرى، تقفز، تغطس، وبينما تفكِّر سوزانا في نهرها مرة أخرى تنتبه إلى أنَّ جدَّتها تطرح عُدَّة حياكتها بقوة، تقف، تشرع في الصراخ في والد سوزانا، مباشرة في وجهه. تراقب سوزانا مذعورة. المجدافان-الملعقتان- ساكنان. تستوعب هذا المشهد غير العادي، تُرَسِّخه في عقلها: جدَّتها، التي مسخ الغضب وجهها، تقبض ذراع ابنها، أبوها ينتزع ذراعه من قبضتها، متحدِّثًا بنبرة خفيضة ومتوعِّدة، ثم تشير جدَّتها إلى أمِّها زاعقة باسمها -نطقته جدَّتها بحيث بدا مثل أنيس- فتلتفت أمُّها. ثوب أمِّها مُتْخَمٌ من الأمام بطفل آخر. أخ لكِ أو أخت، قيل لها. تحمل أمُّها أيضًا سِنجابًا على ذراعها. هل يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا؟ تعلم سوزانا أنه حقيقي. يتوهَّج ذيل الحيوان حُمْرةً كاللَّهب في ضوء الشمس المتسلِّل من النافذة. يعدو على كُمِّ أمِّها لِيَسْتكنَّ تحت قبعتها إلى جانب شعرها الذي يُسْمَح لسوزانا أحيانًا بنَقْضِه ومَشْطِه وضَفرِه.

وجه أمِّها هادئ. تتأمَّل الرَّدهة، الجدَّة، الرجل، الطفلة في السلة التي اتخذتها قاربًا. تمسِّد ذيل السِّنجاب، تشعر سوزانا بانجذاب، بتوق إلى فعل الشيء نفسه، لكنَّ السِّنجاب لا يسمح لها بالاقتراب أبدًا. تمسِّد أمُّها الذَّيل وتهزُّ كتفيها لكل ما يقال لها. تبتسم ابتسامًا غامضًا وتشيح بوجهها، مُنْزِلةً السِّنجاب من كتفها تاركةً إيَّاه يخرج من النافذة المفتوحة.

تراقب سوزانا هذا كلَّه. يسبح البط والبجع مقتربًا أكثر فأكثر، محتشدًا.

---

(1) سمك نهري صغير من فصيلة الشَّبوطيات تُتخذ منه الأطعام [جمع طُعْم] الحيَّة لصيد الأسماك. (المورد الأكبر)

(2) سمك نهري من جنس «ثيهالوس». السابق.

***

تحوك ماري وتحوك، تخرج الإبرةُ من الدَّرْز وتغوص فيه. لا تكاد ماري تدرك ما تفعل، لكنها وهي تصغي إلى ما يقوله ابنها تستطيع أن ترى أنَّ دُرُوزها تصير أكبر وأخرق، وهذا يزعجها على نحو خاص لأنها معروفة بالتطريز، إنها كذلك، تعرف هذا. تحاول أن تحافظ على رباطة جأشها، تحاول أن تبقى هادئة، لكنَّ ابنها يقول إنه لا يشك في نجاح هذه الخطة، إنه سيكون قادرًا على توسيع تجارة جون في لندن. بمشقة تكظم ماري غيظها، ازدراءها. بطبيعة الحال لا تساهم زوجة ابنها بشيء في هذا النقاش، بل تكتفي بالوقوف عند النافذة مُرسِلةً أصواتًا بلهاء في الهواء.

ثمَّة سنجاب لونه ضارب إلى الحمرة، له وجه فأر، يعيش في شجرة خارج البيت: تحب آغنس إطعامه وملاطفته من حين لآخر. لا تستطيع ماري أن تفهم لماذا، مهما حاولت، وقالت لزوجة ابنها إنه لا يجب أن يدخل إلى البيت، فلا أحد يعلم أية أمراض وأوبئة قد يحمل معه، لكنَّ آغنس لا تصغي. آغنس لا تصغي أبدًا. ليس حتى الآن، عندما يقترح زوجها مغادرة البيت، الهروب، الاختباء، في حين أنَّ ما يجب أن يفعله حقًّا هو الرُّكوع وتوسُّل السَّماح من أمِّه التي آوته وعروسه ببطنها المنتفخ في بيتها قبل ثلاث سنوات خلت، ومن أبيه الذي، يشهد الرَّبّ، أنه على الرغم من عيوبه دائمًا ما يحاول بذل جهده لأجل عائلته. عدم الاصغاء هو حال آغنس المعتادة.

لا تستطيع النظر إلى ابنها، لا تستطيع النظر إلى زوجة ابنها الواقفة هناك وبطنها منتفخ مرة أخرى، مدلِّلةً ذلك السنجاب اللعين بين يديها، كأنَّ لا شيء ذا أهمية يحدث هنا.

يعامل جون آغنس كساذجة، ريفية حمقاء. يومئ لها برأسه إذا مرَّ بها في البيت أو رآها على المائدة. كيف حالنا اليوم يا آغنس؟ يقول كأنه يقول

لطفلة. ينظر إليها ببرود إذا ما أخرجت حزمة جذور وسخة من جيبها، أو فتحت يديها لِتُرِيَهم ثمار بلُّوط لامعة. يتحمَّل أطوارها الغريبة، طوافها الليلي، مظهرها الأشعث أحيانًا، الأخيلة والتنبؤات الحمقاء التي تخرج بها في بعض الأحيان، الحيوانات المختلفة والمخلوقات الأخرى التي تأتي بها إلى المنزل (سَمَنْدَل ماء وضعته في إبريق الماء، حمامة بلا ريش رعتها حتى استعادت عافيتها). إذا اشتكت إليه ماري وهما مستلقيان في الفراش ليلًا، يربِّت يدها ويقول: دعي الفتاة وشأنها. إنها من القرية، تذكَّري، وليست من البلدة. وتقول ماري عن هذا ثلاثة أشياء: آغنس ليست فتاة. هي امرأة أغوت ولدًا أصغر منها سنًّا بكثير، ولدنا، ليتزوجها لأسوأ سبب ممكن. و: أنت تسامحها كثيرًا، ليس إلا بسبب مهرها ذاك. لا تحسب أني لا أفهم هذا. و: أنا أيضًا من القرية، ونشأت في مزرعة، ولكن هل أعدو في المكان ليلًا وأجلب حيوانات بريَّة إلى البيت؟ كلا، لا أفعل. بعضنا، تقول لزوجها بازدراء، يعرف كيف يُحسِن التَّصَرُّف.

يقول ابنها بمرح وإصرار: «سيُحسِّن الأوضاع، سيساعدنا جميعًا توسُّعُ تجارة أبي على هذا النحو. إنها فكرة مُلْهِمَة من أفكاره. يعلم الرَّبُّ أنَّ الأحوال في هذه البلدة أصبحت شاقَّة عليه بما فيه الكفاية. إذا ما أخذتُ التجارة إلى لندن، فأنا على يقين من أنني قد أستطيع...»

حتى قبل أن تدرك أنَّ صبرها ينسلُّ مثل جليد من تحت قدميها، تنهض، تقف، تقبض ذراع ابنها، تهزُّها، تقول له: «ما هذه الخطة كلها إلا حماقة. لا أعلم ما الذي وضع هذه الفكرة في رأس أبيك. متى أبديت أدنى اهتمام بتجارته؟ متى أثبت أنك أهل لمسؤولية من هذا النوع؟ لندن، حقًّا! أتذكر عندما أرسلناك لجلب جلود الغزلان تلك من تشارلكوت وأضعتها في طريق العودة؟ أو عندما قايضت دزينة من القفافيز بكتاب؟ أتذكر؟ كيف

يمكنكما حتى أن تأخذا التجارة إلى لندن؟ أتحسب أنه لا يوجد صانعو قفافيز في لندن؟ سيأكلونك حيًّا حالما يرونك.»

ما تريد قوله حقًّا هو: لا تذهب. ما تريده حقًّا هو أن يكون قادرًا على إبطال هذا الزواج بهذه الوضيعة التي تجري في عروقها دماءُ الرَّعاع، وتتمنَّى لو لم يرها قطُّ، امرأة الغابة هذه التي قال عنها الجميع إنها غريبة الأطوال ومن صنف لا يصلح للزواج. لماذا وقعت عيناها على ابن ماري الذي لا عمل له ولا أملاك؟ تتمنَّى لو لم تخرج بخطة إرسال ابنها معلِّمًا إلى تلك المزرعة قرب الغابة: لو كان بوسعها العودة والتراجع عن ذلك لفعلت. تكره ماري وجود هذه المرأة في بيتها، طريقة ظهورها في الغرفة دون أن يسمعها أحد، طريقتها في النظر إليك، مباشرة إلى داخلك، مباشرة خلالك، كأنك لا شيء لها سوى ماء وهواء، الطريقة التي تدندن بها للطفلة وتغنِّي. تريد حقًّا لو أنَّ خطة جون لإيجاد فرع لتجارته في لندن ما بلغت مَسْمَع ابنها أبدًا. فكرةُ المدينة، جموعُها، أمراضُها، تُوقِف النَّفَس في صدرها.

«آغنس»، تقول فيسحب ابنها يده بانفعال، «مؤكَّد أنك تتفقين معي. لا يمكنه الذهاب. لا يمكنه الذهاب هكذا وحسب.»

أخيرًا تلتفت آغنس من النافذة. يشتدُّ غيظ ماري وهي ترى أنها ما زالت تحمل السِّنجاب بين يديها. ذيله ينزلق بين أصابعها وينساب، عيناه اللتان تبدوان مثل خَرَزَتين ذهبيتين يتخلَّلها سواد، ثابتتان على ماري. يؤلم ماري أن ترى أنَّ لآغنس أنامل جميلة. مُسْتَدِقَّة الأطراف، بيضاء، رشيقة. ماري مُكْرَهة على الاعتراف بأنَّ آغنس امرأة فاتنة. لكنه ضرب من جمالٍ مُقْلِق، خاطئ: الشَّعر الأسود لا يتَّسق والعينين الخضراوين اللتين يخالطهما لون ذهبي، البشرة أبيض من الحليب، الأسنان متباعدة على نحوٍ متساوٍ ولكنها حادَّة كأسنان ثعلب. تجد ماري نفسها عاجزةً عن النظر إلى زوجة ابنها وقتًا

طويلًا، لا تستطيع تثبيت نظرتها. هذا المخلوق، هذه المرأة، هذه العِفْريت، هذه الساحرة، جِنِّيَّة الغابة هذه -لأنها كذلك، الجميع يقول هذا، تعرف ماري أنَّ هذا صحيح- سَحَرت ابنها وأوقعته في شِراكها، استدرجته إلى الزواج. هذا لا يمكن أن تغفره ماري أبدًا.

ماري تناشد آغنس الآن. مؤكَّدٌ أنهما، في هذا، قد تكونان مُتَّحِدَتين. مؤكَّدٌ أنَّ زوجة ابنها ستقف إلى جانبها في هذا الأمر، أمر إبقائه معهما في البيت، آمِنًا، حيث يمكنهما رؤيته.

تقول ماري: «آغنس، نحن على وفاق، أليس كذلك؟ هذه خطط حمقاء لا أساس لها من الصحة. يجب أن يبقى هنا معنا. ينبغي أن يكون هنا عندما يولد هذا الطفل. مكانه معكِ، مع الأطفال. يجب أن يعمل هنا في ستراتفرد. لا يمكنه أن يهرب هكذا. أيمكنه ذلك؟ يا آغنس؟»

ترفع آغنس رأسها ويظهر وجهها لحظة تحت قلنسوتها. تبتسم تبسُّمَها الشديد الغموض والجنون، وتشعر ماري بهبوط في صدرها، ترى خطأها، ترى أنَّ آغنس لن تقف إلى جانبها أبدًا.

تقول آغنس بصوتها الرقيق الذي يشبه صوت ناي: «لا أرى سببًا لإبقائه رغمًا عن إرادته.»

تغصُّ حنجرة ماري بالغضب. تستطيع ضرب المرأة ولا يهم أنها حُبْلَى. تستطيع أخذ هذه الإبرة وغرزها في جسدها الأبيض، الجسد الذي لمسه ابنها وحمله وقبَّله وفعل به كلَّ شيء آخر. التفكير في الأمر يصيب ماري بالغثيان، بالرغبة في قذف ما في معدتها، التفكير في ابنها، طفلها، وهذه المخلوقة.

تثير جَلَبَةً مبهمة، نصفها بكاء ونصفها الآخر صراخ. تلقي عُدَّة الخياطة على الأرض وتندفع بعيدًا عن المائدة، بعيدًا عن عملها، بعيدًا عن ابنها، واثبةً

فوق الطفلة الجالسة في سلَّة قرب المدفأة وفي يديها ملعقتا المطبخ.

بينما تشق طريقها نحو الرُّواق لا يغيب عن نظرها أنَّ آغنس وابنها يشرعان في الضحك، بهدوء في البداية، ثم بصوت أعلى، مُسْكِنًا أحدهما الآخر، خطواتهما ترنُّ على الأرض الحجرية، وهما يسيران أحدهما في اتجاه الآخر بلا ريب.

بعد أسابيع، تسير آغنس عبر شوارع ستراتفرد ويدها تحت ذراع زوجها. ضخامة بطنها تعيقها عن المشي بسرعة، لا تستطيع جذب نَفَسٍ كافٍ إلى صدرها لأنَّ الطفل يستحوذ على مساحة أكبر وأكبر. تستطيع أن تستشعر محاولة زوجها المشي ببطء لأجلها، تستطيع أن تستشعر ارتعاش عضلاته بسبب الجهد الذي يبذله لقمع حاجته الفطرية إلى الطاقة، إلى الحركة، إلى السرعة. الأمر بالنسبة إليه يشبه محاولة المرء الامتناع عن الشرب حين يجتاحه العطش. إنه مستعد للذهاب: ترى هذا. كان هنالك كثير من التحضير، كثير من الجدل، كثير من التدبير ينبغي القيام به، رسائل لتُكتب، حقائب لتُحْزَم، ثياب يجب أن تغسلها ماري بنفسها مرارًا وتكرارًا، لا يُسْمَح لأحد آخر بفعل ذلك. ثمَّة عيِّنات من القفافيز يجب أن يشرف عليها جون، ثم يحزمها، ثم يفرغها ويعيد حزمها.

والآن حانت اللحظة. تصرِّفها آغنس: إنه راحل، يرحل، سيرحل. جمعت هذه الظروف بعضها إلى بعض، حرَّكتها كأنها محرِّك دُمى يختبئ خلف ستار، برفق يسحب خيوط شخصياته الخشبية، يرخيها ويوجِّهها إلى حيث تذهب. طلبت من بارثولوميو أن يتحدَّث إلى جون، ثم انتظرت جون ليتحدَّث إلى

زوجها. لا شيء من هذا كان سيحدث لو لم تذهب إلى بارثولوميو ليزرع الفكرة في رأس جون. لقد خلقت هذه اللحظة بنفسها -لا أحد آخر- ومع ذلك، واللحظة تحدث الآن، تجد أنها تتعارض تمامًا مع ما ترغب فيه.

ما ترغب فيه هو أن يبقى إلى جانبها، أن تبقى يده في يدها. أن يكون هناك في البيت حينما تنجب هذا الطفل في العالم. أن يكونا معًا. لكنَّ ما ترغب فيه لا يهم. إنه راحل. ومع ذلك، فإنها ترسله بعيدًا سِرًّا.

حقيبته مُوثقة ومربوطة إلى ظهره. المزيد من صناديق البضائع سيُرسَل بعد أن يقرَّ به المقام. حذاؤه نظيف وبرَّاق، دَهَنت طيَّاته بالشَّحم لتمنع عنها رطوبة طرقات لندن.

تلقي آغنس نظرة إليه بزاوية عينها. صفحة وجهه مُحَدَّدة، لحيته مُشَذَّبة ومدهونة بالزيت (فعلت هذا بنفسها أيضًا الليلة الماضية، بعد أن سَنَّت الشَّفْرَة على المِسَنِّ الجلدي، لتضع حافتها الحادة على بشرة حبيبها؛ يا لها من ثقة، يا له من خضوع!). يخفض بصره: لا يودُّ أن يحيِّي الناس أو يتحدَّث طويلًا. يده تشدُّ على يدها، أصابعه تضغطها بشدة. إنه متحمِّس للانطلاق. للانتهاء من هذا. للبدء.

يتحدَّث عن ابن عم له سيزوره في لندن، وكيف أنَّ ابن العم أمَّن غرفة له.

«هل هي على ضفة النهر؟» تسمع نفسها تقول، مع أنها تعرف الإجابة: قال لها هذا كلَّه من قبل. يبدو مهمًّا أن يتابعا الحديث، عن أشياء لا أهمية كبيرة لها. أهالي ستراتفرد جميعهم حولهما. يراقبون، يلاحظون، يصغون. مهمٌّ له، لها، للعائلة، للتجارة، أن يبدوا متَّسِقَين في الخطوة، وعلى وفاق. أنَّ يدحض مشيهما معًا الشائعات المنتشرة: لا يمكنهما العيش معًا، تجارة جون تعاني

الإخفاق، يرحل إلى لندن بسبب فضيحة ما.

ترفع آغنس ذقنها أعلى قليلًا. ليس ثمَّة فضيحة، تقول استقامة ظهرها. ليس ثمَّة مشكلة في زواجنا، يقول خصرها المُتَثنِّي الفخور. ليس ثمَّة إخفاق في التجارة، يقول حذاء زوجها اللامع.

يقول: «إنها كذلك، وأحسب أنها ليست ببعيدة عن المدابغ. وهكذا سأتمكَّن من زيارة المدابغ لأجل أبي وتحديد أيها الأفضل.»

«فهمت»، تقول، مع أنَّ شعورًا واضحًا يساورها بأنه لن يمكث في تجارة القفافيز طويلًا.

يتابع: «النهر، يقال إنَّ مَدَّه خَطِر.»

«أوه؟» تقول، مع أنها سمعته يقول هذا لأمِّه.

«يقول ابن عمي إنه أمر شديد الأهمية أن تضمن وجود مَلَّاح خبير في كل مرة تعبر فيها النهر.»

«حقًّا.»

يتابع الحديث عن ضفاف النهر المختلفة، عن أرصفة المرسى، كيف أنَّ أوقاتًا معينة في اليوم أآمن من أوقات أخرى. تتخيَّل نهرًا عظيمًا واسعًا، هائجًا بتيَّار عاتٍ، مُرَصَّعًا بسفن صغيرة مثل ثوب مَخِيطٍ بالخرز. تتخيَّل إحدى هذه السفن حاملةً زوجها، يجرفها التيار، رأسه الأسود حاسر، ثيابه مملوءة بماء النهر، مبقَّعة بالوحل، حذائه فائض بالطين. تهزُّ رأسها، أصابعها تقبض ذراعه الصلبة، لتطرد هذه الفكرة. ليس صحيحًا، لن يكون صحيحًا، إنه عقلها فحسب يحوك لها الحِيَل.

تمشي معه بعيدًا إلى نُزُل البريد، يتحدَّث هو الآن عن السكن، وأنه سيعود

قريبًا جدًّا، وأنه سيفكِّر فيها وفي سوزانا، كل يوم. سيؤمِّن مسكنًا لهم جميعًا هناك، في لندن، في أقرب وقت ممكن، وسيعيشون معًا مرة أخرى، قريبًا. هناك، عند الصُّوَّة التي تحمل سهمًا يتجه إلى «لندن London» (تعرف هذه الكلمة، حرف L الكبير الواثق، حرفا الـ o الدائريان مثل زوج من العيون، قوس حرف n المتكرِّر)، يقفان.

يقول بوجه متغضِّن: «هل ستكتبين إليَّ؟ عندما يحين الوقت؟» تمتد كلتا يديه نحوها وتحيطان بانحناء بطنها السفلي.

تقول: «قطعًا.»

يبتسم ابتسامًا حزينًا: «أبي يتمنَّاه صبيًّا.»

«أعرف.»

«لكنني لا أبالي. صبي أم بنت. آنسة أم فتى. كله سيَّان عندي. حالما يبلغني الأمر، سأعد العدة للمجيء وحملكم جميعًا. ثم سنكون معًا في لندن.»

يدنيها إليه، أقرب ما يمكن، بينهما البطن المنتفخ بالطفل، وذراعاه حولها. يهمس في أذنها: «ألم يساورك أي شعور؟ أي إحساس هذه المرة؟ بما سيكون؟»

تميل برأسها نحوه، قريبًا من فُرْجَة قميصه. «كلا»، تقول مدركةً الارتباك في صوتها. لقد فاجأها عجزها عن تخيُّل الطفل الذي تحمله أو التكهُّن به: بنت أم ولد، لا تستطيع القول. لا تتلقَّى أية علامات حاسمة. أسقطت سكِّينًا من المائدة ذلك اليوم وكانت تشير صوب النار. بنتٌ، إذًا، فكَّرت. لكنها في وقت تالٍ من اليوم نفسه ألفت نفسها تتناول ملعقة من معجون التفاح، طعمه حاد، هشّ على نحو لطيف وفكَّرت: ولد. كلُّه أمر محيِّر تمامًا. شعرها جاف ويتقصَّف عندما تمشطه، وهو ما يعني بنتًا، لكنَّ بشرتها ناعمة، أظافرها قوية، وهو ما يعني ولدًا. ذَكَرُ زقزاق يطير في طريقها في يوم آخر،

لكن بعد ذلك تخرج أنثى دُرَّاج من الأجمة صائحةً.

تقول: «لا يمكنني القول، ولا أعرف لماذا. إنه...»

«يجب ألَّا تقلقي»، يقول ممسكًا بوجهها ورافعًا إيَّاه حتى ينظر كل منهما إلى عيني الآخر. «كل شيء سيكون على ما يرام.»

تومئ برأسها، خافضة بصرها.

«ألم تقولي دائمًا إنك ستنجبين طفلين؟»

تقول: «بلى.»

«حسنًا إذًا. هنا» يضع راحة يده عليها، «الثاني. مستعدٌّ وينتظر. كل شيء سيكون على ما يرام» يقول مرة أخرى. «أعرف ذلك.»

يقبِّلها قبلة كاملة في فمها، ثم يتراجع إلى الوراء ليتأمَّلها. تشدُّ وجهها بابتسام، وتجد نفسها تأمل لو أنَّ بعض أهالي البلدة يراقبها. لا بأس، تفكِّر وهي تضع يدها على وجنته، لا بأس، أصابعها تلمس شعره. يقبِّلها مرةً أخرى، وقتًا أطول هذه المرة. ثم يتنهَّد، مداعبًا مؤخر رأسها، ووجهه مندسٌّ في عنقها.

«لن أذهب»، يغمغم، لكنها تحسُّ بشدِّ الكلمات وجذبها، وكيف يقولها، إلَّا أنها في الوقت نفسه تبتعد عن مشاعره الحقيقية.

تقول: «ستذهب.»

«لن أذهب.»

«يجب أن تذهب.»

يتنهَّد مرة أخرى، تهفُّ أنفاسه على مقدمة قلنسوتها.

«ربما لا يجدر بي أن أتركك وأنتِ... أعتقد أنه ربما...»

«يجب أن تذهب»، تقول وأصابعها تلمس نسيج حقيبته التي تعرف أنه أخرج منها بعض عيِّنات القفافيز التي أعطاه إياها أبوه واستبدل بها كتبًا وأوراقًا. ابتسمت له نصف ابتسام ساخر. لعلَّه يدرك معرفتها بهذا الفعل، ولعلَّه لا يدرك ذلك.

«معي أمُّك وأختك»، تتابع ضاغطةً حقيبته بيدها، «وعائلتك كلُّها. فضلًا عن عائلتي. ينبغي أن تذهب. ستجد لنا بيتًا جديدًا في لندن وسننضم إليك هناك، بأسرع ما يمكن.»

يغمغم: «لا أعرف، أكره أن أتركك. وماذا لو أخفقت؟»

«تخفق؟»

«ماذا لو لم أجد عملًا هناك؟ ماذا لو لم أتمكَّن من التوسُّع في التجارة؟ ماذا لو...»

تقول: «لن تخفق، أعرف ذلك.»

يعبس وينظر إليها بإمعان أكبر. «تعرفين ذلك؟ ماذا تعرفين؟ خبِّريني. أتُحِسِّين بشيء ما؟ هل...»

«لا تهتم بما أعرف. يجب أن تذهب.» تدفع صدره تاركة هواء وفراغًا بينهما، شاعرة بيديه تنزلقان منها، تنفصلان عنها. وجهه متغضِّن، متوتِّر، غير أكيد. تبتسم له، جاذبةً نَفَسًا إلى صدرها.

«لن أقول وداعًا»، تقول محافظة على ثبات صوتها.

«وأنا أيضًا.»

«لن أنظر إليك إذ تسير مبتعدًا.»

«سأسير إلى الخلف»، يقول متراجعًا إلى الوراء، «حتى أبقيك في ناظري.»

«طوال الطريق إلى لندن؟»

«إذا كان عليَّ ذلك.»

تضحك. «ستقع في حفرة. ستصطدم بعربة.»

«ليكن.»

ينطلق إلى الأمام، يدنيها إليه ويقبِّلها قبلة واحدة. «هذه لكِ»، يقول، ثم يقبِّلها مرة أخرى. «وهذه لسوزانا.» وأخرى، «وهذه للطفل.»

«سأحرص على نقلها»، تقول محاولة الحفاظ على ابتسامها، «عندما يحين الوقت. اذهب الآن.»

«أنا ذاهب»، يقول، يمشي مبتعدًا عنها، ما زال يواجهها. «لا يبدو الأمر كأنه رحيل إذا مشيت على هذا النحو.»

تصفِّق بيديها. تقول له: «اذهب.»

«إنني ذاهب. لكنني سأعود قريبًا جدًّا لأخذكم جميعًا.»

تستدير مبتعدةً قبل أن يصل إلى منعطف الطريق. سينفق أربعة أيام ليصل إلى لندن، وأقل من ذلك إذا ما أقلَّه مزارع راضٍ لديه عربة يد. تشجِّعه على الذهاب، لكنها لن تراقبه يرحل.

تسير، أبطأ، عائدة على الطريق الذي أتت منه. كم يبدو شعورًا غريبًا أن تمشي على الطرقات نفسها، على الدرب نفسه في الاتجاه المعاكس، مثل إعادة كتابة كلمات قديمة، قدماها ريشة كتابة، تعيد العمل، تعيد الكتابة، تمحو. الفراق غريب. يبدو بسيطًا جدًّا: منذ دقيقة خلت، منذ أربع دقائق، خمس دقائق، كان هنا، قربها، والآن، قد رحل. كانت معه، أصبحت وحيدة. تشعر

بأنها عارية، باردة، مقشَّرة كبصلة.

ثمَّة الكُشك الذي مرَّا به في وقت سالف، تتكدَّس فيه أواني الصفيح ونشارة الأرز. ثمَّة المرأة التي شاهداها، لم تتخذ قرارها بعد، تحمل قِدْرين بين يديها، تزنهما، وكيف يحدث أنها ما زالت هناك، كيف يحدث أنها ما زالت منهمكة في النشاط نفسه، في اختيار قِدْر، عندما يقع تغيير كهذا، تحوُّل كهذا في حياة آغنس؟ تصدَّع عالمها صدعَين، وها هو ذا الكلب نفسه غافيًا على عتبة. ها هي امرأة شابة تربط الثياب في صُرَر، تمامًا مثلما كانت تفعل عندما عبرا. ها هو جارها، رجل بشعر أشيب ومَسْحَة من لون أصفر على وجهه النحيل (لن يعيش حتى نهاية العام، تفكِّر آغنس، تحلِّق هذه الحقيقة عبر عقلها مثل سنونو يعبر السماء)، يومئ إليها إيماءة رزينة وهي تعبر. ألا يمكنه أن يرى، ألا يمكنه أن يقرأ كما تعرف هي أنَّ تلك الحياة ستنتهي، أنه راحل؟

يتحرَّك الطفل حركة سريعة، حركة هزِّ كتف، ضاغطًا الجدار الجلدي براحة يده، بقدمه، بكتفه. تضع يدها هناك -يدٌ في الخارج إلى جانب يدٍ في الداخل- كأنَّ شيئًا لم يتغيَّر، كأنَّ العالم تمامًا مثلما كان.

يحمل رسالة ليزا فتى يقع منزله على بعد مسافة قصيرة: استيقظ وخرج سائرًا على شارع هنلي قبل الفجر لأنَّ والده أرسله ليعتني ببقرة حبلى في الضفة الأخرى من النهر. هتفت به ماري من النافذة، أعطته الرسالة ووجهته إلى حملها إلى نُزُل البريد داسَّةً عملة معدنية في يديه.

يدسُّ الصبي الرسالة في رُدْنه، ليس قبل أن يفحص الخربشة المائلة على وجهها. لم يتعلَّم القراءة قطُّ، لذا لا تعني له شيئًا، لكنه مع ذلك، يحبُّ دوائر الحبر، أشكاله، ظلاله المتقاطعة القاتمة، مثل العلامات التي تظهر عند اهتزاز الأغصان على لوح نافذة يغطِّيه الثلج.

يحملها إلى النُّزُل القريب من الجسر، ثم يتابع طريقه قاصدًا بقرته التي لم تلد بعد وتحملق إليه بعينين واسعتين تبدوان للفتى فزعتين، وفكَّاها يمضغان الطعام. في وقت تالٍ من ذلك الصباح، يسلِّم صاحب النُّزُل الرسالة مع رسائل أخرى إلى تاجر حبوب في طريقه في ذلك اليوم إلى لندن.

تسافر رسالة إليزا إلى شقيقها في محفظة تاجر الحبوب الجلدية إلى أن تبلغ بانبري. من هناك، تنقلها عربة يد إلى ستوكنتشيرش، وتحطُّ عند باب مسكنه. يضيِّق مالك المسكن عينه رافعًا نظره إلى ضوء الشمس المتسلِّل إلى الرواق بانحراف. بصره كليل. يرى اسم المستأجر الذي غادر بالأمس إلى كنت. المسارح مغلقة، بسبب الوباء، بأمر من بلاط الملكة، ولذلك ذهب المستأجر ورفاقه الممثِّلون في جولة إلى البلدات المجاورة، أماكن يُسْمَح فيها باجتماع

حشد من الناس.

يجب أن ينتظر المالك عودة ابنه من قضاء بعض أعمال التجارة في تشيپسايد. عندما يعود -منزعجًا، لأنَّ الشخص الذي كان من المُقَرَّر أن يقابله لم يأتِ وهطلت بغزارة وابتلَّ الابن- تنقضي بضع ساعات قبل أن يجد حبرًا وريشة، يتناول الرسالة من رفِّ المدفأة، وبعناية، ولسانه محشور في زاوية فمه، يكتب عنوان النُّزُل في كنت حيث أخبرهما المستأجر أنه سيقيم.

تنتقل الرسالة بعد ذلك من يد إلى أخرى، ثم إلى نُزُل في ضواحي المدينة حيث تنتظر أيَّ شخص يسافر إلى كنت، وفي هذه الحال، رجلًا يدفع عربة يد تجلس عليها امرأة وكلب ودجاجة.

عندما تصله الرسالة، يكون هو -المستأجر، الأخ، الزوج، الأب، وهنا الممثِّل- واقفًا في مبنى بلدية في بلدة صغيرة على أطراف كنت الشرقية. تفوح من المبنى رائحة لحم مقدَّد وشَمَنْدَر مسلوق، ثمَّة كومة من أدوات زراعية وأكياس خيش في الزاوية، شِفَارٌ نحيلة من الضوء تتسلَّل إلى المكان من نوافذ عالية مبقَّعة بالعَفَن.

يميل إلى الخلف لينظر إلى حُزَم الضوء الواهنة هذه، متأمِّلًا كيف يلتقي بعضها ببعضها الآخر في منتصف المبنى مشكِّلًا قناطر من الضوء، وكيف تمنح الفضاءَ بأكمله إحساسًا بأنه تحت الماء، كأنه وباقي رفاقه أسماك تسبح في الأنحاء في الأعماق القاتمة لبركة خضراء.

طفل صغير -يظن أنه صبي- يندفع داخلًا، حافي القدمين، حاسر الرأس، رث الثياب، خشن البشرة، ويصيح باسمٍ قريبٍ من اسمه بصوت نحيل حازم، ملوِّحًا برسالة عاليًا كأنها عَلَم.

يقول بضجر مادًّا يده: «إنه أنا.» سيكون مضمونها طلبًا للمال، أو

شكوى، أو قرارًا من وليِّ نعمة. «اسمعوا هذا»، يقول لرفاقه الذين يجولون بلا هدف على المنصَّة المرتفعة، ويعتقد أنهم لا يبدون كمن سيؤدي عرضًا في غضون أقل من ثلاث ساعات، كأنَّ لا شيء يحدث هنا على وجه الخصوص في هذا المبنى المُغْبَرّ. «ستحتاجون إلى أن تحصوا خطاكم من اليسار إلى اليمين، هكذا،» يوضِّح سائرًا نحو الطفل الحافي، «وإلا وقع أحدكم خارج المسرح وعلى الجمهور. إنه أصغر مما اعتدناه، لكننا يجب أن نعتاده.» يتوقَّف أمام الطفل. شعره عديم اللون على نحو غريب وعيناه واسعتان. دُمَّل على شفته السفلى. أظافره تحف بها القذارة. له من العمر ست سنين أو سبع، ربما أكثر.

يأخذ الرسالة من قبضة الصبي. «لي؟» يقول داسًّا أصابعه في محفظته ومُخْرِجًا عملة معدنية. «ولك.» يلقي العملة في الهواء بينهما. فورًا، ينبض الطفل بالحيوية، جسده الهزيل يقفز مفعمًا بالحياة.

يضحك، منقلبًا على عقبيه يزيل الختم الأحمر المدموغ بعيدًا عن الوسط قليلًا بِشَارة عائلته. يميِّز خط يد أخته قبل أن يرفع رأسه. على خشبة المسرح، يسير الفتى الصغير بخطى متصلِّبة نحو الممثل الأكبر منه سنًّا، يمشي على حافة المنصة كأنَّ الأرض تحته مغمورة برصاص يغلي.

«يا إلهي!» يزأر، صوته يمتد إلى الدعائم الخشبية، إلى قشور الجبس على الجدران. يعرف كيف يبدِّل صوته، كيف يمدُّه ليصبح صوتَ عملاق. يتجمَّد الممثِّلون، يفغرون أفواههم. «ليس أمامنا إلا سويعات قبل أن يمتلئ هذا المبنى بأهالي كنت الطيبين. هل تعتزمون عرض سيرك لهم؟ هل ننوي إضحاكهم أم أننا نعرض مأساة؟ فكِّروا في الأمر وإلا لن نأكل شيئًا في الغد.»

يلوِّح بالورقة التي يحملها في الهواء، يحدِّق إليهم لحظة أطول، لإحداث تأثير. يبدو أنَّ الأمر ينجح. يكاد الفتى الصغير يبكي وهو يثني أصابعه في زيِّه. يستدير هو ليخفي ابتسامه، ثم ينظر إلى الرسالة.

يرى، «أخي العزيز». و«مريضة جدًّا» «من فضلك عُد إلينا»، تقول الرسالة: «لم تتبقَّ لها ساعات كثيرة.»

يبدو من الصعب التنفُّس، فجأةً. الهواء في المبنى حارٌّ كَفُرْن، محمَّل بنُثار التِّبن. يشعر بصدره يجهد بين زفير وشهيق، لكن لا يبدو أنَّ ثمَّة هواء يصله. يحدِّق إلى الورقة، قارئًا الكلمات، مرةً، مرتين. في لحظة ما يبدو أنَّ بياض الورقة ينبض، حادًّا وساطعًا، ثم ينحسر خلف علامات الحروف السوداء. يرى ابنته لحظةً، ترفع وجهها لتنظر إليه، تشبك أصابعها، عيناها ثابتتان عليه. يريد أن يحلَّ أربطة ثيابه، يريد أن يمزِّق أبازيمه. يجب أن يخرج، يجب أن يغادر هذا المبنى.

حاملًا الرسالة في قبضته، يُهرَع إلى الباب، يندفع بثقله عليه. في الخارج، تهاجم الألوان عينيه: السماء الوامضة بلون اللازورد، عشب الحافة بلونه الأخضر العدائي، أزهارُ شجرةٍ صفراءُ شاحبةٌ، الثوب الوردي الذي ترتديه امرأة تقود فرسًا على الطريق. على خاصرتي الحيوان تتدلَّى سلَّتان منسوجتان. فورًا يتبيَّن له أنَّ إحدى السَّلَّتين أثقل بكثير من الأخرى: السَّلَّتان غير متعادلتين، تنجرُّ إحداهما على الأرض.

على الرغم من ذلك العبء، يريد أن يصرخ في المرأة، مثلما صرخ توًّا في الممثِّلين داخل المبنى. لكنه لا يستطيع التنفُّس. ما زالت رئتاه ترتفعان صعودًا وهبوطًا، قلبه يطرق قفصه الصدري، يطرق، يتردَّد، يطرق مرة أخرى. يزيغ بصره، أزهار الشجرة الشاحبة ترتعش كأنه يراها من خلال نار حامية.

مريضة جدًّا، يفكِّر، لم تتبق ساعات كثيرة.

يريد أن يمزِّق السماء، يريد أن ينزع كل زهرة من تلك الشجرة، يرغب في أن يأخذ غصنًا مشتعلًا ويدفع تلك الفتاة المتسربلة بالوردي وفرسها من على

منحدر، فقط ليتخلَّص من هذا كلِّه، ليبعده عن طريقه. أميال كثيرة جدًّا، طرق كثيرة جدًّا تقف بينه وبين طفلته، وما بقي إلا ساعات قليلة.

يحسُّ بيدٍ على كتفه، بوجه قريب من وجهه، ويد أخرى تمسك بذراعه. اثنان من رفاقه هناك، يقولان: ما الخطب، ماذا حدث؟ أحدهما، همنغ، يحاول أخذ الرسالة من يده، نزعها من بين أصابعه، لكنه لا يفلتها، لا يفلتها. إذا قرأ شخص آخر هذه الكلمات فقد تغدو صحيحة، قد تتحقَّق. يبعد عنه الرجال، يبعد رفيقيه، يبعد الجميع، لأن هناك المزيد منهم، من رفاقه الممثِّلين، يتزاحمون حوله، لكنه على نحوٍ ما، يحسُّ بالأرض القاسية تحت ركبتيه، وصديقه همنغ يقرأ كلمات الرسالة بصوت عال. أيدٍ تربِّت كتفيه الآن، تساعده على الوقوف. شخص يقول لشخص آخر أن ينطلق بحثًا عن فرس، أي فرس، أنهم يجب أن يساعدوه على الذهاب إلى ستراتفرد في أقرب وقت ممكن. اذهب، يحثُّ همنغ الفتى الصغير الذي كان منذ وقت ليس ببعيد خائفًا من السقوط من على حافة المسرح، اذهب واجلب فرسًا. ينطلق الفتى الصغير على الطريق، التراب يتطاير من عقبيه، زِيُّه -شيءٌ سخيف مطرَّز ومخملي صُنِع ليوهم بامرأة في هيئة فتى- يخفق حواليه.

يراقبه يذهب، محدِّقًا خلال أجمة السيقان المحيطة به.

قرب نهاية حمل آغنس الثاني، تنتبه ماري. لا تترك آغنس وحدها وقتًا طويلًا. لاحظت أنَّ بطن كَنَّتِها يكبر ويكبر ويصبح أكثر استدارة مما يبدو ممكنًا. رأت آغنس تخبِّئ أشياء معينة في جراب تحت المائدة: خِرَقًا، مقصًّا، خيوطًا، حُزَم أعشاب وقشور فاكهة جافة. مظهرها مثير للدَّهَش، كأنها تهرِّب يقطينًا تحت ثوبها. لا أفهم كيف أنها ما زالت قادرة على المشي، غمغم جون ذات ليلة وهما مستلقيان على سريرهما، الستائر حولها محكمة الإغلاق. كيف تبقى واقفة؟

تبقي ماري عينها عليها، وتوعز إلى إليزا والخادمات فعل الشيء نفسه. لن تسمح بولادة هذا الحفيد -صبي، كما يأمل جميعهم- في أجمة، مثل سوزانا المسكينة. لكنَّ هذا، تعزِّي نفسها، كان قبل أن يدركوا تمامًا مدى غرابة أطوار آغنس وطرقها.

«في اللحظة التي تطلب فيها منك الاعتناء بسوزانا، في اللحظة التي ترينها تمدُّ يدها إلى ذلك الجراب، أخبريني»، تهمس ماري للخادمة. «في تلك اللحظة تمامًا. أتسمعينني؟»

تومئ الفتاة برأسها، عيناها مفتوحتان على اتساعهما.

تُسخِّن آغنس العسل على النار، عازمةً على أن تقلِّب فيه خلاصة الناردين ومحلول عشب الطيور. تغمس فيه ملعقة وتدفعه في اتجاه ثم في الاتجاه الآخر، مراقبةً إيَّاه ينزلق على رأس الملعقة الخشبي وحوله. يبدأ في الاستسلام للحرارة، يرتخي ويلين ليصبح سائلًا متحوِّلًا من شكل إلى آخر. تفكِّر في الرسالة التي وصلت من زوجها في وقت سالف خلال الأسبوع. طلبت من إليزا أن تقرأها لها مرتين وتريد أن تطلب منها أن تقرأها مرة أخرى اليوم حالما تجدها. فيها، يخبر آغنس بأنه حاز عقدًا لصنع قفافيز لممثِّلين في مسرحٍ ما: كان على آغنس أن تطلب إلى إليزا أن تعود وتقرأ هذه الكلمات مرة أخرى، حتى تتيقَّن من أنها فهمت، أن تشير إليها في الورقة حتى تتمكَّن من التعرُّف إليها لاحقًا. ممثِّلون. مسرح. قفافيز. يحتاجون إلى مثل هذه القفافيز، قرأت إليزا بتردُّد، بوجه عابس، وهي تتلفَّظ بالكلمات غير المألوفة. قفافيز واقية طويلة للقتال، قفافيز فاخرة بجواهر وخرز لملوكٍ وملكات ومشاهد في البلاط، قفافيز ناعمة للنساء، لكنَّ الحجم يجب أن يكون أكبر بالضرورة في هذا النوع ليلائم أيدي صبية المسرح الصغار.

ثمَّة الكثير ينبغي التفكير فيه مليًّا في هذه الرسالة. أنفقت آغنس أيَّامًا لتستوعب التفاصيل كلَّها، قلَّبت الكلمات مرارًا وتكرارًا في رأسها، تتبَّعَتْها بأصابعها، والآن تحفظها عن ظهر قلب. جواهر وخرز. مشاهد في البلاط. أيدي صبية المسرح الصغار. وقفافيز ناعمة للنساء. ثمَّة شيء ما في الأسلوب الذي كَتَب به هذا كلَّه، بهذا التفصيل الطويل، في الفقرة الطويلة عن هذه القفافيز للممثِّلين، شيءٌ ينبِّه آغنس إلى خَطْبٍ ما. ليست على يقين بعد ما يكون. تغيُّرٌ ما فيه، تبدُّلٌ ما أو تحوُّلٌ ما. لم يكتب من قبل قطُّ كثيرًا عن شيء صغير جدًّا: عَقْد قفافيز. إنه عقد فحسب، مثل عقود كثيرة، لماذا، إذًا، تشعر

مثل حيوان صغير يسمع صوتًا بعيدًا؟

تميل لتأخذ محلول عشب الطيور وتوشك أن تضيفه إلى العسل، قطرةً بطيئة بعد قطرة، عندما تشعر بتشنُّج غريب لكنه مألوف أسفل بطنها. جَذْبٌ إلى الأسفل، إطباق: لحوح، دقيق. تتوقَّف. لا يمكن أن يكون ذلك. ما زال الوقت مبكِّرًا جدًّا. ما زال هناك على الأقل قمر آخر يبلغ اكتماله قبل أن يولد الطفل. لا بدَّ أنه ألم كاذب، أحد تلك الآلام التي تحذِّر الجسد مما هو آتٍ. تستقيم مستخدمة المدفأة سندًا. بطنها كبير جدًّا -أكبر بكثير من المرة السالفة- إلى درجة أنها معرَّضة لخطر السقوط على اللهب.

تتمسَّك برفِّ المدفأة مراقبةً بتجرُّد غريب براجمها وهي تستحيل بيضاء. ما الذي يحدث؟ كانت تنوي أن تطلب من إليزا -اليوم أو غدًا- أن تكتب إليه، أن تطلب منه أن يعود إليهم. قرَّرت أنها تريده أن يكون هنا عندما تحين الولادة. تودُّ أن تراه مرة أخرى، أن تمسك بيده، قبل أن يخرج هذا الطفل إلى العالم. تريد أن تنظر إلى وجهه، أن تعرف ماذا يحدث في حياته، أن تسأله عن هذه القفافيز للملوكٍ وملكاتٍ وممثِّلين. تدرك وهي واقفة قرب النار أنها تريد أن تتيقَّن من أنه هو نفسه مثلما كان دائمًا، ومما إذا كانت لندن قد غيَّرته على نحو لا يمكن معه التعرُّف إليه.

تتنشَّق: رائحة العسل الزهرية الحلوة، الناردين الحرِّيف، عبير عشب الطيور المِسْكِيّ الحامض. الألم، بدلًا من أن يخف، يشتد. تدرك أن منتصف جسدها يتشنَّج، كأنَّ حزامًا حديديًّا وُضع حولها. ليس هذا بألم كاذب. سيعصرها ويعصرها حتى يلفظ جسدها هذا الطفل. قد يستمر ساعات، أيَّامًا: تجد أنها لا تستطيع أن تعرف كم سيطول. تحرِّر آغنس أنفاسها، ببطء، ببطء، يدها على المدفأة. لم تتوقَّع هذا. لم تكن ثمَّة إشارة.

حسبت أنَّ لديها متسعًا من الوقت لترسل إليه. لكن ليس هنالك وقت

الآن. هذا مبكِّر جدًّا. تعرف هذا. لكنها تعرف أيضًا أنَّ ألمًا كهذا لا يمكن مجادلته، لا يمكن التحايل عليه.

تستدير آغنس لتواجه الغرفة. كلُّ شيء حولها يبدو مختلفًا فجأةً، كأنها لم تره من قبل قطُّ، كأنَّها لا تمسح يوميًّا هذه المائدة وهذه المقاعد وتلمِّعها، وتكنس هذا البلاط، وتنفض الغبار عن بُسُط الحائط والسجاد. من يعيش هنا في هذه الغرفة الضيقة ذات النوافذ الرَّصاصيَّة الأُطُر في طرفها والرفوف الطويلة التي تحمل الآنية والمساحيق؟ من يضع سيقان البندق تلك في إناء حتى تزهر براعمها القوية مبكِّرًا وتثمر أوراقها اللامعة المتغضنة؟

هجرها اليقين. لا شيء يبدو مثلما اعتقدت. حسبت أنَّ أمامها مزيدًا من الوقت، حسبت أنَّ هذا الطفل سيأتي في وقت متأخر لاحقًا، لكن لا يبدو الأمر كذلك. هي، التي طالما عرفت، طالما أحسَّت بما سيحدث قبل أن يحدث، التي تحرَّكت بهدوء خلال عالم شفَّاف تمامًا، قد زلَّت قدمها، أُخِذت على حين غرة. كيف يمكن أن يحدث هذا؟

تلمس آغنس بطنها، كأنها تتصل بالطفل في الداخل. حسن جدًّا، تريد أن تقول له إنَّ ما يجب أن يكون سيكون. سأصغي إليك. سأستعد لك.

عليها أن تسرع. عليها أن تخرج من هذا المنزل بأسرع ما يمكن. لن تلد هذا الطفل هنا، تحت هذا السقف. تعلم أن ماري تراقبها. إنها بحاجة إلى أن تكون سريعة وهادئة ومراوغة. بحاجة إلى المغادرة الآن.

إلى جانبها، تجثو جوانا على الأرض، تمسك بساق دميتها هاتفة لنفسها.

«تعالي»، تقول لها آغنس قاصدة نبرة رشيقة مبهجة. تمدُّ يدها. «لنذهب ونجد إليزا، هل نذهب؟»

سوزانا، المنهمكة في لعبها مع الدمية المقلوبة رأسًا على عقب، يفاجئها

أن ترى يد شخص بالغ تحطُّ عليها من الأعلى. في لحظة ما كانت هناك دمية والدمية كانت شخصًا يستطيع الطيران، إلا أنه لا يمكن رؤية جناحيها، وسوزانا تستطيع الطيران أيضًا، وكانت هي والدمية تحلِّقان في السماء بين الطيور، عاليًا فوق الأشجار. والآن ثمَّة هذا: يد.

ترفع رأسها وترى أمَّها فوقها، ببطن هائل، ووجه بعيد قائلةً شيئًا عن إليزا، عن الذهاب.

تقطِّب سوزانا وجهها وتعبس. «لا»، تقول واضعةً كلتا يديها حول ساق دميتها.

«أرجوك»، تقول أمُّها ولا يبدو صوتها مثلما هو عادة. حادٌّ ومتوتِّر، مثل قميص ضيِّق.

«لا»، تقول سوزانا مرة أخرى، غاضبة الآن، لأنَّ إحساسها باللعب يتبخَّر، ينجرف بعيدًا مع كل هذا الكلام من الأعلى. «لا-لا-لا!»

«نعم»، تقول آغنس، وتُفاجَأ سوزانا عندما تشعر بنفسها تُرفَع واقفة على قدميها، البساط المفروش أمام الموقد ينزلق بعيدًا عنها، النار تشتعل في الموقد وراءها وهي تُحمَل دونما كياسة خارج الغرفة، بعيدًا عن دميتها التي سقطت على الأرض، إلى أسفل الدرب المفضي إلى المغسل، حيث تقف الخادمة تفرك شيئًا في طست.

«هنا»، تقول آغنس دافعةً الطفلة الهائجة بين ذراعي الخادمة. «هلَّا حَمَلْتِها إلى إليزا؟» تميل وتقبِّل سوزانا على وجنتها، ثم على جبينها، ثم على وجنتها مرة أخرى. «آسفة يا حبيبتي. سأعود. قريبًا جدًّا.»

تسير آغنس سريعًا، سريعًا جدًّا أعلى الدرب لتصل إلى بيتها تمامًا عندما تبدأ نوبة الألم التالية. ما من شك الآن في ما يحدث. تتذكَّر الأمر كلَّه من

المرة الماضية، عدا أنها تحسُّ بهذا الألم مختلفًا بعض الشيء. إنه سريع، مبكِّر، مُلِحّ. ليست بعد في المكان الذي تحتاج إلى أن تكون فيه، في الغابة، وحدها، والأشجار فوق رأسها. ليست وحدها. إنها ما زالت هنا، في البلدة، في البيت. ليس لديها لحظة لتضيِّعها. آه-آه-آه، تسمع نفسها تلهث. تتمسَّك بظهر كرسي إلى أن يعبر الألم. ثم تشقُّ طريقها عبر الغرفة إلى المائدة حيث تركت جرابها.

تمسك بحزام الجراب وتكون عند بابها الأمامي في ثوانٍ، تحرِّك جسدها عبره، وتخرج. قبل أن تغلقه، تصغي لحظة، ثم تومئ برأسها راضية: توقَّف عويل سوزانا، وهذا يعني أنها بين يدي عمَّتها.

تنطلق على الطريق، تتوقَّف لتسمح لحصان بالعبور، عندما يأتي شخص ويسير إلى جانبها. تلتفت لترى غلبرت، صهرها، إلى جوارها مبتسمًا.

«أذاهبة إلى مكان ما؟» يقول رافعًا حاجبيه.

«لا»، تقول آغنس مذعورة فيرتعش حاجبها. يجب أن تصل إلى الغابة، يجب. إذا أُجبرت على البقاء هنا، لا تدري ما قد يحدث. ذلك يُنْذِر بالسوء. خطأ ما سيقع. إنها على يقين تام من هذه الحقيقة، لكنها عاجزة عن التفسير. «أعني، أجل. إلى...» تحاول التركيز على غلبرت لكنَّ وجهه، لحيته، يبدوان غائمين وغير واضحين. يفاجئها، مرة أخرى، كم يبدو مختلفًا عن أخيه. «إلى...» تبحث حولها عن مكان معقول، «... المخبز.»

يضع يده حول مرفقها. يقول: «تعالي.»

«أين؟»

«لنعود إلى البيت.»

«كلا»، تقول، مبعِدةً مرفقها. «لن أعود. سأذهب إلى المخبز وأنت.. يجب

أن تدعني أذهب. يجب ألَّا تمنعني.»

«أجل، يجب أن أمنعك.»

«لا، يجب ألَّا تفعل.»

في هذا الحين، تأتي ماري مسرعة، متقطِّعة الأنفاس. «آغنس»، تقول، ممسكةً بذراعها الأخرى، «ستعودين إلى البيت. أعددنا كل شيء. ينبغي ألَّا تقلقي.» ثم، من زاوية فمها تقول لغلبرت: «استدع القابلة.»

«لا»، تصرخ آغنس الآن، «اتركاني أذهب.» كيف يمكنها أن تشرح لهؤلاء الناس أنها لا تستطيع البقاء هنا، لا تستطيع أن تلد الطفل على هذا النحو؟ كيف يمكنها أن تجعلهم يفهمون الذعر الذي تملَّكها منذ أن سمعت كلمات تلك الرسالة؟

تُؤخَذ آغنس، نصفها محمول، ونصفها الآخر مسحوب، ليس إلى بيتها الضيق، بل إلى بيتهم، من بابهم الواسع، إلى الرُّواق، ثم إلى الأعلى عبر السلالم الضيقة. بابٌ يُفْتَح، فتنزلق عبره، كاحلاها مقيَّدان، كأنها مجرم، كأنها مجنون.

يمكنها سماع صوت يقول: لا، لا، لا، يمكنها الإحساس بالألم آتيًا على النحو الذي يمكن معه الإحساس بدُنُوِّ غيمة ماطرة قبل رؤيتها. تريد أن تقف، أن تجثو حتى تكون على استعداد للألم، مهيَّأة، قادرة على مواجهته، لكنَّ أحدهم يضغط كتفيها لتبقى في السرير. شخص آخر يمسك بجبهتها. القابلة هنا، ترفع لها تنورتها، قائلة إنها يجب أن تنظر، إنَّ على الرجال أن يغادروا، وإنَّ النساء وحدهن يمكن أن يبقين.

كلُّ ما تريده آغنس هو غابة خضراء. تتوق إلى أشكال الضوء الملوَّنة الحيَّة الساقطة على الأرض، إلى الظل الرحيم لظُلَّةٍ وارفة، إلى الهدوء غير التام، إلى معتزل جذوع الأشجار المختفية عن الأنظار. لن تصل إلى الغابة. لم يعد هناك

ما يكفي من الوقت الآن. أبواب هذا البيت كثيرة جدًّا، تعرف هذا.

لو أنه كان هنا. لَتَمَكَّن من صدِّهم. لَأَصْغَى إلى توسُّلاتها، بطريقته تلك في الميل إلى شخص ما، كأنه يَنْهَل كلماته. لَحَرَص على أن تصل إلى الغابة، على أن لا تُكْرَه على المجيء إلى هنا. ما الذي فعلته؟ لماذا أرسلته بعيدًا؟ ما الذي سيحل بهما وكلاهما بعيد عن الآخر على هذا النحو، هو يتجر في اكسسوارات مسرحية رخيصة ويساوم في ثمنها، يصنع قفافيز لأيدي الصبية ليوهم بأنهم نسوة، وهي محبوسة في هذه الغرفة ومُقْفَلٌ عليها، بعيدة جدًّا، ولا أحد يساندها؟ ما الذي فعلته؟

تدفعهم آغنس بعيدًا عنها وتهبط من السرير. بدلًا من سيرها على درب متعرِّج ممتد بين الأشجار تسير من جدار إلى جدار وتعود مرة أخرى. يشُقُّ عليها تنظيم أفكارها والسيطرة عليها. تريد لحظة لنفسها، وحدها، دون ألم، حتى تتمكَّن من التفكير بوضوح في كل شيء. تعصر يديها قلقًا. يمكنها سماع نفسها أو شخص ما يُعَوِّل: لماذا فعلتُ هذا؟ لا تعرف ما تعنيه بـ«هذا». تعرف أنَّ هذه الغرفة هي المكان الذي وُلِد فيه زوجها وأشقاؤه وشقيقاته، حتى تانك الأختان اللتان ماتتا صغيرتين. تنفَّس أنفاسه الأولى هنا، بين هذه الستائر، قرب هذه النافذة.

إنه هو من تتحدَّث إليه في عقلها المشوَّش، وليس الأشجار، ولا الصليب السحري، ولا أشكال الأُشْنَة وعلاماتها، ولا حتى أمِّها التي ماتت وهي تلد. أرجوك، تقول له داخل حجرة جمجمتها، أرجوك عُدْ. أحتاج إليك. أرجوك. ما كان عليَّ أن أحتال لإرسالك بعيدًا. عُدْ لتطمئن على عبور هذا الطفل عبورًا آمنًا، لتطمئن على أنه سيحيا، لتطمئن على أنني سأبقى على قيد الحياة لأرعاه. فلنتجاوز هذا معًا. أرجوك. لا تدعني أموت. لا تسمح بأن ينتهي بي الأمر جثَّة باردة على سرير ملطَّخ بالدماء.

شيء ما خاطئ، في غير محلِّه. لا تعرف ما هو. إنه أشبه بالإصغاء إلى آلة موسيقية أحد أوتارها نشاز: الإحساس المزعج بأنَّ الأمر كلَّه ليس كما ينبغي أن يكون. كلُّه سريع جدًّا، مبكِّر جدًّا. لم يكن لديها إحساس بقدوم هذا. هي في المكان الخطأ. هو في المكان الخطأ. ربما لن تنجو، ربما لن تنجو. لعلَّ أمَّها تدعوها في هذه اللحظة تمامًا إلى ذلك المكان الذي لا يعود منه الناس أبدًا.

تضع القابلة وماري أيديهما عليها الآن: تقودانها إلى مقعد، إلا أنه ليس مقعدًا ملائمًا. إنه من خشب أسود مُزَيَّت، بثلاث قوائم متباعدة، أسفله طست وقاعدة فارغة، فجوة فاغرة فحسب. لا يروق آغنس، لا تروقها تلك القاعدة الغائبة، ذلك الفراغ، لذلك تتراجع، تنزع ذراعيها من قبضتيهما. لن تجلس على ذلك المقعد الأسود.

تلك الرسالة. ما الذي كان مختلفًا بشأن تلك الرسالة؟ لم يكن التفصيل، لم تكن قائمة القفافيز المطلوبة. أكان ذِكْر القفافيز الطويلة الخاصة بالنساء؟ هل أزعجها ذكر النساء وشغل فكرها؟ لا تحسب ذلك. إنه الإحساس الذي انبعث من الصفحة. الغبطة التي ارتفعت كالبخار بين الكلمات التي كتبها. يبدو أمرًا خاطئًا أنَّ كلًّا منهما بعيد عن الآخر، منفصل عنه تمامًا. بينما يحدِّد هو طول قُفَّاز، طريقة التزيين بالخرز، أنسب زخرفة للممثِّل الملك، تُطْبِق هي عليها أنيابُ العذاب وتوشك أن تموت.

ستموت، تفكِّر. أيُّ سبب آخر يجعلها لا ترى أية إشارة إلى أن شيئًا من هذا سيحدث؟ إلى أنها توشك أن تموت، أن ترحل، أن تترك هذا العالم. لن تراه أبدًا، لن ترى سوزانا مرة أخرى أبدًا.

تنحني آغنس على الأرض، يمزِّقها هذا الهاجس. لن تراهما مرة أخرى. تثبِّت نفسها بكفَّيها المسكين بالألواح، ساقاها منثنيتان، جاثيتان. تصلِّي؛ إذا كان الموت سيأتي، فليكن سريعًا. وليبق الطفل الذي داخلها على قيد الحياة.

ليعد هو وليكن مع طفليه. وليفكِّر فيها بلطف، دائمًا.

تشدُّها القابلة من كُمِّها، لكنَّ ماري تبدو وقد تخلَّت عن محاولة إغرائها للجلوس على المقعد. آغنس لا تُقاد، تشعر أنَّ ماري تعرف هذا الآن. تجلس ماري على المقعد البغيض وتمسك بقطعة قماش قطني، مستعدة لالتقاط الطفل.

كتب أنَّ المسرحية كانت في مكان يدعى شوردِتش، كان على إليزا أن تنطق الكلمة حرفًا حرفًا لتستبين معناها. «شور»، قالت، ثم «دِتش». «شور-دِتش؟ كرَّرت آغنس. تخيَّلت ضفة نهر، مليئة بالطمي، محاطة بقَصَب، مكانًا يمكن أن ينمو فيه السوسن الأصفر، وتعشِّش الطيور، ثم تخيَّلت أخدودًا، حفرة موحلة زَلِقة على نحو غادر، في قاعها مياه طينية. «ضفة» ثم «أخدود». الجزء الأول من الكلمة مكان يبدو لطيفًا، والجزء الثاني مريع. كيف يمكن أن يكون هناك أخدود في ضفة؟ بدأت تسأل إليزا، لكنَّ إليزا كانت تتابع القراءة واصفةً مسرحية عن دوق حسود وأبنائه الخائنين شاهدها هناك وهو ينتظر الرجل حاملَ عَقْد القفافيز.

القابلة تتأفَّف جالسةً على الأرض، تعبث بثوبها ومئزرها بانزعاج قائلة إنها ستحتاج إلى أجر إضافي لأنَّ ركبتيها لم تعتادا هذا. تقريبًا تنبطح على البساط وتنظر إلى أعلى.

«سينتهي الأمر قريبًا»، تصدر قرارها. تقول: «تحمَّلي.» وتلمسها بفظاظة.

تضع ماري إحدى يديها على كتف آغنس، والأخرى على ذراعها. تغمغم: «لا بأس، قريبًا سينتهي هذا.»

تسمع آغنس كلماتهما من مسافة بعيدة. أفكارها الآن مختصرة، مبتورة، موجزة إلى أبعد الحدود. زوج، تفكِّر. قفافيز. ممثِّلون. خَرَز. مسرح. دوق

حسود. موت. فكِّر بلطف. إنها قادرة على تشكيل الإدراك، ليس بكلمات ربما، لكن بإحساسٍ بأنه لم يَبْدُ مختلفًا في تلك الرسالة، بل عائدًا. عائدًا إلى نفسه. مُسْتَعادًا. أفضل. عائدًا.

تراقب بنوع من الافتتان المجرَّد إذ يبرز شيء مُقَبَّب بين ساقيها. تثني رأسها إلى الأسفل، تحتها، لتراه. رأس يتحرَّر منها، متلفِّتًا، متلوِّيًا، زَلِقًا مثل مخلوق مائي، كتفٌ، ظهرٌ طويل مُخَرَّز بفقرات. تلتقطه القابلة وماري، تقول ماري: ولد، ولد، وترى آغنس ذقن زوجها، فمه وهو مزموم، ترى شعر أبيها الأشقر، مرة أخرى، ينمو على مقدمة هذا الجبين، ترى أنامل أمِّها الطويلة الرقيقة، ترى ابنها.

آغنس والصبي على السرير، الطفل يرضع، قبضته الصغيرة تمسك ثدي أمِّه بتملُّك. قالت إنها سترضعه قبل أي شيء، قبل أن تغتسل. أصرَّت على أن يُلَف الحبل السُّرِّي وغشاء الجنين ويُحْزَمان في قطعة قماش، رفعت رأسها لترى ماري والقابلة تنفِّذان هذا العمل. تقول لهما إنها ستدفنه تحت شجرة بعد أن يتم الطفل شهره الأول. تجمع القابلة أدواتها، تحزم جرابها، تطوي ملاءة، تفرغ وعاء من النافذة. تجلس ماري على السرير قائلة لآغنس إنها يجب أن تسمح لها بقَمْط الطفل، إنه الشيء الصحيح الذي يجب أن تفعله، فقد كانت تَقمِط جميع أطفالها وانظري كيف أصبحوا، فتيان أقوياء أشداء، كلهم، وإليزا أيضًا، وتهزُّ آغنس رأسها. تقول: لا قماط، شكرًا لكِ، فتبتسم القابلة لنفسها في الزاوية، لأنها اعتنت بماري في ولاداتها الثلاث الأخيرة وألفتها أكثر سعادة بنفسها مما ينبغي أن تكون.

القابلة وهي تلف وعاء بقطعة قماش، عليها أن تطأطأ رأسها لأنَّ هذه الكَنَّة، فتاة غريبة بكل المقاييس، إنما هي صِنْو ماري. يمكنها أن ترى هذا. ستكون على استعداد للمراهنة بكل بنس لديها (مخبَّأ في جرَّة فخارية خلف جص بيتها، لا يعرف عنه أي إنسان حي) على أنَّ هذا الطفل لن يُقمَط بأي قِماط.

شيء ما يجعلها تلتفت، وقطعة قماش مبلَّلة في يدها. في وقت تالٍ عندما تروي القصة لعشرات من أهالي البلدة أو نحو ذلك، ستقول إنها لا تعرف لماذا التفتت: التفتت فحسب. إنه حدْس القابلة، ستقول لاحقًا ناقرةً أنفها بإصبعها.

تستقيم آغنس جالسة على السرير، إحدى يديها تضغط منتصف جسدها، والأخرى ما زالت تحمل الطفل إلى صدرها.

«ما الخطب؟» تقول ماري ناهضةً من السرير.

تهزُّ آغنس رأسها، ثم تنحني مرة أخرى وتئنُّ أنينًا منخفضًا.

«أعطني الولد»، تقول ماري مادَّةً يديها. وجهها مذعور لكنه رقيق الملامح. ترى القابلة أنَّ ماري تريد ذلك الطفل على الرغم من كل شيء، على الرغم من أنَّ لديها أطفالها الثمانية، على الرغم من سِنِّها. تريد ذلك الطفل، تريد أن تشعر به على صدرها، أن تحتضن جسده المغمور بالدفء.

«لا»، تقول آغنس مُطْبِقَةً أسنانها، جسدها يتلوَّى. ملامحها حائرة، متوترة، فزِعة. «ما الذي يحدث؟» تهمس بصوت طفل، صوت أجش خائف.

تتقدَّم القابلة إلى الأمام. تضع يدها على بطن الفتاة وتضغط إلى الأسفل. تشعر بالجلد يتقلَّص، ينجذب. ترفع الثوب وتحملق إلى الأعلى. ها هو ذا: الشكل الرطب المستدير لرأس ثان. إنه واضح.

تقول: «يبدأ الأمر مرة أخرى.»

«ماذا تعنين؟» تسأل ماري بأسلوبها المتعجرف بعض الشيء.

تكرِّر القابلة: «إنها تبدأ مرة أخرى، ثمَّة طفل آخر آتٍ.» تربِّت ساق آغنس. «إنك تلدين توأمين يا بُنيَّتي.» مكتبة سُر مَن قرأ

تتلقَّى آغنس هذا النبأ بصمت. تستلقي على السرير، متشبِّثةً بولدها، منهكة، شاحبة الوجه، متراخية الأطراف، منحنية الرأس. العلامة الوحيدة على الألم هي شحوب وجهها، وزَمُّ شفتيها. تسمح لهما بأخذ الطفل ووضعه في المهد قرب النار.

تقف ماري والقابلة إلى جانبي السرير. تحدِّق آغنس إليهما، عيناها واسعتان وكامدتان، وجهها شاحب على نحو مروِّع. ترفع إصبعها وتشير، أوَّلًا إلى ماري، ثم إلى القابلة.

«أنتما الاثنتان»، تقول هائجةً.

«ماذا قالت؟» تقول القابلة لماري.

تهزُّ ماري رأسها. «لست على يقين.» ثم تخاطب الفتاة: «آغنس، تعالي إلى المقعد. إنه مُعَدٌّ. إنه هنا. سنساعدكِ. حان الوقت.»

ينقضُّ الألم على آغنس، يتلوَّى جسدها أولا على هذا النحو، ثم على ذلك النحو. تنزع أصابعُها الملاءة وتسحبها من السرير لتضغط بها فمها. الصياح الذي يهرب منها ممزَّق ومكتوم.

تغمغم مرة أخرى: «أنتما الاثنتان، طالما حسبت أنَّ طفليَّ هما من سيقف قرب سريري، لكن يتبيَّن أنهما أنتما.»

«ماذا كان ذلك؟» تقول القابلة مختفيةً مرة أخرى تحت حاشية ثوب

آغنس.

«لا فكرة لدي»، تقول ماري، بفرح أكبر مما تشعر به.

«إنها تهذي»، تقول القابلة هازَّةً كتفيها. «لا تدري أين هي. هذا ما يحدث مع بعضهن. حسنًا»، تقول وهي تنتصب واقفة مرة أخرى: «هذا الطفل آتٍ، ولذلك ينبغي أن نُنهضها من السرير.»

تمسكان بذراعي آغنس لتقف بينهما. تسمح لهما بقيادتها من السرير إلى المقعد فتتهاوى عليه دون غمغمة. تقف ماري خلف آغنس ساندةً جسدها المترنِّح.

بعد حين، تبدأ آغنس بالكلام، إذا كان يمكن هكذا تسمية الأصوات والكلمات المفكَّكة. «ما كان ينبغي أبدًا...» تغمغم، وليس صوتها أكثر من همس، ساحبةً الهواء إلى صدرها، «... ما كان ينبغي أبدًا... أسأت الفهم... إنه ليس هنا... لا أستطيع...»

تقول القابلة من موضعها على الأرض: «تستطيعين، وستستطيعين.»

«لا أستطيع...» تقبض آغنس ذراع ماري، وجهها مبلَّل، عيناها واسعتان، متلألئتان، لا تريان، تريدانها أن تفهم، «... تفهمين أن أمي ماتت... و... وقد أرسلتُه بعيدًا... لا أستطيع...»

«أنت...» تبدأ القابلة، لكنَّ ماري تقاطعها.

تقول بحدَّة: «امْسِكي عليكِ لسانك، اهتمي بعملك.» تضع يديها حول وجه آغنس الشاحب. تهمس: «ما الخطب؟»

تنظر إليها آغنس وعيناها الشهلاوان تتوسَّلان مذعورتين. لم تر ماري هذه النظرة على وجهها من قبل قطُّ.

تهمس: «الحقيقة أنني... كنتُ أنا مَن... أرسله بعيدًا... ثم ماتت أمي.»

تقول ماري متأثرةً: «أعلم أنها ماتت، لكنك لن تموتي. أنا على يقين من ذلك. أنت قوية.»

«كانت... كانت قوية.»

تمسك ماري بيدها. «ستكونين بخير، سترين.»

تقول آغنس: «لكنَّ المشكلة... هي أنه... ما كان ينبغي أبدًا... ما كان ينبغي أبدًا أن...»

«ماذا؟» ما الذي ما كان ينبغي أن تفعليه؟»

«ما كان ينبغي أن أرسله... إلى... إلى لندن... كان خطأً... كان ينبغي...»

«لم ترسليه أنتِ»، تقول ماري مطمئِنةً. «كان جون.»

رأس آغنس المتدلي على عنقها، يلتفت ليواجهها. «كنت أنا»، تغمغم، أسنانها مطبقة.

«كان جون»، تصرُّ ماري.

تهزُّ آغنس رأسها. «لن أنجو»، تشهق. تمسك بيد ماري، تضغط جلدها بأصابعها تاركة بقعًا مؤلمة. «هل ستعتنين بهم؟ أنت وإليزا، هل ستفعلين؟»

«أعتني بمن؟»

«أطفالي. هل ستفعلين؟»

«قطعًا، لكن...»

«لا تسمحي لزوجة أبي بأخذهم.»

«قطعًا لا. أبدًا لن...»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ليس جوان. أي شخص إلا جوان. عِدِيني.» تبدو مسلوبة العقل، منهكة، أصابعها تتشبَّث بيد ماري. «عِديني أن تعتني بهم.»

«أعِدُكِ»، تقول ماري، عابسة، محدِّقةً إلى وجه كَنَّتِها. ما الذي رأته؟ ما الذي عرفته؟ تشعر ماري ببرودة، بقلق، يدبُّ فيها الرعب. ترفض في الأغلب تصديق ما يقوله الناس عن آغنس، إنها تستطيع رؤية مستقبل الأشخاص، تستطيع قراءة كفوفهم، أو أيًّا يكن ما تفعله. لكنها الآن، أول مرة تدرك ما يعنيه الناس. آغنس من عالم آخر. إنها لا تنتمي تمامًا إلى هذا المكان. ومع ذلك، تملأها فكرة موت آغنس أمامها بالقنوط. لا يمكنها أن تسمح بحدوث ذلك. ماذا ستقول لابنها؟

«أعِدُكِ»، تقول مرة أخرى، وهي تنظر مباشرة إلى عيني كَنَّتِها. تفلت آغنس يدها. تنظران معًا إلى قبة بطنها، إلى كتفي القابلة، في الأسفل.

المخاض الثاني قصير وسريع وعسير. تأتي الآلام دون مُدَد، تستمر وتستمر، وترى ماري أنَّ آغنس، مثل سبَّاح يغوص عميقًا، لا تستطيع استعادة أنفاسها في الأثناء. صراخها، في النهاية، ممزق، اجش، يائس. تمسك ماري بها، هي نفسها وجهها مبلَّل بالدموع. تبدأ، في رأسها، بصياغة الكلمات التي ستقولها لابنها. بذلنا قصارى جهدنا. فعلنا كل ما في وسعنا. في النهاية، لم نستطع إنقاذها.

عندما ظهر الطفل، يتبيَّن لهن جميعًا أنَّ الموت الذي رَهِبْنَه لم يكن موت آغنس بعد كل شيء. لون الطفل رمادي والحبل السُّرِّي ملتفٌّ بقوة حول عنقه.

لا أحد يقول أيَّ شيء والقابلة تخرج الجسد بيد وتلتقطه بالأخرى. بنت، حجمها نصف حجم الصبي، وصامتة. عيناها مغمضتان بقوة، قبضتاها

متكوِّرتان، شفتاها مزمومتان، كأنها تعتذر.

تفكُّ القابلة الحبل بسرعة، ببراعة، وتقلب الدُّمية الصغيرة رأسًا على عقب. تهبط بيدها لتصفع مؤخرتها، مرةً، مرتين، لكن لا شيء. لا جلبة، لا صياح، لا نأمة تدل على حياة. ترفع القابلة يدها مرة ثالثة.

«كفى»، تقول آغنس مادَّةً يديها. «دعيني أحملها.»

تغمغم القابلة قائلة إنها لا ينبغي أن تنظر إليها، إنه فأل سيء. خيرٌ لكِ، تقول لها، أن لا تريها. ستأخذها، تقول، وتحرص على دفنها على نحوٍ لائق.

«أعطني إيَّاها»، تقول آغنس وتهمُّ بالنهوض من المقعد.

تتقدَّم ماري وتأخذ الطفلة من القابلة. وجهها يتسم بالكمال، تفكِّر، ولها هيئة أخيها، الجبهة نفسها، خطَّا الفكَّين والوجنتين نفساهما. لها رموش وأظافر وما زالت دافئة.

تُسلِم ماري الجسد الصغير إلى آغنس التي تتناوله وتضمُّه إليها، واضعة الرأس على راحة يدها.

الغرفة صامتة.

تقول القابلة بعد لحظة: «لكِ صبي جميل، دعينا نحضره هنا ويمكنك إرضاعه.»

«سأحضره»، تقول ماري وتهم بالذهاب إلى المهد.

«لا، سأحضره أنا»، تقول القابلة وهي تتقدَّمها، قاطعةً عليها الطريق.

منزعجةً تدفعها ماري من كتفها. «ابتعدي عن طريقي. أنا سأحضر حفيدي.»

«سيدتي، أريد أن أقول أنَّ...» القابلة تواجهها، لكنها لا تكمل جملتها أبدًا لأنَّ صياحًا متصاعدًا رقيقًا يأتي من ورائهما.

كلتاهما تستدير في الوقت نفسه.

الطفلة بين يدي آغنس، البنت، تبكي، يداها متصلِّبتان من الغضب، جسدها الصغير يتورَّد إذ تجذب الهواء إلى صدرها.

طفلان إذًا، ليس واحدًا. تقول آغنس لنفسها هذا مستلقية على الفراش، الستائر مسدلة لتمنع دخول تيَّار الهواء البارد.

بأي حال من الأحوال، ليس مؤكَّدًا في هذه الأسابيع القليلة الأولى أنَّ الطفلة ستعيش. تعرف آغنس هذا. تعرفه في عقلها، في عظامها، في جلدها، عميقًا في قلبها. تعرفه في طريقة دخول حماتها إلى الغرفة على أطراف أصابعها وإنعامها النظر إلى الطفلين، أحيانًا واضعةً يدها بسرعة على صدريهما. تراه في طريقة حثِّ ماري جون على أخذ الطفلين للتعميد: تلف هي وجون الرضيعين في دثار تلو دثار، ثم يدسانهما في ثيابهما ويُهرعان إلى الراهب. بعد حين تندفع ماري عائدة إلى البيت، عليها سيماء امرأة أكملت سباقًا ما، قهرت عدوًّا، حاملة أصغر التوأمين إليها قائلة: هيَّا، قُضِي الأمر ، وها هي ذي.

يبدو أنَّ آغنس لا تستطيع النوم. لا تنهض من السرير. لا تفرغ يدها ولا تخلو. أحد الطفلين أو كلاهما يحتاج إلى أن يُحمَل في أية لحظة. تُرضِع أحدهما، ثم الآخر، ثم الأول مرة أخرى، ترضعهما معًا في الوقت نفسه، رأساهما يلتقيان وسط صدرها، تضم جسديهما تحت ذراعيها. تُرضِع وتُرضِع وتُرضِع.

الصبي، هامنت، قوي. عرفت هذا منذ اللحظة التي رأته فيها أوَّل مرَّة. يتشبَّث بقوة ثابتة وواثقة، راضعًا بتركيز شديد. البنت، جودث، تحتاج إلى تشجيع على الرضاعة. أحيانًا، عندما يُفْتَح فمها ويُقَرَّب الثدي إليه تبدو حائرة، كأنها ليست على يقين مما ينبغي فعله. يجب أن تداعب آغنس وجنتها، تنقر ذقنها، تمرِّر إصبعها على فكِّها، لتذكِّرها بأن ترضع، أن تمُصّ، أن تعيش.

مدَّةً طويلةً اتَّخذ مفهوم آغنس للموت شكلَ غرفة واحدة، مضاءة من الداخل، لعلَّها وسط أرض بريَّة شاسعة. الأحياء يسكنون الغرفة، الموتى يطوفون خارجها، ضاغطين النافذة بكفوفهم ووجوههم وأطراف أصابعهم، بيأسٍ محاولين العودة، الوصول إلى أناسهم. بعض من هم داخل الغرفة يمكنهم سماع من هم خارجها ورؤيتهم، بعضهم يستطيع الكلام عبر الجدران، معظمهم لا يستطيع.

فكرةُ أنَّ هذه الطفلة الضئيلة قد تعيش في الخارج هناك في هذه البرِّيَّة الباردة والرطبة، من دونها، لا يمكن تصوُّرُها. لن تدعها تموت. إنه دائمًا التوأم الأصغر من يُؤخَذ: الجميع يعرف هذا. تعرفَ أنَّ الجميع ينتظر، بأنفاس محبوسة، أن يحدث هذا. تعرف أنَّ الباب المؤدي إلى خارج غرفة الأحياء مفتوح على مصراعيه للطفلة، تستطيع أن تشعر ببرودة التيار، أن تشمَّ ذاك الهواء الجليدي. تعلم أنَّه مُقَدَّر لها أن يكون لها طفلان فقط، لكنها لن تقبل هذا. تقول ذلك لنفسها في أحلك ساعات الليل. لن تسمح بحدوث هذا، لا الليلة، ولا في الغد، ولا في أي يوم آخر. ستجد ذلك الباب وتغلقه.

تضع التوأمين إلى جانبيها في الفراش وتغطيهما، أحدهما يطلق أنفاسه في إحدى أذنيها والآخر في أذنها الأخرى. عندما يستيقظ هامنت صائحًا بحدَّة ليرضع، توقظ آغنس جودث. ارضعي، يا صغيرتي، تهمس لها، حان الوقت لترضعي.

تخشى نبوءتها، تخشاها. تتذكَّر بوضوح بارد برودة الثلج الصورةَ التي رأتها لشخصين يقفان عند قدم السرير حيث ستلاقي نهايتها. تعلم الآن أنَّه ممكنٌ، أكثر من ممكن، أن يموت أحد أطفالها، لأنَّ الأطفال يموتون طوال الوقت. لكنها لن تسمح بهذا. لن تسمح. ستملأ هذه الطفلة، هؤلاء الأطفال بالحياة. ستضع نفسها بينهم وبين الباب المؤدي إلى الخارج، وستقف هناك، مُكَشِّرةً عن أنيابها، سادَّةً الطريق. ستحمي أطفالها الثلاثة من كل ما يقبع وراء هذا العالم. لن تستريح، لن تنام، حتى تعرف أنهم في أمان. ستدفع بعيدًا النبوءة التي طالما أظهرت لها أنه سيكون لها طفلان، ستصارعها، وتبطلها. ستفعل. تعرف أنها تستطيع.

عندما عاد زوجها، ثمَّة لحظة لم يتعرَّف فيها إليها. يبحث عن زوجته الجميلة الممتلئة الشَّفتين واقفةً قرب آنيتها ومِدَقِّها، لكنه بدلًا من ذلك، يجد مُمَدَّدةً على الفراش، امرأةً شاردة، شبه مجنونة من الأرق والعناد والعُكُوف على غرض واحد. يجد امرأة أنحلتها الرضاعة، بعينين تحفُّ بهما حلقات رمادية، بوجه يائس وشديد التركيز. يجد طفلين لهما الوجه الغامض نفسه، حجم أحدهما ضعف حجم الآخر.

يحملهما بين يديه، تلاقي عيناه نظراتهما الثابتة، ينظر إلى عيونهما المتطابقة، يرتِّب وضعهما على ركبتيه، رأساهما متقابلان وأقدامهما متقابلة، يراقب عندما يتناول أحدهما إبهام الآخر في فمه ويمصُّه، يرى أنَّ الاثنين يعيشان معًا حياةً بدأت قبل أي شيء آخر. يلمس رأسيهما بكلتا راحتيه. أنتَ، يقول، وأنتِ.

يمكنها القول، حتى في إعيائها المدوِّخ، حتى قبل أن تمسك بيده، إنه عثر عليها، تلائمه، يسكنها، تلك الحياة المقدَّرة له، ذلك العمل المُعَد له. تبتسم، هناك على السرير، إذ تراه واقفًا منتصب القامة، صدره عريض، وجهه خالٍ

من القلق والإحباط، إذ تتنشَّق رائحة رضاه.

وهما جالسان معًا في غرفة الولادة، ما زالا يعتقدان أنها ستنضم إليه في لندن عمَّا قريب، أنها ستحضر الأطفال الثلاثة إلى المدينة وسيعيشون هناك معًا. يعتقدان أنَّ هذا سيحدث قريبًا. بدأت تخطِّط لما ستحزم من أمتعة وتأخذه معهم. تقول لسوزانا إنهم قريبًا سيعيشون في مدينة كبيرة وسترى بيوتًا وقوارب ودِبَبة وقصورًا. هل سيأتي الطفلان معنا؟ تسأل سوزانا وهي تنظر بطرف عينها إلى المهد. أجل، تقول آغنس مُوارِيَةً تبسُّمها.

كان قد بدأ في إلقاء نظرة على المنازل، إنه يدَّخر المال لابتياع مسكن لهم. يتخيَّل نفسه حاملًا سوزانا على كتفيه لتنظر إلى النهر، آخِذًا إيَّاهم جميعًا إلى المسرح. يتخيَّل أصدقاءه الجدد وهم ينظرون بِغِيرة اللَّهْفَان إلى عيني زوجته السوداوين ومعصميها النحيلين المكسوَّين بقفازين، إلى وجوه أطفاله الحُلوة. يتصوَّر مطبخًا فيه مَهْدان، زوجته منحنية على النار، فناءً في الخلف حيث يمكنهم تربية دجاج أو أرانب. سيكون هناك خمستهم فقط، ربما أكثر مع الوقت: يسمح لنفسه بهذه الفكرة. لا أحد آخر. لا عائلة في الجوار. لا إخوة ولا أبوين ولا أصهار يقتحمون المكان في أوقات غير مناسبة. لا أحد بتاتًا. فقط هم، والمطبخ، وهذان المهدان. يكاد يشم رائحة هذا المطبخ: شمع العسل على سطح المائدة، رائحة اللَّبن الرائب التي تفوح من الطفلين، نَشاء الثياب المغسولة. ستدندن زوجته لنفسها أثناء عملها، سيُقَرقِر الطفلان ويلغوان، ستكون سوزانا في الباحة الخلفية تخاطب الأرانب وتفحص عيونها الصافية، وفروها الأملس، وسيجلس هو في بيته محاطًا بعائلته، غير محصورٍ في غرفة مستأجرة يكتب رسائل تستغرق أربعة أيام حتى تصل إليهم. لن يعيش هذه الحياة المزدوجة بعد، هذا الوجود المشطور. سيكونون هناك معه، لن يحتاج إلا إلى رفع رأسه ليراهم. لن يكون وحيدًا بعد في المدينة الكبيرة:

سيكون له موطئ قدم ثابت هناك، زوجة، عائلة، بيت. بوجود آغنس هناك، إلى جواره، من يعلم ما قد يمكنه عمله؟

وهما جالسان في الغرفة مع طفليهما، لا هو ولا زوجته، يعرفان أنَّ هذه الخطة لن تنجح أبدًا. لن تُحْضِر الأطفال أبدًا للانضمام إليه في لندن. لن يبتاع بيتًا هناك أبدًا.

الطفلة ستعيش. ستكبر المولودة، الرضيعة، البنت، لكنَّ تشبُّثها بالحياة سيظل ضعيفًا، هشًّا، غامضًا. ستعاني تشنُّجًا، رجْفًا في أطرافها ورُعاشًا، حمًّى، احتقانًا في الصدر. ستتوهَّج بشرتها بطفح جلدي، ستجهد رئتاها طلبًا للهواء. إذا ما أُصيب الطفلان الآخران بنزلة برد، تلبَّستها رَعْدَة حمًّى. إذا ما أصيبا بسُعَال، أنهكها تنفُّس كالصَّفير.

ستؤجِّل آغنس رحيلها إلى لندن بضعة أشهر: إلى أن يتحسَّن حالها، تطلب إلى إليزا أن تكتب إليه. إلى أن يحلَّ الربيع. إلى أن تنقضي حرارة الصيف. عندما تعبر رياح الخريف. عندما يذوب الثلج.

تبلغ جودث العامين من عمرها، تبقى أمُّها مستيقظة معها كلَّ ليلة، تبخِّر أوعية من الصنوبر والقرنفل بين ستائر السرير، لكي تستطيع التنفُّس، لكي تتلاشى الزُّرقة من شفتيها، لكي تنام، قبل أن يصبح جليًّا للجميع أنَّ الانتقال إلى لندن لن يحدث أبدًا. صِحَّة الطفلة هشَّة جدًّا. لن تحتمل المدينة.

سيزورهم الأب في أثناء موسم الطاعون، عندما تُغْلَق المسارح. كفَّ عن بيع القفافيز، عن بيع سِلع أبيه مناديًا، منقطعًا تمامًا عن التجارة. يعمل الآن في المسارح فقط. يراقب ذات ليلة زوجته تذرع الأرض ذهابًا وإيابًا حاملةً الطفلة، لأنها تعاني اضطرابًا في المعدة.

هي طفلة جميلة على نحو خارق للطبيعة، حتى بالنسبة إلى مُشاهِد لا

مُبَالٍ، ذات عينين زرقاوين صافيتين وجدائل أثيرية ناعمة. تثبِّت نظرتها في أبيها من كتف أمِّها التي تسير بها في الغرفة من طرف إلى آخر. بصمتٍ تنهمر الدموع على وجنتيها وهي تتشبَّث بثوب أمِّها بكلتا يديها. يبادلها النظر بثبات. يتنحنح. يقول لزوجته إنه قرَّر ألَّا ينفق ما ادَّخره من مال على منزل في لندن، بل على أرض خارج ستراتفرد فحسب. ستجلب الأرض إيجارًا جيِّدًا، يقول لها. يقف كأنه يواجه بعزمٍ هذا القرار، هذا المستقبل الجديد.

في غرفة الولادة، والتوأمان الصغيران على حجره، ويداه تسندان رأسيهما، يقول لآغنس إنه يعتقد أنَّ فِراستها، نبوءتها بشأن طفلين لها كانت خاطئة. أو كانت، على الأصح، إحساسًا بمجيء التوأمين. يقول، ما زال ناظرًا إلى طفليه، إنَّ ذلك عَنَى أنَّه سيكون لها توأمان. سوزانا ثم توأمان.

زوجته صامتة. حينما ينظر إلى السرير، يرى أنها خلدت إلى النوم، كأنَّ كلَّ ما كانت تنتظره هو وصوله ليحمل الطفلين على حجره، ليُهَدْهِد رأسيهما بين يديه.

تستيقظ آغنس جافلةً، اضطرابٌ في رأسها، كلمةٌ توشك على التشكُّل في شفتيها ولسانها، ليست على يقين مما يمكن أن تكون. كانت تحلم بريح، بقوة خفيَّة عظيمة تطيِّر شعرها من جانب إلى آخر، تشدُّ ثيابها على جسدها، تقذف وجهها بالغبار والحصباء.

تنظر إلى نفسها. ليست على السرير، لكنها تبدو في هيئة بين الجلوس والاستلقاء على طرف حشيَّة، وما زالت في ثوبها. تمسك إحدى يديها بخرقة. رطبة، مجعَّدة، دافئة في حضن كفِّها. لماذا تمسك بها؟ لماذا تجلس على هذه الشاكلة وهي نائمة؟

يباغتها الأمر، كأنَّ عصفَ ريحٍ يخرج من حلمها عابرًا الغرفة. جودث، الحُمَّى، الليل.

تترنَّح آغنس لتقف. هل كانت نائمة؟ كيف أمكنها أن تنام؟ تهزُّ رأسها مرَّةً، مرَّتين، كأنها تحاول أن تنفض عن نفسها النوم، الحلم. الغرفة غارقة في الظلام: إنه أحلك وقت في الليل، أفتك ساعة. انطفئت النار تقريبًا، بقايا جمر أحمر فحسب، الشمعة انطفأت. تتحسَّس حواليها بيأس، بعماء: ثمَّة طرف تحت ملاءة، ركبة، كاحل. تلمس آغنس صعودًا فتصادف معصمًا ويدين تشتبك أصابعهما. الجسد تحت لمسها ساخن. تقول لنفسها وهي تلتفت وتبحث عن شمعة في الصندوق الخشبي: وهذا أمر جيِّد، جيِّد جدًّا، لأنه يعني أنَّ جودث ما زالت على قيد الحياة.

أمر جيِّد، تقول لنفسها، أمر جيِّد، وهي تمسك بعمود الشمعة البارد وتوجِّه فتيلها نحو جمرة. إذا كانت ثمَّة حياة، فثمَّة أمل.

فتيل الشمعة يشتعل، اللهب يرتعش، يكاد يتلاشى، ثم يستجمع قواه. تظهر دائرة من الضوء حول ذراع آغنس الممدودة، وتتسع، طاردة الظلمة.

ثمَّة المدفأة، الرَّف. ثمَّة نعلا آغنس، وشالها ساقط على الأرض. ثمَّة الحشيَّة وثمَّة قدما جودث، ناتئتان تحت الملاءة، ثمَّة ساقاها، ركبتاها، وثمَّة وجهها.

تغطِّي آغنس فمها عندما تراه. البشرة شاحبة إلى درجة أنها تكاد تفقد لونها، الجفنان نصف مفتوحين، والعينان تدوران تحتهما. شفتاها شاحبتان ومتشقِّقتان، مفتوحتان، وهي تجذب الهواء إلى صدرها جذْبًا رقيقًا متقطِّعًا.

ما زالت آغنس تضع يدها على فمها وهي تنظر إلى ابنتها. ذلك الجزء منها الذي يعتني بالمرضى، والسُّقُم، والنُّقَّه، والمتمارضين، والمحزونين، والمجانين، يفكِّر: لن يطول الأمر. وأمَّا الجزء الآخر منها الذي يرعى هذه الطفلة ويعتني بها ويدلِّلها ويطعمها ويلبسها ويحضنها ويقبِّلها، فيفكِّر: لا يمكن أن يحدث هذا، لا يمكن أن يحدث هذا، رجاءً، ليس هي.

تنحني آغنس لتلمس جبهتها، لتجسَّ نبضها، لتحاول منحها بعض الراحة، وإذ تفعل هذا، تكشف الشمعة مشهدًا غريبًا جدًّا، غير متوقَّع أبدًا إلى درجة أنَّ آغنس تنفق لحظة لتفهم ما تراه.

أوَّل شيء تلاحظه هو أنَّ أصابع جودث لا تشبك أصابعَ يدها الأخرى كما حسبت في البدء. إنها تشبك أصابعَ يد أخرى. ثمَّة شخص على الحشيَّة مع جودث، جسد آخر، جودث أخرى، الأمر غريب كما يبدو. ثمَّة جودثان اثنتان، مُتَضامَّتان، أمام النار المحتضرة.

تُطْرِف عينيها، تهزُّ رأسها. إنه هامنت، قطعًا. هبط إلى هنا في الليل ودسَّ نفسه في الحشيَّة إلى جوار توأمه. وهناك يستلقي في نوم عميق هادئ، إلى جوارها، ممسِكًا بيدها.

تراقب آغنس المشهد، رافعةً الشمعة. ستتذكَّر هذه اللحظة في ما بعد، وتسأل نفسها: متى عرفت أنَّ الأمر كلَّه لم يكن مثلما حسِبت؟ متى لاحظت؟ ما الذي نبَّهها؟

تلك ابنتها، مريضة جدًّا حقًّا، مستلقية على ظهرها، شاحب وجهها من الحمى، وذلك ابنها، مُسْتَلْقٍ إلى جوارها، يده تطوِّقها. ومع ذلك، ثمَّة شيء ليس صحيحًا في تلك اليد. تحدِّق آغنس إليها، مسحورةً. إنها يد هامنت ولكنها ليست يده أيضًا.

تحوِّل نظرها إلى اليد التي يمسك بها، إلى يدِ جودث، فترى أنَّ أظافر هذه اليد ملطَّخة بشيء أسود. كالحبر تقريبًا.

تسأل آغنس نفسها: ومتى استخدمت جودث الحبر؟

يبدأ داخلها ارتباك غريب يُفْقِد العقل، مثل طنين مئات من النحل. تندفع إلى الأمام واضعةً الشمعة على شمعدان على المدفأة، ثم تضع يديها على طفليها.

ابنها، يرقد بصحة جيدة قرب النار، وابنتها على الجانب الآخر من الحشيَّة. لكنَّ أصابعها تجد هنا على عنق هامنت ضفيرةَ جودث الطويلة. وها هما معصما هامنت يبرزان من ثوب جودث، وعلى أحدهما الندبة الهلالية الشكل من أثر ضربة منجل أصابته عندما كان صغيرًا. إنه شعرُ هامنت القصير الداكن لونه من العرق الذي نَضَح به جلد جودث من أثر الحمى، إنها جودث مَن تنام نوم المطمئن الذي نال العافية.

لا تستطيع آغنس فهم ما ترى. أيمكن أن تكون في حلم؟ أم تُراه خيالًا من أخْيِلَة الليل؟ تسحب الملاءة التي تغطيهما وتنظر إليهما مستلقيَين هناك. قدما الطفل المريض تصلان إلى خارج الحشيَّة. الطفل الأطول قامة هو المريض.

إنه هامنت، ليس جودث.

في تلك اللحظة، ربما لأنها أحسَّت بالهواء البارد، تفتح التوأم الأصغر سنًّا عينيها وتثبِّتهما في أمِّها الواقفة هناك فوقهما والملاءة في يديها.

تقول الطفلة: «ماما؟»

«جودث؟» تهمس آغنس، لأنها ما زالت غير مُصَدِّقة ما تقوله لها عيناها.

تقول الطفلة: «نعم.»

لا يمكن أن يعرف هامنت عن الحصان الذي استُأجِر لأبيه. لن يعرف أبدًا أنَّ صديق أبيه أمَّن فرسًا له، حيوانًا نزِقًا، بعينين غاضبتين، وكتف ذات عضلات، وفرو يلمع كقَسْطَل[1].

يجهل أنَّ والده، في هذه اللحظة، يشقُّ طريقه بأقصى سرعة يحمله بها هذا الفرس النَّزِق، لا يتوقَّف إلا لشرب الماء، وبقدر ما يجده من طعام في الدقائق التي يمنحها نفسه. من تنبردج إلى ويبردج، ثم إلى بلدة تيم. يبدِّل الأحصنة في بانبري. إنه لا يفكِّر إلا بابنته، وكيف يقلِّص الأميال بينهما، لا بدَّ أن يصل إلى البيت، لا بدَّ أن يحملها بين يديه، لا بدَّ أن ينظر إليها مرة واحدة أخرى

(1) ثمر يشبه الكستناء داكن الحُمرة. (م)

قبل أن تمضي إلى ذلك العالم الآخر، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

لكنَّ ابنه لا يعرف شيئًا عن هذا. لا أحد منهم يعرف. لا سوزانا التي أُرسِلت إلى حديقة أمِّها الطبية لتجمع جذور نبات الجَنْطِيانا والأنْجُذَان لصنع كِمادة. لا ماري التي توبِّخ الخادمة في المطبخ لأنَّ الفتاة كانت تبكي وتنوح طوال الأصيل بأنها تود الذهاب إلى البيت، وأنها بحاجة إلى رؤية أمِّها. لا إليزا التي توضِّح لامرأة جاءت إلى كُوَّة النافذة بأنَّ آغنس لا تستطيع التحدُّث إليها اليوم ولا في الغد، لكن لعلَّها تعود الأسبوع التالي. ولا آغنس نفسها، وهي جاثية قرب الحشيَّة موليةً النافذة ظهرها.

جودث، طفلتها، ابنتها، أصغر مواليدها، جالسة على مقعد. ما زالت آغنس عاجزة عن تصديق الأمر. وجهها شاحب، لكنَّ عينيها مشرقتان ويقظتان. إنها نحيلة وضعيفة، لكنها تفتح فمها للحساء، مثبِّتةً نظرها في أمِّها.

تُشْطَر آغنس شطرين وهي تجلس قرب ابنها، ممسكةً بجسده المرتعش. لقد نجت ابنتها، أُعيدت إليهم. لكن، في المقابل، يبدو أنَّ هامنت سيُؤخذ.

أعطته مسهِّلًا، أطعمته هلام إكليل الجبل والنعناع. أعطته كلَّ ما أعطت جودث، وأكثر. وضعت حصاة بثقب تحت وسادته. منذ ساعات عدَّة، طلبت من ماري أن تحضر الضفدع المجفَّف وربطته إلى بطنه بقطعة قماش.

لا شيء من هذا ينقذه، لا شيء منه يعيده. تشعر أنَّ أملها يبدأ بالتسرُّب منها مثلما يتسرَّب الماء من دلو مثقوب. إنها مغفَّلة، بلهاء، عمياء، أسوأ حمقاء. طوال الوقت حسبت أنها بحاجة إلى حماية جودث، في حين كان هامنت هو من قُدِّر له أن يؤخذ. كيف يمكن أن يكون القدر قاسيًا إلى هذا الحد وينصب لها فخًّا كهذا؟ أن يجعلها تركِّز على الطفل الخطأ حتى يتمكَّن من النجاة،

ويشتِّت انتباهها فيخطف الآخر؟

تفكِّر في حديقتها، في رفوفها المملوءة بمساحيق، وجُرَع، وأوراق نبات، وسوائل، بريبة، بغضب. أيُّ نفع لها؟ أي فائدة منها؟ طوال هذه السنوات والسنوات من العناية وإزالة الأعشاب الضارة والتَّشذيب والاستخلاص. تريد أن تخرج وتنزع هذا النبات من جذوره وتلقيه في النار. إنها حمقاء، عاجزة، حمقاء متكبِّرة. كيف حسبت أن نباتها يضاهي شيئًا كهذا؟

جسد ابنها في حال من العذاب، من الجحيم. يتشنَّج، يتلوَّى، يتقبَّض ويتوتَّر. تمسك آغنس بكتفيه، بصدره، لتبقيه ساكنًا. ترى أنه ما عاد بمستطاعها فعل أكثر مما فعلت. يمكنها أن تبقى إلى جواره، أن تواسيه قدر استطاعتها، لكنَّ هذا الوباء قاهرٌ، قويٌّ جدًّا، ضارٍ جدًّا. إنه عدوٌّ أقوى منها. لفَّ حلقاته حول ابنها وشدَّها، رافضًا تركه. له رائحة مِسْكِيَّة رطبة مالحة. تفكِّر آغنس في أنه قد أتى إليهم من مكان بعيد جدًّا، مكان عفونة ورطوبة وعزلة. شقَّ لنفسه طريقًا عظيمًا بين البشر والحيوانات والحشرات على حدٍّ سواء، متغذِّيًا على الألم والتعاسة والحزن. إنه نهم، لا يمكن إيقافه، أسوأ الشُّرور وأظلمها.

لا تترك آغنس جانبه. تمسح جبينه و أطرافه بخرقة مبلَّلة. تضع حُزَم ملح على فراشه. تضع باقة ناردين وريش بجع على صدره، راحةً له وسلوى. حمَّى هامنت تزيد وتزيد، الدُّبول تنتفخ أكثر فأكثر. ترفع يده التي غدا جانبها رماديًّا ضاربًا إلى الزُّرقة وكالحًا، وتضغط بها وجنتها. ستجرِّب أيَّ شيء، ستفعل أيَّ شيء. ستفتح عروقها، جوف جسدها، وتمنحه دمها، قلبها، أعضاءها، إذا كان ذلك سيجدي بأقل القليل.

جسده يتعرَّق، تخرج أخلاطه خلال جلده، كأنه يفرغ نفسه.

لكنَّ عقل هامنت في مكان آخر. وقتًا طويلًا يستطيع سماع أمِّه وشقيقتيه، عمَّته وجدَّته. يدرك وجودهن حوله، يعطينه الأدوية، يتحدَّثن إليه، يلمسن جلده. لكنهن يتراجعن الآن. إنه في مكان آخر، في طبيعة لا يعرفها. الجو لطيف هنا وهادئ. إنه وحده. الثلج يتساقط، بهدوء، بلا انقطاع، يتساقط ويتساقط. يتراكم على الأرض من حوله مُغَطِّيًا الدُّروب والسَّلالم والصخور، يثقل أغصان الشجر، يحيل كلَّ شيء أبيض، فارغًا، ساكنًا. صمتُ الثلج، برودته، ضوؤه الفضي المتبدِّل، شيء يملأه بالراحة. يريد فقط أن يستلقي على هذا الثلج، أن يريح نفسه، ساقاه متعبتان، يداه تؤلمانه. أن يستلقي، أن يُسْلِم نفسه، أن يتمدَّد على هذا الدِّثار الأبيض السميك اللامع: أي راحة سيمنحه! شيء ما يقول له يجب ألَّا يستلقي، يجب ألَّا يستسلم لهذه الرغبة. ما يمكن أن يكون هذا الشيء؟ لِمَ لا يستريح؟

خارج جسده، آغنس تتكلَّم. تحاول وضع الكِمادة على الأورام في عنقه وتحت إبطيه، لكنه يرتجف كثيرًا إلى درجة أنَّ الخليط لا يستقر في مكان. تقول اسمه مرارًا وتكرارًا. إليزا ترفع جودث وتأخذها إلى طرف الغرفة المقابل. تطلق جودث صريخًا أجش رافسةً قبضتي عمَّتها. تفكِّر إليزا في أنَّ مَنْ يصف الموت بأنه أشبه بـ «الانزلاق بعيدًا» أو بأنه «سلام»، لم يشهده يحدث أبدًا. الموت عنيف، الموت صراع. الجسد يتشبَّث بالحياة كما يتشبَّث لبلاب بحائط، ولا يترك المرء بسهولة، لا يُسْلِم قبضته دون صراع.

تراقب سوزانا شقيقها مُتَشَنِّجًا قرب المدفأة، تراقب أمَّها متنقِّلةً باهتياج بمعجونها وضمائدها عديمة النفع. تريد أن تنتزعها من يديها وتقذف بها الحائط وتقول: حَسْبُكِ، اتركيه، اتركيه وشأنه. ألا ترين أنَّ الأوان قد فات؟ تضغط سوزانا عينيها بقبضتيها بعنف. ما عادت قادرة على النظر، ما عادت قادرة على التحمُّل.

تهمس آغنس: أرجوك، أرجوك يا هامنت، أرجوك، لا تتركنا، لا ترحل. قرب النافذة، تقاوم جودث طالبةً أن توضع إلى جواره على الحشيَّة، قائلةً إنها بحاجة إليه، يجب أن تتحدَّث إليه، فلتفلتها إليزا. تمسك بها إليزا قائلة: مهلًا، مهلًا، لكن ليس لديها فكرة عمَّا تعنيه بذلك. تجثو ماري عند طرف الحشيَّة ممسكةً بأحد كاحليه. تميل سوزانا بجبهتها على جص الحائط، يداها على أذنيها.

فجأةً، كفَّ عن الرَّجْف، وخيَّم صمت عظيم على الغرفة. فجأةً بدا جسده بلا حراك، نظرته ثابتة على شيء بعيد فوقه.

هامنت في مكانه حيث الثلج والجليد، ينحني إلى الأرض، سامحًا لركبتيه بالانثناء تحته. يضع كفَّه الأولى، ثم الثانية، على سطح الثلج البِلَّوْري الهش، وكم بدا مريحًا، ملائمًا! ليس باردًا جدًّا ولا صلبًا جدًّا. يستلقي، تضغط وجنته الثلجَ الناعم. بياضه ساطع، مزعج لعينيه، لذلك يغمضهما، لحظة فقط، فقط بما يكفي، حتى يستريح ويستجمع قواه. لن يخلد إلى النوم، لن يفعل. سيستمر. لكنه بحاجة إلى الراحة، لحظةً. يفتح عينيه، ليطمئن نفسه بأنَّ العالم ما زال هناك، ثم يغمضهما. هذه اللحظة فقط.

إليزا تهزهز جودث، تدسُّ رأس الطفلة تحت ذقنها وتغمغم بصلاة. يلتفت وجه سوزانا نحو شقيقها، وجنتها المبلَّلة باتجاه الحائط. ترسم ماري علامة الصَّليب، ممسكةً بكتف آغنس. تميل آغنس إلى الأمام لتلمس شفتاها جبهته.

وهناك، قرب النار، محمولًا بين ذراعي أمِّه، في الغرفة التي تعلَّم فيها الحبو والأكل والمشي والكلام، يلفظ هامنت أنفاسه الأخيرة.

يجذبها إلى صدره، يخرجها.

ثم يخيِّم صمتٌ، سكون. لا شيء آخر.

II

لقد مُتُّ

وستحيا:

... استلَّ أنفاسَك ألمًا

لتروي قصتي.[1]

هاملت، الفصل الخامس، المشهد الثاني

---

(1) ترجمة جبرا إبراهيم جبرا.

غرفة. طويلة الشكل وضيِّقة، ببلاطات مثبَّتٌ بعضها إلى بعضها الآخر، صقيلة كمرآة. يقف رهْطٌ من الناس قرب النافذة، ملتفتًا بعضهم إلى بعضهم الآخر في حديث خافت. الستائر مُسدلة على ألواح النافذة، فلم يكن هناك سوى القليل من الضوء، لكنَّ أحدهم يفتح النافذة قليلًا، بمقدار شَقٍّ فقط. نسيمٌ يتسلَّل إلى الغرفة مثيرًا الهواء داخلها، عابثًا بستائر الحائط ومَفْرَش رفِّ المدفأة، حاملًا معه رائحة الشارع، غبار الطريق الجاف، أثرَ فطيرة تُخبَز في الجوار، حلاوةَ تفاح بالكراميل لاذعة. من حين إلى آخر، تطلق أصوات المارَّة في الخارج كلمات غريبة إلى الغرفة، مبتورة المعنى، فقاقيع صغيرة من أصوات حُرِّرت في الصمت.

المقاعد مصفوفة في أماكنها حول المائدة. تنتصب أزهار في إناء، بتائلها مقلوبة، غبار طلعها يغبِّر المائدة تحتها. كلب نائم على وسادة يستيقظ جافلًا، فيبدأ بلعق مخلبه، ثم يغيِّر رأيه ويعود إلى النوم. ثمَّة إبريق ماء على المائدة بقربه مجموعة من الكؤوس. لا أحد يشرب. يتابع الأشخاص المجتمعون قرب النافذة تهامسهم، يمدُّ أحدهم يده ويشبك أصابع شخص آخر، يومئ هذا الأخير برأسه، أعلى قلنسوته البيضاء ظاهر للآخرين.

ينظرون إلى طرف الغرفة، حيث المدفأة، مرارًا وتكرارًا، ثم يلتف بعضهم إلى بعضهم الآخر مرة أخرى.

رُفِع باب من مُفصِّلاته ووضِع على برميلين قرب المدفأة. امرأة تجلس إلى

جانبه. بلا حراك، محنيَّة الظهر، مُطأطئة الرأس. لا يبدو واضحًا فورًا حتى أنها تتنفَّس. شعرها أشعث وتنسدل خُصَله على كتفيها. جسدها مقوَّس، قدماها مطويَّتان تحتها، مُؤخّر رقبتها مكشوف.

أمامها جسد طفل. قدماه العاريتان متباعدتان، أصابعها متثنِّية. بباطن قدميه وأظافره ما زالت تعلق الأدران المتراكمة من الحياة حديثًا: رمل من الطريق، تربة من الحديقة، طين من ضفة النهر حيث سبح قبل أسبوع مع رفاقه. ذراعاه إلى جنبيه، رأسه ملتفت قليلًا نحو أمِّه. بشرته تفقد مظهر الحياة، شديدة الشحوب، جافة وهامدة. ما زال في منامته. كان عمَّاه هما مَن خلع الباب من مُفصِّلاته وجلبه إلى الغرفة. رفعا جسد الصبي برفق، بأيدي حذرة، بأنفاس محبوسة، من الحشيَّة حيث فارق الحياة إلى سطح الباب الخشبي الصلب.

العمُّ الأصغر، إدموند، بكى، غشَّت الدموع بصره، وكان هذا مبعث راحة له، لأنه وجده أمرًا مؤلمًا جدًّا أن ينظر إلى ملامح ابن أخيه المتوفى السَّاكنة. هذا طفل عرفه ورآه في كل يوم من أيام حياته القصيرة، طفل علَّمه كيف يمسك بِكُرة خشبية، كيف يلتقط البراغيث من كلب، كيف ينحت مزمارًا من قصبة. العم الأكبر، ريتشرد، لم يبكِ: بل استحال حزنه غضبًا على العمل المتجهِّم الذي كُلِّفوا به، على العالم، على القَدَر، على حقيقة أنَّ طفلًا يمكن أن يمرض ثم يرقد ميتًا هناك. جعله الغضب يحتدُّ في حديثه إلى إدموند لاعتقاده بأنه لم يحمل ما يكفي من ثقل الصبي، لم يمسك بالساقين بقوة كما ينبغي من الركبتين، وليس من الكاحلين، غير متقنٍ العمل، مفسِدًا إيَّاه.

بعد مدة وجيزة يغادر كلا العَمَّين، يبادلان الأشخاص الموجودين في الغرفة بضع كلمات، ثم يختلقان أعذارًا عن العمل، عن حاجات يقضيانها، وأماكن يجب أن يقصدانها.

معظم مَنْ في الغرفة نساء: جدَّة الصبي، زوجة الخبَّاز، التي هي أمُّ الصبي بالعماد، عمَّة الصبي. فعلن كلَّ ما في وسعهن. أحرقن الكُسْوة والفراش وسجاد القش والأغطية. هَوَّين الغرفة. وضعن البنت التوأم في الفراش في الطابق العلوي، لأنها ما زالت ضعيفة البِنية، ما زالت مريضة، مع أنها تتعافى على نحو جيِّد. نظَّفن الغرفة، رششن ماء الخزامى حواليها، سمحن بدخول الهواء. جلبن ملاءة بيضاء، خيطًا قويًّا، إبَرًا حادة. قُلْنَ بأصوات تتسم بالاحترام وهادئة إنهن سيساعدن في التكفين، إنهن هنا، لن يغادرن، مستعدات للبدء. يجب تهيئة الصبي للدَّفن: لا وقت نضيِّعه. أصدرت البلدة قرارًا بأنَّ كلَّ من يموت بالوباء يجب أن يُدفن، سريعًا، خلال يوم واحد. أبلغت النسوة الأمَّ بهذا في حال جهلها بالقرار أو نسيانها إياه في خضم حزنها. وضعن أوعية من الماء الدافئ والخِرَق إلى جانب الأم وتَنَحْنَحْن.

لكن لا شيء. لا تجيب. لا ترفع رأسها. لا تصغي ولا يبدو حتى أنها تسمع الاقتراح ببدء التكفين، بغسل الجسد، بخياطة الكفن. لا تنظر إلى أوعية الماء، بل تتركها تبرد قربها. لا تنظر إلى قطعة القماش البيضاء المطويَّة بشكل مربع أنيق، الموضوعة عند قدم الباب.

تجلس فقط، رأسها محني، إحدى يديها تلمس أصابع الصبي المتثنِّية الهامدة، والأخرى تلمس شعره.

في رأس آغنس، تتسع أفكارها، ثم تضيق، تتسع، تضيق، مرارًا وتكرارًا. تفكِّر، لا يمكن أن يحدث هذا، لا يمكن، كيف سنعيش، ماذا سنفعل، كيف ستحتمل جودث ذلك، ماذا سأقول للناس، كيف نستمر، ما الذي كان عليَّ فعله، أين زوجي، ماذا سيقول، كيف كان يمكنني أن أنقذه، لِمَ لَمْ أنقذه، لماذا لم أدرك أنه هو مَن كان في خطر؟ ثم يضيق التركيز، وتفكِّر: إنه ميِّت، إنه ميِّت، إنه ميِّت.

لا تحمل الكلمتان معنى لها. عقلها لا يستطيع التفكير فيهما. إنها فكرة مستحيلة أنَّ ابنها، طفلها، ولدها، أصحَّ أبنائها وأقواهم، في غضون أيام، يمرض ويموت.

ككلِّ الأمهات، باستمرار تطرح أفكارها كصنَّارة صيد، نحو أطفالها، مذكِّرة نفسها بمكان وجودهم، وبما يفعلون، وكيف يبلون. بحكم العادة، وهي جالسة هناك قرب المدفأة، جزء من عقلها يحدِّد أماكن وجودهم: جودث في الطابق العلوي، سوزانا في البيت المجاور. وهامنت؟ يسأل عقلها الباطن مرارًا وتكرارًا، مُشوَّشًا من قلة الطعام، من الإجابة التي تستمر في إعطائها: إنه ميِّت، إنه راحل. وهامنت؟ يسأل العقل مرة أخرى. في المدرسة، يلعب، خرج إلى النهر؟ وهامنت؟ وهامنت؟ أين هو؟

هنا، تحاول أن تقول لنفسها. باردٌ وبلا حياة، على هذا اللَّوح، أمامك مباشرة. انظري، هنا، انظري.

وهامنت؟ أين هو؟

مولية الباب ظهرها، تواجه المدفأة الممتلئة بالرَّماد فقط، وقد احتفظ بهيئته الهشَّة التي كانت حطبًا ذات مرةً.

تشعر بالناس يدخلون ويخرجون من الباب المفضي إلى الشارع، ومن الباب المفضي إلى الفناء. حماتها، إليزا، زوجة الخبَّاز، الجارة، جون، أناس آخرون لا تستطيع تحديدهم.

يتحدَّث هؤلاء الناس إليها. تسمع كلمات وأصواتًا، مهموسة في الغالب، لكنها لا تلتفت. لا ترفع رأسها. هؤلاء الناس الذين يدخلون بيتها ويخرجون منه، دافعين الكلمات والألفاظ إلى أذنيها، لا علاقة لهم بها. لا يمنحون شيئًا تريده أو تحتاج إليه.

تستقر إحدى يديها على شعر ابنها، والأخرى ما زالت تمسك بأصابعه. هذه الأعضاء هي الوحيدة المألوفة فيه، ما زالت تبدو هي نفسها. تسمح لنفسها بالتفكير في هذا.

جسده مختلف. يختلف على نحو متزايد، مع انقضاء اليوم ببطء. يبدو كأنَّ ريحًا قوية -تعتقد أنها تلك الريح في حلمها- رفعت ابنها عن الأرض، طوَّحته على الصخور، دوَّمته حول منحدر، ثم أعادته إلى الأسفل. عومِل بإساءة واستغلال وقسوة وحُفِر جسده بالعلامات: فتك به المرض. بعد موته بحين، انتشرت الكُدُوم والعلامات السوداء واتسعت. ثم توقَّفت. استحال جلده شحمًا شمعيًّا، برزت منه العظام. الجرح الذي فوق عينه، الذي لا فكرة لديها من أين أتى، ما زال شاحبًا محمرًّا.

تتأمَّل وجه ابنها، أو الوجه الذي كان لابنها، الوعاء الذي حمل عقله، أخرج كلامه، وحوى كلَّ ما رأته عيناه. الشفتان جافتان، مغلقتان. تودُّ أن تبلِّلَهما، أن تمنحهما بعض الماء. الوجنتان رَهِلتان، جوَّفتهما الحمى. الجفنان رماديَّان ضاربان إلى اللون الأرجواني على نحو رقيق، كبتائل أزهار الربيع المبكِّرة. أغمضتهما بنفسها. بيديها، بأصابعها، وكم شعرت بأصابعها ساخنة وزلقة، كم بدا العمل عصيًّا، كم بدا صعبًا أن تضع أصابعها -المرتعشة والرطبة- على هذين الجفنين، العزيزين جدًّا، المألوفين جدًّا، إلى درجة أنها تستطيع رسمهما من ذاكرتها إذا ما وضع أحدهم إصبع فحم في يدها. أنَّى لأي امرئ أن يُغْمِضَ عيني طفلِهِ الميِّت؟ أنَّى له أن يجلب بِنسَين ويضعهما هناك، في تجويف العينين لتثبيت الجفنين؟ أنَّى لأي امرئ أن يفعل هذا؟ ليس عدلًا. لا يمكن أن يكون كذلك.

تمسك بيده بقوة. تنتقل حرارةُ جلدها إلى جلده. تكاد تصدِّق أنَّ اليد مثلما كانت، أنه ما زال على قيد الحياة إذا ما استمرت في إبعاد بصرها عن

ذلك الوجه، عن ذلك الصدر الذي لا يرتفع أبدًا، واليباس الذي يجتاح هذا الجسد. يجب أن تقبض اليد بقوة أكبر. يجب أن تبقي يدها على الشعر الذي يبدو مثلما كان دائمًا: حريريًّا، ناعمًا، خشنًا عند الأطراف حيث كان يشدُّه عندما يراجع دروسه.

تضغط بأصابعها العضلة التي بين إبهام هامنت وسبَّابته. تدلِّك العضلة هناك، برفق، بحركة دائرية، وتنتظر، تصغي، تركِّز. إنها مثل عوسقها العجوز، تقرأ الهواء، ترهف السمع، تنتظر إشارةً، صوتًا.

لا شيء يأتي. لا شيء أبدًا. لم تشعر بهذا من قبل قطُّ. دائمًا ثمَّة شيء ما، حتى مع أغمض الأشخاص وأشدهم خصوصية، ومع أطفالها، طالما وجدت صورًا صاخبة، ضوضاء، أسرارًا، معلومات. بدأت سوزانا تضع يديها خلف ظهرها حينما تكون قريبة من أمِّها، مدركةً تمامًا أنَّ آغنس يمكنها معرفة ما تشاء على هذه الشاكلة.

لكنَّ يد هامنت صامتة. آغنس تصغي، تجهد. تحاول الإنصات إلى ما قد يكون تحت الصمت، وراءه. أيمكن أن تكون هنالك همهمة بعيدة، صوت ما، رسالة، ربما من ابنها؟ علامة على مكان وجوده، مكان يمكن أن تجده فيه؟ لكن لا شيء هناك. أنينٌ عالٍ من اللاشيء، مثل غياب الضوضاء عندما يصمت جرس كنيسة.

تشعر باقتراب شخص ما منها، يجثو لامسًا ذراعها. لا تحتاج إلى أن تنظر لتعرف أنه بارثولوميو. عَرْضُ تلك اليد وثقلها. وطء حذائه الثقيل وجَرُّه. رائحة التبن والصوف القوية.

يلمس شقيقها وجنتها الجافة. يتلفَّظ باسمها، مرةً، مرتين. يقول إنه آسف، إنَّ قلبه موجوع. يقول إنَّ أحدًا لم يتوقَّع هذا. يقول إنه يتمنى لو كان

الأمر غير هذا، إنه كان خير الفتيان، أفضلهم، إنه خسارة فادحة. يضع يده على يدها.

يغمغم: «سأشرف على الإعداد للأمر، أرسلت ريتشرد إلى الكنيسة. سيتيقَّن من أنَّ كلَّ شيء مجهَّز.» يجذب الهواء إلى صدره، وعبر تنفُّسه هذا يمكنها سماعُ كل ما يقال حولها. «النساء هنا، ليساعدنك.»

تهزُّ آغنس رأسها، بصمت. تثني إصبعها في راحة يد هامنت. تتذكَّر لمَّا أخذت تفحص كفَّه وكفَّ جودث عندما كانا رضيعين، مستلقيَين معًا في المهد. فتحت أصابعهما الصغيرة وتتبَّعت آثار الخطوط التي وجدتها. كم بدت غضون أيديهما رائعة: مثل غضونها، فقط أصغر منها. كان لهامنت خطٌّ عميق واضح في منتصف راحة يده، كضربة فرشاة، يشير إلى حياة طويلة، وكان خطُّ كفِّ جودث نحيلًا، مبهمًا، يتلاشى، ثم يعاود الظهور في مكان آخر. جعلها ذلك تعبس، وترفع الأصابع المُتثنِّية إلى شفتيها حيث قبَّلتها، مرارًا وتكرارًا، بِحُبٍّ شرس، يكاد يكون غاضبًا.

يقول بارثولوميو: «يمكنهن... تكفينه. أو يمكنهن أن يكُنَّ معك وأنت تقومين بذلك. أيهما تفضِّلين.»

تبقى ساكنة تمامًا.

يقول: «آغنس.»

تفتح أصابع هامنت المُتثنِّية وتحدِّق إلى الكف. الأصابع ليست أصلب على نحوٍ ملحوظ مما كانت عليه، قطعًا ليست كذلك. ذاك هو، خطُّ الحياة القوي الطويل يمتد من الرُّسغ إلى أسفل الأصابع. إنه خطٌّ جميل، خطٌّ متقن، جدولٌ يعبر مشهدًا طبيعيًّا. انظر، تريد أن تقول لبارثولوميو. أترى ذلك؟ هل يمكنك تفسير هذا؟

«علينا أن نهيِّئه»، يقول بارثولوميو مشدِّدًا قبضته على يدها.

تطبق شفتيها. لو كانا بمفردهما، هي وبارثولوميو، لربما استطاعت المجازفة بإطلاق بعض الكلمات التي تسدُّ حلقها. لكنها والحال هذه، والغرفة مليئة بأشخاص صامتين، لا تستطيع.

«يجب دفنه. تعلمين هذا. ستأتي البلدية لأخذه إن لم نفعل.»

تقول: «لا، ليس بعد.»

«متى إذًا؟»

تنكِّس رأسها، مُعْرِضةً عنه، عائدة إلى ابنها.

ينقل بارثولوميو ثقل جسده إلى جانب آخر. «آغنس»، يقول بصوت منخفض حتى لا يسمعهما الآخرون ربما، مع أنهم سيسمعون، تعرف آغنس هذا. «لعلَّ النبأ لم يصله. سيأتي إذا عَلِم. أعرف أنه سيأتي. لكنه لن يجد الأمر خاطئًا إذا ما مضينا فيه. سيفهم ضرورته. ما علينا فعله هو أن نرسل رسالة أخرى وفي الوقت نفسه...»

«سننتظر»، تقول بصعوبة. «حتى الغد. يمكنك أن تخبر البلدية بذلك. وسأكفِّنه أنا. لا أحد آخر.»

«حسنًا جدًّا»، يقول وينهض. تراه ينظر إلى هامنت، تراقب عينيه تنتقلان من قدمي ابن شقيقته العاريتين والمسودتين إلى وجهه المُنْهَك. يطبق شقيقها فمه ويغمض عينيه حينًا من الوقت. يرسم إشارة الصليب. قبل أن يستدير مبتعدًا، يمدُّ يده ويضعها على صدر الصبي، تمامًا فوق المكان الذي كان ينبض فيه قلبه.

عملٌ ينبغي إنجازه، وستنجزه وحدها.

تنتظر حتى المساء، إلى أن غادر الجميع، إلى أن أوى معظم الناس إلى فراشهم.

تحمل وعاء الماء بيدها اليمنى وترشُّه ببضع قطرات من الزيت. الزيت يقاوم الماء ويرفض الاختلاط به، بل يستحيل دوائر ذهبية على السطح. تغمس الخرقة وتعصرها.

تبدأ بالوجه، من أعلاه. له جبهة عريضة وشعره ينمو من الجبين متجهًا إلى الأعلى. بدأ في الآونة الأخيرة ببَلِّه في الصباح، محاولًا أن يجعله مُسَطَّحًا، لكنَّ الشعر لا يستجيب. تبلِّله الآن، لكنه ما زال لا يستجيب، حتى في الموت. أَتَرَى، تقول له، لا يمكنك أن تغيِّر ما وُهِبت إيَّاه، لا يمكنك تحريف ما قُدِّر لك أو تبديله.

لا يجيب.

تبلِّل يديها بالماء، ثم تمرِّر أصابعها خلال شعره، تجد نُتَفًا من نُسَال، قُنَابة نبات، وورقة شجرة خوخ. وضعت هذه الأشياء جانبًا على صحن: بقايا من ابنها. تمشط شعره بأصابعها حتى يصير نظيفًا. تسأله، هل لي أن آخذ جديلة من شعرك؟ أتمانع؟

لا يجيب.

تتناول سكِّينًا، تلك التي تجدها مفيدة جدًّا لنزع البذور من الفاكهة -ابتاعتها من غجرية صادفتها في الطريق ذات يوم- وتأخذ خصلة من مؤخر رأسه. تقصُّ السكينُ الجديلة بسهولة، وهي تدرك هذا. ترفع الشَّعرات. أطرافها صفراء فاتحة اللون، لوَّحتها شمس الصيف، جذورها غامقة اللون

تميل إلى البُنّي. تضعها بعناية قرب الصحن.

تمسح جبهته، عينيه المغمضتين، وجنتيه، شفتيه، الجرح المفتوح على حاجبه. تنظّف قوقعتي أذنيه، جذع عنقه الناعم. تودُّ لو تغسله من الحمى، لو تسحبها من جلده، لو تستطيع. يجب قصّ منامته، لذا تمرِّر سكّين الغجرية على الذراعين، وصولا إلى الصدر.

تمسح بالخرقة برفق، برفق شديد، إبطيه المكدومين والمتورِّمين، عندما تدخل ماري.

تقف عند مدخل الباب، ناظرةً إلى الصبي. وجهها مبلَّل، عيناها منتفختان. تقول بصوت أجش: «رأيت الضوء، لم أكن نائمة.»

تومئ آغنس برأسها إلى مقعد. كانت ماري معها عندما أتى هامنت إلى العالم، يمكنها أن تبقى لتراه خارجًا منه.

الشمعة تشتعل ويعلو لهبها مضيئةً السقف وتاركة زوايا الغرفة في الظلال. تجلس ماري على المقعد، تستطيع آغنس أن ترى حاشية منامتها البيضاء.

تغمس الخرقة، تغسل، تغمسها مرةً أخرى. حركة متكرِّرة. تمرِّر أصابعها على النَّدَبة التي على ذراع هامنت حينما سقط من سياج في هيولَندز، على العُقْدة المتغضِّنة من أثر عضَّة كلب في سوق الحصاد. إصبع يمناه الوسطى يبَّسها الإمساك بريشة الكتابة. ثمَّة ندوب صغيرة على جلد بطنه منذ إصابته بالجدري عندما كان طفلًا صغيرًا.

تغسل ساقيه، كاحليه، قدميه. تأخذ ماري الوعاء، تغيِّر الماء. تغسل آغنس القدمين مرة أخرى، وتجفِّفهما.

تنظر المرأتان إحداهما إلى الأخرى لحظةً، ثم تلتقط ماري الملاءة المطويَّة،

ممسكةً زاويتيها بيديها. تُبْسَط الملاءة، تتفتَّح كزهرة ضخمة، عريضة البتائل، ويواجه آغنس اتساعُها الأبيض الخاوي المحيِّر. بريقها كبريق النجوم، لا سبيل إلى اجتنابه في هذه الغرفة المظلمة.

تأخذها. تضغطها بوجهها. تفوح منها رائحة عرعر وأرْز وصابون. وَبَرها ناعم، حنون، سَمْح.

تساعدها ماري على رفع ساقي هامنت ثم جذعه، لتدُسَّ الملاءة تحته.

يشقُّ عليها لفُّه. يشقُّ عليها رفع زوايا الملاءة وتغطيته، وخَنْقِه ببياضها. يشقُّ عليها التفكير، ومعرفة أنها بعد الآن لن ترى مرة أخرى هاتين اليدين، هذه البراجم، هاتين الساقين، ذلك الإبهام، ذلك التَّيبُّس، هذا الوجه.

لا تستطيع تغطيته في المرة الأولى. لا تستطيع فعل ذلك في المرة الثانية. تأخذ الملاءة، تسدلها فوقه، تبعدها. تسدلها مرة أخرى. تبعدها مرة أخرى. يرقد الصبي عاريًا، نظيفًا، وسط الملاءة، يداه مطويتان على صدره، ذقنه متجه إلى الأعلى، عيناه مغمضتان.

تميل آغنس على طرف اللوح، تتنفَّس بمشقة، تقبض الملاءة بيديها بقوة.

ماري تراقب. تمدُّ يدها فوق جسد الصبي لتلمس يد آغنس.

تنظر آغنس إلى ولدها. إلى أضلاع قفصه الصدري الصغير، الأصابع المتشابكة، عظمتي الركبتين المستديرتين، الوجه السَّاكن، الشعر الملوَّن بلون الحنطة، الذي جفَّ الآن منتصبًا على جبينه مثلما يفعل دائمًا. طالما كان حضوره الجسدي قويًا جدًّا، واضحًا جدًّا، خلافًا لحضور جودث. دائمًا تعرف آغنس عندما يدخل غرفة ما أو يغادرها: جلبة القدمين الجليَّة تلك، عبور الهواء ذاك، هديد قدمه وهو يجلس على مقعد. والآن عليها التَّخلِّي عن هذا الجسد، وتسليمه إلى الأرض، لن تراه مرة أخرى أبدًا.

تقول: «لا أستطيع فعل ذلك.»

تأخذ ماري منها الملاءة. تمدُّها في اتجاه واحد على قدميه، ثم في الاتجاه الآخر على صدره. شيءٌ في آغنس يرى في الطريقة البارعة التي تؤدي بها ماري هذا العمل أنها قد فعلت هذا من قبل، مرَّاتٍ عديدة.

ثم، تمدُّ كلتاهما يديها إلى الروافد الخشبية. تختار آغنس نبات سَذَاب، وسَنْفيتون، وبابونج أصفر. تأخذ خزامى أرجوانيًّا وزعترًا، وحفنة من إكليل الجبل. ليس زهرة الثالوث لأنَّ هامنت كان يكره رائحتها. ليس حشيشة الملاك، فقد فات الأوان على ذلك ولم تنجح، لم تنجز عملها، لم تنقذه، لم تقضِ على الحمى. ليس النَّاردين، للسبب نفسه. ليس عشبة حليب الشوك، لأنَّ الأوراق شائكة وحادة جدًّا بما يكفي لتخترق الجلد فتخرج قطرات الدم.

تضع الأعشاب المجفَّفة في الملاءة، تدُسُّها إلى جواره لتهمس له مُواسِيةً.

التالي هو الإبرة. تضع آغنس فيها خيطًا غليظًا. تبدأ عن[illegible]دمين.

رأس الإبرة حاد، يثقب نسيج القماش وينزلق خارجًا من الجانب الآخر. تُبقي عينيها على عملها، على خياطة الملاءة لتصنع كفنًا. هي بحَّار يخيط شراعًا، يُعِدُّ قاربًا يحمل ابنها إلى العالم الآخر.

تصل إلى السَّاقين عندما يجعلها شيء ما ترفع رأسها. ثمَّة شخص يقف أسفل السلالم. ينقبض قلب آغنس كقبضة يد، تكاد تصيح: ها أنتَ ذا، هل عُدت؟ لكنها ترى بعد ذلك أنها في الواقع جودث. الوجه نفسه، لكنَّ هذا الوجه حي، مفجوع، يرتعش.

تجفل ماري ناهضة عن مقعدها قائلة: عودي إلى الفراش، الآن، هيًا، يجب أن تنامي، لكنَّ آغنس تقول: لا، دعيها تبقى.

تضع الإبرة بحذر، لأنها يجب ألا تخزه، حتى والحال هذه، وتمدُّ يديها. تترك جودث السلالم، تخطو إلى الغرفة، وتلقي بنفسها على أمها، ضاغطة مئزرها بوجهها قائلة شيئًا عن القطط الصغيرة، وشيئًا آخر عن المرض، عن تبديل أماكن، وإنه كان خطئي، ثم يهزُّها البكاء كعاصفة تطوِّح شجرة.

تقول لها آغنس: إنه ليس خطأك. ليس خطأك أبدًا. أصابته الحمى ولم يكن بوسعنا فعل شيء. يجب أن نحتمل الأمر قدر المستطاع. ثم تقول: أتودِّين رؤيته؟

تسوِّي ماري الملاءة حتى تكشف وجه هامنت. تأتي جودث لتقف إلى جانبه، منكَّسة الرأس، يداها مرفوعتان، متشابكتان. ملامحها مزيج من إنكار وحياء وشفقة وحزن.

«أوه»، تقول جاذبةً الهواء إلى صدرها. «هل هذا هو حقًّا؟»

تومئ آغنس برأسها واقفةً إلى جوارها.

«لا يبدو أنه هو.»

تومئ آغنس برأسها مرة أخرى. «حسنًا، لقد رحل.»

«رحل إلى أين؟»

«إلى...» تطلق نَفَسًا عميقًا، ثابتًا تقريبًا، «... إلى... الفردوس. وترك جسده وراءه. علينا أن نعتني به قدر ما نستطيع.»

تبسط جودث يدها وتلمس وجنة توأمها. تنهمر الدموع على وجهها، يلاحق بعضُها بعضَها الآخر. طالما ذرفت دموعًا غزيرة كهذه، مثل لآلئ ثقيلة، تتعارض تمامًا مع ضآلة هيكلها. تهزُّ رأسها، مرةً أو مرتين. ثم تقول: «ألن يعود أبدًا؟»

وتجد آغنس أنها تستطيع احتمال أي شيء إلا ألم طفلتها. يمكنها احتمال الانفصال، المرض، الضرب، الولادة، الحرمان، الجوع، الظلم، العزلة، لكن ليس هذا: أن تنظر طفلتها إلى توأمها الميِّت. طفلتها، تبكي شقيقها المفقود. طفلتها، يعصف بها الحزن.

أوَّل مرَّةٍ تنهمر دموع آغنس. تملأ عينيها دون سابق إنذار، تغشي بصرها، منسكبةً على وجهها، على عنقها، مُبَلِّلة مئزرها، سائلةً بين ثيابها وجلدها. تبدو أنها لا تنهمر من عينيها فحسب، بل من مسامِّ جسدها كلِّها. كيانها كلُّه يتوق إلى ابنها، إلى ابنتيها، إلى زوجها الغائب، ويحزن لأجلهم، لأجلهم جميعًا عندما تقول: «كلَّا يا حبيبتي، لن يعود أبدًا.»

ضوء الفجر اللَّبني المتردِّد يتسلَّل إلى الغرفة. تنهي آغنس الغُرَز الأخيرة في الكفن الذي تدُّسه عند كتف هامنت، مُرتِّبةً الحافات عند ركبتيه. تفرغ ماري الأوعية، تعصر الخرق، تكنس الأوراق والبراعم السائبة من الأرض. تضع جودث وجنتها على الملاءة قرب كتفه. تأتي سوزانا من البيت المجاور وتجلس إلى جوار أختها، منكَّسة الرأس.

هيَّأنه بينهن. إنه نظيف ومُعَدٌّ للدفن، يلفُّه قماش أبيض.

تلفي آغنس عقلها يعود إلى الوراء، كحصان يتجنَّب حفرة، عندما تفكِّر في القبر. يمكنها التَّطَلُّع إلى التفكير في المشي معه إلى الكنيسة، سيحمله بارثولوميو وربما غلبرت وجون، يمكنها تخيُّل الكاهن وهو يبارك الجسد. لكنها لا تطيق التفكير في إنزاله إلى الأرض، إلى الحفرة المظلمة، ولا تراه مرة أخرى أبدًا. لا تستطيع أن تتخيَّل ذلك. لا يمكنها أن تسمح بحدوث هذا

لطفلها.

للمرة الثالثة أو الرابعة، تحاول إدخال الخيط في الإبرة -تحتاج إلى أن تخيط الملاءة فوق وجهه، يجب أن تفعل ذلك، يجب فعل ذلك- لكن الخيط أثخن مما اعتادته، وبالٍ، ولا يلج في سُمِّ الخياط، مهما تحاول مرات عديدة. تبلِّل الطرف في فمها عندما يأتي صوت طرق قوي على الباب.

ترفع رأسها. تئنُّ جودث، ترفع ناظريها. تستدير ماري من المدفأة.

تقول: «مَن تراه يكون؟»

تضع آغنس الإبرة. أربعهن يقفن. يأتي الطرق مرة أخرى: خبطٌ حادٌّ متواتر.

في لحظة جامحة، تحسب آغنس أنَّ شيئًا ما قد جاء إلى بيتها مرة أخرى ليأخذ طفلتيها الأخريين، ليأخذ ابنها قبل أن تكون مستعدة، قبل أن تعدَّه إعدادًا كاملًا. ما زال الوقت مبكِّرًا جدًّا على مجيء مُعَزٍّ أو جار، ليودِّع الوداع الأخير، أو على مجيء مسؤولي البلدية لانتزاع الجسد. لا بدَّ أنه شبحٌ ما، طيفٌ ما، أتى زائرًا عند بابهم. لكن لأجل من؟

مرة أخرى، قرْع، طرْق. الباب يهتز من مُفصّلاته.

«من هناك؟» تصيح آغنس، صوتها أجرأ مما تشعر.

يرتفع المزلاج، يُفْتَح الباب، وهناك فجأةً زوجها، يخطو تحت ساكف الباب، ثوبه ورأسه مُبْتَلَّان بالمطر وكامدان، شعره ينسدل على وجنتيه. وجهه أرِق، يبدو كمن فقد عقله، بشرته شاحبة. يقول: «هل تأخَّرتُ كثيرًا؟»

ثم تقع عينه على جودث التي تقف قرب الشمعة، فيتجلَّل وجهه بابتسام.

«أنتِ» يقول قاطعًا الغرفة بخطوة واسعة ومادًّا يديه. «أنتِ هنا، أنتِ

بخير. كنت قلقًا -لم يهنأ لي بال- جئت حالما سمعت، لكنني أرى الآن أنَّ...»

يتوقَّف، يتوقَّف فجأة. يرى اللَّوح، الكفن، الجسد المُسَجَّى.

ينظر إليهم، واحدًا تلو الآخر. وجهه فزع، حائر. ترى آغنس أنه يتفحَّصهم. زوجته، أمه، ابنته الكبرى، ابنته الصغرى.

يقول: «لا، ليس...؟ هل هو...؟»

تنظر آغنس إليه وينظر إليها. تودُّ، أكثر من أي شيء آخر، لو تطيل هذه اللحظة، لو تمدِّد الوقت قبل أن يعرف، لو تحميه مما حدث أطول وقت ممكن. ثم تومئ برأسها إيماءة سريعة واحدة.

الصوت الذي يخرج منه غاصٌّ ومخنوق، كصوت حيوان أُكرِه على تحمُّل ثقل عظيم. إنه جلبةُ عدم تصديق، جلبة أسى. لن تنساه آغنس أبدًا. في آخر حياتها، عندما تنقضي سنوات على موت زوجها، ستظل قادرة على استحضار طبقة الصوت هذه ونغمته بدقة.

يتحرَّك بسرعة في الغرفة ويسحب القماش. وها هو وجه ابنه أمامه، زهرة زنبق بياضها تخالطه زرقة، عينان محكمتا الإغلاق، شفتان مزمومتان، كأنَّ الصبي غاضب، لا يعجبه ما حدث.

يضع الأب يده على وجنة ابنه الباردة. أصابعه تحوم على الكَدَم الذي فوق حاجبه، ترتجف. يقول: لا، لا، لا. يقول: يا ربَّ السماوات. ثم يجثو مائلًا على الصبي، يهمس: كيف حدث لك هذا؟

تجتمع النساء حوله، يضعن أيديهن عليه، يشدُدْنه إليهن.

***

إذًا الأب هو من يحمل هامنت إلى الدَّفن. يرفع اللَّوح عاليًا، متَّزنا على يديه الممدودتين، حاملًا ابنه أمامه، وقد لُفَّ بكفن أبيض، ووُضِعَت أزهار وورود حول جسده.

خلفه آغنس تمسك بيد سوزانا من ناحية وبيد جودث من الناحية الأخرى. جودث يحملها بارثولوميو، تدسُّ وجهها في عنقه وتنهمر دموعها مبلِّلةً قميصه. يتبعهم ماري وجون، وإليزا والأشقاء، جنبًا إلى جنب جوان وإخوة آغنس، والخبَّاز وزوجته.

يحمله الأب، دون مساعدة، على طول شارع هنلي، تسحُّ الدموع والعرق على وجهه. عند النَّاصية، ينطلق إدموند من بين المُشَيِّعين ويذهب إلى جوار شقيقه. معًا، يحملان اللَّوح بينهما، الأب من جهة الرأس، وإدموند من جهة القدمين.

الجيران، أهالي البلدة، الناس في الطرقات يتنحَّون عندما يرون الموكب الصامت. يضعون أدواتهم، وصُرَرَهم، وسلالهم على الأرض. يتراجعون إلى الوراء، إلى حافات الشوارع مفسحين الطريق. يخلعون قبعاتهم. وإذا كانوا حاملين أطفالهم، يضمونهم إليهم أكثر، عندما يرون ابنَ صانع القفافيز يمرُّ حاملًا ابنه الميِّت والمُكَفَّن. يرسمون علامة الصليب. يصيحون بكلمات عزاء وأسى. يتلون صلاة لأجل الصبي، لأجل العائلة، لأجل أنفسهم. بعضهم يبكي. بعضهم يتهامس عن العائلة، عن صانع القفافيز، عن غرور زوجته، وأنَّ الجميع حسب أنَّ ابن صانع القفافيز لن ينجح في شيء، وأنه طالما بدا متبطِّلًا، وأمَّا الآن فانظروا إليه، يقال إنه رجل ذو شأن في لندن، وها هو ذا، برُدْنَيه المطرَّزين ببذخ، وبحذائه الجلدي اللامع. من كان يحسب هذا؟ هل صحيح أنه يجني ذلك المال كلَّه من المسرح؟ كيف يمكن ذلك؟

لكنَّ جميعهم ينظر بحزن إلى الجسد المُسَجَّى، إلى وجه الأم المنكوب، وهي تمشي بين ابنتيها.

لآغنس، المشي إلى المقبرة بطيء جدًّا وسريع جدًّا في الوقت نفسه. لا تطيق هذه الصفوف المتتالية من العيون المحدِّقة متفحِّصةً إيَّاهم، طابعةً صورة جسد ابنها المُكَفَّن في جفونها، سالبةً جوهره ذاك. هؤلاء أناس كانوا يرونه كلَّ يوم، يمرُّ قرب أبوابهم، تحت نوافذهم. بادلوه الكلام، داعبوا شعره، حثُّوه على الإسراع إذا ما تأخَّر عن جرس المدرسة. لعب مع أطفالهم، اندفع داخلًا بيوتهم ومحالهم وخارجًا منها. حمل رسائلهم، داعب كلابهم، مسَّد ظهور قططهم إذ تنام على حافات النوافذ المشمسة. والآن حياتهم تستمر، دون تغيير، كلابهم ما زالت تتثاءب قرب المدافئ، أطفالهم ما زالوا يتذمَّرون من العشاء، وأمَّا هو فما عاد موجودًا.

لذلك لا تطيق نظراتهم، ولا تستطيع عيناها ملاقاة عيونهم. لا تريد تعاطفهم وصلواتهم وكلماتهم المهموسة. تكره مسلك الناس في ابتعادهم مفسحين لهم الطريق ثم مجتمعين من ورائهم، يمحون آثار مرورهم، كأنَّ شيئًا لم يحدث، كأنَّ شيئًا لم يكن. ترغب في حفر الأرض، ربما بمجرفة، ترغب في خدش الطرقات تحتها، حتى تكون هناك علامة إلى الأبد، بها يُعْرَف دائمًا أنَّ هامنت أقبل من هذا الطريق. كان هنا.

قريبًا جدًّا، سريعًا جدًّا، يقتربون من المقبرة، يدخلون من البوابة، يمشون بين صفوف أشجار الطَّقْسُوس المرصَّعة بتوتٍ قرمزي ناعم.

القبر صدمة. تمزُّقٌ عميقٌ مظلمٌ في الأرض، كأنَّ مخلب عملاقٍ شقَّه شقًّا طائشًا. إنه في الطرف البعيد من المقبرة. خلفه مباشرة، يتَّخذ النهر منعطفًا بطيئًا واسعًا محوِّلًا مياهه في اتجاه آخر. صفحة النهر كامدة اليوم، مضفورة كحبل، تندفع دائمًا إلى الأمام.

كم كان هامنت سيحبُّ بقعة الأرض هذه! تلاحظ نفسها وهي تكوِّن هذه الفكرة. لو كان بإمكانه أن يختار، لو كان هنا، إلى جوارها، لو كان بإمكانها الالتفات إليه وسؤاله، لأيقنت أنه سيشير إلى هذه البقعة بعينها: إلى جانب النهر. كان يهوى الماء. طالما أنفقت وقتًا عصيبًا في إبعاده عن الضفاف المليئة بالأعشاب، عن أفواه الآبار الرطبة، عن المصارف النتنة، عن برك الخراف المتّسخة. أمّا الآن، فسيكون هنا، حبيسًا في الأرض، إلى الأبد، قرب النهر.

يُنْزِله أبوه إلى الأسفل. كيف يمكنه أن يفعل ذلك، كيف يكون ذلك ممكنًا؟ تعلم أنَّ الأمر يجب أن يكون كذلك، أنه فقط يفعل ما يجب فعله، لكنَّ آغنس تشعر بأنها لا تستطيع أداء هذا العمل. لن تفعل أبدًا، لن تستطيع أبدًا أن تودع جسده الأرض هكذا، وحيدًا، باردًا، ليُوارى التراب. لا تستطيع آغنس أن تشاهد، لا تستطيع، يدا زوجها تجهدان، ووجهه متغضِّن ومنقبض ولامع، يتقدَّم بارثولوميو وإدموند للمساعدة. شخص ما ينتحب في مكان ما. هل هي إليزا؟ هل هي زوجة بارثولوميو التي فقدت رضيعًا منذ وقت ليس ببعيد؟ جودث تئنّ، وسوزانا تمسك بيدها، ولهذا تفوِّت آغنس اللحظة، تفوِّت رؤية ابنها، رؤية الكفن الذي خاطته له، وهو يختفي عن النظر داخلًا الأرض المظلمة السوداء المُخْضَلّة بالنهر. كان هناك في لحظة ما، ثم أمالت رأسها لتنظر إلى جودث، ثم رحل. لن تراه مرة أخرى أبدًا.

تجد آغنس أنَّ مغادرة المقبرة أشقُّ من دخولها. تمر بقبور كثيرة، بأشباح حزينة وغاضبة كثيرة تشدُّ ثوبها، تلمسها بأصابعها الباردة، تسحبها بإلحاح، على نحو مثير للشفقة، قائلة: لا تذهبي، انتظرينا، لا تتركينا هنا. عليها أن تمسك بحاشية ثوبها، وتطوي يديها. فكرة غريبة أيضًا أن تدخل هذا المكان مع ثلاثة أطفال وتغادره مع اثنين. تقول لنفسها إنه مقدَّر لها أن تترك واحدًا

وراءها هنا، لكن كيف يمكنها ذلك؟ في هذا المكان المليء بالأرواح النائحة وأشجار الطَّقْسُوس الراشحة والأيدي الخادشة الباردة؟

يمسك زوجها بذراعها إذ يصلان إلى البوابة، تلتفت لتنظر إليه، ويبدو كأنها لم تره من قبل قطُّ، يبدو غريب الملامح وممسوخًا وأشيب. أهو بسبب انفصالهما الطويل، أهو الحزن، أهي الدموع كلها؟ تتساءل ناظرةً إليه. مَن هذا الشخص الذي إلى جوارها، الذي يمسك بيدها ويضمُّها إليه؟ يمكنها أن ترى في وجهه عظمتي وجنتي ابنها الميِّت، حاجبيه، لكن لا شيء آخر. حياةٌ فقط، دمٌ فقط، دليلٌ فقط على قلبٍ نابضٍ صامد، عينٍ مشرقة بالدمع، وَجْنَةٍ متورِّدة بالشعور.

إنها جوفاء، حدودها مشوَّشة وواهية. قد تتفكَّك وتتداعى كقطرة مطر تضرب ورقة نبات. لا يمكنها مغادرة هذا المكان، لا يمكنها المرور من هذه البوابة. لا يمكنها تركه هنا.

تمسك بقائمة البوابة الخشبية وتتشبَّث بها بكلتا يديها. كلُّ شيء محطَّم، لكنَّ التمسُّك بهذه القائمة يبدو كأنه أفضل حلّ، الشيء الوحيد الذي يمكن القيام به. إذا أمكنها البقاء هنا، عند البوابة، مع ابنتيها إلى جوارها من ناحية وابنها من الناحية الأخرى، ستحافظ على تماسك الأشياء.

يقتضي الأمرُ أن يفكَّ زوجها وشقيقها وابنتاها قبضة يديها، لإبعادها.

آغنس امرأةٌ مُحطَّمة إلى قِطَع، مُفتَّتة ومبعثرة في الأنحاء. لن يفاجأها أن تنظر إلى الأسفل في أحد هذه الأيام فترى قدمًا في الزاوية، ذراعًا تُرِكت على الأرض، يدًا سقطت على الأرض. الأمر نفسه مع بناتها. وجه سوزانا ثابت

الملامح، تقطِّب ما بين عينيها في ما يشبه الغضب. جودث تبكي فقط، مرارًا وتكرارًا، بصمت، تسيل الدموع من عينيها ويبدو أنها لن تتوقَّف أبدًا.

أنَّى لهن أن يعرفن أنَّ هامنت كان الوتد الذي يربط بعضهن إلى بعضهن الآخر؟ أنهن من دونه يتشظَّين ويتكسَّرن مثل كأس يتحطَّم على الأرض؟

الزوج، الأب، يذرع غرفة الطابق السفلي في تلك الليلة الأولى والليلة التي تليها. تسمعه آغنس من غرفة النوم في الطابق العلوي. ما من صوتٍ آخر هناك. لا بكاء، لا نشيج، لا تنهُّد. فقط يجرُّ قدميه المضطربتين جرًّا، يجرُّهما جرًّا، ماشيًا، ماشيًا، كشخص يحاول إيجاد طريق العودة إلى مكان ضيَّع خارطته.

«لم أُبْصِر الأمر»، تهمس في الفراغ المظلم بينهما.

يدير رأسه، لا تستطيع رؤيته إذ يفعل ذلك، لكنها تستطيع سماع حفيف الأغطية وهسهستها. ستائر السرير مُسْدَلة حولهما، على الرغم من حرارة الصيف القاسية.

يقول: «لم يبصره أحد.»

تهمس: «لكنني لم أُبْصِره، وكان ينبغي أن أفعل. كان ينبغي أن أعرف. كان ينبغي أن أراه. كان ينبغي أن أفهم أنَّ الأمر كان خدعة رهيبة جعلتني أخاف على جودث، حينما طوال الوقت...»

«شش»، يقول، منقلبًا، واضعًا يده عليها. «فعلت كلَّ ما في وسعك. لم يكن هنالك شيء استطاع أن يفعله أي أحد لإنقاذه. بذلت قصارى جهدك...»

«قطعًا فعلت»، تهمس غاضبة فجأةً، تجلس، تبعد نفسها عن لمسه. «لكنتُ نزعتُ قلبي ومنحته إيَّاه، لو كان هذا سيحدث أي فرق، لكنتُ...»

«أعرف.»

«لا تعرف»، تقول خابطةً الفراش بقبضتها. تهمس والدموع تنهمر من عينيها الآن، أسفل وجنتيها، لتقطر خلال شعرها: «أنت لم تكن هنا. جودث... جودث كانت مريضة جدًّا. كنتُ... كنتُ... منكبَّة على الاعتناء بها إلى درجة أنني لم أحسب أنَّ... كان ينبغي أن أنتبه إليه أكثر... لم أرَ ما كان مقبلًا... طالما ظننت أنها هي مَن سيُؤخذ. لا أستطيع التصديق بأنني كنت عمياء جدًّا، غبية جدًّا...»

«آغنس، لقد فعلتِ كلَّ شيء، جرَّبتِ كلَّ شيء،» يكرِّر محاولًا إعادتها إلى الفراش. «كان المرض قويًّا جدًّا.»

تقاومه، منكفئةً على نفسها، طاويةً ذراعيها حول ركبتيها. «لم تكن هنا»، تقول مرة أخرى.

يخرج إلى البلدة، بعد يومين على دفنهم إيَّاه. يجب أن يتحدَّث إلى رجل يستأجر منه حقولًا، يجب أن يذكِّره بالدَّين.

يخطو خارجًا من الباب الأمامي ويجد أنَّ الشارع مفعمٌ بضوء الشمس،

مليء بالأطفال. يمشون، يتنادون، يمسكون بأيدي والديهم، يضحكون، يبكون، ينامون على الأكتاف، تُزرِّر سُتَرُهم.

مشهد يفوق الاحتمال. جلودهم، جماجمهم، ضلوعهم، عيونهم الواسعة الصافية: ما أهشَّهم! ألا ترون ذلك؟ يريد أن يصرخ في أمهاتهم، في آبائهم. كيف تتركونهم يخرجون من بيوتكم؟

يصل حتى السوق، ثم يقف. ينقلب على عقبيه، متجاهلًا التحية، يدَ ابن عم ممدودة، ويعود أدراجه.

في البيت، تجلس ابنته جودث عند الباب الخلفي. كُلِّفت بتقشير سلَّة من التفاح. يجلس إلى جوارها. بعد لحظة، يمدُّ يده إلى السَّلَّة ويناولها التفاحة التالية. لديها سكين تقشير في يُسْراها -دائمًا يُسْراها- وتقشِّر القِشْر عن التفاح. يتساقط القِشْر من النَّصل في لفائف طويلة خضراء كشَعر حوريَّة بحر.

عندما كان التوأمان طفلين صغيرين جدًّا، ربما قرب عيد ميلادهما الأول، التفت إلى زوجته وقال: انظري.

رفعت آغنس رأسها عن منضدة عملها.

دفع نحوهما قطعتي تفاح فوق المائدة. في اللحظة نفسها تمامًا، مدَّ هامنت يُمْناه وأمسك بقطعة التفاح ومدَّت جودث يُسْراها.

معًا رفعا قطعتي التفاح إلى شفاههما، هامنت بيمينه، وجودث بيسارها.

وضعا القطعتين على المائدة كأنَّما بإشارة صامتة بينهما، في اللحظة نفسها،

ثم نظر أحدهما إلى الآخر، ثم التقطاهما مرة أخرى، جودث بيسراها، وهامنت بيمناه.

الأمر أشبه بمرآة، قال. أو أنهما شخص واحد شُقَّ من المنتصف.

رأساهما مكشوفان، يلمعان كذهب مغزول.

يقابل أباه، جون، في الرواق، في اللحظة التي يخطو فيها أبوه خارجًا من المعمل.

يقف الرجلان، كل منهما يحدِّق إلى الآخر.

يرفع والده يده ليفرك شعيرات ذقنه. تهتز تفاحة آدم على نحو غير مريح إلى الأعلى وإلى الأسفل وهو يبتلع. ثم يرسل صوتًا بين النَّخر والسُّعال، يتجنَّب ابنه، ويتراجع إلى المعمل.

أينما نظر: هامنت. في الثانية من عمره، يراه ممسكًا بحافات النافذة جاهدًا لينظر إلى الشارع، إصبعه ممدودة، مشيرةً إلى حصان يعبر. وهو رضيع، يوضَع مع جودث في مَهْد، أنيقين كرغيفي خبز. يراه دافعًا الباب الأمامي بقوة شديدة وهو عائد من المدرسة مخلِّفًا أثرًا على الجبس يدفع ماري إلى الصياح موبِّخةً. يراه مُلْقيًا كرة في حلقة سلَّتها، مرارًا وتكرارًا، خارج النافذة. يراه رافعًا رأسه عن واجبه المدرسي ليسأله عن فعل في اليونانية، وقد تلطَّخت وجنته ببقعة طباشير على شكل فاصلة. يسمع صوته مناديًا

من الفناء الخلفي، سائلًا: هلَّا أتى أحدكم ورأى لأنَّ عصفورًا حطَّ على ظهر الخنزير.

وزوجته ساكنة وصامتة وشاحبة جدًّا، وابنته الكبرى غاضبة جدًّا من العالم، تهجوهما وتهجوهما بلسان غاضب. وابنته الصغرى تبكي فحسب، تضع رأسها على المائدة أو تقف عند عتبة الباب أو تستلقي على الفراش وتبكي وتبكي، إلى أن يحضنها هو أو أمُّها، متوسِّلَين إليها أن تكفَّ عن البكاء وإلَّا مرضت.

ورائحة الجلد المدبوغ وغير المدبوغ والفرو المغشوش: لا يستطيع الهروب منها. كيف أنفق تلك السنوات كلها في هذا البيت؟ يجد أنه لا يستطيع تنفُّس الهواء الحامض هنا، الآن. طَرْق النافذة، مطالب الناس الذين يبتغون شراء القفافيز، يبتغون النظر إليها، تجريبها على أيديهم، والمجادلة بشأن الخرز والأزرار والشرائط إلى ما لا نهاية. الحديث الذي لا ينقطع أبدًا، ذهابًا وإيابًا، عن هذا التاجر وذاك، عن هذا الدَّبَّاغ، ذاك المزارع، ذلك النبيل، عن سعر الحرير، وتكلفة الصوف، وعن مَن حضر اجتماعات البلدية ومن لم يحضر، من سيكون عضو المجلس البلدي السنة القادمة.

إنه أمر لا يُطاق. كلُّه. يشعر كأنه عالق في شبكة غياب، خيوطها وحلقاتها مستعدة للالتصاق والتشبُّث به، أينما ولَّى وجهه. ها هو ذا، عائد إلى البلدة، إلى بيته، وهذا كلُّه يجعله خائفًا من ألَّا يستطيع الهرب أبدًا. هذا الحزن، هذا الفقد، قد يبقيانه هنا، قد يدمِّران كلَّ ما صنعه لنفسه في لندن. ستغرق فرقته في الفوضى والاضطراب من دونه، سيخسرون أموالهم كلَّها ويتفرَّقون، قد يجدون شخصًا آخر يحتل مكانه، لن يعدُّوا مسرحية جديدة للموسم المقبل، أو أنهم سيفعلون وستكون أفضل من أي شيء كتبه، وسيظهر اسم ذلك الشخص على قوائم المسرحيات وليس اسمه، ثم سيُطرَد، سيُستبدَل، غير

مرغوب فيه بعدئذ. قد يفقد سيطرته على كل ما بناه هناك. إنَّ حياة المسارح هشَّة جدًّا، ضعيفة جدًّا. غالبًا ما يفكِّر في أنها، أكثر من أي شيء آخر، تشبه الزخرفة على قفافيز أبيه: لا يظهر منها إلا الجميل، إلا الجزء الأصغر، في حين تكمن في الأسفل ظلال متقاطعة من الجهد والمهارة والإحباط والعرق. إنه بحاجة إلى أن يكون هناك، طوال الوقت، ليتيقَّن من أنَّ ما في الأسفل يحدث، من أنَّ كلَّ شيء يسير كما هو مخطَّط له. وصحيحٌ أنه يتوق إلى حيطان مسكنه الأربعة الضيِّقة، حيث لا أحد آخر يأتي أبدًا، حيث لا أحد يبحث عنه أو يسأل عنه أو يتحدَّث إليه أو يضايقه، حيث لا شيء إلا سرير، وخزانة، ومنضدة. لا مكان آخر يمكنه الهروب إليه من الضوضاء والحياة والناس من حوله، لا مكان آخر يستطيع فيه أن يجعل العالم ينحسر، ويذوب إحساسه بذاته، فيكون يدًا فحسب، تحمل ريشة مغموسة في الحبر ليرى الكلمات تتجلَّى من رأسها. وبينما تأتي هذه الكلمات، واحدة تلو الأخرى، يمكنه الهروب من نفسه وإيجاد سلامٍ غامرٍ جدًّا، مريحٍ جدًّا، خاصٍّ جدًّا، مبهجٍ جدًّا، لا يمنحه أيُّ شيء آخر.

لا يمكنه التخلِّي عن هذا، لا يمكنه البقاء هنا، في هذا البيت، في هذه البلدة، على هامش تجارة القفافيز، ليس حتى لأجل زوجته. يرى أنه سيغوص في وحل ستراتفرد إلى الأبد، أنه مخلوقٌ ساقُه عالقة بين فكَّي مصيدة حديدية، بوجود أبيه في الجوار، وولده، باردًا ومتحلِّلًا تحت تراب الكنيسة.

يأتي إليها ويقول إنه يجب أن يغادر. لا يمكنه البقاء بعيدًا عن أعضاء فرقته وقتًا طويلًا. سيحتاجون إليه: سيعودون عمَّا قريب إلى لندن ويجب أن يستعدُّوا للموسم الجديد. سيُسْعِد المسارح الأخرى كثيرًا أن ترى مسرحهم

ينحدر، ولا سيّما أنَّ المنافسة شرسة في بداية الموسم. ثمَّة الكثير ينبغي الإعداد له ويحتاج إلى أن يكون هناك ليرى أنَّ كلَّ شيء يتم على النحو الصحيح. لا يمكنه أن يترك الأمر للرجال الآخرين. لا أحد آخر يمكن الاتكال عليه. عليه أن يغادر. إنه آسف. يأمل أن تتفهَّم.

لم تقل آغنس شيئًا وهو يلقي هذا الخطاب. تترك الكلمات تنساب فوقها وحولها. تستمر في ترك فضلات الطعام تسقط من طشت إلى معلف الخنازير. يا له من عمل بسيط: أن ترفع طشتًا وتترك محتواه يسقط. لا يلزمها أكثر من الوقوف هنا، متكئة على حائط الخنازير.

«سأكتب رسالة»، يقول، خلفها، فتجفل. كادت تنسى أنه هناك. ما الذي كان يقوله؟

تكرِّر: «تكتب رسالة؟ إلى من؟»

«إليكِ.»

«إليَّ؟ لماذا؟» تشير إلى نفسها: «أنا هنا، أمامك؟»

«عَنَيْتُ أنني سأكتب إليك عندما أصل إلى لندن.»

تعبس آغنس، تاركة آخر ما تبقى من فضلات الطعام يسقط. تتذكَّر، أجل، أنه منذ لحظة كان يتحدَّث عن لندن. عن رفاقه هناك. «الإعداد»، كانت الكلمة التي استخدمها، تعتقد. و«أغادر.»

تقول: «لندن؟»

يقول بشيء من الحزم: «يجب أن أغادر.»

تكاد تبتسم، سخيفة جدًّا ووهمية جدًّا هذه الفكرة.

تقول: «لا يمكنك أن تغادر.»

«لكنني يجب أن أغادر.»

«لكنك لا تستطيع.»

يقول بسخط شديد الآن: «آغنس، العالم لا يبقى ساكنًا. ثمَّة أشخاص ينتظرونني. الموسم يوشك أن يبدأ وستعود فرقتي من كنت في أي يوم ويجب أن...»

تقول حائرة: «كيف يمكنك التفكير في المغادرة؟» ما تقول له حتى يفهم؟ «هامنت»، تقول شاعرةً باستدارة الكلمة، باسمه في فمها، بشكل كمثرى ناضجة. «هامنت مات.»

تجفله الكلمات. لا يستطيع النظر إليها بعد أن تلفَّظت بها، يُنكِّس رأسه، مثبِّتًا نظرته في حذائه.

بالنسبة إليها، الأمر بسيط: ابنهما، طفلهما ميِّت، بالكاد بارد في قبره. لن يغادر. سيبقى. ستغلق الأبواب، سيبقى أربعتهم معًا، كراقصين في نهاية حفلة رِيل[1]. سيبقى هنا، معها، مع جودث، مع سوزانا. كيف يمكن أن يكون هناك حديث كهذا عن المغادرة؟ لا معنى لذلك.

تتبع نظرته، إلى أسفل حذائه، وترى هناك إلى جانب قدمه، حقيبة سفره. محشوَّة، ممتلئة، كبطن امرأة تنتظر مولودًا.

تشير إليها، بصمت، عاجزةً عن الكلام.

«يجب أن أذهب... الآن»، يغمغم متعثِّرًا في كلماته، زوجها هذا الذي طالما تحدَّث على الشاكلة التي يجري بها نبع ماء سريعًا وصافيًا فوق طبقة من الحصى شديدة الانحدار. «ثمَّة... جماعة من التجار تغادر اليوم إلى لندن...

---

(1) Reel: رقصة شعبية اسكتلندية مفعمة بالحيوية. (المورد الأكبر)

ولديها... حصان إضافي. إنه... أحتاج إلى...، أقصد... أنني أودِّعك... وفي الوقت المناسب أو على الأصح، سأكتب...»

«ستغادر الآن؟ اليوم؟» تقول بارتياب ملتفتةً من الحائط لتواجهه. «نحتاج إليك هنا.»

«التجار... أنا... لأن... لا يمكنهم الانتظار و... إنها فرصة جيدة... حتى لا أسافر بمفردي... لا تريدينني أن أسافر وحيدًا، تذكرين... أنت بنفسك قلتِ ذلك... مرات عديدة... لذا...»

«تقصد أنك ستذهب الآن؟»

يأخذ وعاء الخنازير منها ويضعه على الحائط ويتناول يديها بين يديه. «هنالك الكثيرون الذين يعتمدون عليَّ في لندن. من الضروري أن أعود. لا يمكنني التخلي وحسب عن هؤلاء الرجال الذين...»

«لكنك ستتخلَّى عنَّا؟»

«كلا، قطعًا لا. أنا...»

ترفع وجهها إلى وجهه. تهمس: «لماذا تذهب؟»

يحوِّل عينيه عن عينيها، لكنه لا يفلت يديها. يغمغم: «أخبرتك، الفرقة، الممثِّلون الآخرون، أنا...»

تسأل: «لماذا؟ هل هو أبوك السبب؟ هل حدث شيء ما؟ قُل لي.»

«لا شيء هناك لأقوله.»

«لا أصدِّقك.» تحاول سحب يديها من قبضته، لكنه لا يفلتها. تلوي معصميها في هذا الاتجاه ثم في ذاك الاتجاه.

«تتحدَّث عن فرقتك»، تقول في الفراغ الذي بين وجهيهما، الفراغ الضيق جدًّا إلى درجة أنَّ كليهما ينفث أنفاسه في الآخر، «تتحدَّث عن موسمك وعن استعدادك، لكنَّ أيًّا منهما ليس هو السبب الصحيح.» تقاوم لتحرِّر يديها، أصابعها، حتى تتمكَّن من قبض يده، يعرف هذا ولا يفلتها. ردْعُه يثير سخطها، فتثور ثائرتها، ويتملَّكها غضب لم تشعر به منذ أن كانت طفلة.

«لا يهم»، تلهث، وهما يتصارعان هناك، إلى جانب الخنازير التي تأكل بنهم. «أعلم. أنت عالق في ذلك المكان مثل سمكة في صنارة.»

«أي مكان؟ أتقصدين لندن؟»

«لا، المكان الذي في رأسك. رأيته مرةً، منذ زمن بعيد، مدينة بأسرها هناك، مشهد طبيعي. ذهبت إلى ذلك المكان وهو الآن حقيقي بالنسبة إليك أكثر من أي مكان آخر. لا شيء يمكنه أن يمنعك منه. ليس حتى موت طفلك. أرى هذا»، تقول له وهو يمسك معصميها بيد واحدة، مادًّا يده الأخرى إلى الأسفل لتناول الحقيبة التي عند قدميه. «لا تحسب أنني لا أرى.»

فقط عندما يحمل حقيبته على كتفه يفلتها. تهزُّ يديها، معصماها متأثِّران ومحمرَّان، تفرك آثار قبضته بأصابعها.

يتنفَّس بصعوبة وهو واقف على بعد خطوتين منها. يسحق قبعته في يده متجنبًا نظرتها.

تقول له: «ألن تودِّعني؟ ستمضي دون أن تودِّع المرأة التي أنجبت أطفالك؟ المرأة التي رعت ابنك حتى لفظ أنفاسه الأخيرة؟ وكفَّنته للدفن؟ ستبتعد عني دونما كلمة؟»

«اعتني بالبنتين»، هذا كل ما قاله، على نحوٍ لاسع مثل وخز إبرة ناعمة لكنها حادَّة. يقول مرة أخرى: «سأكتب إليكِ، وآمل أن أعود إليك قبل عيد

الميلاد.»

تشيح بوجهها عنه نحو الخنازير. ترى ظهورها القاسية الشَّعر، خَفْقَ آذانها، تسمع نخيرها المعبِّر عن الرِّضا.

إنه فجأة هناك، وراءها. تطوِّق ذراعاه خصرها، يديرها نحوه، يسحبها إليه. رأسه قريب من رأسها: تشمُّ رائحة جلد قفازيه، مِلْحَ دموعه. يقفان على هذا النحو، معًا، متَّحِدَين، لحظةً، فتشعر بذلك الانجذاب نحوه الذي طالما شعرت به، كأنَّ ثمَّة حبلًا خفيًّا يحيط بقلبها ويربطه إلى قلبه. ما تفكِّر فيه هو أنَّ ابنهما جُبِل منه ومنها. صنعاه معًا، دَفَناه معًا. لن يعود أبدًا. ثمَّة جزء فيها يودُّ لو يوجز الوقت، لو يجمعه مثل غَزْل. تودُّ لو تدير العجلةَ إلى الوراء، لو تنكث كُبَّة موت هامنت، صباه، طفولته، ميلاده، إلى الوراء حتى تبلغ اللحظة التي التصقت فيها وزوجها على ذلك الفراش ليخلقا التوأمين. تودُّ لو تنقض الغَزْل كلَّه، وتعيده إلى صوف خام، لتجد طريق عودتها إلى تلك اللحظة، وستقف، سترفع وجهها إلى النجوم، إلى السماوات، إلى القمر، وتناشدها بأن تغيِّر ما ينتظره، تتضرَّع إليها بأن تبتكر مآلًا مختلفًا له، رجاءً، رجاءً. كانت ستفعل أيَّ شيء لأجل ذلك، ستمنح أيَّ شيء، ستَهَب أيَّ شيء تبتغيه السماء.

يضمُّها زوجها إليه وهي تمسك به بكلتا يديها، على الرغم من كل شيء، تمامًا كما فعلت في تلك الليلة، جسده ملتصق بجسدها. يشهق ويزفر في الجانب المنحني من قلنسوتها، كأنه سيتكلَّم، لكنها لا تريد الكلمات، لا تحتاج إليها. ترى من فوق كتفه حقيبة السفر تلك عند قدميه.

لن تكون هنالك عودة. لا رجعة في ما قُدِّر لهما. الصبي رحل، والزوج سيغادر، وستبقى هي، وستحتاج الخنازير إلى أن تُطْعَم كلَّ يوم، والوقت يمضي في اتجاه واحد فقط.

«فلتذهب إذًا،» تقول مشيحةً عنه، دافعة إيَّاه بعيدًا، «إن كنت ستذهب. عُد عندما تستطيع.»

تكتشف أنه ممكنٌ أن تبكي طوال اليوم وطوال الليل. أنَّ هناك طرقًا عديدة مختلفة للبكاء: انهيار الدموع المفاجئ، النشيج الموجع العميق، انسكاب الماء من العينين بلا صوت وبلا نهاية. أنَّ الجلد الملتهب حول العينين يمكن علاجه بالزيت المنقوع في محلول من عشبة عرقون وبابونج. أنه يمكنها مواساة ابنتيها بحديث مُطَمْئِن عن أماكن في الفردوس وسعادة أبدية، عن التئام شملهم بعد الموت حيث سيكون هو بانتظارهم، ولكنها لا تصدِّق أيًّا من هذا. أنَّ الناس لا يعرفون دائمًا ماذا يقولون لامرأة مات طفلها. أنَّ بعضهم لهذا فقط يتجنبها عند عبور الطريق. أنَّ الأشخاص الذين لا يُعَدُّون أصدقاء أخيارًا يبرزون، دون سابق إنذار، في المقدِّمة، يضعون خبزًا وكعكًا على عتبة دارها، يقولون كلامًا طيبًا وملائمًا بعد الكنيسة، يداعبون شعر جودث ويقرصون وجنتها الشاحبة.

من الصعب أن تعرف ما تفعل بثيابه.

أسابيع، لا تستطيع آغنس نقلها من المقعد حيث تركها قبل أن يلزم الفراش.

بعد شهر على الدَّفن أو نحو ذلك، ترفع البنطال ثم تضعه. تلمس ياقة قميصه. تكِز مقدمة حذائيه بحيث يصطفان جنبًا إلى جنب.

ثم تدفن وجهها في القميص، تضغط البنطال على قلبها، تدخل يديها في الحذائين، تتحسَّس شكل قدميه الفارغ، تربط الخيوط وتفكُّها، تدخل الأزرار في ثقوبها وتخرجها مرة أخرى. تطوي الثياب، تبسطها، تعيد طيَّها.

عندما تمرِّر أصابعها على النسيج، وتخيط أطرافه معًا، وتسوِّي الأثناء بنفضها في الهواء، يتذكَّر جسدها هذا العمل. يعيدها إلى الماضي. عندما تطوي ثيابه، وتعتني بها، وتشمُّ رائحته فيها، تكاد تقنع نفسها بأنه ما زال هنا، على وشك أن يرتدي ملابسه، بأنه سيدخل من الباب في أية لحظة سائلًا: أين جوربَي، أين قميصي؟ قلِقًا من أن يتأخَّر عن جرس المدرسة.

تنام هي وجودث وسوزانا معًا على السرير المحاط بستارة، دون مناقشة الأمر: سرير الفتاتين المُدَوْلَب لا يُسْحَب، بل يبقى ثابتًا في موضعه. تشدُّ السِّتارة بإحكام حول ثلاثتهن. تقول لنفسها إنه لا شيء يمكن أن يأخذهما، لا شيء سيدخل من النوافذ أو عبر المدخنة. تبقى مستيقظة طوال الليل، تتسمَّع الطَّرْق، وتحترس من الأرواح الشريرة التي تحاول أن تشقَّ طريقها للدخول. تضع يديها حول ابنتيها النائمتين. كثيرًا ما تستيقظ في الليل لتتيقَّن من عدم وجود حمى، أو أورام، أو لون غريب على الجلد. تبدِّل مكانها من حين لآخر، طوال الليل، بحيث تستلقي بين جودث والعالم الخارجي ثم بينه وبين سوزانا. لن يفوتها شيء هذه المرة. ستقف بالمرصاد. لن يأتي شيء ليأخذ طفلتيها. لن يحدث مرة أخرى أبدًا.

تقول سوزانا إنها ستمضي الليلة في البيت المجاور مع جدَّيها. لا أستطيع النوم هنا، تقول متجنِّبةً عيني أمِّها. هناك الكثير من تبديل الأماكن.

تجمع قلنسوة نومها، ثوبها، وتترك الغرفة، يجمع ثوبها عُثَّ الغبار المتكدِّس على الأرض.

لا تستطيع آغنس فهم الغرض من كنس الأرضية. إنها فقط تتسخ مرة أخرى. طهي الطعام يبدو عديم الجدوى بالمثل. تطهوه، يأكلونه، ثم في وقت تالٍ يأكلون أكثر.

تذهب الفتاتان إلى البيت المجاور لتناول طعامهما، آغنس لا توقفهما.

السَّير إلى قبره كلَّ أحد وجع وَمَسَرَّة في وقت واحد. تريد أن تستلقي هناك فتغطي القبر بجسدها. تريد أن تحفر عميقًا بيديها العاريتين. تريد أن تضرب القبر بغصن شجرة. تريد أن تبني هيكلًا فوقه، أن تحميه من الريح والمطر. ربما ستأتي لتعيش فيه، هناك، معه.

الرَّبُّ في حاجة إليه، يقول لها الكاهن ممسكًا بيدها بعد الصلاة ذات يوم.

تلتفت إليه، تكاد تزمجر، تملؤها الرغبة في ضربه. تريد أن تقول: أنا في

حاجة إليه، وكان على ربِّك أن ينتظر وقته.

لا تقول شيئًا. تمسك بيدي ابنتيها وتبتعد.

***

ترى في المنام أنها في الحقول في هيولَندز. الوقت غسق والأرض جرداء وبها أخاديد عميقة. أمامها أمُّها، تنحني على التربة وتقف. عندما تدنو آغنس، ترى أمها تزرع في التربة أسنانًا صغيرة ببياض اللؤلؤ. أمُّها لا تلتفت أو تتوقَّف حين تقترب آغنس، تبتسم لها فحسب، ثم تتابع إلقاء الأسنان اللَّبنية في الأرض، واحدة تلو الأخرى.

الصيف قاسٍ. الأمْسِيَة الطويلة، الهواء الدافئ إذ يهب عبر النوافذ، جريان النهر البطيء عبر البلدة، صياح الأطفال إذ يلعبون في الشارع حتى وقت متأخر، الخيول إذ تطرد الذباب عن خواصرها، الأسوجة المثقلة بالأزهار والتوت.

تودُّ آغنس أن تمزِّق كلَّ شيء، أن تنزعه، وتلقيه في مهبِّ الريح.

الخريف، عندما يحل، فظيع أيضًا. حدَّة الهواء في الصباح الباكر. الرطوبة المتكثِّفة في الفناء. الدجاجات الهائجة في خُمِّها رافضة الخروج. أوراق النبات المتيبِّسة الحافات. هو ذا موسم لا يعرفه هامنت ولا يلمسه. هو ذا عالم يستمر

من دونه.

تأتي الرسائل من لندن. تقرأها سوزانا بصوت عالٍ. إنها قصيرة، تلاحظ آغنس عندما تفحصها في ما بعد، لا تغطِّي صفحة واحدة تمامًا، مخطوطه مُرْتَخٍ، كأنها كُتِب على عجل. لا تتحدَّث الرسائل عن المسرح، ولا عن الجمهور، أو التمثيل، أو المسرحيات التي يكتبها. لا شيء من هذا. بدلًا من ذلك، يخبرهم عن المطر في لندن وكيف تبلَّل جورباه الأسبوع الفائت، وعن حصان المالك الأعرج، وأنه التقى بائع نسيج وابتاع لهن جميعًا مناديل، لكل منها حاشية مختلفة.

هي أعقل من أن تنظر من النافذة في الساعة التي تبدأ فيها المدرسة وتنتهي. تشغل نفسها، تحوِّل فكرها. لا تخرج في هذا الوقت.

كلُّ طفل ذهبي الشعر في الشارع يحمل خطوةَ ابنها، مظهرَه، شَخْصَه، فيثب قلبها مثل غزال. بعض الأيام يمتلئ الشارع بأكثر من هامنت واحد. يمشون في الأنحاء. يقفزون ويَعْدُون. يتدافعون بالمناكب. يمشون نحوها، يمشون مبتعدين عنها، يختفون في الزوايا.

بعض الأيام، لا تخرج بتاتًا.

جديلة شعره محفوظة في جرَّة خزفية صغيرة فوق المدفأة. خاطت جودث كيسًا حريريًا لها. تسحب مقعدًا إلى الرَّف عندما تظن أنَّ أحدًا لا يراها وتنزل الكيس.

لون الخُصَل هو لون شعرها نفسه، كان ممكنًا أن تُقَصَّ من شعرها، تنساب كالماء بين أصابعها.

تسأل جودث أمَّها عن الكلمة التي تُطلق على شخص كان توأمًا ولم يعد توأمًا؟

تتوقَّف أمُّها عن غمس فتيلتَين ملتفَّتين في شحمٍ ساخن، لكنها لا تلتفت.

تتابع جودث: إذا كنتِ زوجة ومات زوجك، فأنتِ أرملة. وإذا مات أبوا طفل، سيصبح الطفل يتيمًا. لكن ما الكلمة التي تصف ما أنا عليه؟

لا أعلم، تقول أمُّها.

تراقب جودث السائل وهو ينزلق من طرفي الفتيلتين إلى الوعاء في الأسفل.

ربما لا توجد كلمة لذلك، تقول.

ربما لا، تقول أمُّها.

آغنس في الطابق العلوي. تجلس إلى المنضدة حيث وضع هامنت مجموعته من الحصى في أربعة أوعية. كان يحب توزيعها على نحوٍ دوري وفرزها بطرق مختلفة. تنظر إلى كل وعاء، وتلاحظ أنه آخر مرة رتَّبها باللون، لا بالحجم و...»

ترفع نظرها لترى ابنتيها واقفتين أمامها. سوزانا تحمل سلَّة في إحدى يديها وفي الأخرى سكّينًا، وتقف جودث وراءها حاملة سلَّة ثانية. كلتاهما تبدو عليهما سيماء قاسية نوعًا ما.

تقول سوزانا: «حان الوقت لجمع ثمر الورد البري.»

إنه شيء يفعلنه كلَّ عام في هذا الوقت، عندما ينقلب الصيف إلى الخريف، يَجُبْن الأسوجة، ويملأن سلالهن بالثمار التي تنتفخ وتنمو في أعقاب البتائل. علَّمت ابنتيها كيفية العثور على أفضلها، وشقِّها بالسكين، وغَلْيِها، وصنع شراب للسُّعال ونزلات البرد، لتعينهم خلال الشتاء.

وأمَّا هذا العام، فنضج ثمر الورد البري ولونه النحاسي إهانة، وكذلك تحوُّل التوت الأسود إلى اللون الأرجواني واسودادُ أشجار التُّوت الأكبر سنًّا.

تشعر آغنس بأنَّ يديها الملتفتين حول أوعية الحصى واهنتان، عديمتا الجدوى. لا تظن أنها قادرة على قبض السكين، والإمساك بالسيقان الشائكة، وقطف الورود الشمعية القشور. فكرة حصاد الثمار، وجلبها إلى البيت، وتجريدها من أوراقها وسيقانها، ثم غليها على النار: لا تعتقد أنها تستطيع فعل ذلك أبدًا. تفضِّل الاستلقاء على سريرها وسحب الأغطية على رأسها.

تقول سوزانا: «هيَّا.»

تقول جودث: «أرجوك يا ماما.»

تضغط ابنتاها بأيديهما وجهها، ذراعيها، تسحبانها لتقف على قدميها، تقودانها إلى أسفل السلالم، ثم خارجًا إلى الشارع، تتحدَّثان طوال الوقت عن المكان الذي رأتاه، ممتلئًا بالورد البري، تقولان لها، ممتلئًا ببساطة. تقولان إنها يجب أن تأتي معهما، سَتُرِيانها الطريق.

الأسوجة كوكبة مرصَّعة بثمار الورد البري المُذَهَّب.

في أوَّل زواجهما أخذها ذات ليلة إلى الشارع وبدا الأمر غريبًا أن تكون هناك، المكان هادئ تمامًا، مظلم تمامًا، فارغ تمامًا.

انظري إلى الأعلى، قال لها وهو يقف خلفها ويطوِّقها بذراعيه، يداه مستقرتان على منحنى بطنها. أمالت رأسها إلى الوراء وأسندته على كتفه.

تعلو قممَ البيوت سماءٌ تتناثر عليها جواهر، تخترقها ثقوب فضية. همس في أذنها بأسماء وقصص، إصبعه ممدودة، تستلُّ من النجوم أشكالًا وأشخاصًا وحيوانات وعائلات.

قال: كوكبة. تلك كانت الكلمة.

الطفلة التي كانت سوزانا، تنقلب في بطنها كأنها تصغي.

يكتب والد جودث ليقول إنَّ التجارة جيدة، إنه يرسل حبَّه، ولن يعود إلى البيت إلا بعد الشتاء لأنَّ الطرق سيئة.

تقرأ سوزانا الرسالة بصوت عالٍ.

حقَّقت فرقته نجاحًا كبيرًا في ملهاة جديدة. عُرِضت في القصر وشاعت الأخبار بأن الملكة قد سُرَّت بها كثيرًا. النهر في لندن تجمَّد. تختم قائلة إنه يتطلَّع إلى شراء مزيد من الأراضي في ستراتفرد. حضر زفاف صديقه كوندل،

كان هنالك إفطار زفاف رائع.

ثمَّة صمت. تنظر جودث من أمِّها إلى أختها، ثم إلى الرسالة.

ملهاة؟ تسأل الأم.

تجد جودث أنه ليس من السهل أن تكون وحيدة في منزل كهذا. سيكون هناك دائمًا شخص يستحثُّها، شخص يصيح باسمها، شخص في أعقابها.

ثمَّة مكان طالما كان لها ولهامنت حينما كانا صغيرين، فجوة على شكل إسفين بين جدار المطبخ وجدار حظيرة الخنازير: فتحة ضيقة، فقط تكفي لتعصر نفسك خلالها، إذا انعطفت بانحراف، ثم تظهر مساحة متَّسعة ثلاثية الزوايا. مساحة تكفي طفلين ليجلسا فيها ممدودي الأرجل، ظهراهما إلى الجدار الحجري.

تأخذ جودث أغصان أَسَل من أرضية المعمل، غصنًا تلو الآخر، تخبئها في أثناء ثوبها. تتسلَّل عبر الفجوة عندما لا يراها أحد وتنسج سقفًا من الأسل. تنسل وراءها القطط الصغيرة، التي كبرت الآن، اثنان منهما بوجهين مخططين متطابقين وقوائم بيضاء.

ثم تجلس هناك، طاوية يديها، وليأتِ إذا كان سيأتي.

تغنِّي لنفسها، للقطط، لسقف الأسل فوقها، وترًا من الألحان والكلمات، توورا-لوورا-تيرا-ليرا-آي-آي-آيي، تغني وتغني حتى يجد الصوتُ المكانَ الأجوف داخلها، يجده وينسكب فيه، يملأه، ويملأه، لكنه قطعًا لا يمتلئ أبدًا لأنه لا شكل له ولا حافة.

تراقبها القطط بعيونها الخضراء الحادَّة.

تقف آغنس في السوق مع أربع نساء أخريات، في يديها صينية من أقراص العسل. زوجة أبيها، جوان، بينهن. تشتكي إحداهن قائلةً إنَّ ابنها يرفض تدريبًا على مهنة دبَّرتها له هي وزوجها، يصرخ إذا حاولا التحدُّث إليه في هذا الأمر، يقول إنه لن يذهب، ولا يمكنهما إكراهه على ذلك. حتى عندما يضربه أبوه، تقول المرأة وعيناها تتَّسعان.

تميل جوان إلى الأمام قائلةً إنَّ ابنها الأصغر يرفض النهوض من الفراش في الصباح. تومئ النساء الأخريات برؤوسهن ويتأفَّفن. تقول بوجه عابس: وفي المساء لا يأوي إلى فراشه، يجول في أنحاء البيت خابطًا الأرض بخطواته، محرِّكًا النار، طالبًا العشاء، موقظًا الآخرين.

تجيب امرأة أخرى بقصة عن ابنها الذي لا يصفُّ الحطب على النحو الذي تريد، وابنتها التي رفضت عرضا بالزواج، وما الذي تصنعه مع ابنين هذا حالهما؟

حمقاوات، تفكِّر آغنس، يا لكنَّ من حمقاوات. تترك أمتارًا عديدة بينها وبين زوجة أبيها. تحدِّق إلى أشكال أقراص العسل المتكرِّرة. تودُّ لو تتضاءل إلى حجم نحلة وتضيع بين الأقراص.

تقول جودث لسوزانا وهما تدفعان القمصان والأثواب والجوارب تحت سطح الماء: «ألا تعتقدين أنَّ أبي لا يريد أن يأتي إلى البيت بسبب... وجهي؟»

المَغْسَل ساخن، خالٍ من الهواء، مليء بالبخار وفقاقيع الصابون. سوزانا التي تكره غَسْل الثياب أكثر من أي عمل آخر، تقول بحدَّة: «عمَّ تتحدثين؟

إنه يأتي إلى البيت. يأتي إلى البيت دائمًا. وما علاقة وجهك بأي شيء؟»

تحرِّك جودث الثياب، تكِز رُدْنًا، حاشية، قلنسوة شاردة. تقول بهدوء دون أن تنظر إلى أختها: «أعني، لأنني أشبهه كثيرًا. ربما يشقُّ على أبي أن تقع عيناه عليَّ.»

عُقِد لسانُ سوزانا. تحاول أن تقول بنبرتها المعتادة: لا تكوني سخيفة، أيُّ هراء هذا. لكن، صحيح أنَّ وقتًا طويلًا مضى منذ أن زارهم أبوهما. منذ الجنازة. لكن لا أحد يقول هذا بصوت عال، لا أحد يذكره. تصل الرسائل، تقرأها هي. تضعها أمُّها على رفِّ المدفأة بضع أيام، فتأخذها بين حين وآخر عندما تحسب أنَّ أحدًا لا يراها. ثم تختفي. ماذا تفعل بها بعد ذلك، لا تعرف سوزانا.

تنظر إلى أختها، تنظر إليها بإمعان. تترك مكبس الثياب يقع في القِدْر، وتضع يديها على كتفي جودث الصغيرتين. تقول سوزانا وهي تنظر إليها: «سيقول الأشخاص الذين لا يعرفونك حق المعرفة إنك تشبهينه كثيرًا. والشبه بينكما لافت... كان لافتًا. كان من الصعب تصديقه في بعض الأحيان. وأمَّا نحن من نعيش معك فنرى الفرق.»

ترفع جودث نظرها إليها متعجِّبة.

تلمس سوزانا وجنتها بإصبع مرتجفة. «وجهك أصغر من وجهه. ذقنك أصغر من ذقنه. ولون عينيك أفتح. في عينيه شَهَل أكثر مما في عينيك. فيه نمش أكثر مما فيك. أسنانك أكثر استقامة.» تبلع سوزانا ريقها بألم. «أبي سيعرف هذه الأشياء كلَّها أيضًا.»

«أتظنين ذلك؟»

تومئ سوزانا برأسها. «لم... أخلط بينكما قطُّ. طالما عرفت التفريق بينكما،

حتى عندما كنتما صغيرين. عندما كنتما تلعبان تلك الحِيَل، أنتما الاثنان، وتتبادلان الثياب والقبّعات، طالما عرفت ذلك.»

ثمَّة دموع تسيل الآن من عيني جودث. ترفع سوزانا طرف مئزرها وتكفكفها. تزفر وتعود إلى القِدْر ممسكةً بالمكبس. «علينا أن نعود إلى هذا. أحسب أنني سمعت أحدهم قادمًا.»

***

آغنس تبحث عنه. إنها قطعًا تفعل ذلك. في الليالي والأسابيع والشهور بعد موته. تنتظره. تسهر الليالي، دِثارٌ حول كتفيها، شمعةٌ تشتعل إلى جوارها. تنتظر حيث كان فراشه. تجلس على مقعد أبيه الذي وُضِع في البقعة عينها حيث مات. تخرج إلى الفناء المغطَّى بالصقيع وتقف تحت شجرة الخوخ العارية وتتحدَّث بصوت عال: هامنت، هامنت، هل أنت هناك؟

لا شيء. لا أحد.

لا تستطيع فهم الأمر. يمكنها سماع الموتى، سماع الخفي، المجهول، يمكنها لمس شخص والإصغاء إلى زحف المرض في أوردته، يمكنها الإحساس بضغط ورمٍ على رئة أو كبد ضغطًا ناعمًا خفيًّا، يمكنها قراءة ما في عين شخص ما وقلبه مثلما يقرأ أحدهم كتابًا. لا يمكنها إيجاد روح طفلها، لا يمكنها تحديد مكانها.

تنتظر في هذه الأماكن، ترهف السَّمع، تغربل أصوات كائنات أخرى صاخبة ورغباتها وسخطها، لكنها لا تستطيع سماعه، هو الوحيد الذي تودُّ سماعه. ليس ثمَّة شيء. الصمت فحسب.

لكنَّ جودث تسمعه في هسهسة مِكْنَسة على الأرض. تراه في خفق جناح طائر على الجدار. تجده في عُرْف مُهْر مُهْتزّ، في نَقْر البَرَد لوحَ النافذة، في الريح إذ تمد ذراعها إلى أسفل المدخنة، في حفيف الأسَل الذي شكَّل سقف عرينها الذي بَنَته.

لا تقول شيئًا، بالطبع. تطوي المعرفة داخلها. تغمض عينيها، تسمح لنفسها بأن تقول بصمت في رأسها: إني أراك، أسمعك، أين أنت؟

تجد سوزانا مشقَّة في البقاء في البيت. الحشيَّة غير المستخدمة مسندة إلى الحائط. الثياب موضوعة على المقعد، وتحته الحذاءان الفارغان. أوعية الحصى التي لا يُسمح لأحد بلمسها. خُصَل شعره الموضوعة على رفِّ المدفأة.

تنقل مشطها، قميصها، ثوبها إلى البيت المجاور. تشغل السرير الذي كان يومًا لعمَّتيها. لا يقال شيء. تترك أمَّها وشقيقتها لحزنها وتنتقل إلى الغرفة التي أعلى المعمل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ما عادت آغنس الشخص الذي اعتادت أن تكونه. تغيَّرت تمامًا. تتذكَّر أنها كانت امرأة واثقة بالحياة وبما تحمل لها، كان لديها أطفالها، كان لديها زوجها، كان لديها بيتها. كانت قادرة على النظر في نفوس الناس ومعرفة ما سيحلُّ بهم. عرفت كيف تساعدهم. تحرَّكت قدماها على الأرض بثقة ورشاقة.

هذه المرأة ضاعت منها الآن إلى الأبد. إنها امرأة تائهة في حياتها، ولا تدرك ذلك. بلا مرسى، حيرى. امرأة تبكي عندما لا تجد حذاء أو عندما يغلي الحساء بإفراط أو عندما تتعثَّر بإناء. أشياء صغيرة تكسرها. ما عاد ثمَّة شيء مؤكَّدًا.

تغلق آغنس كُوَّة نافذتها برتاج، تغلق باب بيتها. لا تجيب الطَّرْق الذي يأتي في المساء أو في الصباح الباكر.

إذا أوقفها الناس في الشارع سائلين عن قروح، عن أورام في اللِّثَّة، عن صَمَم، عن طفح جلدي على الساقين، عن وجع في القلب، عن سعال، فإنها تهزُّ رأسها وتمضي.

تترك الأعشاب تنمو حتى تستحيل رمادية وهشَّة، ما عادت تسقي حديقتها الطبية. الآنية والجرار على رفِّها تغطيها طبقة من غبار باهت.

إنها سوزانا مَن يجلب خرقة مبلَّلة ويمسح الجرار، مَن يزيل الأعشاب المتيبِّسة والعديمة الفائدة من الرَّوافد ويلقمها النار. لا تجلب الماء بنفسها، لكنَّ آغنس تسمعها وهي تأمر جودث بحمل إناء مرةً في اليوم إلى قطعة الأرض الصغيرة في الجانب الآخر من خُمِّ الدجاج، حيث ينمو النبات الطبي. تيقَّني من سقيها كلِّها، تهتف سوزانا بعد عودة جودث. تصغي آغنس مدركةً أن سوزانا تحاكي صوت جدَّتها، الصوت الذي تخاطب به ماري الخادمات.

إنها سوزانا مَن ينْتِف بتائل نبات الآذَرْيُون ويضعها في الخل، يهرسها ويضيف العسل. هي مَن يحرص على رجِّ الخليط كل يوم.

تشرع جودث في رفع مزلاج النافذة عندما يطرقها الناس. تتحدَّث إلى الشخص في الخارج واقفةً على رؤوس أصابعها لتسمعهم. تقول جودث: ماما، إنها غسَّالة من ضفة النهر. رجل من خارج البلدة. طفل نائب عن أمه. امرأة عجوز من معمل الألبان. هل سترينهم؟

سوزانا لا تجيب الطَّرْق، بل تراقب وتصغي وتومئ إلى جودث إذا جاء شخص إلى النافذة.

ترفض آغنس حينًا من الوقت. تهزُّ رأسها. تلوِّح بيدها رافضة توسُّلات ابنتيها. تشيح بوجهها نحو المدفأة. لكن عندما تأتي العجوز التي من معمل الألبان مرة ثالثة، تومئ آغنس برأسها. تدخل المرأة، تتَّخذ مكانها على المقعد الخشبي الكبير ذي الذراعين الباليَتين، وتصغي آغنس إلى حكاياتها عن آلام المفاصل، عن صدر يملأه البلغم، عن عقلها الذي يهيم ويغيب، ناسيًا الأسماء والأيام والأعمال.

تنهض آغنس وتقصد منضدة عملها. تخرج المِدَق والهاون من الخزانة. لا تسمح لنفسها بالتفكير في أنَّ آخر مرة استخدمت فيها هذا كانت لأجله، آخر مرة حملت فيها هذا المِدَق بأصابعها وشعرت بثقله البارد، كانت حينذاك، وكم كان ذلك عديم الفائدة، ولم يُجْدِ نفعًا. لا تفكِّر في هذه الأشياء أبدًا وهي تكسر سيقان إكليل الجبل الحادَّة، لأجل تدفُّق الدَّم إلى الرأس، وكذلك سيقان عشبتي السَّنفيتون والزُّوفا.

تناول العجوزَ اللَّبَّانة الحُزمة. ثلاث مرات في اليوم، تقول لها: رُشِّيه في ماء ساخن. اشربيه عندما يبرد.

لا تأخذ العملات التي تحاول المرأة أن تعطيها إياها متلعثمة، متردِّدة، لكنها تتظاهر بعدم رؤية الجبن المغطَّى على المائدة، ووعاء الزُّبدة الثخينة.

تودِّع ابنتاها المرأة قائلتين: وداعًا. صوتاهما مثل عصفورين مشرقين، يطيران، يرفرفان عبر الغرفة ويخرجان إلى السماء.

كيف خرجت هاتان البنتان، هاتان المرأتان الصغيرتان منها؟ ما علاقتهما بالكائنين الصغيرين اللذين ربَّتهما ذات يوم ودلَّلتهما وحمَّمتهما؟ أكثر وأكثر، تبدو حياتهما غريبة عنها وغير معروفة لها.

***

في وقت ما بعد منتصف الليل، تقف آغنس في الشارع، تلتفُّ بشال. أيقظها وقع خطوات، خفيفة، سريعة ذات إيقاع جذِل مألوف.

انتزعها من النوم إحساسٌ بقدمين تقتربان من نافذتها، شعورٌ جليٌّ بأنَّ شخصًا ما كان في الخارج. وها هي ذي هنا، وحيدة في الشارع، تنتظر.

«أنا هنا»، تقول بصوت عال، تدير رأسها في اتجاه ثم في الاتجاه الآخر. «هل أنت هنا؟»

في تلك اللحظة بعينها يجلس زوجها تحت السماء نفسها في مركب يدور عند منعطف النهر. إنهم يجدِفون عكس التيار، لكنه يحسُّ بأنَّ التيار ينعطف، ويبدو النهر مضطربًا، متذبذبًا تقريبًا، محاولًا الجريان في اتجاهين في آنٍ واحد.

يرتعش ساحبًا معطفه حوله بإحكام (سيُصاب بالبرد، يسمع صوتًا في رأسه مُقَرِّعًا، صوتًا ناعمًا، صوتًا حنونًا). يبرد العرق الذي سال في وقت سالف مستقِرًّا على نحوٍ مزعج ودَبِق بين جلده وثيابه الصوفية.

معظم أعضاء الفرقة نائم، متمدِّدٌ في قاع المركب وخافض قبَّعته على وجهه. إنه لا ينام، لا يستطيع النوم أبدًا في هذه الأَمْسِيَة، الدَّم ما زال يتدفَّق في عروقه، قلبه ما زال يخفق بسرعة، أذناه ما زالتا تسمعان الأصوات والزئير واللُّهاث والتَّردُّد. يتوق إلى سريره، إلى كَنَف غرفته، إلى تلك اللحظة التي يصمت فيها عقله، عندما يدرك جسده أنَّ الأمر انتهى وأنَّ النوم يجب أن يأتي.

ينكمش وهو جالس على لوح المركب الصلب مراقبًا النهر، مرورَ المنازل، تضاؤلَ الأضواء على السفن الأخرى وتذبذبها، كتفي الملاح وهو يصارع المركب عبر التيار المخادع، ارتفاعَ المجدافين اللذين يقطر منهما الماء، أنفاسَه البيضاء التي تنساب من فمه كأنها وشاح.

ذاب نهر التَّمْز الآن (أخبرهم في رسالته الأخيرة بأنه كان متجمِّدًا)، ويمكنهم بلوغ القصر مرة أخرى. يرى، مرة أخرى، لحظةً، منظر العيون وراء حافة المسرح، وراء العالم الذي يغلِّفه هو ورفاقه، غائمًا بلهب الشموع. الوجوه التي تراقبه في تلك اللحظات ألوانٌ لُطِّخَتَ بفرشاة مبلَّلة. صياحهم، تصفيقهم، ملامحهم الشَّرِهة، أفواههم الفاغرة، أسنانهم المصطفَّة، نظراتهم التي ستلتهمه (إن استطاعت، لكنها لا تستطيع، لأنه ملتفٌّ بزِيِّه ومَحْمِيّ مثل حلزون في صدفة، ربما لن يروا حقيقته أبدًا).

عرض هو ورفاقه توًّا مسرحية تاريخية، في القصر، عن ملك مات منذ زمن طويل. تبيَّن له أنه وجد موضوعًا آمنًا يقبض عليه. في قصة كهذه، لا توجد مزالق، ولا رسائل تذكير، ولا أرض متزعزعة يمكن التعثُّر عليها. عندما يمثِّل معارك قديمة، ومشاهد قديمة في بلاط الملوك، عندما يضع الكلمات في أفواه حُكَّام بعيدين، ليس هنالك ما يتربَّص به، ما يقيِّده ويسحبه إلى الخلف لينظر إلى أشياء لا يستطيع التفكير فيها (جسد مُسَجًّى، مقعد

فارغ من الثياب، امرأة تبكي عند حائط زريبة الخنازير، طفلة تقشِّر التفاح عند عتبة باب، خُصَل شعر صفراء في إناء). يمكنه تدبُّر أمر هذه الأشياء: القصص التاريخية والملاهي. يمكنه الاستمرار. معها فقط يمكنه أن ينسى من يكون وما حدث. إنها موضوعات تملأ عقله دون خوف (وليس هنالك شخص آخر على خشبة المسرح معه، ولا أحد من الممثلين الآخرين، ولا أقرب أصدقائه سيعرف أنه ينظر كل مساء إلى رؤوس الجمهور المتفرِّج، باحثًا عن وجه معيَّن، عن صبي يتبسَّم تبسُّمًا معوجًّا وملامحه مدهوشة على الدوام. يطيل النظر إلى الجمهور، باهتمام، لأنه مازال عاجزًا عن استيعاب أنَّ ابنه قد رحل توًّا، يجب أن يكون في مكان ما، وكل ما عليه فعله هو العثور عليه).

يغطِّي إحدى عينيه، ثم الأخرى، ملتفتًا ليرى المدينة. إنها لعبة يمكن أن يلعبها. تستطيع إحدى عينيه رؤية ما هو بعيد فقط، والأخرى تستطيع رؤية ما هو قريب. تعملان معًا كي يرى معظم الأشياء، لكنه يرى بعضها منفصلًا عن بعضها الآخر، كلُّ عين ترى ما تستطيع رؤيته فقط: الأولى ترى البعيد والثانية ترى القريب.

على مقربة: يرى الغُرَز المتشابكة في رداء كوندل، حافة المركب الخشبية المصقولة، المجدافين اللذين يُدَوِّمان عند التجديف. بعيدًا: يرى بريق النجوم المتجمِّد كزجاج مهشَّم على حرير أسود، أوريون الصَّيَّاد[1] الأبدي، بارجة تشق المياه بلا مبالاة، جمعًا من الناس رابضًا على حافة رصيف ميناء، امرأة معها عدد من الأطفال، أحدهم يكاد يضاهي أمَّه طولًا (بطول سوزانا الآن؟)، أصغرهم طفل يرتدي قلنسوة (ثلاثة من الأطفال كان لديه، أطفال

(1) كوكبة من النجوم على هيئة إنسان مقاتل أُطلق عليها اسم أوريون تيمُّنًا بأوريون الصيَّاد في الأساطير اليونانية. (م)

جميلون، لكن الآن هناك اثنان فقط).

يبدِّل بين عينيه، بحركة سريعة، حتى لا تبدو المرأة وأطفالها وهم يصيدون في الليل (قريبين جدًّا من الماء، قريبين جدًّا، بلا شك) أكثر من أشكال مبهمة، أكثر من ضربة فرشاة لا معنى لها.

يتثاءب، فكُّه يفرقع بصوت يشبه صوت تكسُّر قشر جوز. سيكتب إليهم، ربما في الغد. إذا سنح الوقت. لأنَّ هناك الصفحات الجديدة التي ينبغي أن يكتبها، الرجل القاطن عبر النهر الذي ينبغي أن يراه، المالك الذي يجب أن يدفع له، ثمَّة صبي جديد ليجرِّب أداءه لأنَّ الآخر أصبح فارع الطول، صوته يرتعش، ولحيته بدأت تنمو (ويا له من ألم سِرِّي خاص أن يرى صبيًّا يكبر على هذا النحو ليغدو رجلًا، بلا عناء، بلا اكتراث، لكنه لا يقول هذا أبدًا، لا يفصح لأي أحد آخر عن أنه يتجنَّب هذا الصبي، لا يتحدَّث إليه أبدًا، أنه يكره النظر إليه).

يخلع معطفه، وقد شعر بحرارة فجأة، ويغمض كلتا عينيه. ستكون الطرقات خالية الآن. يعرف أنه ينبغي أن يذهب. لكنَّ شيئًا ما يعيقه، كأنَّ كاحليه مقيَّدان. سرعة عمله هنا -من كتابة إلى تدريب إلى عرض على الخشبة ثم عودة إلى الكتابة- لاهثة جدًّا، مثالية جدًّا، إلى حدِّ أنه ممكنٌ جدًّا أن تنقضي ثلاثة شهور أو أربعة دون أن يلاحظ ذلك. وثمَّة الخوف الحاضر دومًا من أنه إذا خرج من هذه العجلة الدَّوَّارة، قد لا يستطيع ركوبها مرة أخرى. قد يفقد مكانه، رأى هذا يحدث لآخرين. لكنَّ عِظَم حزن زوجته على ابنهما، وشدَّته، يكبحانه كبحًا قاتلًا. إنه حزن يشبه تيَّارًا خطِرًا، إذا ما سبح قريبًا جدًّا منه، قد يبتلعه، يغرقه. لن يطفو على السطح مرة أخرى، يجب أن يبعد نفسه حتى يستطيع البقاء. إذا انحدر إلى الأسفل، فسيسحبهم جميعًا معه.

إذا أبقى نفسه في قلب هذه الحياة في لندن، فلن يمسَّه شيء. هنا، في

هذا المركب، في هذه المدينة، في هذه الحياة، يكاد يقنع نفسه بأنه إذا ما عاد، فسيجدهم مثلما هم، لم يتغيَّروا، طلقاء، ثلاثة أطفال نيام على فراشهم.

يكشف عينيه، يرفعهما إلى سطوح البيوت المختلطة، أشكال سوداء على صفحة النهر المتلوِّي المضطرب. يغمض عينه البعيدة النظر ويحدِّق إلى أسفل المدينة بنظرة دامعة ناقصة.

تجلس سوزانا وجدَّتها في الرَّدهة، تقصَّان الأغطية وتخيطان أطرافها لتصبح مناشف. الأصيل يمر ببطء، مع كل خرق للقماش وانسياب للخيط، وتقول سوزانا لنفسها إنها تقترب بضع ثوان من نهاية اليوم. الإبرة زلِقة بين أصابعها، تكاد نار المدفأة تنطفئ، تشعر بالنعاس يقترب، ثم يتراجع ثم يقترب مرة أخرى.

أهكذا يكون الإحساس بالموت، أن تشعر بدنُوِّ شيء لا يمكنك اجتنابه؟ تحطُّ الفكرة على رأسها من العدم، مثل قطرة نبيذ في ماء، تلوِّن عقلها ببقعتها الداكنة المنتشرة.

تتحرك على مقعدها، تتنحنح، تميل أكثر على إبرتها.

جدَّتها تسأل: «هل أنت على ما يرام؟»

تقول سوزانا دون أن ترفع بصرها: «نعم شكرًا لكِ.» تتساءل كم من الوقت ستستمران في خياطة الأقمشة: تعملان منذ منتصف النهار ولا يبدو أن هناك نهاية تلوح في الأفق. أمها كانت هنا، حينًا من الوقت، وجودث كذلك، لكنَّ أمها اختفت في البيت المجاور مع زبون أراد دواءً للقرحة، واندفعت جودث لتفعل ما تشاء. تتحدَّث إلى الحصى. ترسم بيسراها أشكالًا

مبهمة بالطباشير على الأرضية. تجمع الريش المتساقط من برج الحمام وتنسج بعضه إلى بعضه الآخر بخيط.

تدخل آغنس الغرفة من ورائهما.

«هل وصفتِ له علاجًا؟» تسألها ماري.

«نعم فعلت.»

«وهل دفع لكِ؟»

دون أن تحرِّك سوزانا رأسها، ترى من زاوية عينها أنَّ أمَّها تهزُّ كتفيها وتلتفت إلى النافذة. تتنهَّد ماري وتطعن بإبرتها القماش الذي تمسك به.

تبقى آغنس عند النافذة، إحدى يديها على خصرها. الثوب الذي ترتديه واسع عليها هذا الربيع، معصماها نحيلان، أظافرها مقضومة.

تعرف سوزانا أنَّ ماري تدرك أنَّ أحسن الحزن يكون في الاعتدال، لكن يأتي وقت يكون فيه من الضروري بذل جهد. ترى أنَّ بعض الأشخاص يبالغون في الأشياء. أنَّ الحياة تمضي.

سوزانا تخيط. تخيط وتخيط. جدَّتها تسأل أمَّها: أين جودث، كيف تبلي الخادمات مع غسل الثياب، هل تمطر، ألا يبدو أنَّ النهار يطول، أليس لطفًا من جارهما أن يعيد ذلك الديك الهارب؟

لا تقول آغنس شيئًا، تواصل النظر من النافذة فحسب. تتابع ماري الحديث، عن الرسالة التي تلقُّوها من والد سوزانا، وأنه على وشك اصطحاب فرقته في جولة مرة أخرى، وأنه عانى نزلة برد –التقطها من أبخرة النهر– لكنه تعافى الآن.

تجذب آغنس الهواء إلى صدرها بحدَّة، تلتفت إليهما، وجهها يقظ، متوتر.

«أوه»، تقول ماري واضعةً يدها على وجنتها، «أفزعتِني. أي شيء...»

تقول آغنس: «أتسمعا ذلك؟»

تصمت ثلاثهن، يصغين، رؤوسهن مرفوعة.

«نسمع ماذا؟» تسأل ماري، يبدأ حاجبها بالانعقاد.

ترفع آغنس إصبعها: «ذلك... هو ذا! أتسمعانه؟»

تجيب ماري بحدَّة: «لا أسمع شيئًا.»

«نقر.» تخطو آغنس إلى المدفأة، تضغط صدر المدخنة بيدها. «حفيف.» تترك المدفأة وتنتقل إلى المقعد، ترفع نظرها. «جلبة واضحة. ألا تستطيعين سماعها؟»

تصمت ماري صمتًا طويلا. تقول: «لا، إنه على الأرجح ليس أكثر من غراب زيتونٍ ينزل عبر المدخنة.»

تغادر آغنس الغرفة

تمسك سوزانا القماش بإحدى يديها بقوة، والإبرة بيدها الأخرى. إذا استمرت في صنع غُرَز مرارًا وتكرارًا، بحجم متساوٍ، لعلَّ هذا كلَّه سيعبر.

جودث في الشارع. معها كلب إدموند، يستلقي تحت الشمس، أحد مخالبه مرفوع، في حين تنسج هي شريطًا أخضر في شعر عنقه الطويل. يرفع نظره إليها بثقة وصبر.

الشمس ساخنة على بشرتها، الضوء في عينيها، ولعلَّها لذلك لم تلاحظ

الشخص القادم عبر شارع هنلي: رجل يمشي نحوها، قبعة في يده، جراب يتدلَّى على ظهره.

يصيح باسمها. ترفع رأسها. يلوِّح. تعدو نحوه حتى قبل أن تقول اسمه لنفسها، والكلب يقفز إلى جانبها، معتقدًا أن هذا مُسَلٍّ أكثر من لعبة الشريط، والرجل يأخذها بين ذراعيه ويرجِّحها على الأرض قائلا: فتاتي الصغيرة، جودي الصغيرة، ولا تستطيع التقاط أنفاسها من الضحك، ثم تفكِّر أنها لم تره منذ...

«أين كنت؟» تقول له غاضبة فجأة، وتدفعه بعيدًا عنها، وعلى نحوٍ ما أخذت تبكي الآن. «لقد غبت وقتًا طويلًا.»

إذا كان قد رأى غضبها، فإنه لا يبدي ذلك. يرفع جرابه من الأرض، يداعب الكلب خلف أذنيه، يمسك بيدها ويسحبها نحو البيت.

يهدر بصوته الضخم المرتفع: «أين الجميع؟»

عشاء. أشقاؤه، والداه، إليزا وزوجها، آغنس والبنتان، يحتشدون جميعهم حول المائدة. ذبحت ماري إوزَّة على شرفه -كان مروِّعًا سماع الزِّمار والزعيق- والآن ترقد جثتها مفكَّكة، ممزقة بينهم جميعًا.

يروي قصة عن صاحب نُزُل وحصان وطاحون. إخوته يضحكون، أبوه يضرب المائدة بقبضته، إدموند يدغدغ جودث، يدفعها إلى الصياح، ماري تعارض إليزا في شيء ما، الكلب يقفز لأجل فُتَات طعام يلقيها إليه ريتشرد، نابحًا في الأثناء. تبلغ القصة ذروتها -شيء له علاقة ببوابة تُركت مفتوحة، آغنس ليست على يقين ما يكون- والجميع يضج. وتنظر آغنس إلى زوجها

عبر المائدة.

ثمَّة شيء فيه، شيء مختلف. لا تستطيع وضع إصبعها عليه. شعره أطول، لكن ليس هذا. لديه قرط ثان في أذنه الأخرى، لكن ليس هذا. تظهر على بشرته علامات الشمس ويرتدي قميصًا لم تره من قبل، بطرفين طويلين متدلِّيين في الكُمين. لكن ليس أيًّا من هذه الأشياء.

تتحدَّث إليزا الآن وتنظر إليها آغنس لحظة، ثم مرة أخرى إلى زوجها. إنه يصغي إلى كل ما تقوله إليزا. أصابعه اللامعة بشحم الإوزة، تعبث بكسرة خبز في صحنه. تفكِّر آغنس كيف اشتكت الإوزة ثم زعقت، ثم جرت لحظة مقطوعة الرأس، كأنها على يقين أنها تستطيع الهرب، تستطيع تغيير مصيرها. وجه زوجها متحمِّس وهو يصغي إلى شقيقته، يميل قليلًا إلى الأمام. يضع يده حول مقعد جودث.

مضى تقريبًا عام كامل على غيابه. حلَّ الصيف مجدَّدًا والذكرى السنوية لوفاة ابنهما تدنو. لا تعرف كيف يكون هذا، لكنه كذلك.

تحدِّق إليه، تحدِّق وتحدِّق. عاد بينهم، حاضنًا إياهم جميعًا، صائحًا بهم، ساحبًا هدايا من حقيبته: أمشاط شعر، مزامير، مناديل، لفيفة صوف مشرق، سِوار لها من فضة مطروقة، على إبزيمه ياقوتة.

السِّوار أفخر من أي شيء امتلكته أبدًا. على وجهه الزَّلِق نقوش دائرية دقيقة وموضع الفِصّ بارز. لا يمكنها تخيُّل قَدْر ما كلَّفه من مال. أو لماذا أنفق المال عليه، هو الذي لا يهدر فلسًا أبدًا، هو الحريص حرصًا شديدًا على محفظته منذ أن فقد أبوه ثروته. تعبث به، تدوِّره وتدوِّره وهي جالسة إلى المائدة مقابل زوجها.

تدرك أنَّ شيئًا سيئًا ينبعث من السِّوار، كالبخار. كان باردًا جدًّا في البداية،

يطوِّق جلدها تطويقًا جليديًّا، لا مباليًا. لكنه الآن ساخن جدًّا، ضيق جدًّا. عينه الحمراء الوحيدة تحملق إليها بِنِيَّة خبيثة. تعرف أنَّ شخصًا ما حزينًا لبسه، شخصًا لا يحبها، أو يكرهها. السِّوار مغمور بحظ سيء، بشعور سيء، صُقِل به حتى صار بريقه باهتًا. من كان ينتمي إليه يضمر لها الشَّر.

تجلس إليزا مبتسمة الآن وهي تنهي كلامها. يستقر الكلب قرب النافذة المفتوحة. يستحوذ جون على الجعة ويعيد ملء كأسه.

تنظر آغنس إلى زوجها وفجأة ترى الشيء، تشعر به، تشمُّه. على جسده كلِّه، على جلده كلِّه، على شعره، وجهه، يديه، كأنَّ حيوانًا مشى عليه مرارًا وتكرارًا، مخلِّفًا آثار مخالب صغيرة. تدرك آغنس أنه مغطى بلمس نساء أخريات.

تنظر إلى صحنها، إلى يديها، إلى أصابعها، إلى أطراف أصابعها المخشوشنة، إلى أثناء بصماتها وحلقاتها، إلى براجمها وندوبها وعروقها، إلى الأظافر التي لا تستطيع الكفَّ عن قضمها حالما تنمو. لحظةً، تحسب أنها قد تتقيَّأ.

تمسك بالسِّوار وتسحبه من معصمها. تنظر إلى الياقوتة، ترفعها قريبًا من وجهها، متعجِّبةً مما يمكن أن تكون قد رأت، من أين أتت، كيف وصلت إلى أملاك زوجها. باطنها شديد الحمرة، قطرة دم مجمَّدة. ترفع عينيها وزوجها ينظر إليها مباشرة.

تضع السِّوار على المائدة، وتحدِّق إليه. لحظةً يبدو حائرًا. ينظر إلى السِّوار، ثم إليها، ثم مرة أخرى إلى السِّوار، يكاد ينهض، كأنه سيتكلَّم. ثم يصعد الدم إلى وجهه، إلى عنقه. يرفع يده، كأنه يمدُّها إليها، ثم يتركها تسقط.

تقف، دون أن تتكلَّم، وتغادر الغرفة.

جاء ليبحث عنها في ذلك المساء، قبل غروب الشمس. تخرج إلى هيولَندز، لتعتني بنحلها، وتقتلع الأعشاب، وتقطف أزهار البابونج.

تراه مقتربًا على الدرب. خلع قميصه الفاخر، وقبعته المضفورة، ولبس سترة عتيقة يتركها معلقة خلف باب بيتهما.

لا تنظر إليه وهو يسير نحوها، تبقى مشيحة بوجهها عنه. تتابع أصابعها قطف الأزهار الصفراء الوجوه، تنتقيها، ثم تسقطها في سلة منسوجة عند قدميها.

يقف عند طرف صفِّ قُفْر النحل.

يقول: «جلبت لك هذا.» يمدُّ إليها شالًا في يده.

تلتفت لتنظر إلى الشَّال لحظة، لكنها لا تقول شيئًا.

«حتى لا تشعرين بالبرد.»

«لا أشعر بالبرد.»

«حسنًا»، يقول ويضعه بعناية على أقرب قفير. «إنه هنا إن احتجت إليه.»

تعود إلى أزهارها. تقطف زهرة، زهرتين، ثلاث زهرات، أربع.

تقترب قدماه، يجرها على العشب إلى أن يقف فوقها، فينظر إلى الأسفل. تستطيع أن ترى حذاءه من زاوية عينها. تتملَّكها رغبة عابرة في خرق مقدمة حذائه. مرارًا وتكرارًا، بحدِّ سكِّينها، إلى أن يتقشَّر الجلد تحته ويتقرَّح. كم سيعوي ويقفز!

يقول: «سَنْفيتون؟»

لا تستطيع التفكير في ما يقصد، وما الذي يتحدَّث عنه. كيف يجرؤ على المجيء إلى هنا والتحدُّث إليها عن الأزهار؟ تريد أن تقول: خذ جهلك، وأساورك، وحذاءك الفاخر البرَّاق وعد إلى لندن وابق هناك. لا تعُد أبدًا.

يشير الآن إلى الأزهار في سلَّتها، سائلًا عمَّا إذا كانت سنفيتونًا، أم بنفسجًا، أم...

«بابونج»، تمكَّنت من القول، ويبدو صوتها لأذنيها كئيبًا وثقيلًا.

«آه. قطعًا. هذا هو السنفيتون. أليس كذلك؟» يشير إلى عناقيد من الأقحوان.

تهزُّ رأسها وتدهش كم يشعرها ذلك بالدُّوار، كأن أقل حركة قد تسقطها على العشب.

«كلا»، تشير بأصابع ملطَّخة بلون أصفر ضارب إلى الخضرة، «هذه.»

يومئ برأسه بحماسة، يمسك ببرعم خزامى بأصابعه، يفركه، ثم يرفع يده إلى أنفه مُصْدِرًا أصوات تقدير مبالغ فيها.

«النحل يزدهر؟»

تومئ برأسها إيماءة واحدة.

«ينتج عسلًا كثيرًا؟»

«ما زال علينا معرفة ذلك.»

«و...» يمدُّ ذراعه نحو بيت المزرعة، «... شقيقك؟ أهو بخير؟»

ترفع وجهها لتنظر إليه، أول مرة منذ وصوله. لا يمكنها متابعة هذا

الحديث لحظة واحدة أطول. إذا قال لها شيئًا آخر عن أزهارها، عن هيولَندز، عن النحل، لا تعرف ماذا ستفعل. ستدخل السكين في حذائه. ستدفعه إلى الخلف إلى قفير النحل. ستهرب منه إلى هيولَندز، إلى بارثولوميو، أو إلى ملاذ الغابة الأخضر الداكن وترفض الخروج مرة أخرى.

ينظر بسرعة إلى نظرتها الصريحة، ثم تهرب عيناه بعيدًا.

تقول: «لا يمكنك النظر إلى عيني؟»

يفرك ذقنه، يتنهَّد، يخفض جسده بارتعاش إلى جوارها، ويمسك برأسه بين يديه. تترك آغنس السكين تنزلق من يديها. لا تحسب أنها تملك الثقة لتظل ممسكة بها.

يجلسان هكذا، معًا، بعض الوقت، لكن كلًّا منهما يشيح بنظره عن الآخر. تقول لنفسها إنها لن تكون أوَّل مَن يتكلَّم. فليقرِّر ما ينبغي قوله، ما دام بارعًا جدًّا مع الكلمات، ما دام مُحْتَفَلًا به ومحتفًى لخطاباته الجميلة. ستحتفظ برأيها لنفسها. هو الذي سبّب هذه المشكلة، هذا الصَّدع في زواجهما: يمكنه أن يكون هو من يعالجه.

يتعاظم الصمت بينهما، يتَّسع ويلتف حولهما، يكتسب شكلًا وهيئة وحلقات تلوِّح في الهواء، مثل الخيوط المتدلية من شبكة تالفة. تحس بكلِّ نَفَس يدخل إليه ويخرج منه، بكلِّ حركة وهو يطوي ذراعيه، وهو يحكُّ مرفقه، وهو يزيح خصلة عن جبينه.

تبقى ساكنة تمامًا، وساقاها مطويتان تحتها، وتشعر كأنَّ نارًا تشتعل داخلها، تلتهم ما تبقى هناك وتفرغه. أول مرة لا تشعر برغبة في لمسه، في وضع يديها عليه: على العكس تمامًا. يبدو أنَّ جسده يرسل ضغطًا يدفعها بعيدًا، يجعلها تنكفئ على نفسها. لا يمكنها أن تتخيَّل وضع يدها حيث

كانت يد امرأة أخرى. كيف استطاع فعل ذلك؟ كيف استطاع المغادرة بعد وفاة ابنهما والبحث عن عزاء لدى آخرين؟ كيف استطاع العودة إليها وعليه هذه العلامات؟

تتعجَّب كيف أمكنه هجرها لأجل امرأة أخرى. لا يمكنها أن تتخيَّل رجلًا آخر في فراشها، جسدًا آخر، جلدًا آخر، صوتًا آخر، ستُمرضها الفكرة. تتساءل وهما جالسان هناك عمَّا إذا كانت ستلمسه مرة أخرى، عمَّا إذا كانا سيفترقان دائمًا بعد الآن، إن كانت هناك امرأة في لندن قد أوقعت قلبه في شَرَكها واحتفظت به لنفسها. تتعجَّب كيف سيقول لها هذا كلَّه، ما الكلمات التي سيختارها.

يتنحنح جالسًا إلى جوارها. تسمعه إذ يجذب الهواء إلى صدره، موشكًا على الكلام، فتتأهَّب. ها نحن نبدأ.

يقول: «كم من المرَّات تفكرين فيه؟»

لحظةً، تؤخَذ على حين غرَّة. كانت تتوقَّع وصفًا، تفسيرًا، ربما اعتذارًا عن ما تعرف أنه حدث. أعدَّت نفسها لسماعه يقول: لا يمكننا الاستمرار على هذا النحو، قلبي ينتمي إلى امرأة أخرى، لن أعود مرة أخرى من لندن. تفكِّر فيه؟ كم من المرَّات تفكِّر فيه؟ لا تستطيع معرفة مَن يقصد.

ثم تدرك ما يعنيه وتلتفت لتنظر إليه. وجهه تحجبه ذراعاه المطويتان، ورأسه منكَّس. حالٌ يعبِّر عن أسى شديد، عن ألم، عن حزنٍ مطلق، إلى درجة أنها كادت تنهض وتطوِّقه بذراعيها لمواساته. لكنها تتذكَّر أنها لن تفعل هذا، لا تستطيع.

بدلًا من ذلك، تراقب سنونوًّا يرفرف فوق ذُرَا النبات باحثًا عن حشرات، ثم يطير نحو الأشجار. إلى جانبها، تمتلئ الأشجار بالهواء وتزفر، أغصانها

الكثيفة الأوراق ترتعش في النسيم.

تقول: «طوال الوقت، إنه دائمًا هنا، لكنه، قطعًا»، تضغط عظام صدرها بقبضتها، «ليس هنا.»

لا يجيب، لكنها حين تختلس نظرة إليه تراه يومئ برأسه.

يقول وصوته ما زال مخنوقًا: «أجدني أتساءل باستمرار أين هو. أين ذهب. الأمر أشبه بعجلة تدور بلا توقُّف في مؤخر عقلي. أيًّا كان ما أفعله، أينما كنت، أفكِّر: أين هو، أين هو؟ لا يمكن أن يكون قد اختفى وحسب. يجب أن يكون في مكان ما. كل ما عليَّ فعله هو العثور عليه. أبحث عنه في كلِّ مكان، في كلِّ شارع، في كلِّ حشد، في كلِّ جمهور. ذلك ما أفعله حينما أنظر إليهم جميعًا: أحاول العثور عليه، أو على نسخة منه.»

تومئ آغنس برأسها. يحلِّق السنونو في الأنحاء ويعود، كأنَّ لديه شيئًا مهمًّا يخبرهما به، لو أنهم يستطيعون فهمه فحسب. وجنته تومض بلون قرمزي، ورأسه بلون أرجواني ضارب إلى الزرقة وهو يعبر. على صفحة الماء في الإناء الذي إلى جوارها، يتموَّج جمعٌ من الغيوم لا مباليًا وبطيئًا.

يقول شيئًا بصوت خافت أجش.

تقول: «ماذا كان ذلك؟»

يقوله مرة أخرى.

«لم أسمعك.»

يقول رافعًا رأسه، فترى وجهه ممتلئًا بالدموع: «قلتُ إنني قد أُجَنّ بسبب ذلك. حتى الآن وقد مضى عام.»

«عامٌ لا شيء»، تقول ملتقطةً زهرة بابونج ساقطة على الأرض. «إنها

ساعة أو يوم. لن نكفَّ عن البحث عنه. لا أحسب أنني أريد ذلك.»

يمدُّ يده عبر الفراغ بينهما ويمسك بيدها، ساحقًا الزهرة بين كفيهما. الرائحة المتربة والمثقلة بحبوب اللقاح تملأ الهواء. تحاول الابتعاد لكنه يمسكها بسرعة.

يقول: «أنا آسف.»

تسحب معصمها محاولة تخليصه من قبضته. تفاجئها قوته وإصراره.

ينطق باسمها باستفهام. «أسمعتِني؟ أنا آسف.»

«على ماذا؟» تغمغم وهي تشد ذراعها مرة أخيرة غير مُجدية قبل أن تتركها تتراخى في قبضته.

«على كل شيء.» يتنهَّد باضطراب، برَجْف. «ألن تأتي أبدًا للعيش في لندن؟»

تنظر إليه آغنس، هذا الرجل الذي حبس يدها، والد أطفالها هذا، وتهزُّ رأسها. «لا نستطيع. جودث لن تحتمل ذلك. أنت تعرف هذا.»

«قد تحتمل.»

ثمَّة صوت ثغاء بعيد، تحمله الريح. يدير كلاهما رأسه صوبه.

تقول آغنس: «هل ستخاطر بذلك؟»

لا يقول شيئًا، لكنه يمسك يدها بكلتا يديه. تلوي يدها في باطن يده حتى تتجه إلى الأعلى وتقبض العضلة التي بين إبهامه وسبَّابته، وتنظر مباشرة إليه. يبتسم ابتسامًا باهتًا لكنه لا يسحب يده. عيناه مبلَّلتان، والرموش مرسومة كسنابل.

تضغط العضلة، تضغط وتضغط، كأنها ستسحب عصيرًا منها. في الأغلب تحسُّ بضجيج، في البدء: أصوات كثيرة، تهتف بنَبْرٍ عالٍ وناعمٍ ومهدِّدٍ ومتوسِّل. عقله مكتظٌّ بضوضاء، بصراع، بكلام وصياح وصراخ وعواء وهمس متداخل، ولا تعرف كيف يطيق هذا، وثمَّة النساء الأخريات، يمكنها أن تشعر بهن، بشعورهن المُرْخَاة، ببصمات أيديهن المبلَّلة بالعرق، فيصيبها هذا بالغثيان، لكنها تتماسك على الرغم من رغبتها في إفلات يده، في دفعه بعيدًا، وثمَّة خوف أيضًا، قدر كبير من الخوف، من رحلة ما، من شيء له صلة بالماء، لعلَّه بحر، رغبة في البحث عن أفق بعيد، في مدِّ نظره إليه، وتحت هذا كلِّه، خلفه، تجد شيئًا، فجوة، فراغًا، هاوية مظلمة يصفِر فيها الفراغ، وفي قاعها تجد شيئًا لم تشعر به من قبل: قلبه، تلك العضلة القرمزية العظيمة، خافقًا بشدة في صدره، هائجًا ومُلِحًّا في إلحاحه. يبدو دانيًا جدًّا، حاضرًا جدًّا، تكاد تمدُّ يدها إليه وتلمسه.

يظل ينظر إليها عندما تفلت قبضتها. تستقر يدها بسكون في يده.

يقول لها: «ماذا وجدتِ؟»

تجيب: «لا شيء، قلبك.»

يقول متظاهرًا بالغضب: «ذلك لا شيء؟ لا شيء؟ كيف يمكنك أن تقولي شيئًا كهذا؟»

تبتسم له تبسُّمًا باهتًا، لكنه يسحب يدها ويضعها على صدره.

يقول: «وإنه قلبك، ليس قلبي.»

***

يوقظها تلك الليلة وهي ترى في منامها بيضة، بيضة كبيرة، في قاع جدول صافٍ، تقف على جسر وتنظر إلى الأسفل إليها، إلى التيار المندفع حول محيط البيضة.

الحلم قوي إلى درجة أنها تنفق دقيقة لتنتبه، لتدرك ما يحدث، أنَّ زوجها يشدها إليه بقوة، رأسه مدفون في شعرها، ذراعاه حول خصرها، أنه يقول إنه آسف، مرارًا وتكرارًا.

لا تجيب بعض الوقت، لا تستجيب لمداعبته ولا تبادله إياها. لا يستطيع التوقف. تتدفَّق الكلمات منه كالماء. وكالبيضة ترقد هي في تيَّار كلماته.

ثم ترفع يدها إلى كتفه. تتحسَّس التجويف، الكهف الذي صنعه كفُّها إذ يستقر هناك. يمسك بيدها الأخرى ويضغطها على وجهه، فتشعر بمقاومة خُصَل لحيته، بقُبَلِه المُلِحَّة والواثقة.

لا يمكن إيقافه، أو صرف انتباهه، إنه رجل يقصد وجهة واحدة، عملًا واحدًا. يجذب قميصها ويسحبه، مكوِّرًا أثناءه وأجزاءه بيده، شاتمًا مجدِّفًا وهو يبذل هذا الجهد، إلى أن يجرِّدها من القميص، إلى أن تضحك منه، ثم يغطِّيها بجسده ولا يفلتها، فتشعر بأنها كائن منفصل، جسد منفرد، تذوب، إلى أن تغدو بلا فكرة، ولا تحس أيهما جلده وأيهما جلدها، أيها أطرافها وأيها أطرافه، أشعرها في فمها أم شعره، أأنفاسها تدخل وتخرج بين الشفاه أم أنفاسه.

«لدي عرض»، يقول في ما بعد، حين ينتقل إلى الاستلقاء إلى جوارها.

تلفُّ بين أصابعها خصلة من شعره. معرفتها بالنساء الأخريات تراجعت في أثناء الفعل، انسحبن عنها، لكنهن عُدْن الآن، يقفن خارج ستارة السرير،

يتدافعن طلبًا لمُتَّسع، أيديهن وأجسادهن تحكُّ قماش الستارة، تنانيرهن تمسح الأرض.

تقول: «عرض زواج؟»

يقول مقبِّلًا عنقها، كتفها، صدرها: «أخشى أنَّ الوقت قد تأخر قليلًا على ذلك وأيضًا، أوه! شعري يا امرأة. أتنوين نزعه عن رأسي؟»

تشدُّ الخصلة مرة أخرى. «ربما ستحسن صنعًا لو تذكَّرت زواجك. من حين إلى آخر.»

يرفع رأسه عنها ويتنهَّد. «إنني أفعل. سأفعل. أفعل.» يداعب وجهها بأصابعه. «أتودين سماع عرضي أم لا؟»

تقول: «لا.» تعتريها رغبة شَكِسة في معارضة كل ما يوشك أن يقوله. لن تتركه يفلت بهذه السهولة، لن تدعه يعتقد أنَّ الأمر كله لا معنى له بالنسبة إليها كما هو بالنسبة إليه.

«حسنًا، غطِّي أذنيك إذا كنت لا تريدين سماعه لأنني سأتكلَّم أحصلتُ على إذنك أم لم أحصل عليه. الآن...»

توشك أن تضع يديها على أذنيها لكنه يمسك بهما سريعًا.

تهمس: «اتركني.»

«لن أفعل.»

«اتركني، أقول لك.»

«أريدك أن تسمعي.»

«لكنني لا أريد.»

يقول وهو يفلت يديها ويجذبها إليه «لقد فكَّرت في ابتياع بيت.»

تلتفت لتنظر إليه، لكنَّ الظلام يغلِّفهما، ظلام كثيف، مطلق، لا يمكن اختراقه. «بيت؟»

«لك. لنا.»

«في لندن؟»

«كلا»، يقول نافد الصبر، «ستراتفرد بلا ريب. قلتِ إنك تفضِّلين البقاء هنا، مع الفتاتين.»

تكرِّر: «بيت؟»

«أجل.»

«هنا؟»

«أجل.»

«هل لديك المال لشراء منزل؟»

تسمعه يبتسم إلى جوارها، تسمع شفتيه تنشقَّان عن أسنانه. يتناول يدها ويقبِّلها بين كلمة وأخرى. «لدي. وأكثر.»

تسحب يدها بعيدًا. «ماذا؟ هل ذلك صحيح؟»

«صحيح.»

«كيف يمكن ذلك؟»

«تعلمين»، يقول مرتميًا على الفراش، «أنه يسعدني دائمًا أن أكون قادرًا على مفاجئتك. سعادة نادرة غير مألوفة.»

«ماذا تقصد؟»

يقول: «أقصد، أحسب أنك لا تعلمين ما يعنيه الزواج من امرأة مثلك.»

«مثلي؟»

«امرأة تعرف كلَّ شيء عني، قبل حتى أن أعرف نفسي. امرأة يمكنها النظر إليَّ فقط والتكهُّن بأعمق أسراري، بنظرة فحسب. امرأة يمكنها أن تقول ما أوشك على قوله -وما لا أقوله- قبل أن أقوله. إنَّ الأمر نعمة ونقمة على حد سواء.»

تهزُّ كتفيها. «لا يمكنني التحكُّم في أي من هذه الأشياء. لا...»

«لدي المال»، يقاطعها هامسًا، شفتاه تداعبان أذنها. «الكثير من المال.»

«لديك الكثير؟» تجلس مدهوشة. فهمت أنَّ عمله يزدهر، لكنَّ هذا الخبر ما زال شيئًا جديدًا لها. تفكِّر على نحوٍ عابر في السِّوار الباهظ الثمن الذي غطَّته منذ ذلك الحين بالرَّماد وفتات العظام، ولفَّته بجِلْدَة، ودفنته قرب خُمِّ الدجاج. «كيف جنيت هذا المال؟»

«لا تخبري أبي.»

تكرِّر: «أبوك؟ لن... لن أفعل، قطعًا، لكن...»

يسأل: «هل تستطيعين ترك هذا المكان؟» تستقر يده على ظهرها. «أريد أن أخرجك والبنتين من هنا، أن أرفعكن كلكن وأغرسكن في مكان آخر. أريدكن أن تَكُنَّ بعيدات عن هذا... كلِّه... أريدكن في مكان آخر جديد. لكن هل تستطيعين ترك هذا المكان؟»

تفكِّر آغنس في الأمر. تقلِّبه على هذه الشاكلة وتلك. تتخيَّل نفسها في بيت جديد، كوخ ربما، به غرفة أو غرفتان، في مكان ما على طرف البلدة مع ابنتيها. قطعة أرض تصلح لحديقة، تطل عليها بضع نوافذ.

تقول أخيرًا: «إنه ليس هنا.» تتوقف يده على ظهرها. تحاول الحفاظ على صوتها هادئًا، لكنَّ الحزن يتسرَّب من الفجوات بين الكلمات. «بحثت في كل مكان. انتظرت. راقبت. لا أعلم أين هو لكنه ليس هنا.»

يضمُّها إليه مرة أخرى، برفق، بعناية، كأنها شيء قد يكسره، ويسحب الأغطية عليها.

يقول: «سأهتم بالأمر.»

الشخص الذي يطلب منه التوسُّط في الشراء هو بارثولوميو. يكتب في رسالة إليه أنه لا يريد أن يطلب ذلك من إخوته لئلا يدخلوا أباه في الموضوع. هلَّا ساعده بارثولوميو في هذا؟

يفكِّر بارثولوميو في الرسالة. يضعها على رف مدفأته، وينظر إليها بين حين وآخر وهو يتناول إفطاره.

جوان التي يربكها ظهور الرسالة عند بابهم، تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، سائلةً عمَّا بداخلها، هل هي من «ذلك الرجل»، كما تشير إلى زوج آغنس؟ تطالب بأن تعرف، إنه حق فحسب. هل يريد اقتراض المال؟ هل يريد ذلك؟ هل مُنِي بنهاية سيئة في لندن؟ طالما عرفت أنه سينتهي به الحال على هذا النحو. صنَّفته من النوع السيء منذ أول يوم رأته فيه. ما زال يحزنها أنَّ آغنس ضيَّعت فُرَصها لأجل شخص مثله عديم الجدوى. هل يطلب من بارثولوميو أن يقرضه المال؟ تأمل ألَّا يفكِّر بارثولوميو لحظة واحدة في إقراضه أي شيء أبدًا. لديه المزرعة ليفكِّر فيها، والأطفال، فضلًا عن جميع إخوته وأخواته. ينبغي حقًّا أن يصغي إليها هي جوان في هذا الأمر. هل يصغي؟ هل يفعل؟

يتابع بارثولوميو أكل ثريده بصمت، كأنه لا يسمعها، ملعقته تغوص وترتفع، تغوص وترتفع. تتوتَّر زوجته وتريق الحليب، نصفه على الأرض ونصفه الآخر على النار، وتوبِّخها جوان منحنيةً على يديها وركبتيها لتمسح الفوضى. أحد الأطفال يشرع في البكاء. تحاول الزوجة نفخ الحياة في النار مرة أخرى.

يدفع بارثولوميو ما تبقَّى من إفطاره بعيدًا. يقف، جوان ما زالت تُزَرْزِر خلفه مثل زُرْزور. يضع قبعته على رأسه على عجل ويغادر بيت المزرعة.

يسير في الحقل شرق هيولَندز حيث أصبحت الأرض سبخة مؤخرًا. ثم يعود.

زوجته وزوجة أبيه وأطفاله يجتمعون حوله سائلين، أهي أنباء سيئة من لندن؟ هل وقع خطب ما؟ ما من شكٍّ في أنَّ جوان قد فحصت الرسالة التي مُرِّرت من يد إلى أخرى في بيت المزرعة، لكن لا هي ولا زوجة بارثولوميو يمكنهما القراءة. بعض الأبناء يمكنهم القراءة لكنهم لا يستطيعون فك شفرة خطِّ عمِّهم الغامض.

بارثولوميو الذي بقي متجاهلًا أسئلة المرأتين، يتناول ورقة وريشة. بعناية يغمس الريشة في الحبر، مبقيًا لسانه بين أسنانه، ويردُّ على صهره قائلًا: نعم سيساعده.

بعد عدَّة أسابيع، يذهب ليرى شقيقته. يبحث عنها أوَّلًا في البيت، ثم في السوق، ثم في كوخ دلَّته عليه زوجة الخبَّاز، مكان مظلم صغير على الطريق قرب الطاحون.

يفتح بارثولوميو الباب فيجدها تضع كِمادة على صدر رجل مُسِنّ مُسْتلقٍ على حصيرة أسَل. الغرفة معتمة، يستطيع رؤية مئزر شقيقته، شكل قلنسوتها الأبيض، يستطيع شمَّ رائحة الطين الحرِّيفة، رطوبة الأرض المتربة وشيء آخر، رائحة المرض النَّتِنة.

تقول له بلطف: «انتظر في الخارج، سأكون هناك بعد قليل.»

يقف في الشارع ضاربًا ساقه بقفَّازيه. عندما ظهرت إلى جانبه، بدأ يسير مبتعدًا عن باب الرجل المريض.

تنظر إليه آغنس وهما يتقدَّمان نحو البلدة، يستطيع أن يشعر بها وهي تنظر إليه، تقيِّم مزاجه. بعد لحظة أو لحظتين، يمدُّ يده ويأخذ السَّلَّة من ذراعها. نظرة سريعة إلى داخلها تكشف حزمة خِرَق، مع شيء من عشب مجفَّف يبرز منها، قارورة مغلقة، بعض الفطر، وشمعة نصف محترقة. يكتم زفيرًا. «لا يجدر بك أن تقصدي أماكن كهذه»، يقول وهما يقتربان من السوق.

تسوِّي رُدنيها لكنها لا تقول شيئًا.

يقول مرة أخرى مدركًا أنه في الأثناء يبدِّد جهده: «لا يجدر بك فعل ذلك، فأنت بحاجة إلى الاعتناء بصحتك.»

تقول فحسب: «إنه يُحتضر يا بارثولوميو، ولا أحد له. زوجته، أبناؤه. ماتوا جميعًا.»

«إذا كان يُحتضر، لماذا تحاولين علاجه؟»

تومض عيناها وهي تنظر إليه. «لا أحاول، لكن يمكنني تيسير عبوره، تخليصه من ألمه. أليس هذا ما يستحقُّه جميعنا في ساعاتنا الأخيرة؟»

تمدُّ يدها وتحاول استعادة سلَّتها لكن بارثولوميو لا يفلتها.

تقول: «ما بال مزاجك عكِرًا اليوم؟»

«ماذا تقصدين؟»

«إنها جوان»، تقول متخلِّيةً أخيرًا عن صراعها الذي لا طائل منه لأجل السَّلَّة وناظرة إليه نظرة ثاقبة، «أليس كذلك؟»

يجذب بارثولوميو الهواء إلى صدره ناقلًا السَّلَّة إلى يده الأخرى حتى تكون بمنأى عن آغنس، مرة واحدة وأبدًا. لم يأت إلى هنا للحديث عن جوان، لكن من الحماقة أن يفكِّر في أنَّ آغنس لن تلاحظ كآبته. كان هنالك جدال في وقت الإفطار مع زوجة أبيه. كان يدَّخر المال سنوات لتمديد بيت المزرعة، لبناء طابق علويّ وغرفٍ أخرى في الخلف، فقد سئم النوم في بيت فيه عدد لا يحصى من الأطفال، وزوجة أب شكَّاءة وحيوانات عديدة. كانت جوان عائقًا أمام خطته منذ البداية. صاحت قائلة وهي تقدِّم الثريد هذا الصباح: كان هذا المكان جيدًا بما يكفي لأبيك، فلماذا ليس جيدًا بما يكفي لك؟ لماذا يجب أن ترفع السقف، أن تزيله من فوق رؤوسنا؟

تسأله آغنس: «أتريد نُصحي؟»

يهزُّ بارثولوميو كتفيه، فمه مزموم.

تقول آغنس وهما يقبلان على أول كشك في السوق: مع جوان، يجب أن تتظاهر بأنَّ ما تريدُه ليس هو ما تريدُه أبدًا.»

«إه؟»

تتوقَّف آغنس لتعاين صفَّ أجبان، لتحيِّي امرأة في شالٍ أصفر، قبل أن تتابع سيرها.

تقول وهي تشقُّ طريقها أمامه داخل حشد السوق وخارجه: «دعها

تصدِّق بأنك غيَّرت رأيك، بأنك لا تود إعادة بناء البيت. بأنك تعتقد أنَّ الأمر مزعج جدًّا، وباهظ التَّكلفة.» تلقي آغنس عليه نظرة من فوق كتفها. «أعِدُكَ أنها في غضون أسبوع ستقول إنها تعتقد أنَّ البيت أصبح مكتظًّا، وإن هنالك حاجة إلى مزيد من الغرف، وإن السبب الوحيد وراء عدم بنائك الغرف هو أنك كسول جدًّا.»

يفكِّر بارثولوميو في هذا وهما يبلغان الطرف الأبعد من السوق. «أتعتقدين أن هذا سينجح؟»

تسمح له آغنس باللحاق بها، حتى يمشيان معًا جنبًا إلى جنب. «جوان لا تقنع أبدًا ولا يمكنها أن تستريح إذا كان الآخرون مستريحين. الشيء الوحيد الذي يسرُّها هو أن تجعل الآخرين تعساء مثلها. تحب الرفقة في استيائها الدائم. لذلك اخفِ ما يجعلك سعيدًا. اجعلها تصدِّق أنك تريد العكس. ثم سيكون كلُّ شيء كما يحلو لك. سترى.»

توشك آغنس على الانعطاف إلى شارع هنلي عندما يمسك بارثولوميو بمرفقها ويدُسُّ ذراعها في ذراعه، ثم يوجهها إلى شارع مختلف، نحو مبنى البلدية والنهر.

يقول: «فلنَسِر على هذا الطريق.»

تتردَّد لحظةً، ناظرةً إليه نظرة تساؤل، ثم تستسلم بصمت.

يمرَّان قرب نوافذ مدرسة القواعد. يمكن سماع التلاميذ يقرؤون درسًا. صيغة رياضية، بناء فعل، بيت شعر، لا يستطيع بارثولوميو تحديد ما هو. الضجيج له إيقاع يشبه صوت المزمار، مثل صياح طيور مستنقعات بعيدة. عندما ينظر إلى شقيقته يراها مُطرقة الرأس، كتفاها مُحْدَودِبَين، كأنها تحمي نفسها من بَرَد. تشبُّثها بذراعه يُنبئ بأنها ترغب في عبور الشارع، فيعبران.

«زوجك»، يقول بارثولوميو وهما ينتظران حصانًا يعبر، «كتب إليَّ.»

ترفع آغنس رأسها. «كتب إليك؟ متى؟»

«سألني أن أبتاع له منزلًا و...»

«لِمَ لَمْ تخبرني؟»

«إنني أخبرك الآن.»

«لكن لِمَ لَمْ تخبرني قبل الآن، قبل أن...»

«أتودِّين رؤيته؟»

تطبق شفتيها. يحسُّ بأنها تريد أن تقول لا، لكنَّ الفضول يملأها في الوقت نفسه.

تختار أن تهزَّ كتفيها، متظاهرة باللامبالاة. «كما تشاء.»

يقول بارثولوميو: «لا، كما تشائين أنتِ.»

تهزُّ كتفيها مرة أخرى. «ربما في يوم آخر، عندما...»

يمدُّ بارثولوميو يده الطليقة ويشير إلى بناء عبر الطريق من المكان حيث يقفان. إنه مكان ضخم، الأكبر في البلدة، له باب رئيس عريض، ثلاثة طوابق مرفوع بعضها فوق بعضها الآخر، وقائم في زاوية، لتبدو مقدِّمته في مواجهتها، وجانبه يمتد بعيدًا عنهما.

تتبع آغنس الجهة التي تشير إليها إصبعه. يراقبها وهي تنظر إلى المنزل. يراقب نظرتها إلى كلا جانبيه. يراقبها وهي تعبس.

تقول: «أين؟»

«هناك.»

«ذلك المكان؟»

«أجل.»

يتغضَّن وجهها من الحيرة. «ولكن أي جزء منه؟ أي غرف؟»

يضع بارثولوميو السَّلَّة التي يحملها ويرجع على عقبيه قبل أن يقول: «كلها.»

«ما الذي تقوله؟»

يقول: «المنزل كلُّه لكِ.»

البيت الجديد مليء بالأصوات. لا يهدأ أبدًا. في الليل تسير آغنس في الأروقة وعلى السلالم وفي الغرف والدهاليز، قدماها حافيتان، وتتسمَّع.

في البيت الجديد تهتز النوافذ في أُطُرِها. نسيم ريح يحوِّل المدخنة مزمارًا ينفث في البيت نغمة حزينة طويلة. طقطقة خشب السنديان تبدأ في الليل. الكلاب تتقلَّب وتتنهَّد في سلالها. قوائم الفئران الصغيرة المخالب تنزلق خفيةً على الجدران. تختبط الأغصان في الحديقة الممتدة في الخلف.

في البيت الجديد تنام سوزانا في الطرف القصي من الرواق، تغلق بابها في وجه طواف أمِّها الليلي. تحتل جودث الغرفة المجاورة لغرفة آغنس، تطفو على سطح النوم، غالبًا ما تستيقظ، لا تبلغ أعماق النوم أبدًا. إذا فتحت آغنس الباب، فإنَّ صوت المُفصِّلات وحده كافٍ لجعلها تخفُّ جالسة، قائلة: من هناك؟ تنام القطتان على دثارها، إلى جانبيها.

في البيت الجديد يسع آغنس الاعتقاد بأنها إذا ما سارت في الشارع عابرة

السوق، صعودًا إلى شارع هنلي ودخلت من باب البيت هناك، ستجدهم جميعًا هناك مثلما كانوا: امرأة لها ابنتان وابن. لا تسكن البيتَ إليزا وزوجها بائع القبعات، لا أبدًا، بل هم من يسكنونه مثلما ينبغي أن يكون الأمر، مثلما سيكون الآن. سيكون الابن أكبر سنًّا الآن، أطول قامة، عريض المِنْكَبَين، بصوت أعمق واثق. سيكون جالسًا إلى الطاولة، حذاؤه على مقعد، يحدِّثها -كم يحب الحديث- عن يومه في المدرسة، عن أشياء قالها المعلِّم، عن مَن ضُرِب، ومَن كِيل له المديح. سيكون جالسًا هناك وستكون قبعته معلَّقة وراء الباب وسيقول إنه جائع وماذا هنالك ليأكله؟

يمكن آغنس أن تترك هذه الفكرة تغمرها. يمكنها الاحتفاظ بها داخلها، مثل كنز مغطى ومخبوء، لتخرجها وتجلوها وتعجب بها عندما تكون بمفردها، عندما تجوب البيت الجديد الضخم ليلًا.

ترى الحديقةَ منطقتها الخاص، مجالها الخاص، البيت كيان كبير جدًّا، يثير الكثير من التعليق والإعجاب والحسد، وأسئلة عن زوجها وما يعمل، كيف تبلي تجارته وهل صحيح أنه كثيرًا ما يكون في البلاط؟ البيت يجذب الناس ويطردهم في آن واحد. منذ أن ابتاعه زوجها والناس لا يكفُّون عن الحديث عنه. يعبِّرون عن دَهَشِهم في وجهها، لكنها تعرف ما يُقال وراء ظهرها: كيف أمكنه فعل ذلك، طالما كان أرعن عديم الفائدة، أحمق، نظرته مُعْلَّقة في الغيوم، من أين أتت هذه الأموال، هل كان يتاجر بطريقة غير قانونية هناك في لندن، لا عجب إذا فعل ذلك، بالنظر إلى سلوك رجل كأبيه. كيف يمكن أن يأتي مال كهذا من العمل في مسرح؟ إنه غير ممكن.

سمعت آغنس هذا كلَّه. البيت الجديد بَرْطَمان مربَّى يجذب الذباب إليه. ستعيش فيه لكنه لن يكون لها أبدًا.

لكن، خارج بابه الخلفي، يمكنها التنفس. تزرع أشجار تفاح في صف بمحاذاة الجدار القرميدي العالي. أربع أشجار كمثرى على جانبي المسار الرئيس، وخوخ، وبَلَسان، وبتولا، وكشمش، وراوند أحمر السيقان. تأخذ فسيلة من النِّسرين البري الذي ينمو على ضفة النهر وتغرسها بحذاء الحائط الدافئ لمخزن الشعير. تزرع شجيرة روان بالقرب من الباب الخلفي. تملأ التربة ببابونج وآذَرْيون، وزُوفا ومَرْيَمِيَّة، وحِمْحِم وحشيشةِ ملاك مع أفْسِنتين وأقحوان. تثبِّت سبعة قُفْر في أبعد طرف في الحديقة، وفي أيام تمُّوز الدافئة يمكن من البيت سماع طنين النحل المضطرب.

تحوِّل مخزن الجعة القديم غرفةً تجفِّف فيها نباتها وتخلطه، حيث يأتي الناس عبر البوابة الجانبية طلبًا للعلاج. تأمر ببناء مخزن جعة أكبر مساحة، الأكبر في البلدة، في ناحية البيت الخلفية. تنظِّف البئر القديمة في الفناء. تصنع حديقة من أعشاب ملتفَّة تطوِّقها أسوجة صندوقية الشكل فتبدو مثل شبكة متداخلة الأجزاء، يملأ الخزامى فجواتها.

يأتي الأب إلى البيت الجديد مرتين في العام، أحيانًا ثلاث مرات. يقيم شهرًا في السنة الثانية منذ أن سكنوا البيت. يقول لهم إنَّ هناك أعمال شغب في المدينة بسبب الغذاء، وإنَّ المتدرِّبين على المِهَن اتجهوا إلى ساوثورك ونهبوا المتاجر. إنه أيضًا موسم الطاعون مرة أخرى في لندن والمسارح مغلقة. هذا لا يقال بصوت عالٍ أبدًا.

تلاحظ جودث غياب هذه الكلمة في أثناء زياراته. تلاحظ أن أباها يحب البيت الجديد. يجول فيه بخطوات بطيئة متلكِّئة، وهو يمدُّ بصره إلى المداخن والعَتَبات العلوية، ويغلق الأبواب ويفتحها. لو كان كلبًا لاهتز ذيله دومًا. يُرى خارجًا في الفناء في الصباح الباكر، حيث يحلو له سحب أول دلو ماء من البئر والشرب منه. يقول إنَّ الماء هنا أعذب وأطيب ما تذوَّق أبدًا.

ترى جودث أيضًا أن أمَّها في الأيام القليلة الأولى لا تنظر إليه. تتنحَّى عنه إذا ما دنا، تغادر الغرفة إذا ما دخل.

لكنه يتبعها عندما لا يكون في غرفته يعمل. إلى مخزن الجعة، حول الحديقة. يدُسُّ إصبعه في رُدنها. يأتي ليقف إلى جوارها في الكوخ وهي تعمل، خافضًا رأسه لينظر إليها تحت قلنسوتها. تجثو جودث على مسار البابونج بحجة إزالة الأعشاب الضارة، فتراه يقطف تفاحًا في سلَّة ويعطيه أمَّها مبتسمًا. تأخذه آغنس دون كلمة وتضعه جانبًا.

لكن بعد بضعة أيام يذوب شيء من الجليد. تسمح أمها بأن تحطَّ يده على كتفها وهو يمر بمقعدها. تمازحه في الحديقة مجيبةً عن أسئلته المستمرة عن هذه الزهرة وتلك، وفي ما تُستخدم؟ تصغي إليه وهو يقرأ كتابا عتيقًا بين يديه مقارنًا أسماء نباتها بالأسماء اللاتينية. تُعِدُّ له إكسير مَرْيَميَّة، وشايًا بأعشاب الأنْجُذان والرَّتَم تحملها صاعدة السلالم إلى الغرفة حيث ينحني على منضدته وتغلق الباب وراءها. تمسك بذراعه عندما يسيران معًا في الشارع. تسمع جودث ضحكًا وحديثًا يصلان من الكوخ.

يبدو الأمر كأنَّ أمَّها بحاجة إلى أن ينفض عنه لندن وكلَّ ما يفعله هناك قبل أن تقبله مرة أخرى.

لا تبقى الحدائق ساكنة: إنها في تحوُّل دائم. تمدُّ أشجار التفاح أطرافها حتى تصير تيجانها أعلى من الجدار. تثمر أشجار الكمثرى في السنة الأولى، لكنها لا تثمر في السنة الثانية، ثم تثمر مرة أخرى في السنة الثالثة. تتفتَّح بتائل الآذريون المشرقة، بلا كلل، كلَّ عام، ويغادر النحل قُفْرَه ليحلِّق فوق بساط الزهور، غائصًا في بتائلها وخارجًا منها. تصبح شجيرات الخزامى في حديقة الأعشاب طويلة السيقان ودَغِلة، لكنَّ آغنس لا تقتلعها، بل تقلِّمها، مبقيةً على السيقان، فيفوح العطر من يديها.

قطط جودث تلد صغارًا، وفي الوقت المناسب تلد هذه القطط الصغيرة أيضًا. تحاول الطاهية الإمساك بها لإغراقها، لكن جودث لا تسمح بذلك. بعضها يؤخذ إلى هيولَندز، وبعضها الآخر إلى شارع هنلي، وتعيش أخرى في أنحاء البلدة، ولكن على الرغم من ذلك، تعجُّ الحديقة بقطط مختلفة الأحجام والأعمار، كلها بأذيال طويلة نحيلة، وأطواق بيضاء وعيون خضراء كأوراق النبات، كلها رشيقة ونشيطة وقوية.

لا فئران في البيت. حتى الطاهية تُقِرّ بأنَّ ثمَّة مزايا للعيش مع سلالة من القطط.

تصبح سوزانا أطول قامة من أمِّها. تتولى مسؤولية مفاتيح البيت، تعلِّقها بإبزيم حزامها على وَسَطها. تحتفظ بدفتر الحساب، تدفع للخدم، تشرف على ما يدخل تجارة أمها في العلاج وتجارة تخمير الجعة المزدهرة وتجارة الشعير وما يخرج منها. وعندما يخفق الناس في سداد المال، ترسل أحد أعمامها إلى أبواب منازلهم. تراسل أباها بشأن الدخل والاستثمار والمستحق من إيجار أملاكه مما

لم يدفعه المستأجرون ومن المتأخِّر سداده. تنصحه بمقدار المال الذي يرسله والمال الذي يبقيه في لندن، تُعْلِمه إذا ما سمعت عن حقل أو بيت أو قطعة أرض معروضة للبيع. تأخذ على عاتقها، بناءً على طلب أبيها، ابتياع أثاث للبيت الجديد: مقاعد، حشايا، صناديق، بُسُط حائط، سرير جديد. لكن أمَّها ترفض التخلِّي عن سريرها قائلة إنه سرير زواجها وإنها لن تتخذ سريرًا آخر، ولذلك يوضع السرير الجديد الكبير في غرفة الضيوف.

تظل جودث قريبة من أمِّها، تبقى في مدارها، كأن القرب منها يضمن شيئًا ما. لا تعرف سوزانا ما هو. الأمان؟ الخلاص؟ المبتغى؟

تزيل جودث أعشابَ الحديقةِ الضارَّةَ، تقضي الحاجات، ترتِّب منضدة عمل أمِّها. إذا طلبت منها أمُّها أن تخفَّ إلى جلب ثلاث أوراق غار أو حفنة من عشبة المَرْدقوش، ستعرف جودث مكانها تمامًا. جميع أنواع النبات متشابه لسوزانا. تنفق جودث ساعات مع قططها، تزيِّنها، تحادثها بلسان يناشد مدندنًا وعالي النبرة. لديها في كل ربيع قطط صغيرة تبيعها، تقول للناس إنها قنَّاصة فئران ماهرة. تعتقد سوزانا أنَّ وجه جودث هو أحد تلك الوجوه التي يصدِّقها الناس: تانك العينان الواسعتان، ذاك التبسُّم الحلو الرشيق، تلك النظرة اليقظة من براءتها.

هذا النشاط كلُّه في الحديقة يثير سخط سوزانا، فتبقى في الأغلب في البيت. النبات الذي يقتضي عملًا لا نهائيًّا من إزالة الأعشاب الضارة، والاعتناء والسَّقي، النحل اللعين الذي يطنُّ ويلسع ويئزُّ في وجهك، الزائرون الذين يصلون ويغادرون طوال اليوم عبر البوابة الجانبية: يدفعها إلى الارتباك.

تبذل جهدًا، مرةً في اليوم، لتعلِّم جودث الحروف. وعدت أباها بأن تفعل هذا. بروح المسؤولية تدعو أختها لتأتي من ناحية البيت الخلفية وتجلسها في الرَّدهة وأمامها لوح قديم. إنه عمل ناكر للجميل. تتململ جودث في

مقعدها، تحملق من النافذة، ترفض استخدام يدها اليمنى قائلة إنَّ ذلك يبدو خاطئًا، تنشل خيطًا مرتخيًا في حاشية ثوبها، لا تصغي إلى ما تقوله سوزانا، وعندما تصغي يشتِّت انتباهَها في الأثناء هتافُ رجل يبيع كعكًا في الشارع. ترفض جودث استيعاب الحروف، وفهم اندماج بعضها في بعضها الآخر لتشكيل معنى، تتساءل عمَّا إذا كان هنالك أثر شيءٍ كتبه هامنت على هذا اللوح، ومن يوم لآخر لا تستطيع تذكُّر أيهما حرف a وأيهما حرف c، وكيف تفرِّق بين d و b، لأنها تبدو متشابهة جدًّا لها، وكم هو مضجر الأمر كله، كم هو مستحيل! ترسم عيونًا وأفواهًا في جميع فجوات الحروف، تحوِّلها مخلوقات مختلفة، بعضها حزين، بعضها سعيد، وبعضها الآخر جذَّاب. تنفق جودث عامًا لتكتب اسمها على نحوٍ يمكن الوثوق به: حرف أولي متمايل، لكنه مقلوب رأسًا على عقب وملتو مثل ذيل خنزير. وفي نهاية المطاف، تستسلم سوزانا.

عندما تشكو إلى أمها أنَّ جودث لا تتعلَّم الكتابة، لا تساعد على تدقيق الحسابات، لا تتحمل شيئًا من مسؤولية إدارة البيت، تبتسم آغنس قليلًا قائلةً إنَّ مهارات جودث مختلفة عن مهارات سوزانا، لكنها تبقى مهارة فحسب.

عجبًا! تفكر سوزانا متقهقرةً إلى البيت خابطةً الأرض بقدميها، ألا يرى أحد صعوبة حياتها؟ أبوها بعيد وليس هنا أبدًا، شقيقها ميِّت، عليها أن تشرف على البيت كلِّه، وأن تراقب الخدم. ويجب أن تأخذ هذا كلَّه على عاتقها وهي تعيش مع امرأتين... تتردَّد سوزانا في ذكر كلمتي «نصف معتوهتين». أمها ليست نصف معتوهة، إنها فقط ليست كالآخرين. عتيقة الطراز. ريفية. لها طرقها الخاصة. تعيش في هذا المكان كأنه البيت الذي ولدت فيه، كأنه بيت وحيد محاط بالخراف، وما زالت تسلك مسلك ابنة مزارع، تجوب الأزقة

والحقول، تجمع الأعشاب في سلَّة، ثيابها رطبة ومتسخة، خداها محمرَّان قد لوَّحتهما الشمس.

لا أحد يهتم لأمرها، تفكر سوزانا وهي تصعد السلالم إلى غرفتها. لا أحد يرى أبدًا بلواها ومحنتها. أمُّها في الحديقة غارقة حتى مرفقيها في طبقة من أوراق النبات، أبوها في لندن يعرض مسرحيات يقول عنها الناس إنها بالغة البذاءة، وشقيقتها في مكان ما في البيت تغني أغنية مشوَّشة من تأليفها بصوتها اللاهث الشبيه بصوت مزمار. من سيأتي لمغازلتها ولها عائلة كهذه؟ ترسل سؤالها في الهواء وهي تفتح الباب على مصراعيه وتتركه يصفق وراءها. أنَّى لها أن تهرب من هذا البيت؟ من يريد أن تكون له علاقة بأي منهم؟

تراقب آغنس ثوب الطفولة إذ ينحسر عن ابنتها الصغرى كمعطف ينحسر عن كتف. إنها أطول قامة، ممشوقة القوام كغصن صفصاف، جسدها يملأ ثوبها. تفقد الرغبة في الوثب، في التحرُّك بسرعة، ببراعة، في العدو برشاقة في غرفة أو فناء، تكتسب الخطوة الثقيلة لامرأة بلغت مبلغ النساء. تصبح ملامحها أدق، فترتفع عظمتا الوجنتين، ويستدقُّ الأنف، ويتحوَّل الفمُ إلى الفم الذي ينبغي أن يكون.

تنظر آغنس إلى هذا الوجه، تنظر وتنظر. تحاول أن ترى جودث لما هي عليه، لما ستكون عليه، لكن ثمة لحظات عندما تسأل نفسها: هل هذا هو الوجه الذي كان يمكن أن يكون وجهه؟ كيف سيبدو هذا الوجه مختلفًا إذا كان وجه صبي، كيف سيبدو بلحية، بفكٍّ ذَكَر، على فتى قوي البنية؟

الوقت ليل في البلدة. صمتٌ عميقٌ مظلم يخيِّم على الشوارع، لا يقطعه إلا صياح بومة أجوف مناديةً شريكها. نسيمٌ يهبُّ على الطرقات بخفاء، بإصرار، كلصٍّ يبحث عن مدخل. يعبث بقمم الأشجار، يطوِّحها في هذا الاتجاه وذاك. يرتعش داخل جرس الكنيسة، فيهتز النحاس مرسلًا رنينًا بطيئًا منفردًا. ينفش ريشَ البومة الوحيدة الجاثمة على سطح قرب الكنيسة. يهزُّ نافذة بابيَّة مرتخية على بعد بضعة أبواب فيتقلَّب الناس في الداخل على أسرَّتهم، تقضُّ مضاجعهم صورُ عظام ترتجف، خطى تقترب، حوافر تطقطق.

يندفع ثعلب من وراء عربة يد فارغة سائرًا بانحراف على الشارع المظلم المهجور. يتوقَّف لحظةً، يرفع إحدى قدميه عن الأرض كأنه يسمع شيئًا خارج مبنى البلدية، قرب المدرسة حيث تعلَّم هامنت، وأبوه قبله. ثم يهرول قبل أن ينحرف يسارًا ويختفي في فجوة بين بيتين.

كانت الأرض هنا ذات يوم مستنقعًا رطبًا، مشبَّعًا بالماء، نصفه نهر ونصفه الآخر يابسة. لبناء بيوت، كان على الناس في البداية نَزْح الأرض، ثم وضع مهاد من الأَسَل والأغصان لرفع الأبنية، مثل سفن على البحر. في الطقس الرطب، البيوت تتذكَّر. تَصِرُّ صريرًا هابطةً إلى الأسفل، يسحبها نداءٌ قديم، فيتصدَّع خشب السنديان، وتتشقَّق واجهات المداخن، وتنفكُّ مداخل الأبواب وتنخلع. لا شيء يختفي.

البلدة هادئة، محبوسة الأنفاس. في غضون ساعة أو نحو ذلك، سيبدأ الظلام في الانقشاع، سيبزغ الضوء وسيستيقظ الناس في أسرَّتهم، مستعدين

-أو غير مستعدين- لمواجهة يوم آخر. أمَّا الآن، فأهالي البلدة نيام.

إلَّا جودث. إنها مقبلة على الطريق، يلفُّها معطف، القلنسوة تغطي رأسها. تمرُّ بالمدرسة حيث كان الثعلب قبل لحظة، لا تراه، لكنه يراها من مخبئه في الزقاق. يراقبها بحدقتين واسعتين، وقد أفزعته هذه المخلوقة غير المتوقَّعة التي تشاركه عالمه الليلي، متبيِّنًا معطفها، قدميها السريعتي الخطى، العجلة في مشيتها.

تعبر ساحة السوق بسرعة، حريصة على البقاء على مقربة من الأبنية، وتنعطف إلى شارع هنلي.

جاءت امرأة لزيارة أمِّها في الخريف باحثةً عن شيء لبراجمها المتورِّمة ومعصميها المتوجِّعين. قالت لجودث عندما فتحت لها البوابة الجانبية إنها القابلة. بدا أنَّ أمَّها تعرف المرأة، نظرت إليها نظرة طويلة، ثم ابتسمت. أمسكت بيدي المرأة بين يديها وقلَّبتهما برفق. كانت براجمها متورِّمة، أرجوانية اللون، مشوَّهة. لفَّتها آغنس بأوراق السَّنفيتون وربطتها بخرقة، ثم غادرت الغرفة قائلة إنها ستجلب بعض المرهم.

وضعت المرأة يديها المضمَّدتين في حِجْرِها. حدَّقت إليهما لحظة، ثم تحدَّثت، دون أن ترفع نظرها.

«أحيانًا»، قالت ليديها على ما يبدو، «عليَّ أن أسير في البلدة في وقت متأخر من الليل. الأطفال يأتون حين يأتون، كما تعلمين.»

أومأت جودث برأسها بتهذيب.

ابتسمت لها المرأة. «أتذكَّر عندما أتيت. الجميع حسب أنك لن تبقي على قيد الحياة. ولكن ها أنت ذي.»

غمغمت جودث: «ها أنا ذي.»

تابعت المرأة: «في كثير من الأحيان، آتي إلى شارع هنلي، وأمرُّ بالبيت الذي ولدتِ فيه، وأرى شيئًا.»

حدَّقت إليها جودث لحظةً. أرادت سؤالها عمَّا يكون، لكنها ارتاعت من الإجابة أيضًا. قالت فجأةً: «ما الذي ترينه؟»

«شيئًا ما أو ربما ينبغي أن أقول شخصًا ما.»

«مَن؟» سألت جودث، لكنها عرفت، عرفت.

«يعدو، هو.»

«يعدو؟»

أومأت القابلة العجوز برأسها. «من باب البيت الكبير إلى باب ذلك البيت الصغير الضيِّق العزيز. شديد الوضوح. شخص يعدو كالريح، كأن الشيطان نفسه يتعقَّبه.»

شعرت جودث بنبض قلبها يتسارع، كأنها هي مَن حُكِم عليه بالعدو إلى الأبد في شارع هنلي، وليس هو.

«دائمًا في الليل»، قالت المرأة مُمَرِّرةً إحدى يديها فوق الأخرى. «ليس في أثناء النهار أبدًا.»

وهكذا، تأتي جودث كلَّ ليلة منذ ذلك الحين، تتسلَّل من البيت في جُنْح الظلام، لتقف هنا منتظرةً، مراقبةً. لم تقل شيئًا عن هذا لأمِّها ولا لسوزانا. القابلة اختارتها هي لتخبرها بالأمر، هي فقط. إنه سرُّها، وشيجتها، توأمها. ثمَّة أصباح تشعر فيها بأن أمَّها تنظر إليها ملاحظةً وجهها المتعب، المُضنَى، وتتعجَّب مما إذا كانت تعرف. لن يفاجئها هذا. لكنها لا تريد أن تحدِّث بالأمر أحدًا آخر، إذا لم يكن ذلك حقيقيًّا، إذا لم تستطع العثور عليه، إذا لم يظهر لها.

في البيت الضيق، في تلك الأيام، في الغرفة التي مات فيها هامنت مرتجفًا متشنِّجًا، وسُمُّ الحمى يشقُّ مساره خلاله، ثمَّة رؤوس عديدة بقبعات، كلُّها مواجهةٌ الباب، حشد من المتفرِّجين الصامتين، الخُرْق، العديمي الملامح. تراقب جودث هذا الباب، تحدِّق إليه وتحدِّق.

أرجوك، هذا ما تفكِّر فيه. أرجوك تعال. مرة واحدة فقط. لا تتركني هنا هكذا، وحيدة، أرجوك. أعلم أنك أخذت مكاني، لكنني لست إلا نصف إنسان من دونك. دعني أراك، ولو لمَرَّةٍ أخيرة فقط.

لا يسعها أن تتخيَّل كيف سيكون الأمر، أن تراه مرة أخرى. سيكون طفلًا وقد كبرت هي، أصبحت امرأة تقريبًا. ماذا سيعتقد؟ هل سيعرفها الآن إذا ما مرَّ بها في الشارع، هذا الصبي الذي سيبقى صبيًّا إلى الأبد؟

على بعد عدَّة شوارع، تترك البومة مجثمها، منقادةً إلى تيَّار بارد، جناحاها يقاومان الهواء بصمت، عيناها يقظتان. بالنسبة إليها، تبدو البلدة مثل سلسلة من السطوح، بينها أخاديد من الشوارع، مكان يمكن التنقُّل فيه. بينما تطير، تظهر أوراق الأشجار المحتشدة، وخيوط الدخان الشاردة من نيران خامدة. ترى تقدُّم الثعلب الذي يعبر الشارع الآن، ترى قارضًا، لعله جرذ، يعبر فناء ويختفي في حفرة، ترى رجلًا نائمًا على عتبة باب حانة، يحكُّ ساقه من أثر لسعة برغوث، ترى أرانب في قفص في الناحية الخلفية لمنزل أحدهم، خيولًا واقفة في حقل قرب النزُّل، وترى جودث وهي تخطو إلى الشارع.

لا تحس جودث بالبومة وهي تجوب السماء فوقها. تجذب الهواء إلى صدرها بشهيق أجش واهن. ترى شيئًا. وميضًا، أثرًا، حركة غير محسوسة، لكن هذا الشيء كان هناك على نحو لا لبس فيه. كان أشبه بعبور نسيم على حنطة، بلمح انعكاسٍ على لوح زجاجي عندما يسحب المرء النافذة نحوه، بشعاع الضوء المباغت ذاك إذ يشق الغرفة.

تعبر جودث الطريق، تسقط قلنسوتها من رأسها. تقف خارج بيتها السالف، تخطو من بابه إلى باب بيت جدَّيها. الهواء نفسه يبدو ثقيلًا وكثيفًا كما هو الحال قبل عاصفة رعدية. تغمض عينيها. يمكنها أن تشعر به. إنها متيقِّنة تمامًا من هذا. ينكمش جلد ذراعيها وعنقها وهي في حاجة ماسَّة إلى أن تمدَّ يدها، إلى أن تلمسه، إلى أن تضع يده في يدها، لكنها لا تجرؤ. تصغي إلى هدير نبضها، إلى نَفَسها الأجش، وتعرف، تسمع، تحت أنفاسها، أنفاسَ شخص آخر. تعرف. تعرف حقًّا.

ترتجف الآن، رأسها منكَّس، عيناها مغمضتان بقوة. الفكرة التي تتشكَّل في رأسها هي: أفتقدك، أفتقدك، سأضحِّي بأي شيء في سبيل استعادتك، بأي شيء.

ثم ينقضي الأمر، اللحظة تعبر. ينخفض الضغط كستارة. تفتح عينيها، تضع يدها على جدار البيت لتعين نفسها. رحل، مرة أخرى.

في وقت مبكِّر من اليوم تفتح ماري الباب الأمامي لتُخْرِج الكلاب إلى الشارع، فتجد شخصًا أمام البيت، مرتميًا وجاثيًا، رأسه على ركبتيه. لحظةً، تحسب أنه سكِّير انهار هناك في أثناء الليل. ثم تتبيَّن حذاء حفيدتها جودث وحاشية ثوبها.

تلغط وتنقر بلسانها، تأخذ الطفلة شبه المتجمِّدة إلى الداخل، صائحةً بأن تُجْلَب أغطية وحساء ساخن، حُبًّا في الرَّبّ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

آغنس في الخارج في ناحية البيت الخلفية، تنحني على أحواض نباتها عندما تظهر الخادمة قائلة إنَّ زوجة أبيها، جوان، جاءت للزيارة.

إنه يوم هائج وعاصف، الريح تعصف في الحديقة شاقَّةً طريقها فوق الجدران العالية، صابَّةً عليهم جميعًا جام غضبها، مُرْسِلَةً وابلًا من المطر والبَرَد، كأنها ساخطة عليهم بسبب عملٍ ارتكبوه. كانت آغنس هناك منذ الفجر، تربط النبات الضعيف إلى العصي، لتحميها من الهجوم الضاري.

تتوقَّف ممسكةً بالسكين والحبال، وتحملق إلى الفتاة. «ماذا قلتِ؟»

«السيدة جوان»، تقول الفتاة مرة أخرى، بوجه عابس، وهي تمسك بقلنسوتها التي يبدو أن الريح مُصِرَّةٌ على انتزاعها من رأسها، «تنتظر في الرَّدهة.»

تعدو سوزانا على الدرب، رأسها منحنٍ، مهرولةً نحوهما. تصيح قائلةً شيئًا لأمِّها، لكن الكلمات تضيع، تتلاشى بعيدًا، عاليًا في السماء. تشير إلى البيت، في البداية بإحدى يديها، ثم بالأخرى.

تتنهَّد آغنس، تفكِّر في الموقف لحظة أطول، ثم تدُسُّ السكين في جيبها. سيكون شيئًا يتعلَّق ببارثولوميو، أو أحد الأبناء، أو المزرعة، أو إصلاح البيت، وتريدها جوان أن تتدخَّل وعلى آغنس أن تكون حازمة. لا تحب التورُّط في الأشياء التي تقع في هيولَندز. أليس عليها الإشراف على بيتها وعائلتها؟

في اللحظة التي تدخل فيها آغنس البيت، تشرع سوزانا في نزع بقايا الأعشاب من قلنسوة أمِّها، ومئزرها، وخُصَل شعرها المتسلِّلة من مكانها.

تبعدها آغنس. تتبعها سوزانا في الرُّواق وعبر البيت هامسةً لها بأنه لا يمكنها استقبال الزائرين بهيئتها هذه، وأنها يجدر بها الذهاب وتسوية مظهرها، وتعدها بالاعتناء بأمر جوان.

تتجاهلها آغنس. تعبر البيت بخطى سريعة ثابتة وتدفع الباب.

يقابلها منظر زوجة أبيها وهي جالسة باستقامة شديدة على مقعد زوج آغنس. مواجِهَةً جوان تجلس جودث على الأرض. قطتان في حِجْرِها وثلاث أخريات تحيط بها، تتمسَّح بتَرَف بجانبيها وظهرها ويديها. تتحدَّث جودث بفصاحة غير معهودة عن القطط المختلفة وأسمائها، عن ما تفضِّله من طعام، والمكان الذي تختار أن تنام فيه.

تعرف آغنس أنَّ جوان تكره القطط خصوصًا -طالما قالت إنها تسبِّب لها ضيقًا في التنفُّس وتدفعها إلى حكِّ جسدها- فتكظم تبسُّمها وهي تدخل الغرفة.

تقول جودث: «... والأدهش، أنَّ هذا القط شقيق ذاك، وهو شيء لن يخطر ببالكِ إذا ما رأيتهما من مسافة، ولكنك سترين من كثب أنَّ لعيونهما اللون نفسه تمامًا. تمامًا. أترين؟»

«ممم»، تقول جوان ضاغطةً فمها بيدها وهي تقف لتحيِّي آغنس.

تلتقي المرأتان في منتصف الغرفة. تمسك جوان ذراع ربيبتها بقبضة حازمة وسريعة. ترفُّ عيناها وهي تطبع قُبْلَة على خدِّها، وآغنس تقاوم الرغبة في إبعاد نفسها. تسأل إحداهما الأخرى إن كانت هي وعائلتها على ما يرام؟

«أخشى أنني»، تقول جوان وهي تعود إلى مقعدها، «قاطعتك وأنت تنجزين... عملًا ما أو آخر؟» تنظر بحدَّة إلى مئزر آغنس الموحل، وحاشية ثوبها المكسوَّة بالتراب.

«كلّا أبدًا»، تجيب آغنس متّخذةً مقعدها وتضع يدها على كتف جودث وهي تعبر. «كنت أعمل في الحديقة محاوِلةً إنقاذ بعض النبات. ما الذي يأتي بك إلى البلدة في طقس مخيف كهذا؟»

لحظةً تبدو جوان وقد فاجئها السؤال، كأنها لم تكن مستعدة لأن تُسأَل. تمسِّد أثناء ثوبها، تطبق شفتيها. «زيارة لـ... صديقة. صديقة مريضة.»

«أوه؟ يؤسفني سماع هذا. ما الخطب؟»

تلوِّح جوان بيدها. «إنه شيء تافه فحسب... برد في الصدر فقط. لا شيء يدعو إلى...»

«يسعدني أن أعطي صديقتك محلول الصنوبر والبَلَسَان. لدي بعض منه حديث الصنع. جيد جدًّا للرئتين، ولا سيّما في الشتاء و...»

«لا داعيَ لهذا»، تقول جوان على عجل. «أشكرك ولكن لا داعيَ لهذا.» تتنحنح ناظرةً حوالي الغرفة. ترى آغنس عينيها تحطّان على السقف، على رفِّ المدفأة، على ملاقط النار، على بُسُط الجدران الملونة التي يظهر عليها رسم غابات، أوراق نبات، أغصان كثيفة، يتخلَّلها غزال يثب: هدية من زوجها طلب صنعها في لندن. ثراء آغنس الحديث العهد والمفاجئ يزعج جوان. ثمَّة شيء لا يطاق بالنسبة إليها في رؤية ربيبتها تعيش في منزل فاخر كهذا.

كأنها تتبع قطار أفكارها، تقول جوان: «وكيف حال زوجك؟»

تنظر آغنس لحظة إلى زوجة أبيها قبل أن تجيب: «أحسب أنه على ما يرام.»

«أما زال المسرح يبقيه في لندن؟»

تشبك آغنس يديها في حِجْرِها وتبتسم لجوان قبل أن تومئ برأسها.

«يكتب إليك كثيرًا، على ما أظن؟»

تشعر آغنس بتبدُّل طفيف داخلها، إحساس دقيق، كأن حيوانًا صغيرًا جزِعًا يدور حول نفسه.

تقول: «بطبيعة الحال.»

لكنَّ جودث وسوزانا تفضحانها. تلتفتان لتنظرا إليها، نظرة سريعة، سريعة جدًّا، كأنهما كلبان ينتظران إشارة من سيِّدهما.

بلا شك لم يفُت جوان هذا. ترى آغنس زوجةَ أبيها تلعق شفتيها، كأنها تتذوَّق شيئًا لذيذًا، شيئًا حلوًا فيهما. تفكِّر مرة أخرى في ما قالته لبارثولوميو منذ سنوات خلت في ساحة السوق: إنَّ جوان تحب الرفقة في استيائها الدائم. بأي شيء تتمنَّى جوان إذلالها الآن؟ أيَّة معلومات بحوزتها الآن ستستغلها كسيف لتَشُقَّ هذا البيت، هذه الغرفة، هذا المكان الذي تقطنه هي وابنتاها محاولاتٍ العيش في أفضل حال ممكن في ظل غيابٍ كبير مشتِّت للانتباه كهذا؟ ما الذي تعرفه جوان؟

الحقيقة أنَّ زوج آغنس لم يكتب منذ أشهر عدَّة سوى رسالتين، إحداهما قصيرة تؤكِّد لهن بأنه بخير، والأخرى موجَّهة إلى سوزانا طالبًا منها تأمين ابتياع حقل آخر. قالت آغنس لنفسها وللفتاتين إنه ما من خطبٍ هنالك، إنه مشغول، إن الرسائل في بعض الأحيان تضل الطريق، إنه يعمل باجتهاد، إنه سيعود إلى البيت قريبًا، لكنَّ الفكرة ما زالت تقلقها. أين هو، وما الذي يفعله، ولِمَ لم يكتب؟

تشبك آغنس أصابعها وتدسُّها في أثناء مئزرها. «كاتَبَنا قبل أسبوع أو نحو ذلك. كتب إلينا إنه مشغول جدًّا، إنهم يعدون مسرحية هزلية جديدة و...»

تقاطعها جوان: «مسرحيته الجديدة ليست هزلية قطعًا، لكنني أتوقَّع أنك

تعلمين ذلك.»

تصمت آغنس. الحيوان داخلها يتلوَّى مضطربًا، ويشرع في خدش أحشائها بمخالبه الإبريَّة.

«إنها مسرحية مأسوية»، تستأنف جوان حديثها، وتفترُّ عن أسنانها مبتسمة. «وأنا على يقين من أنه أخبرك باسمها. في رسائله. لأنه حتمًا لن يطلق عليها اسمًا قبل أن يخبرك، هل سيفعل دون إجازة منك؟ أنا متيقنة من أنك رأيت إعلان المسرحية. لعلَّه أرسل إليك واحدًا. الجميع في البلدة يتحدَّث عنه. ابن عمي الذي عاد من لندن بالأمس أحضره. أنا على يقين من أن لديك واحدًا، لكنني جلبته معي على أية حال لأجلك.»

تقف جوان وتسير في الغرفة، بأقصى سرعة. تُسقط ورقة متغضِّنة على حجر آغنس.

تنظر آغنس إلى الورقة ثم تأخذها بإصبعين وتسوِّيها على مئزرها الملطَّخ بالوحل. لحظةً، لا تدرك إلى أي شيء تنظر. إنها صفحة مطبوعة. ثمَّة حروف كثيرة، كثيرة جدًّا، في صفوف، جُمِعَت في كلمات. ثمَّة اسم زوجها في الأعلى، وكلمتا «مسرحية مأسوية». وهناك، في المنتصف تمامًا، بحروف كبيرة، اسم ابنها، فتاها، الاسم الذي نُطِق به بصوت عال في الكنيسة عندما عُمِّد، الاسم الذي على شاهدة قبره، الاسم الذي أسمته به بنفسها بعد مولد التوأمين بوقت قصير، قبل عودة زوجها ليحمل الرضيعين على حجره.

لا تستطيع آغنس فهم ما يعنيه هذا، ما يحدث. كيف يكون اسم ابنها على إعلان مسرحية في لندن؟ ثمَّة خطأ ما غامض، غريب. مات. هذا الاسم اسم ابنها، وقد مات قبل أربع سنوات خلت. كان طفلًا وكان سيصبح رجلًا، لكنه مات. هو نفسه، ليس مسرحية، ليس قطعة ورق، ليس شيئًا

يمكن التحدُّث عنه أو تمثيله أو عرضه. مات. زوجها يعرف هذا، جوان تعرف هذا. لا تستطيع أن تفهم.

تحسُّ بجودث وهي تميل على كتفها قائلة: ماذا، ما هذا؟ وقطعًا لا تستطيع قراءة الحروف، لا تستطيع ربط بعضها ببعضها الآخر لتفهمها -غريب أنها لا تستطيع تبيُّن اسم توأمها- وتحسُّ بسوزانا وهي تمسك بطرف ورقة الإعلان محاولةً تثبيتها، في حين ترتعش أصابع آغنس، كأن الورقة تهزُّها الريح الآتية من الخارج وقتًا كافيًا فقط لتقرأها سوزانا. تحاول سوزانا انتزاعها من قبضة آغنس، لكن آغنس لا تفلتها، محال أن تفلتها، ليس تلك الورقة، ليس ذلك الاسم. جوان تنظر إليها، فاغرة الفم، وقد أدهشها المنعطف الذي اتخذته زيارتها. من الجليِّ أنها قلَّلت من شأن تأثير إعلان المسرحية، لم تفكِّر في أنها قد تسبِّب ردَّ فعل كهذا. ابنتا آغنس تقودان جوان إلى خارج الغرفة قائلتين إن أمَّهما ليست على طبيعتها، وإن على جوان أن تعود في وقت آخر، وعلى الرغم من إعلان المسرحية، على الرغم من الاسم، على الرغم من كل شيء، تستطيع آغنس أن تتبيَّن الاهتمام الزائف في صوت جوان وهي تودِّعهن جميعًا.

إنها أول مرَّة في حياة آغنس تلزم خلالها الفراش. تذهب إلى غرفتها، وتستلقي ولا تنهض لتناول الوجبات، ولا لاستقبال الزائرين والمرضى الذين يطرقون الباب الجانبي. لا تغيِّر ثيابها، بل ترقد هناك فوق الأغطية. يتدفَّق الضوء عبر النوافذ الشبكية، مندفعًا من شقوق ستائر السرير. تبقي ورقة إعلان المسرحية مطويَّة بين يديها.

تصلها أصوات الشارع في الخارج، ضجيج البيت، ووقع أقدام الخادمات

ذهابًا وإيابًا في الرواق، أصوات بنتَيها المهموسة. تبدو كأنها تحت الماء وجميعهم فوقه هناك، في الهواء، ينظرون إليها.

في الليل تنهض من فراشها وتخرج. تجلس بين أطراف قُفْرِها المنسوجة الخشنة. الجلبة الطَّنَّانة المُصْطَفِقَة في الداخل التي تبدأ بعد الفجر مباشرة، تبدو لها أبلغ لغةٍ وُجِدَت وأفصحها وأكملها.

مستشيطةً غضبًا، تجلس سوزانا إلى منضدتها وأمامها ورقة فارغة. كيف أمكنك فعل ذلك؟ تكتب إلى أبيها. لماذا، كيف أمكنك ألَّا تخبرنا؟

تحمل جودث أطباق حساء إلى سرير أمِّها، باقةَ خزامى، وردةً في إناء، سلَّةَ جوز طازج غير مقشَّر.

***

تأتي زوجة الخبَّاز. تجلب أرغفة خبز، كعكًا بالعسل. تتأثر برؤية مظهر آغنس، شعرها المهمَل، وجهها الأرِق المثقَل بالألم. تجلس على طرف السرير، تسوِّي ثوبها حولها، تمسك يد آغنس بقبضتها الدافئة الجافة وتقول: طالما كان غريب الأطوار، تعلمين هذا. لا تقول آغنس شيئًا، بل تحدِّق إلى بساط سقف سريرها. مزيد من الأشجار، أغصان بعضها مرصَّع بالتفاح.

«ألا تتساءلين عمَّا يمكن أن يكون داخلها؟» تسأل زوجة الخبَّاز قاطعةً كسرة من الخبز لتناولها آغنس.

«داخل ماذا؟» تقول آغنس متجاهلة الخبز، لا تكاد تسمع.

تدفع زوجة الخبَّاز كسرة الخبز بين أسنانها، وتمضغ، وتبلع، تقطع كسرة أخرى قبل أن تجيب: «المسرحية.»

تنظر إليها آغنس، أول مرة.

إلى لندن، إذًا.

لن يرافقها أحد، لا ابنتاها، ولا صديقتها، ولا أخواتها، ولا أصهارها، ولا حتى بارثولوميو.

تؤكِّد ماري بأنه جنون، قائلةً إنَّ آغنس ستُهاجَم في الطريق أو تُقْتَل في فراشها في نُزُل ما على الطريق. تشرع جودث بالبكاء بسبب هذا الأمر، وتحاول سوزانا إسكاتها، لكنها تقلق على أية حال. يهزُّ جون رأسه ويقول لآغنس ألَّا تكون حمقاء. تجلس آغنس إلى مائدة أصهارها، رابطة الجأش، يداها في حِجْرِها، كأنها لا تستطيع سماع هذه الكلمات.

«سأذهب»، هو كل ما تقوله.

أُرسِل في طلب بارثولوميو. يدور وآغنس عدة مرات حول الحديقة. يمرَّان بأشجار التفاح، وأشجار الكمثرى المعترشة، وقُفْر النحل، وأحواض الآذَرْيون، ثم يعودان مرة أخرى. تراقبهما سوزانا وجودث وماري من نافذة غرفة سوزانا.

تندسُّ يد آغنس في ذراع شقيقها المنحنية. مُنكَّسا الرأس. يتوقَّفان لحظةً قرب مخزن الجعة، كأنهما يعاينان شيئًا على المسار، ثم يواصلان سيرهما.

«ستصغي إليه»، تقول ماري، صوتها أشد حزمًا مما تشعر. «لن يسمح لها بالذهاب أبدًا.»

تضع جودث أصابعها على اللوح الزجاجي الرطب. كم يبدو سهلا

طمسهما بإبهام.

عندما يصفق الباب الخلفي، يسرعن إلى الطابق السفلي، لكن ليس هناك إلّا بارثولوميو في الرواق، يعتمر قبعته ويهمُّ بالانصراف.

تقول ماري: «وإذًا؟»

يرفع بارثولوميو وجهه لينظر إليهن على السلالم.

«هل أقنعتها؟»

«أقنعها بماذا؟»

«بألّا تذهب إلى لندن. بأن تكفَّ عن هذا الجنون.»

يسوِّي بارثولوميو مقدمة قبعته. يقول: «سنغادر في الغد، عليَّ تأمين حصانين لنا.»

تقول ماري: «أستمحيك عذرًا؟» وتبدأ جودث بالبكاء مرة أخرى، وتشبك سوزانا يديها قائلة: «لنا؟ هل ستذهب معها؟»

«سأذهب.»

تحيط به النسوة الثلاث، كغيمة تلتف حول القمر، يغرقنه بالاعتراض والأسئلة والتوسُّل، لكنَّ بارثولوميو يتحرَّر منهن، يخطو نحو الباب. يقول: «سأراكنَّ غدًا في الصباح الباكر»، ثم يخطو خارجًا إلى الشارع.

إن لم تكن آغنس فارسةً متحمِّسة فهي فارسة قديرة. تحب الحيوانات بما فيه الكفاية، لكنها لا تجد ركوب صهوة جواد تجربة مريحة تمامًا لها. الأرض

المتسارعة تدوّخها، حركة كائن آخر تحتها وارتفاعه، صرير السرج الجلدي، رائحة المُهْر المغبرة الجافة، كلّ هذا يعني أنها تحصي الساعات التي يجب أن تنفقها على ظهر الحصان قبل أن تبلغ لندن.

يصر بارثولوميو على أن الطريق التي تعبر أكسفورد أأمن وأسرع، قال له هذا رجل يتّجر في لحم الضأن. يمتطيان فرسيهما عابرَين منخفضات تلال تشيلترن ومرتفعاتها الوادعة، ثم متجاوزَين عاصفة ممطرة ووابلًا من البَرَد. في كيدلنغتن يعرج حصانها، فتستبدل به مُهْرًا أشهب بخاصرة نحيلة، وله مسلك طائش في القفز عاليًا إذا ما صادفوا طائرًا. يبيتان الليلة في نُزُل في أكسفورد، لا تكاد آغنس تنام بسبب أصوات الجرذان في الجدران وشخير شخص ما في الغرفة المجاورة.

في منتصف صباح اليوم الثالث من الرحلة، تعاين في البداية الدخان، كقطعة قماش رمادية أُلقِيَت على حفرة. تلك هي المدينة، تقول لبارثولوميو، ويومئ برأسه. وهما يقتربان، يسمعان دوي الأجراس، يشتمّان رائحة المدينة -رائحة خضروات رطبة، حيوان، زيزفون، وأشياء أخرى لم تستطع آغنس تسميتها- ويريان امتدادها الشاسع غير المنتظم، مدينة مبعثرة مقسَّمة، يتعرَّج النهر خلالها وتسحب الغيوم خيوطَ الدخان منه.

يمتطيان الخيل عبر قرية شفردز بُش، التي يدفع اسمُها بارثولوميو إلى الابتسام، وقرب مقالع الحجارة في كينسنغتن ونبع ماريبيرن. عند مشانق تايبرن يميل بارثولوميو فوق سرج حصانه ليسأل عن الطريق إلى أبرشية سانت هِلن في بِشوبز غَيت. يمرُّ بهما عدد من الناس دون أن يردوا على سؤالهما، وشاب يضحك، ويعدو متخطيًا عتبة باب بقدمين حافيتين جريحتين.

في اتجاه هولبورن، حيث الشوارع أضيق وأشد سوادًا، لا تستطيع آغنس

احتمال الضوضاء والرائحة النتنة. في كل مكان توجد متاجر وساحات وحانات ومداخل مزدحمة. يدنو التجار منهما حاملين بضاعتهم؛ بطاطا، كعكًا، تفاحًا برِّيًا قويًّا، وعاء من الكستناء. يتصايح الناس في الشارع، وترى آغنس، بل إنها على يقين أنها ترى رجلًا ينكح امرأة في فجوة ضيقة بين الأبنية. على مسافة أبعد، رجل يبول في حفرة، تلمح آغنس عضوه، متغضِّنًا وشاحبًا، قبل أن تشيح بنظرها. شباب، تحسب أنهم متدرِّبون، يقفون خارج المتاجر، يحثُّون المارَّة على الدخول. أطفال ما زالوا بأسنانهم اللَّبنيَّة يجرُّون عربات يد على الطريق، هاتفين بمحتواها، ومسنُّون رجال ونساء جالسون وقد وضعوا حولهم جزرًا كثير العُقَد، وجوزًا مقشَّرًا، وأرغفة خبز.

رائحة رؤوس الملفوف والجلد المحترق والعجين والقذارة في الشارع تملأ أنفها وهي على ظهر حصانها، وكلتا يديها تمسكان باللجام. يمدُّ بارثولوميو يده ليمسك بالرَّسَن كي لا يفترقان.

تبدأ الأفكار بالتزاحم في رأس آغنس وهي تمتطي جوادها قرب شقيقها: ماذا لو لم نتمكن من العثور عليه، ماذا لو ضعنا، ماذا لو لم نجد مسكنه بحلول الليل، ما نحن فاعلان، أين ينبغي أن نذهب، هل نحجز مكانًا الآن، لماذا أتينا، كان هذا جنونًا، جنوني أنا، كله خطأي أنا.

عندما يصلان إلى ما يحسبان أنه أبرشيته، يسأل بارثولوميو بائعة كعك لتدلَّهما على مسكنه. لديهما العنوان مكتوب على ورقة، لكنَّ بائعة الكعك تبعدها عنها مبتسمةً فتبدو أسنانها المتباعدة، وتخبرهما بأن يذهبا في هذا الاتجاه، ثم في ذاك الاتجاه، ويسيران في طريق مستقيم، ثم ينحرفان إلى منعطف حاد قرب الكنيسة.

تمسك آغنس بلجام حصانها، وهي تجلس مستقيمة على السرج. ستفعل أي شيء لتتمكَّن من التَّرجُّل، لتبلغ رحلتهما منتهاها. يوجعها ظهرها،

قدماها، يداها، كتفاها. إنها عطشى، جائعة، ومع ذلك هي هنا الآن، توشك أن تراه الآن، تريد أن تسحب لجام حصانها، أن تستدير به، وتتجه مباشرة عائدة إلى ستراتفرد. فيمَ كانت تفكِّر؟ كيف لها ولبارثولوميو أن يصلا إلى عتبة بابه فحسب؟ كانت هذه فكرة رهيبة، خطة مروِّعة.

تقول: «بارثولوميو»، لكنه كان قد ترجَّل أمامها، وربط حصانه إلى عمود، وسار إلى باب بيت.

تناديه مرة أخرى، لكنه لا يسمعها لأنه يطرق الباب. تشعر بقلبها يخفق بشدة بين ضلوعها. ماذا ستقول له؟ ماذا سيقول لها؟ لا تستطيع أن تتذكَّر الآن ما أرادت أن تسأله عنه. تتحسَّس مرة أخرى إعلان المسرحية في خُرجها وترفع نظرها إلى المنزل: ثلاثة طوابق أو أربعة، بنوافذ غير متساوية وملطَّخة في بعض الأماكن. الشارع ضيق، والبيوت يميل بعضها على بعضها الآخر. امرأة تستند إلى مدخل بيتها، تحدِّق إليهما بفضول شديد. وبعيدًا في الأسفل، طفلان يلعبان لعبة بحبل طويل.

غريب أن تفكر في أن هؤلاء الناس يرونه كل يوم، وهو يأتي ويذهب، وهو يغادر المنزل في الصباح. هل يبادلهم الكلام؟ هل يأكل في بيوتهم؟

تُفْتَح نافذة فوقهما، ترفع آغنس وبارثولوميو أنظارهما. إنها فتاة في التاسعة أو العاشرة من عمرها، شعرها مفروق بعناية على جانبي وجهها الشاحب، وتحمل رضيعًا على خصرها.

ينطق بارثولوميو باسم زوج آغنس وتهزُّ الفتاة كتفيها، وهي تهزهز الطفل الذي يبكي الآن. تقول: «ادفعا الباب، واصعدا السلالم. إنه في العِلِّيَّة.»

يشير بارثولوميو بهزَّة من رأسه إلى أنها يجب أن تذهب ويبقى هو في الشارع. يأخذ لجام حصانها وهي تتجه إلى الداخل.

السلالم ضيقة وترتجف ساقاها وهي ترتقيها، ربما من الركوب الطويل على ظهر الحصان أو من غرابة الأمر كلِّه، لا تعرف، لكن عليها أن تستند إلى الدَّرابزين.

في الأعلى، تنتظر لحظة، لتلتقط أنفاسها. ثمَّة باب أمامها. لوح خشبي تتخلَّله عُقَد. تمدُّ يدها وتطرقه. تناديه باسمه. تنادي مرة أخرى.

لا شيء. لا رد. تلتفت لتنظر أسفل السلالم وتكاد تهبطها. لعلَّها لا ترغب في رؤية ما يقبع وراء هذا الباب. أيمكن أن تكون هناك إشارات إلى حياته الأخرى، إلى نسائه الأخريات؟ قد تكون هناك أشياء لا ترغب في معرفتها.

تعود، ترفع المزلاج وتدخل. للغرفة سقف منخفض مائل إلى الداخل من جميع الزوايا. ثمَّة سرير منخفض، مدفوع إلى الجدار، بساط صغير، خزانة. تتبيَّن قبعة تُركِت على صندوق خشبي، السترة ملقاة على السرير. تحت ضوء النافذة منضدة مربَّعة، بمقعد مدفوع تحتها. صندوق المكتب فوق المنضدة مفتوح ويمكنها أن ترى حافظة أقلام، ودواة، ومِطْوَاة. مجموعة من رِيَش الكتابة صُفَّت إلى جانب ثلاثة كتب أو أربعة، غلَّفها بيديه. تتبيَّن العُقَدَ والخياطة التي يفضِّلها. ثمَّة ورقة وحيدة أمام المقعد.

لا تعرف ما كانت تتوقَّع، لكنه ليس هذا: هذا التَّقَشُّف، هذه البساطة. كأنها صومعة راهب، مكتب عالِم. ثمَّة إحساس قوي يوحي إليها بأن لا أحد آخر يأتي إلى هنا أبدًا، لا أحد آخر يرى هذه الغرفة أبدًا. كيف يمكن أن يعيش هنا الرجل الذي يملك أكبر بيت في ستراتفرد إلى جانب العديد من الأراضي؟

تلمس آغنس السترة، الوسادة على السرير. تدور حوالي الغرفة لتستوعب الأمر كلَّه. تسير نحو المنضدة وتنحني على الورقة، والدم يضج في رأسها. في

الأعلى، ترى الكلمات:

عزيزتي،

تكاد تتراجع، كأنَّ شيئًا حرقها، ثم ترى في السطر التالي:

آغنس

لا شيء آخر، كلمتان فقط، ثم فراغ.

ماذا كان سيكتب إليها؟ تضغط بأصابعها المساحة الفارغة في الصفحة، كأنها تحاول اكتشاف ما كان يمكن أن يقوله، لو أمكنه ذلك. تتحسَّس سطح الورقة المحبَّب، خشب المنضدة الذي أدفأته الشمس، تمرِّر إبهامها على الحروف التي تشكِّل اسمها، مستشعرة سِنَّ الريشة الدقيق.

يربكها نداء، صياح. تنتصب واقفة، رافعة يدها عن الصفحة. إنه بارثولوميو، يصيح باسمها.

تسير في الغرفة، تخرج من الباب، وتهبط السلالم. شقيقها ينتظرها أمام الباب المفتوح. يقول إنَّ المرأة التي تسكن البيت الواقع على الجانب الآخر من الشارع قد أخبرته بأنهما لن يجدا زوج آغنس في البيت، وبأنه لن يعود قبل هبوط الليل.

تنظر آغنس إلى المرأة التي ما زالت متكئة على إطار الباب. تهزُّ رأسها لآغنس. «لن تجديه هنا، أقول لك. ابحثي عنه في المسرح إذا أردته.» تشير بيدها. «في الجانب الآخر من النهر. هنالك. هناك سيكون.»

تتوارى داخل بيتها وتصفق الباب.

تنظر آغنس وبارثولوميو أحدهما إلى الآخر لحظةً. ثم يذهب بارثولوميو لجلب الحصانين.

الجارة التي كانت واقفة عند مدخل الباب على صواب: إنه، مثلما توقَّعت، في المسرح.

يقف في حجرة الملابس، خلف منصة الموسيقيين مباشرة، في فجوة صغيرة تفتح على المسرح كلِّه. يعرف الممثلون الآخرون عادته هذه ولا يحفظون أزياءهم وأدواتهم هناك أبدًا، لا يشغلون المساحة المحيطة بتلك النافذة أبدًا.

يعتقدون أنه يقف هناك ليراقب الناس وهم يتوافدون. يحسبون أنه يحب تقييم عدد القادمين، كيف سيكون عدد الجمهور، كم الإيراد.

لكنَّ السبب ليس هذا. بالنسبة إليه، هذا أفضل مكان يكون فيه قبل بداية عرض ما: خشبة المسرح تحته، الجمهور يملأ الفجوة الدائرية في تقاطُر مستمر، والممثلون الآخرون خلفه يتحوَّلون من رجال إلى عفاريت أو أمراء أو جنود أو نساء أو وحوش. إنه المكان الوحيد الذي يكون فيه وحيدًا في حشد كهذا. يشعر كأنه عصفور فوق الأرض، لا يستقر إلا في الهواء. إنه ليس في هذا المكان بل فوقه، منفصل عنه، يراقبه. يذكِّره بالعوسق الذي اعتادت زوجته تربيته، وبالطريقة التي يبقي فيها نفسه في التيار العالي، فوق قمم الأشجار، منبسط الجناحين، ناظرًا إلى الأسفل إلى كل ما يحيط به.

ينتظر، وكلتا يديه تمسكان بعتبة الباب العلوية. خلفه، بعيدًا تحته، يتجمَّع الناس. يستطيع سماع صياحهم، غمغمتهم، صراخهم، تحياتهم، طلبهم المكسَّرات أو الحلوى، جدالهم الذي يتشكَّل سريعًا ثم يتلاشى.

من ورائه يأتي صوت اصطدام، سِباب، انفجار ضحك. أحدهم يتعثَّر بقدمي شخص آخر. ثمَّة مزحة بذيئة عن سقوط، عن بَكَارة. مزيد من

الضحك. شخص آخر يأتي صاعدًا السلالم، سائلًا، هل رأى أحد سيفي، لقد أضعت سيفي، أي ابن عاهرة فيكم أخذه؟

عمَّا قريب سيحتاج إلى أن ينضوَ ثيابه عنه، أن يتجرَّد من ثياب الحياة اليومية، والشارع، والعادة، وأن يرتدي زِيَّه. سيحتاج إلى أن يواجه صورته في مرآة ويحيلها شيئًا آخر. سيأخذ معجون طباشير وجير ويمدُّه على خدَّيه، وأنفه، ولحيته. فحمٌ لتغميق محجري العينين والحاجبين. درعٌ يطوِّق صدره، خوذة تثبَّت على رأسه، ملاءة توضع حول كتفيه. ثم سينتظر، سيصغي، متتبِّعًا السطور إلى أن يسمع إشارته، ثم سيخرج إلى الضوء، ليسكن هيئة شخص آخر، سيجذب الهواء إلى صدره، سيقول كلماته.

لا يعرف، وهو واقف هناك، إذا كانت هذه المسرحية الجديدة جيدة أم ليست كذلك. في بعض الأحايين، عندما يصغي إلى فرقته مردِّدةً السطور، يحسب أنه اقترب مما يريد أن تبدو عليه المسرحية، وفي أحيان أخرى، يشعر بأنه أخطأ الهدف تمامًا. إنها مسرحية جيدة، إنها سيئة، إنها في مكان ما بين هذا وذاك. أنَّى للمرء أن يعرف؟ كل ما يمكنه فعله هو أن يكتب كلمات على صفحة -أسابيع وأسابيع، هذا كل ما كان يفعله، لا يكاد يغادر غرفته، لا يكاد يأكل، لا يكلم أحدًا آخر أبدًا- ويأمل أن يصيب بعضُ هذه السِّهام هدفَه. المسرحية، كاملة تملأ رأسه. تتزن هناك، كطبق ممتلئ على طرف إصبع. تتحرَّك فيه -هذه المسرحية أكثر من أية مسرحية أخرى كتبها- كالدَّم في عروقه.

يلقي النهرُ شباك ضبابه الواهنة. يمكنه أن يشمَّ رائحة النهر في النسيم، أبخرته الرطبة والمثقلة برائحة العشب تندفع نحوه.

لعلَّ السبب هو هذا الضباب، هواء النهر الثقيل هذا، لا يدري، لكن هذا اليوم يشعره بالضيق. يملأه قلق ما، توجُّس ما، كأن شيئًا آت إليه. أهو

العرض؟ هل يشعر بأن خطأ ما سيعتريه؟ يعبس، يفكِّر مستعيدًا في رأسه لحظات يشعر فيها بأنه لم يتدرَّب عليها جيدًا أو بأنها سيئة الإعداد. ليس هناك لحظات كهذه. إنهم مستعدون وينتظرون. يعرف هذا لأنه هو نفسه من دفعهم إلى الأمر، مرارًا وتكرارًا.

ما هو إذًا؟ لماذا يساوره هذا الشعور بأن شيئًا ما يدنو منه، بأن هناك نوعًا من تصفية حساب في انتظاره، ومن ثمَّ عليه التَّلفُّت باستمرار؟

يرتعش، على الرغم من الحرارة وضيق الغرفة. يمرِّر يديه خلال شعره، يشدُّ قرطي أذنيه المدوَّرين.

فجأةً يقرِّر أنه سيعود الليلة إلى غرفته مباشرة. لن يذهب لاحتساء الشراب مع رفاقه. سيذهب مباشرة إلى مسكنه. سيوقد شمعة، سيبري ريشة. سيرفض الذهاب إلى حانة مع أعضاء فرقته. سيكون حازمًا. سيبعد أيديهم عن يديه، إذا ما حاولوا سحبه. سيعبر النهر، سيعود إلى بِشوبز غَيت ويكتب إلى زوجته، مثلما كان يحاول منذ أمد طويل. لن يتجنَّب الأمر الذي بين يديه. سيخبرها بهذه المسرحية. سيخبرها بالأمر كلِّه. الليلة. إنه على يقين من ذلك.

في منتصف الطريق على الجسر تفكِّر آغنس في أنها لا تستطيع الاستمرار. ليست على يقين مما توقَّعت، ربما قوسًا خشبيًّا صغيرًا، فوق قليل من الماء، لكنه لم يكن شيئًا كهذا. جسر لندن بلادٌ وحده، بلادٌ مؤذية، متعسِّفة. ثمَّة بيوت ومتاجر على كلا الجانبين، بعضها فوق النهر ناتئ عن الجسر، هذه الأبنية تلقي بظلالها على الجسر، فيبدو في بعض الأحيان مظلمًا تمامًا، كأن

الأبنية غارقة في الليل. يظهر النهر لهما كوميض بين الأبنية، وهو أوسع، وأعمق، وأخطر مما تخيَّلت. يجري تحت أقدامهما، تحت حوافر الخيل، وحتى الآن، وهما يشقَّان طريقهما بين الحشد.

عند كل عتبة ومتجر، يصيح بهما الباعة وينادون، راكضين إليهما بقماش أو خبز أو خرز أو أكارع خنازير مشويَّة. بإيماءة فظة يسحب بارثولوميو لجام فرسه بعيدًا عنهم. وجهه، عندما تنظر إليه آغنس، يبدو خاليًا من أي تعبير كحاله دومًا، لكنها تشعر بأنه منزعج من هذا كلِّه مثلها.

تغمغم له وهما يمرَّان بما يبدو كومة غائط، «ربما كان يجدر بنا أن نأخذ قاربًا.»

ينخر بارثولوميو. «ربما، لكننا بعد ذلك قد...» يتوقَّف فجأةً، فتختفي الكلمات قبل أن يتمكَّن من قولها. «لا تنظري»، يقول ناظرًا إلى الأعلى، ثم مرة أخرى إليها.

تتَّسع عينا آغنس، مستمرةً في النظر إليه. تهمس: «ما الخطب؟ أهو؟ هل رأيته؟ أهو مع شخص ما؟»

يقول بارثولوميو، مختلسًا نظرة أخرى إلى ذلك الشيء أيًّا كان. «لا، إنه... لا تهتمي. فقط لا تنظري.»

لا تستطيع آغنس تمالك نفسها. تلتفت وهي على سرج حصانها وترى: سُحُبًا رمادية متدلية، تخترقها أعمدة طويلة ترتعش في النسيم، على قممها أشياء تبدو لحظةً مثل أحجار أو رؤوس لِفْت. تنظر إليها بطرف عينها. إنها سوداء، شعثاء، متكتِّلة على نحوٍ غريب. تبدو في نظر آغنس كأنها ترسل عويلًا واهيًا مخنوقًا كعويل حيوانات عالقة في مصايد. ما عساها تكون؟ ثم ترى أن أقربها إليها له صفُّ أسنان. تدرك أن لها أفواهًا ومناخر ومحاجر

محفورة حيث كانت هناك عيون ذات مرة.[1]

تفلت صيحة، تلتفت إلى شقيقها، ويدها على فمها.

يهزُّ بارثولوميو كتفيه. «قلت لك لا تنظري.»

عندما يبلغان الجانب الآخر من النهر تميل آغنس على خُرْجِها وتسحب إعلان المسرحية الذي أعطتها إيَّاه جوان.

ذلك، مرة أخرى، اسم ابنها والحروف السوداء، مرتَّبة في تسلسلها، صادمة كما رأتها في المرة الأولى.

تبعد الورقة عن نظرها وتمسكها بقوة، وتلوِّح بها للشخص التالي الذي يقترب من خاصرة حصانها. يشير الشخص -رجل بلحية مدببة ناعمة، ورداء مُلْقًى على كتفيه- إلى شارع جانبي. اذهبا في هذا الاتجاه، يقول، ثم انعطفا يسارًا، ثم يسارًا مرة أخرى، وستريان المسرح.

تعرف المسرح من وصف زوجها: مكان خشبي دائري إلى جوار النهر. تنزل عن ظهر حصانها، فيمسك بارثولوميو باللجام، تشعر كأن ساقيها فقدتا عظامهما في مكان ما في الطريق. يبدو المشهد حولها -الشارع، ضفة النهر، الحصانان، المسرح- كأنه يتمايل ويترجَّح، يدخل مجال تركيزها ويخرج منه. بارثولوميو يتكلَّم. يقول لها إنه سينتظرها هنا، لن يتحرك من هذه البقعة حتى تعود. أتفهم؟ وجهه قريب جدًّا من وجهها. يبدو أنه ينتظر ردًّا ما، ولذا

---

(1) تقصد الكاتبة رؤوس الخونة والمتمردين الذين كانوا في القرن السادس عشر يُعْدَمون عند مدخل جسر لندن وتُقطَع رؤوسهم وتُطْلَى بالقطران ثم تُعلَّق على حراب وتُعْرَض في طرف الجسر الجنوبي. (م)

تومئ آغنس برأسها. تخطو بعيدًا عنه، داخل الأبواب الكبيرة، تدفع بنسًا.

عندما تدخل من الباب الرئيس، يستقبلها مشهد من الوجوه في صفٍّ تلو آخر، مئات منها، كلُّها يتكلَّم ويصيح. إنها في مساحة مطوَّقة طويلة الجانبين تعجُّ بالناس. ثمَّة منصة تنتأ في وجوه الناس المحتشدين، وفوقهم جميعًا سقف من السماء، دائرة تحوي غيومًا سريعة الحركة، بأشكال طيور، تندفع من طرف إلى آخر.

تندس آغنس بين الأكتاف والأجساد، رجالًا ونساء، أحدهم يحمل دجاجة تحت ذراعه، امرأة تحمل على صدرها طفلًا نصف مغطّى بشال، رجل يبيع فطائر على طبق. تتحرك منحرفة، تخطو بين الناس، إلى أن تقترب قدر المستطاع من المنصة.

من جميع الجهات، تتدافع أجساد ومرافق وأذرع. المزيد والمزيد من الناس يتدفَّقون من الأبواب. بعضهم على الأرض يشير إلى بعضهم الآخر في الشُّرَف العليا ويصيح به. يهيج الحشد ويموج في هذا الاتجاه، ثم في ذاك الاتجاه، تُدْفَع آغنس إلى الوراء وإلى الأمام، لكنها تثبت في مكانها، ويبدو أن الحيلة تكمن في الحركة مع التيار بدلًا من مقاومته. تفكِّر في أنَّ الأمر شبيه بالوقوف في مجرى نهر: عليك أن تنحني مع جريانه، لا أن تقاومه. جمع من الناس في أعلى صفٍّ من المقاعد يولي حبلًا طويلًا يُنْزَل أهميةً أكبر من اللازم. صياحٌ وصفيرٌ وضحك. الرجل بائع الفطائر يربط بطرف الحبل سلَّة مثقلة بالفطائر ويبدأ الناس في الأعلى بسحبها إليهم. يقفز عدد منهم نحو الحشد للإمساك بها، على نحوٍ عابث وربما بدافع الجوع، فيسدِّد رجل الفطيرة إلى كل منهم ضربة سريعة ساحقة. عملة معدنية يلقيها الذين في الأعلى فيندفع بائع الفطائر لالتقاطها. أحد الرجال الذين ضربهم توًّا يصل إليها قبله فيمسك به بائع الفطائر من خناقه، لكن الرجل يوجِّه لكمة إلى ذقنه. ينزلان بحدَّة إلى

الأسفل فيبتلعهما الحشد، وسط مزيد من الهتاف والضجيج.

المرأة التي إلى جانب آغنس تهز كتفيها وتكشِّر لها عن أسنان سوداء مُعْوَجَّة. تحمل صبيًّا صغيرًا على كتفيها. يقبض الطفل شعر أمِّه بإحدى يديه، وبالأخرى يحمل ما يبدو لآغنس عظمة ساق ضأن، يعضُّها بشهيَّة لا مبالية وعديمة الحيوية. ينظر إليها بعينين خاليتين من أي تعبير والعظمة بين أسنانه الصغيرة الحادة.

ضوضاء شديدة مفاجئة تجعل آغنس تقفز. أبواق تدوِّي من مكان ما. يشتد لغط الحشد ويتَّحد في هتاف أجش. يرفع الناس أذرعهم، تصفيق غير منتظم، هتاف كثير، صفير حاد. من وراء آغنس، تأتي جلبة فظة، سِباب، صياح يحثُّ على الإسراع، حبًّا في الرَّبّ.

الأبواق تكرِّر لحنها، بلازمة دائرية، النغمة الأخيرة ممتدة وثابتة. صمتٌ يخيِّم على الحشد، ويصعد رجلان إلى الخشبة.

تطرف عينا آغنس. الحقيقةُ أنها جاءت لتشاهد مسرحيةً انحرفت عنها بعض الشيء. لكن ها هي ذي، في مسرح زوجها، وها هي ذي المسرحية.

يقف ممثلان على منصة خشبية ويتبادلان الحديث، كأن لا أحد يشاهدهما، كأنهما وحدهما تمامًا.

تستمع إليهما، تصغي بانتباه. إنهما منفعلان، متوتران، ينظران حولهما، ممسكَين بسيفيهما. من هناك؟ يصيح أحدهما بالآخر. أظهِر نفسك، يردُّ الآخر صائحًا. يصل مزيد من الممثلين إلى المنصة، جميعهم متوتر، جميعهم متحفِّز.

لا يسعها إلا أن تلاحظ أنَّ الحشد حولها ساكن تمامًا. لا أحد يتكلَّم. لا أحد يتحرَّك. الجميع مركِّز تركيزًا تامًّا على هؤلاء الممثلين وما يقولونه.

ولَّى كل ذلك الصخب والصفير والشجار ومضغ الفطائر وحلَّ محلَّه جمع صامت مدهوش. كأنَّ ساحرًا أو مشعوذًا لوَّح بعصاه فوق المكان وأحالهم جميعًا أحجارًا.

أمَّا الآن وقد أصبحت هنا والمسرحية قد بدأت، فإن الإحساس بالغرابة والانفصال الذي ساورها في أثناء الرحلة وحينما وقفت في مسكنه يزول عنها، كأنها تغتسل من أدران. تشعر بأنها على أهبة الاستعداد، تشعر بالغضب. هيَّا إذًا، تفكِّر. أرِني ما فعلت.

يتحادث الممثلون على الخشبة. يومئون ويشيرون ويتبخترون جيئة وذهابًا ممسكين بأسلحتهم. يردِّد أحدهم سطرًا، ثم يتكلَّم شخص آخر، ثم يعود دور الأول. تشاهد، حائرة. توقَّعت شيئًا مألوفًا، شيئًا عن ابنها. عن أي شيء آخر ستكون المسرحية؟ ما هذه إلا عن أناس في قلعة، في برج، يتجادلون في لا شيء.

يبدو أنها الوحيدة التي أُعفِيت من رُقْيَة المشعوذ. لم يمسَّ السحر. تشعر برغبتها في المضايقة بالأسئلة أو في السخرية. كتب زوجها هذه الكلمات، هذه الحوارات، لكن ما علاقتها بابنهما؟ تريد أن تصرخ بالأشخاص الذين على الخشبة. أنت، ستقول، وأنت: كلكم لا شيء، هذا لا شيء، مقارنة بما كانه هو. إياكم أن تجرؤوا على نطق اسمه.

يستولي عليها إرهاق شديد. تحس بألم في ساقيها ووركيها من الساعات الطويلة التي أنفقتها على صهوة الحصان، من انعدام النوم، من الضوء الذي يبدو أنه يلسع عينيها. لا تملك القوة ولا الرغبة في تحمُّل ضغط الأجساد من حولها، هذه الخطب الطويلة، هذا الفيض من الكلمات. لن تقف هنا وقتًا أطول. ستنصرف ولن يكون زوجها بأحكم منها.

فجأةً، يقول الممثل على الخشبة شيئًا عن مشهد مروِّع، فيتسلَّل إدراك ما إليها. ما يبحث عنه هؤلاء الرجال ويناقشونه وينتظرونه شبح، طيف. يريدونه ولكنهم يخشونه في الوقت نفسه.

تتمالك نفسها، مراقبةً حركاتهم، مصغيةً إلى كلماتهم. تطوي ذراعيها حتى لا يمسها أو يحتك بها أحد من حولها فيشتِّت انتباهها. تحتاج إلى أن تركِّز. لا تريد أن يفوتها صوت.

عندما يظهر الشبح، يسري شهيق جماعي بين الجمهور. لا تجفل آغنس. تحدِّق إلى الشبح. يلبس درعًا، مقدَّم الخوذة يغطي الوجه، ونصف جسده يخفيه كفن. لا تصغي إلى صخب الرجال الخائفين في برج القلعة وهذرهم. تراقبه بجفون ضيقة.

عينها على الشبح: الطول، حركة الذراع تلك، الكفُّ الممدودة بانحناء الأصابع على نحو معيَّن، ميل الكتف ذاك. عندما يرفع مقدَّم الخوذة، لا يعتريها دَهَش أو اعتراف، بل شيء من تأكيد أجوف. وجهه ملوَّن بلون أبيض مروِّع، لحيته رمادية، يتدرَّع درعًا ويعتمر خوذة كأنه سيخوض معركة، لكنها لا تنخدع لحظةً. تعلم علم اليقين مَن هناك تحت ذلك الزِّيّ، ذلك القناع.

تفكِّر: حسنًا، والآن. ها أنت ذا. ما الذي أنت بصدده؟

كأن أفكارها ترسل شعاعًا إليه، من عقلها إلى عقله، عبر الحشد -الذي يهتف الآن، صائحًا مهدِّدًا الرجال الذين على البرج- فيلتفت رأس الشبح. الخوذة مفتوحة والعينان تحدِّقان فوق رؤوس الجمهور.

أجل، تقول له آغنس، ها أنا ذي. وماذا الآن؟

ينصرف الشبح. يبدو أنه لم يعثر على ما كان يبحث عنه. تسري غمغمة

خائبة الأمل بين الجمهور. الرجال الذين على الخشبة يستأنفون الحديث. تحرِّك آغنس قدميها، رافعةً نفسها على أطراف أصابعها، متسائلةً متى سيعود الشبح. تريد أن تبقى ناظرة إليه، تريده أن يعود، تريده أن يوضِّح نفسه.

عندما تمدُّ رأسها لتتجاوز رأس الرجل الذي أمامها وكتفيه تدوس عن غير قصد أصابعَ قدم المرأة التي إلى جانبها. تطلق المرأة صياحًا خافتًا وتترنَّح، ويسقِط الطفل الذي على كتفيها عظمة الضأن. تعتذر آغنس ممسكةً بمرفق المرأة لتثبت، وعندما تنحني لاستعادة العظمة تسمع كلمة من الخشبة تجعلها تنتصب واقفة فتنزلق العظمة من بين أصابعها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هاملت، قال أحد الممثلين.

سمعت الاسم، واضحًا ورنَّانًا مثل رنين جرس بعيد.

ذاك هو مرة أخرى: هاملت.

تعضُّ آغنس شفتها حتى تتذوَّق طعم دمها. تضم يديها معًا.

إنهم يتلفظون بالاسم، هؤلاء الرجال هناك على الخشبة، يمرِّرونه بينهم، مثل عملة رمزية في لعبة. هاملت، هاملت، هاملت. يبدو أن الاسم يعود إلى الشبح، الرجل الميت، الجسد الراحل.

أن تسمع ذلك الاسم خارجًا من أفواه أناس لا تعرفهم ولن تعرفهم أبدًا، وأن يُستخدم لملك عجوز ميت، فإنه أمر لا تستطيع آغنس فهمه. لماذا يفعل زوجها هذا؟ لماذا يتظاهر بأنَّ الاسم لا يعني له شيئًا، بأنه حروف مجموعة فحسب؟ كيف أمكنه سرقة هذا الاسم، ثم تجريده من كل ما يحويه وسلخه عنه، طارحًا الحياة التي تضمَّنها ذات يوم؟ كيف أمكنه حمل قلمه وكتابته على صفحة، قاطعًا صلته بابنهما؟ لا معنى لهذا. إنه أمر يحِز قلبها،

ينزع أحشاءها، يهدِّد بفصلها عن نفسها، عنه، عن كل شيء كان لهما، عن كل شيء كانا عليه. تفكِّر في تلك الرؤوس المسكينة، في أسنانها البادية للعيان، وأعناقها الهشة، وملامحها المتجمدة من الذعر، على الجسر، فيبدو الأمر كأنها واحدة منها. يمكنها أن تحسَّ بارتعاش النهر، بالرؤوس المقطوعة تترجَّح وتميل، بحسرتها البكماء والمهدورة.

ستنصرف. ستغادر هذا المكان. ستجد بارثولوميو، ستمتطي ذلك الحصان المنهك، وتعود إلى ستراتفرد وتكتب رسالة إلى زوجها قائلة: لا تعد إلى البيت، لا تعد أبدًا، ابق في لندن، انتهينا منك. رأت كل ما تحتاج إلى رؤيته. إنه تمامًا مثلما خشيت: أخذ أقدس الأسماء وأرقَّها وزجَّ به في خليط من الكلمات في عرض مسرحي فارغ.

خالت أنَّ مجيئها إلى هنا، مشاهدتها هذا، قد يتيح لها النظر إلى أعماق قلب زوجها. قد يمنحها طريقًا للعودة إليه. حسبت أنَّ الاسم الذي على إعلان المسرحية قد يكون وسيلة له لنقل شيء إليها. قد تكون إشارة من نوع ما، علامة، يدًا ممدودة، استحضارًا. في طريقها إلى لندن، فكَّرت في أنها ربما ستفهم الآن ابتعاده، صمته منذ وفاة ابنهما. يخامرها الإحساس الآن بأنه لا شيء هناك في قلب زوجها لتفهمه. إنه مليء بهذا فحسب: منصة خشبية، ممثلين يتكلَّمون على نحوٍ خطابي، كلام محفوظ، حشود مشغوفة، حمقى يرتدون أزياء. كانت تلاحق وهمًا، سرابًا، طوال هذا الوقت.

تلملم ثوبها، تشدُّ شالها حولها، وإذ تستعد لتولي زوجها وفرقته ظهرها، يسترعي انتباهها صبي يسير على الخشبة. صبي، تفكِّر وهي تفك شالها وتعيد ربطه. ثم، لا، إنه رجل. ثم، لا، بل فتى، وسط بين رجل وصبي.

يبدو الأمر كأنَّ سوطًا فُرْقِع بقوة على الجلد. شعر الصبي أصفر ينتصب

أعلى جبهته، مشيتة وثَّابة متعثِّرة، طريقة رفعه رأسه بَرِمة. تتدلَّى يدا آغنس. ينزلق الشال عن كتفيها لكنها لا تنحني لالتقاطه. تثبِّت نظرتها في هذا الصبي، تحدِّق وتحدِّق كأنها لن تبعد نظرها عنه أبدًا. تشعر بأن الهواء يفرغ من صدرها، والدم يتجمَّد في عروقها. قرص السماء فوقها يبدو كأنه يطبق على رأسها وعلى رؤوس الجميع في الوقت نفسه مثل غطاء مرجل. تتجمَّد، ثم تشعر بحرارة شديدة، يجب أن تغادر، ستقف هنا إلى الأبد في هذه البقعة.

عندما يخاطبه الملك قائلًا: «هاملت، يا بُنَي»، لا تفاجئها الكلمات. قطعًا إنه هو. قطعًا. من غيره سيكون؟ بحثت عن ابنها في كل مكان، بلا توقف، في هذه السنوات الأربع السالفة، وها هو ذا.

إنه هو. ليس هو. إنه هو. ليس هو. تترجَّح الفكرة مثل مطرقة داخلها. ابنها، هامنتها أو هاملتها، ميِّت، مدفون في فناء الكنيسة. مات عندما كان طفلًا. إنه الآن ليس إلا عظامًا عارية بيضاء في قبر. ولكن هذا هو، قد شبَّ عن الطوق ويوشك أن يصبح رجلًا، على الخشبة، مثلما سيكون الآن، لو كان حيًّا، يمشي مشية ابنها، يتكلَّم بصوت ابنها، يقول كلمات كتبها له أبو ابنها.

تضغط جانبي رأسها بيديها. هذا كثير جدًّا: ليست على يقين من قدرتها على احتماله، على تفسيره لنفسها. هذا كثير جدًّا. لحظةً تفكِّر في أنها قد تسقط، قد تتلاشى في بحر الرؤوس والأجساد هذا، لترقد على التربة المرصوصة، لتدوسها مئات الأقدام.

إلا أنَّ الشبح يعود بعد ذلك ويكلِّمه هاملت الصبي: إنه مذعور، غاضب، ذاهل، وتمتلئ آغنس برغبة قديمة مألوفة كماء يتدفَّق في قاع نهر جاف. تودُّ أن تضع يديها على ذلك الصبي، تودُّ أن تضمَّه بين ذراعيها، أن تعزِّيه وتواسيه، ستفعل ذلك حتى إذا كان هذا آخر ما تفعله.

هاملت الشاب على الخشبة يصغي إلى هاملت العجوز، الشبح، وهو يروي قصة موته بسُمٍّ تغلغل في جسده «كزئبق»، والشاب يصغي مثلما يصغي ابنها هامنت. إمالة الرأس نفسها وانحناؤه نفسه، حركة ضغط الفم بأحد البراجم نفسها عند سماعه شيئًا لا يفقهه من فوره. كيف يمكن ذلك؟ لا تفهمه، لا تفهم أي شيء منه. كيف يعرف هذا الممثلُ، هذا الشابُّ، أن يكون ابنَها هامنت وهو لم يره ولم يلتقِه قطُّ؟

تغشاها المعرفة كغشاء مطر شفيف، وهي تتحرَّك نحو الممثلين شاقَّةً طريقها بين الحشود المزدحمة: نجح زوجها في انتهاج نهجٍ خيميائي. وجد هذا الصبي، وجَّهه، علَّمه كيف يتكلَّم، كيف يقف، كيف يرفع ذقنه، على هذا النحو وذاك. درَّبه ولقَّنه وأعدَّه. كتب كلمات له ليقولها ويسمعها. تحاول أن تتخيَّل هذا التدريب، كيف درَّبه زوجها بدقة شديدة، كيف بدا الأمر عندما أتقن الصبي ذلك، عندما أتقن المشية في البداية، التفات الرأس المفجع ذاك. هل كان على زوجها أن يقول: تيقَّنْ من فكِّ أزرار سترتك، واترك رباط العنق متدلِّيًا، وينبغي أن يكون حذاؤك متآكلًا، والآن بلِّل شعرك كي ينتصب، هكذا تمامًا؟

هنا على هذه الخشبة، هاملت شخصان؛ الشاب حيًّا، والأب ميِّتًا. إنه حيٌّ وميِّتٌ في الوقت نفسه. أعاده زوجها إلى الحياة على النحو الوحيد الذي كان بمستطاعه. وإذ يتكلَّم الشبح، ترى أنَّ زوجها بكتابته هذا، باتخاذه دور الشبح قد تبادل وابنه الأماكن. أخذ موتَ ابنه وجعله موتَه هو، وضع نفسه بين براثن الموت، باعثًا الصبي إلى الحياة ليحلَّ مكانه. «مروِّع! مروِّع! مروِّع!» يغمغم صوت زوجها الشبيه بصوت غول مستعيدًا عذاب موته. ترى آغنس أنه فعل ما يتمنى أيُّ أب أن يفعله، أن يستبدل معاناته بمعاناة طفله، أن يحلَّ محلَّه، أن يضحِّي بنفسه حتى يعيش الصبي.

هذا كلُّه ستقوله لزوجها في ما بعد، بعد أن تنتهي المسرحية، بعد أن يخيِّم الصمت الأخير، بعد أن يهبَّ الميت ليتخذ مكانه في صف الممثلين على طرف الخشبة. بعد أن ينحني زوجها والصبي شابكَي الأيدي مرارًا مواجهَين عاصفة التصفيق. بعد أن تُهْجَر الخشبة ولا تعود برجًا ولا مقبرة ولا قلعة. بعد أن يأتي ليجدها، شاقًّا طريقه بين الحشود، وجهه ما زال مبقَّعًا بآثار المعجون. بعد أن يمسك بيدها ويضمَّها إليه فيضغط جسدُها أبازيمَ درعه الجلدي. بعد أن يقفا معًا في دائرة المسرح المفتوحة حتى تصبح خالية كالسماء فوقها.

أمَّا الآن فهي تقف في مقدمة الحشد مباشرة، عند طرف الخشبة، تمسك حافتها الخشبية بكلتا يديها. على بعد ذراع أو ذراعين ربما، يقف هاملت، هاملتُها، مثلما كان يمكن أن يكون لو كان حيًّا، ويقف الشبح الذي بيدي زوجها، بلحية زوجها، الذي يتكلَّم بصوت زوجها.

تمدُّ يدها، كأنها تعترف بهما، كأنها تستشعر الهواء بينهم هم الثلاثة، كأنها تودُّ اختراق الحدود بين الجمهور والممثلين، بين الحياة الواقعية والمسرحية.

مستعدًّا للخروج من المشهد، يدير الشبح وجهه نحوها. ينظر مباشرة إليها، ملاقيًا نظرتها، ويقول كلماته الأخيرة:

«تذكَّرني.»

ملحوظة الكاتبة

هذا عملٌ تخييلي، يستلهم الحياةَ القصيرةَ لصبي مات في ستراتفرد، في ووركشر، في صيف عام 1596. لقد حاولتُ، حيثما أمكن، التزامَ الحقائق التاريخية الشحيحة المعروفة عن هامنت الحقيقي وعائلته، لكنني غيَّرت أو حذفت بعض التفاصيل، الأسماء، على وجه الخصوص.

يعرف معظم الناس أنَّ اسم أمِّه «آن»، لكنَّ أباها ريتشرد هاثاوي سمَّاها في وصيته «آغنس»، وقد عزمتُ على أن أحذوَ حذوَه. يعتقد بعضهم أنَّ جوان هاثاوي كانت والدةَ آغنس، في حين يجادل آخرون بأنها كانت زوجةَ أبيها، ولا توجد أدلة كافية لدعم أيٍّ من النظريتين أو دحضهما.

لم تكن عمَّةُ هامنت الوحيدة الباقية على قيد الحياة تُدعى إليزا، بل جوان (وكذلك شقيقتها الأخرى التي ماتت قبلها)، وقد منحتُ نفسي حُرِّيَّة تغيير الاسم لأنَّ تكرار الأسماء، على الرغم من شيوعه في سجلات الأبرشية آنذاك، قد يُربك قُرَّاء رواية.

كان هناك مرشدون في أمانة «شكسبيرز بيرث بليس ترست Shakespeare's Birthplace Trust» أخبروني بأنَّ هامنت وجودث وسوزانا نشأوا في بيت جدَّيهِم في شارع هِنلي، وبدا بعضهم على يقين من أنهم قد عاشوا في البيت الصغير المجاور. في كلتا الحالين، كانت العائلتان

مرتبطتين ارتباطًا وثيقًا، لكنني آثرتُ الحالَ الثانية.

وأخيرًا، لا يُعرَف سببُ وفاة هامنت شكسبير: دفنه مقيَّد في السجلات وليس سبب وفاته. الموت الأسود أو «الوباء»، كما عُرِف في أواخر القرن السادس عشر، لم يأتِ شكسبير على ذكره ولا مرةً واحدة في أيٍّ من مسرحياته أو قصائده. طالما تعجَّبت من هذا الغياب ومن أهميته الممكنة، وما هذه الرواية إلَّا نتاج تأملاتي المتواضعة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هامنت

"هامنت" رواية مؤثرة تستقي مادتها من قصة غير مطروقة في حياة شكسبير في القرن السادس عشر. قصة موت ابنه هامنت في الحادية عشرة من عمره، وعلى إثره كتب رائعته المأسوية "هاملت".

تبدأ لغة السرد بسيطة وقصيرة الجمل كأنها تُحكى لطفل، ثم تتعقد مع تعقيد الأحداث وتصاعدها وتشابك علاقات الشخصيات بعضها ببعض. اللغة شائقة وشفافة أشبه بحلم يُنسج، وهي قريبة إلى روح عصرنا لا تنغمس في معجم مفردات قديمة من القرن السادس عشر إلا عند الضرورة.

"علاقة أوفارل باللغة علاقة لحنية. ثمة إيقاع شعري في كتابتها وغنى في وصفها العالم الطبيعي، إذ يمكننا شمُّ رائحة الجلود المختلفة في معمل صانع القفافيز، وأريج التفاح المستقر في رفوف المخزن الشتوي التي يبعد بعضها عن بعضها الآخر بمقدار عرض إصبع. وإذ يتكشّف الكتاب صفحةً صفحة فإنه يحمل القصة إلى خاتمة مجلّلة بالرفق ومفعمة بالأمل: فحتى أعظم الأحزان، وأشد العلاقات الزوجية تضرُّرًا، وأكثر القلوب انكسارًا، قد تحظى بشيء من العزاء، بشيء من الشفاء."

غيرالدين برُوكس، صحفية، مراجعات الكتب بصحيفة نيويورك تايمز

"تحفة، تستعرض "هامنت" بجلاء حياة الأمومة الشديدة التَّغيُّر في مراحلها العديدة، من ألم الولادة إلى ألم الفقد الذي لا مفر منه. العواطف الجيَّاشة والنثر الغنائي هما ما نتوقعهما من أوفارل."

الإذاعة الوطنية العامة

"هذه الرواية الماضية ببراعة تشريحٌ للحزن. فقط عندما يبدو أن الجزء الثاني سيتحول إلى نهاية مأسوية، تتخذ الرواية منعطفًا تعويضيًا مذهلًا."

الملحق الأدبي بصحيفة التايمز

telegram @soramnqraa

ISBN 978-603-91810-6-4

9 786039 181064

تصميم الغلاف:
أحمد الصباغ

أثر